الجمعية التاريخية
حمص ـ سورية

مجلة
البحث التاريخي

إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق ـ سورية

مجلة

البحث التاريخي

مجلة البحث التاريخي
تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

العدد الثالث ذو الحجة ١٤٠٤هـ ايلول ١٩٨٤م

المدير المسؤول
محمد عبد الصمد الشاط

رئيس التحرير
أسعد خالد الحسين

هيئة التحرير

جميل عازار	عبد الواحد السباعي
سمير عبد الصمد	فيصل شيخاني
عبد الاله نبهان	محمد علي الترك
عبد الحفيظ شما	منذر حمودي

صمم الغلاف الفنان الدكتور عبد المنان شما

عنوان الجمعية:
حمص - الجمعية التاريخية - شارع عبد الحميد الدروبي ٢٦٣٨٠

ملاحظات :

- البحوث والمقالات التي ينشرها الكتّاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .

- ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنية فقط .

- المراسلات باسم المدير المسؤول - حمص - الجمعية التاريخية

مقالات العدد الثالث لمجلة البحث التاريخي

١)ـ شامبليون وحل رموز الكتابة الهيروغليفية ٧

الاستاذ محمود عمر السباعي

٢)ـ مع رواد اليقظة العربية (المناضل محب الدين الخطيب) ٢٥

الدكتورة سهيلة ياسين الريماوي

٣)ـ دور المؤسسات الحموية في حركة النهضة خلال الربع الاول من القرن العشرين ٤٠

الاستاذ عدنان قيطاز

٤)ـ صومعة حمص ٦٧

الاستاذ محمد ماجد الموصلي

٥)ـ اكتشاف مدينة آزو الميتانية ٧٢

الاستاذ محمد الخولي

٦)ـ دراسة في كتاب الحدائق الغناء في اخبار النساء ٨٥

الاستاذة سكينة الشهابي

٧)ـ معركة قادش ٩٩

الدكتور شاكر مطلق

٨)ـ القاضي أبو الوليد الباجي ١١٥

الاستاذ محمد كمال لطفي

٩)ـ اليقظة العربية في سوريا في القرن التاسع عشر ١٢٨

الدكتورة تغريد الهاشمي

١٠)ـ متحف أفاميا ١٤٤

الاستاذ عبد الرزاق زقزوق

- تقـــديم -

بكل سرورنقدم العددالثالث من مجلة البحث التاريخي ضمن اطـــاره الجديدبعدمضي وقت غيرقصيرعلى اصدارالعددالثاني ويعلم اللـه بأن هـــذا التأخرلم تكن دوافعه الاهمال أوعدم الاكتراث لاسمح الله وانماكان لعوامل تفوقطاقاتنا بكثير ، ولامجال لعرضها أوحصرهافي مثل هذ الحيز ،وحسبي في هذه العجالة الاشارةاليها اشارة عاجلة فماذا أقول ؟ هل أتحدث عن ظـروف العمل الصعبة التي يعاني منها اعضاءهيئة التحريرفليس للمجلة متفرغ واحـــد يرعى شؤونها ، أم أتحدث عن الظروف المادية الصعبة التيمرت بها الجمعيـــــة أم عن صعوبة الحصول على البحث التاريخيضمن الظروف المشار اليها ، أيهـــم القارىءالكريم أن يحيط بذلك كلـــه ؟

لا أعتقدذلك ممكنا أومطلوبا الان ، وانماهي اشارة اعتذارلاخوتنـا الكرام ولاقول لهم كلمات قليلة أيضا ، نأمل من الجميع دعم المجهـــــود المتواضع الذي أريدمنه خدمة كاملة لتراث هذه الامة مشيرا بصورة خاصــــة الى الزملاء الكتاب المتعاملين مع الكلمة والحرف آملين أن يزودوا المجلـــة بما آتاهم الله من فضله وسيكون ذلك موضع تقديروشكرمن مختلف الوجوه .

وفي هذا العددمن مجلة البحث التاريخي سيجدالقارىءالكريم الكثيـــــر من المقالات الجديدة والشيقة بقلم اساتذة مختصين لهم خبرة وتعمق فــــي مجال اختصاصهم وهوايا تهم التاريخية فنرجو أن يجدالجميع الفائدة المرجوه .

والله نسأل العون والرشادوهومن وراءالقصد .

المدير المســـؤول

محمدعبد الصمد الشاطـــــر

شامبليون وحل رموز الكتابة الهيروغليفية

الأستاذ محمود عمر السباعي

في منتصف العام (١٧٩٠) كان صاحب مكتبة يدعى (جاك شامبوليون) من مواليد (فيجاك) في مقاطعة غوبين ( ) الفرنسية (١) يسعى لمعالجة امرأته المشلولة التي يئس من شفائها كل الاطباء، فاستعان آخر الامر بساحر يدعى (جاكو) كما يفعل سكان (غوبين) الذين يؤمنون بالخوارق والمعجزات لتمسكهم الشديد بكاثوليكيتهم .

أنام الساحر المريضة على سرير من العشب المحترق ، وسقاها خمرا ساخنة، وأعلن ، مباشرة ، نبوءة أدهشت العائلة :

وهي أن المرأة ستلد صبيا ينال قدرا كبيرا من الشهرة .

وبعد ثلاثة أيام نهضت المرأة المريضة من فراشها ، وفي الساعة الثانية من صباح الثالث والعشرين من كانون الاول عام (١٧٩٠) ولد (جاك فرانسوا شامبوليون) الذي سيحل فيما بعد رموز اللغة الهيروغليفية ، وتحققت النبوءتان : ولادة الصبي، وشهرته فيما بعد ،

ان الطبيب الذي فحص الطفل ، أكد بدهشة ، اصابته بمرض (القرنية الصفراء) (٢) وهي علامة مميزة لدى الشرقيين ، كما كان لون وجه الطفل غامقا بشكل غريب ، وكان يشبه الزيتون ، كما كانت تقاطيع وجهه شرقية بشكل واضح ، وبعد عشرين سنة من ذلك الوقت كان جميع الناس يدعونه (المصري) .

كان (جاك فرانسوا) ابن الثورة ، في ايلول عام (١٧٩٢) أعلنت (فيجاك) الجمهورية وفي نيسان عام (١٧٩٣) بدأ الارهاب ، وكان منزل عائلة (شامبليون) على بعد ثلاثين خطوة من (ساحة الاسلحة) التي اطلق اسمه عليها بعد ذلك (ساحة شامبوليون) حيث زرعت شجرة الحرية .

---

(١) ـ مقاطعة في الجنوب الغربي من فرانسة بين الكتلة المركزية والمحيط الاطلسي .

(٢) ـ مرض ناتج عن سوء التغذية ونقص فيتامين (آ) .

الاصوات الاولى التي لامست أذنيه كانت أغنية (الكارمانيول)١ وبكاء التعساء الذين جاؤا يرجون والده أن يحميهم من غضب الجماهير وكان فيهم كاهن أصبح أول معلم لشومبوليون .

في السنة الخامسة من عمره ، بدأ شامبوليون يمارس حل الرموز لاول مرة في حياته : أي تعلم أن يقرأ وحده تماما : بمقارنة مقطع حفظه غيبا مع نصه ، وفي السابعة من عمره لفظ الكلمة السحرية (مصر) (EGYPTE) في احدى قصص الحان التي قرأها .

لقد كان شامبوليون تلميذا سيئا في مدينة (فيجاك) لذلك فان أخاه الاكبر الذي كان يهتم بالاثار جاء به الى مدينة (غرينوبل) عام (١٨٠١) ليشرف على تربيته ، وعندما بلغ (فرانسوا) الصغير الحادية عشرة من عمره كان يعرف اللغة اليونانية معرفة جيدة وكذلك اللغة اللاتينية ، وبدأ بدراسة (العبرية) فأحدث فيها تقدما ملحوظا ، وفي السنة نفسها لقي الصغير فرانسوا العالم الكبير (فورييه) وهو فيزيائي ورياضي مشهور اسهم بالحملة الفرنسية على مصر وكان أمين سر المجمع العلمي في القاهرة ثم أصبح وزيرا للعدل بعد عودة الحملة الى فرنسة ، وعضوا نشيطا في المحمع العلمي وعندما عين محافظا لمنطقة (الابرز) استقر في مدينة (غرينوبل) وجمع حوله فورا النخبة الفكرية في المدينة ، وفي احدى زياراته للمدارس التقى بفرانسوا وتناول الحديث معه وأصغى اليه بانتباه ثم دعاه الى منزله وأطلعه على مجموعته الاثرية ، وتأمل الصبي العتيد بدهشة لاول مرة أوراق البردي المصفرة والنقوش الهيروغليفية على قطع من الحجارة وسأل الصبي بكل بساطة (فورييه) (هل يمكن قراءة هذا كله ؟؟؟) فهز فورييه رأسه بالنفي ، فأجابه الصبي (أما أنا فسأفسر ذلك بعد عدة سنوات عندما أصبح كبيرا ...) .

وفي السنة الثالثة عشر من عمره ، بدأ يتعلم العربية والسريانية والكلدانية ثم القبطية (٢) .

---

(١)- اغنية راقصة انتشرت اثناء الثورة الفرنسية .

(٢)- القبط كلمة أصبحت تطلق على سكان مصر القدماء بعد اعتناقهم المسيحية وهي محرفة عن اليونانية .

وهكذا نرى أن كل أعمال شامبوليون ودراساته وأفكاره كانت تتعلق من قريب أو بعيد، بمصر القديمة ، وتعلم الصينية على أمل أن تقوده الى رموز الكتابة الهيروغليفية ، كان يجمع ويصنف كل مايجده ، وفي صيف عام (١٨٠٧) وكان في السابعة عشرة من عمره رسم أول مصور تاريخي لمصر، أول مصور تاريخي لامبراطورية الفراعنة .

كان العمل جزئيا جدا الان تحقيقه في ذلك العصر، كان يعتمد على مقاطع من التوراة وعلى نصوص لاتينية وعربية وعبرية ومايماثلها من نصوص اللغة القبطية التي كانت لاتزال مستعملة في مصر العليا (الصعيد) في القرن السابع عشر الميلادي ، وهي اللغة الوحيدة التي يمكن أن تساعد على فهم مصر القديمة .

وفي الوقت نفسه ، كان شامبوليون يجمع مواد كتاب ، وقرر أن يذهب الى باريس ، ولكن أكاديمية (غرينوبل) طلبت منه اطروحة فقدمها اليها بعنوان (مصر تحت حكم الفراعنة) .

في الاول من أيلول عام (١٨٠٧) مثل أمام لجنة الاكاديمية فتى مراهقا نحيلا وطويلا ، وذا اجمال مرضي كما يظهر على بواكير البالغين ، وعرض اطروحة جريئة صاغها صياغة منطقية ومقنعة وبأسلوب رفيع ، كان العمل عظيما جدا وانتخب الفتى الشاب بالاجماع عضوا في الاكاديمية ، فنهض رئيسها (رينودون Renowdon) وعانقه قائلا ((اذا كانت الاكاديمية قد قبلتك في عداد أعضائها ، على صغر سنك فلانها قدرت ما قمت به من أجل العلم ، وزيادة على ذلك ، فقد اعتمدت على مايمكن أن تفعله في المستقبل وهي مقتنعة بأنك ستحقق آمالها فيك وانك ستذكر اليوم الذي جعلت كتبُك اسمك على كل شفة ولسان ، وهذا ماحملها على تشجيعك)) .

لقد أصبح التلميذ (شامبوليون) بين عشية وضحاها عضوا في الاكاديمية وفتح أمامه فصل جديد من حياته .

كان عليه أن يذهب الى باريس ، فرآها مدينة عظيمة ، هي قلب اوروبة حيث تلتقي التيارات الفكرية والسياسية ، وحيث تكون كل المغامرات ممكنة فيها ، واستغرقت رحلته الى باريس سبعين ساعة ، مع أخيه ، قضاها في العربة المهتزة مستسلما الى احلامه : كانت أوراق البردي المصفرة تتراقص أمام عينيه ، وتهمس له باثنتي عشرة لغة مختلفة وتتزاحم حوله أحجار مغطاة

بالنقوش الهيروغليفية ،وكان قدتعرف على نسخة من حجررشيد،رآهـا لاول مرة عندماكان يودع (فورييه) وكانت نقوشه لاتبرح ذاكرته •

وبينماكان في هذه الاحلام والرؤى سمعه أخوه يقول بصوت عال (سأحل رموزالهيروغليفية وأنامتأكدمن ذلك) •

وهناك في تلك المدينة المفعمة بالمغريات ،غرق(شامبليون) في دراساته وانصرف عن كل مباهج المدينةفكان يقضي أوقاته كلهافي المكتبات ويهرول من مؤسسة علمية الى أخرى ،وينفذ ماكان علماء (غرونوبل) يطلبونه منه في رسائلهم ،ودرس السنسكريتية والعربية والفارسية ووجدوقتا يكتب فيه الى أخيه ليرسل اليه كتابا في قواعد اللغة الصينية ليتسلى به •

كماتعمق في دراسة اللغة العربية وأدرك سرعبقريتها، وخلال عام واحد أصبحت اللغةالقبطية مألوفةلديه ،وكتب يقول : أتحدث الى نفسي باللغة القبطية ذلك لانه كتب مذكراته الشخصية بالقبطية التي أتقنهاقراءة وكتابة •

في هذه الاثناء،كانت أمورشامبليون المالية تسيرمن سيء الى أسوأ،وبدون الاعانة التي كان يرسلها أخوه اليه شهريا،كان يمكن أن يموت جوعا • وتلك الاعانة كانت ثمانية عشرفرنكافي الشهر ،وكان يسكن قرب اللوفرفي غرفة بائسةولايتمكن حتى من دفع ايجارهاالشهري ،فأرسل الى أخيه يستغيث به ،وبدأفكره يتشوش ،ولقدذعرعندما أجابه أخوه بأن عليه أن يرهن مكتبته ، ان لم يقتصدفي نفقاته، وكيف يقتصد وقدبلي حذاؤه ورثت ثيابه ،حتى أصبح يخجل من الظهور أمام الناس وفي خلال هذه الازمة أعلن الامبراطور(نابليون الاول عام ١٨٠٨)مرسوما بالتعبئة العامة لكل الرجال بدءا من سن السادسة عشرة وكاد شومبليون يجن من ذلك، الا أن أخاه ،الذي كان سكرتيراًخاصا لنابليون، وأصدقاءه من العلماء أسرعوا لنجدته ، فاعفي من التجنيد لينصرف الى اعماله العلمية ، كماقدموا له مساعدة مالية ،وبينماكان الشعب الفرنسي ينتشي بأخبارالمعارك الظافرة لنابليون ، كان شامبليون يجدنشوته في دراسة اللغات الميتة •

ان الهم الذي كان لايفارقه ،والذي أنساه ، أحيانا ، احتمال

سحبه الى الخدمة العسكرية ،كان حجر رشيد المشهور ،ولم يجرؤ على الاقتراب من حل رموزه قبل استعداده الكافي وتسلحه بعلوم عصره .

ومع ذلك فقد خانه ضميره، عندما شاهد نسخة حديثة من حجر رشيد منفذة في لندن واكتفى بالمقارنة بين الحجروبين ورقة (بردي) ونجح من النظرة الاولى ،بأن يجد القيمة الحقيقية لمجموعة من الحروف .

وبينما كان يخطو الخطوة الاولى ، في هذه السبيل ، لامحاً النجاح والمجد وقع عليه نبأ كالصاعقة ،كان شامبوليون مستعداً لتحمل التعب والحرمان والجوع ليتابع طريقه بكل شجاعة ، ولكن هذا النبأ أفقده صوابه ليس لفقد انه كل ماعمله سابقا ولكن لتبخر أحلامه فيما كان ينتظره في المستقبل من مجدوشهره : هذا الخبر هو :

((لقد حلت رموز اللغة الهيروغليفية)) ..

كان شامبوليون يقوم بزيارة (الكولليج دوفرانس) عندما التقى بأحد أصدقائه الذي نقل اليه الخبر وهومضطرب ،واذاً فقد ذهبت جهوده وكل مالقيه من تعب وحرمان أدراج الرياح ، قال له صديقه : لقد صدر منذ قليل مؤلف (الكسندرلونوار) وهوبعنوان(الشرح الجديد) وهوكتيب الكتابة الهيروغليفية كلها .

فهد أشامبوليون قائلا : يمكن اذن أن أشتريه ،وانطلق مسرعا ووضع بيد مرتجفة ثمن الكتاب على الطاولة المغبرة لصاحب المكتبة ،ولم يكن يبيع منه الانسخاً قليلة ،وحمل الكتيب وعاد مسرعا الى غرفته وألقى بنفسه على الاريكه العتيقة وبدأ يقرؤه .

كانت صاحبة البيت الارملة (ميكران MECRAN)في المطبخ ،وفجأة اهتزت الاواني على رفوفها بسبب ضجة هائلة صادرة عن الغرفة التي يقطنها شامبوليون ،فاصغت مرتاعة ثم اندفعت نحو الغرفة وفتحت بابها واذا نظرها يقع على شامبوليون مستلقيا على الاريكة وعضلاته مسترخية ،ويُخرج من فمه أصواتا غيرمفهومة وكان يضحك بشكل هستيري .

كان في يده كتاب(لانوار) وعندما أحس بوجود المرأة قال لها تعالي وانظري انه يدّعي حل رموز اللغة الهيروغليفية ، ولكن محاولته ليست الاحماقات واختراعات وخليطا من التخيلات والمحاولات العلمية المُساء استخدامها ،فزال روع المرأة وعادت الى مطبخها ، تدعو الله

أن يثبت عليه عقلـــــــه ...

كانت الصدمة رهيبة ،ولم تبرح ذاكرته قط ،وكان يضطرب علـــى اريكته بصورة محمومة وهو يجهل أنه لا يزال أمامه اثنتا عشرة سنة أخــرى ليصل الى هدفه : حل رموز اللغة الهيروغليفية .

في العاشر من تموز (١٨٠٩) عين شامبوليون استاذاً للتاريخ فــي جامعة (غرينوبل) وكان في التاسعة عشرة من عمره ،وهذا ما أثار أساتذتــه السابقين وجعله عرضة لحسدهم ومضايقاتهم ،ولكنه تابع عمله بــارادة قوية لتحقيق المهمة التي نذر لها حياته ،فكان في كل يوم يتعمق فــي دراسة أسرار مصر التي استحوذت على تفكيره كله ، فكتب مقالات متعددة وأرسل معلومات الى العلماء الاجانب وأجهد نفسه في تعليم طلابـــه وبخاصة الضعفاء منهم واستمر في العمل لاتمام قاموسه القبطي مما أوهن صحته وأنهك أعصابه فكتب في كانون الاول (١٨١٦) وفي كل يوم يزداد قاموسي سمنة ومؤلفه يزداد نحافة وهزالا.. وكان يشكو من وصولــه الى الصفحة (١٠٦٩) دون أن ينتهي مؤلفه بعد .

بعد زوال حكم نابوليون نهائيا ونفيه الى جزيرة (القديسة هيلانـــة) حيث كانت مثواه الاخير ، انتقم منه الملكيون لتأييده لنابوليـــون فسرحوه من الوظيفة مدة سنة ونصـــــف .

ومع ذلك تابع عمله بكل همة ونشاط ثم نراه في عام (١٨٢١) يغادر المدينة التي كان طالبا فيها ثم أكاديميا ويهجرها الى باريـــس وبعد سنة من العمل الدؤوب نشر كتيبا صغيرا بعنوان (رسالة الى السيد داسيه (١)(Dacier) تتعلق بالابجدية الهيروغليفية الصوتية)وهــذه الرسالة تحتوي على المبادئ الاساسية لحل رموز الهيروغليفية وجعلت هــذه الرسالة اسمه مشهوراً لدى هؤلاء الذين كانوا حتى ذلك الوقت ،عاجزيـــن عن الاجابة عن أسئلة غير قابلة للحل ،في نظرهم ،فوجدوا في رسالتـــه الاجوبة الصحيحة وعادوا الى الاهتمام بأسرار الاهرامات وألغاز المعابد .

وقبل أن نتعرض للطريقة التي اتبعها شامبوليون في حل رمـــوز الهيروغليفية لابد لنا من الكلام عن حجر رشيد الذي كثرت الاشارة اليـــه فــي هذه المحاضــــرة .

---

(١) ـ عالم ومترجم افرنسي عاش (١٧٤٢ ـ ١٨٣٣) .

آ- اكتشاف الحجر : من اكتشف حجر رشيد ؟؟

يقال أن (دوهوبتول Dehautpaule) هو الذي اكتشف حجر رشيد ولكن هذا لم يكن الآمر لسلاح الهندسة ، رئيس من اكتشفه ، وبالاستناد الى مصادر أخرى ، أن الذي اكتشف الحجر هو (بوشار Bocchard) ولكن هذا لم يكن الا الضابط الذي كان يشرف على اعمال ترميم وتحصين خرائب خلفه (قايتباي) والتي اثبتها (نابوليون) على المصور الذي صنع لمصر باسم قلعة (جوليان) وتقع على بعد (٧٥٠٠) متر الى الشمال الغربي من مدينة رشيد الواقعة على النيل ، كلّف (بوشار) بنقله الى القاهرة حيث وضع في المجمع العلمي الذي أسس حديثا فيها .

الحقيقة أن جنديا مغمورا هو الذي اكتشف الحجر عندما اصطدم فأسه بعقبة ثم عرف قيمة ما اكتشفه وأخبر رؤساءه .

وبعد وصول الحجر الى القاهرة أصبح محط اهتمام من مجموعة العلماء الذين جلبهم نابليون مع حملته الى مصر ، وقد أحاطه نابوليون نفسه باهتمام بالغ وفضول عظيم لمحتويات النصوص المنحوته عليه وأمر أيضا بأن يؤخذ عدد من النسخ للحجر لتوزيعها على الدراسين في أوروبة واستدعي مواطنان مشهوران بمهارتهما في النقش على الحجر وهما (ماربيل) و(غالان) من باريس الى القاهرة لصنع النسخ المطلوبة والخطة التي اتبعوها كانت تتم بتغطية الحجر بحبر الطباعة ثم لصق الورق فوقه وامرار اسطوانات مطاطية عليه بضغط كاف ، ثم يرفع الورق وعليه النقوش المطبوعة وقد ارسلت نسخ عديدة ، صنعت بهذه الطريقة الى عدد من العلماء ذوي الشهرة الفائقة في عدد من الدول الاوربية ، وفي خريف (١٨٠٠) أخذ الجنرال (دوكا) (Duga) نسختين الى باريس حيث وضعهما تحت عناية المواطن (دوتيل) (Dutheil) عضو المجمع العلمي الوطني في باريس .

٢- وصول الحجر الى انكلترة :

بعد نجاح العمليات العسكرية الانكليزية في مصر ربيع (١٨٠٢) وقعت معاهدة استسلام القوات الفرنسية ، ونصت المادة السادسة عشرة منها على أن حجر رشيد وغيره من اللقى الاثرية المصرية المهمة ، تسلم الى الجنرال الانكليزي (هيتشسون HUTFHISON) في نهاية آب من العام نفسه

وارسلت بعض تلك الاثار الهامة حالا على ظهر السفن البريطانية ، ولكن حجر رشيد لم يغادر مصر حتى نهاية العام ، والسبب في ذلك أنه بعد أن أخذت النسخ الورقية عن الحجر ، نقل من القاهرة الى بيت الجنرال الفرنسي (مينو Menou) في الاسكندرية حيث حفظ مغطى بعدة طبقات من القماش .

في ايلول (١٨٠١) طلب الميجرجنرال (توتر Turner) الحجر بموجب المعاهدة المذكورة سابقا ، ولكن نظراً لوجود الحجر في بيت الجنرال (مينو) كان ينظر اليه على أنه ملك خاص به ، لايدخل في نصوص المعاهدة ، ولذلك أصبح التنازل عنه من قبل الافرنسيين مقترنا ببعض الصعوبات .

وفي الشهر التالي حصل الميجرجنرال (توتر) على ملكية الحجر وأخذه معه ، على سفينة بريطانية وصلت الى (بورتسماوت) في شباط عام (١٨٠٢) وفي (١١) من آذار وضع في مقر جمعية العاديات في لندن ، حيث بقي عدة شهور ، خضعت النقوش الموجودة عليه لفحوص دقيقة من قبل الباحثين والمختصين باليونانية .

وفي تموز ، صنع رئيس الجمعية أربعة نماذج من (الجبس) للحجر وزعها على جامعات : اوكسفورد ، وكامبردج ، وادغيرة ، ودبلن ، كما صنع نسخا جيدة من النص اليوناني المحفورة على الحجر ووزعها على كل الجامعات الكبرى والمكتبات والمجامع العلمية ، والاكاديميات والجمعيات العلمية في أوربة .

وفي نهاية العام نقل الحجر من مقر جمعية العاديات الى (المتحف البريطاني) حيث عرض للناس كافة وحيث لايزال موجوداً الى الان .

- وصف الحجر :

حجر رشيد ، في وضعه الحالي ، بلاطة لمضلع غير منتظم من البازلت الاسود الصلب ، يبلغ طوله (١١٤ر٣٠) سنتم وعرضه (٧٢ر٢٩) سنتم وسمكه (٢٧ر٩٤) سنتم ، وقمته اليسرى ، وزاويته اليمنى عند القاعدة غير كاملتين ولايمكن القول كم نقص الحجر عما كان عليه في الاصل ، ولكن استنادا الى النسب الموجودة بين أبعاد النصوص ، كما هي عليه الان ، يمكن أن نفترض أنه عندما كان كاملا كان طوله يزيد على (٣٠ر٤٨) سنتم عما هو عليه الان ، والنهاية العليا للحجر يحتمل أنها كانت مستديرة ، واذا احكمنا من شكل

البلاطات ذات النقش النافرة التي تعودالى عهدالبطالمة ، فان أعلى القسم المستدير ،يحتوي على صورة قرص الشمس المجنح للاله (هوروس) في أدفو معلق عليه ثعبانان ، أحدهمايحمل تاج الجنوب والاخرتاج الشمال وتحت قرص الشمس المجنح ،ربماكان هناك نقش آخر يمثل الملك واقفا مع الملكة وبحضورمجموعة من الالهة ،تشبه تلك التي توجدعلى احدى النسخ المذكورة في أسفل حجررشيد ، وهذه التزيينات المنقوشة يمكن أن تكون مرتفعة حوالي (١٨٠) سنتم وذلك عندما كان الحجركاملا ومثبتا على قاعدة جميلة قرب تمثال الملك الذي نقش الحجر على شرفه .

كتبت النصوص الموجودة على حجررشيد ،بلغتين ، اللغة المصرية واللغة اليونانية وتتضمن الكتابة المصرية نصين : اولهماكتب بالهيروغليفية بصورتها القديمة التي كانت تستعمل ،تقريبا ، منذ عهدالسلالات الاولى في كل الوثائق والحالات الاحتفالية التي كان مسموحا للشعب أن يطلع عليها .

والنص الثاني بالكتابة الديموطيقية : أي الكتابة المألوفة والمختصرة والمعدلة عن الكتابة الهيراطيقية : أي الشكل المتداول من الكتابة الهيروغليفية التي كانت مستعملة في عهدالبطالمة .

أما النص اليوناني ، أسفل الحجر، فكان في اللغة اليونانية العادية . يحتوي النص الهيروغليفي على أربعة عشرسطراً فقط ، وهذه الاسطر تترجم السطورالثمانية والعشرين الاخيرة من النص اليوناني ، أما النص الديموطيقي فيتألف من اثنين وثلاثين سطرا ، الاربعة عشر الاولى منهاناقصة في بداياتها ويتضمن النص اليوناني أربعة وخمسين سطرا ،الستة والعشرون الاخيرة منهاناقصة في نهاياتها ، وجزءكبيرمن السطورالناقصة في النص الهيروغليفي أمكن الحصول عليهامن مسلة اكتشفت في (دمنهور) في الدلتاعام (١٨٩٨) هيرموبوليس بارفا) والموجودة الان في المتحف المصري في القاهرة تحت رقم (٥٥٧٦) ومن نسخة المرسوم الملكي المنحوت على جدران معبدفي جزيرة (الفيلة) (١) .

---

(١) ـ موقعها في النيل وراءسد اسوان، ولفظ الفيلة ترجمة صريحة لاسمها المصري (آبو) وسميت بذلك لكثرة ماكان يردإليهامن العاج من قلب افريقية ،واسمهاالعربي (أنس الوجود) وفيها آثارمصرية قديمة وكثيرة .

كان أول من قرأ النص اليوناني في مصر أحد ضباط نابوليون يتقن اليونانية ، وابتدأ فوراً بترجمته ، وكان يتضمن اظهار الولاء والخضوع من قبل كهنة (ممفيس) الى الملك (بطليموس الخامس) ابيفانوس (٢٠٣-١٨٠) ق٠م وشكره على ماقدمه اليهم والى الشعب من منح وعطاءات واعفاءات من الضرائب ، وتخصيص الاوقات للمعابد ٠

بعد وصول النسخ الفرنسية المأخوذة على الورق ، كما ذكرنا ، وتوزيع نسخ ورقية منه على الجامعات الانكليزية والهيئات العلمية في أوربة انصرف العلماء الى دراسة نقوشه محاولين فك رموز النص الهيروغليفي أما النص الاخر فكان في اللغة القبطية ويمكن فهمه ٠

لقد بذلت محاولات كثيرة منذ القديم ، لحل رموز الكتابة الهيروغليفية فهيرودوت واسترابون وديودوروس ، جابوا انحاء مصر ، وتكلموا عن الكتابة الهيروغليفية ككتابة تصويرية لا يمكن فهمها وقال مثل ذلك (هورايولون) في القرن الرابع ق٠م ومنذ وصول نسخ (حجر رشيد) الورقية الى أوروبة ، انصرف كبار علماء ومفكري العصر الى هذه المهمة في فرانسة وفي المانية وايطالية والسويد ، وانكلترة (استناداً الى النص الاصلي) ولكن محاولاتهم ذهبت كلها أدراج الرياح وكان الخطأ الاساسي الذي حال دون الوصول الى الهدف هو اعتقاد الباحثين أن الكتابة الهيروغليفية هي كتابة تصويرية كما أكد ذلك (هورايولون) المذكور ٠

وكان لابد لكشف السر من ثورة كوبرنيكية حقيقية : فكرة تنير فجأة الظلمات بقطعها الصلة مع الماضي ، والابتعاد نهائياً عن (هورايولون) وأضرابه ٠

كتابة رمزية مصرية ، تشبه اللغز ، تعود الى نهاية الالف الرابع ق٠م نشأت عنها الكتابة الهيروغليفية ، كما يقال ، حلت رموزها منذ خمس وثلاثين عاماً فقط فصقر (هوروس) يرمز الى الملك الذي استولى على بلد سوري وقهره (الشكل البيضوي مع رأس سوري) لحية على شكل قرن ، يجلس الملك على ست

زهرات من اللوتس وهي تعني ستة الاف أسير وتحت الصورة توجد سنارة صيد السمك ،وهي تدل على اسم البلد ،وتحتها مستطيل فيه خطوط متموجة يدل على أن البلد يقع على ساحل البحر ،والاشارتان معا تعنيان اسم سورية .

لقد سلك شامبوليون هذا الطريق ولايستطيع العلماء حتى الان أن يجزموا من أين أتت لشامبوليون فكرة أن الصور الهيروغليفية ،على حجر رشيد ،هي أحرف لكل منها صوته الخاص ، أي (فونيمات) كما يقول علماء اللغات واستخرج من ذلك فرضية الاولى :(اذا لم تكن هذه الاشارات كتابة ابجدية فهي ،مع ذلك ،تمثل أصواتا) ومن هنا ابتعد شامبوليون عن أفكار (هورايولون) وزالت القضية الاساسية ،ولم يصل الى هذه النتيجة الابعد جهود مضنية وصعوبات جمة تغلب عليها بالصبر وقوة الارادة .

لقد أدرك شامبوليون أن هناك نظاما لهذه الرموز الهيروغليفية وأمكنه أن يتابع الفرضية الثانية التي كان يعتقد بها منذ زمن طويل وهي :

((لكي تعرف يجب أن تبدأ باسماء الملوك)) .

ولماذا أسماء الملوك ؟؟؟ لان اسماء الملوك أسماء اعلام وهذه تلفظ تقريبا اللفظ نفسه في كافة اللغات ، ولكن كتابتها تختلف بين لغة وأخرى هذه الفكرة تبدو لنا اليوم سهلة وطبيعية ،ولكنها في ذلك الوقت كانت دفقة ذكاء أو ومضة الهام لعقل شامبوليون وذكائه ...

ان النقش الموجود على حجر رشيد يتضمن شكر كهنة (ممفيس) للملك (بطليموس آبيفانوس) كما ذكرنا سابقا والنص اليوناني على الحجر المعروف لغة ومعنى يقدم الدقة كلها في الموضوع .

في النص الهيروغليفي وفي المكان الذي يذكر فيه اسم الملك توجد مجموعة من الاشارات محاطة بخط بيضوي ، اطلق عليه فيما بعد باللغات الاجنبية اللفظ *Cartouche* 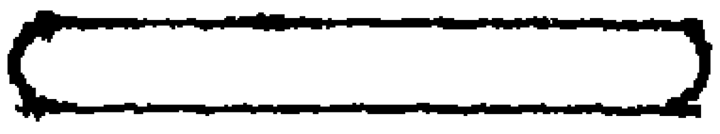 أوليس من الطبيعي الافتراض بان الاشارات داخل الشكل البيضوي ولنسمه منذ الان (خرطوشة) يمكن أن يكون اسم الملك ، في حجر رشيد وحسب النص اليوناني المفهوم لم يرد الا اسم ملك واحد هو(بطليموس) وعندما صف شامبوليون أحرف الاسم (بطليموس) تحت مايقابله في النص الهيروغليفي ،عثر على ثماني اشارات هيروغليفية لكل منها صوته الخاص ، أي ثمانية حروف .

في العام (١٨٢١) نقل عالم الاثار الانكليزي (بانكس Banks) الى انكلترة المسلة التي عثرعليها (١٨١٥) في جزيرة الفيلة ،وكانت هذه المسلة ،حجررشيد الثاني ،تحمل نصين : الاول في الهيروغليفية والثاني في اليونانية والخرطوشة كانت تحيط باسم (بطلميوس) كما كانت خرطوشة ثانية تحيط بمجموعة من الاشارات الاخرى ،واستناد الى النص اليوناني المنقوش في أسفل السلة ، افترض شامبوليون أن هذا الاسم يجب أن يكون (كليوباترا) .

وعندما قورنت هاتان الخرطوشتان مع الخرطوشة الموجودة في حجر رشيد وجد شامبوليون أن احد اهما كانت تحتوي الاشارات الهيروغليفية نفسها التي تحتويها الخرطوشة الموجودة في حجررشيد ،وهذا ما أكد لشامبوليون أن خرطوشة حجررشيد تحتوي ،فعلا ، اسم بطليموس مكتوبا بالهيروغليفية وكانت كل من الخرطوشتين تحتوي الاشارات التالية :

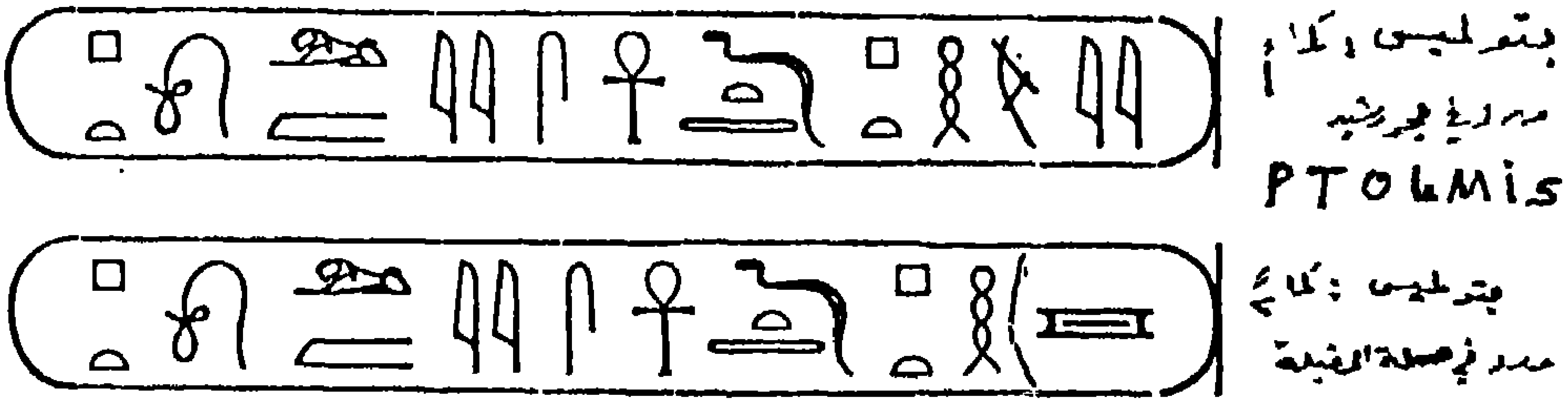

في الخرطوشة الثانية الموجودة في المسلة تحل الاشارة 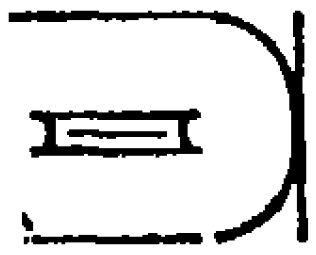 محل الاشارات

الثلاث : 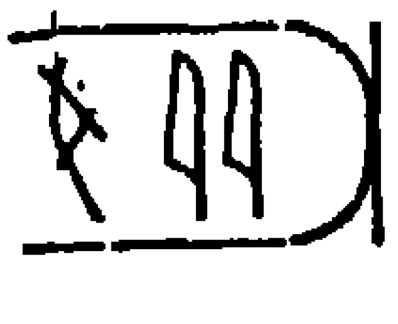 الواقعة في نهاية خرطوشة حجررشيد .

ويمكن القول الان ان اسم (كليوباترا) المكتوب في اللغة اليونانية على المسلة وان الخرطوشة الموجودة في النص الهيروغليفي تحتوي على الاشارات الهيروغليفية الدالة على اسم كليوباترا وقد وجدت على الشكل التالي :

فاذا اخترنا الخرطوشتين ،المفترض أنهما تحويان اسمي (بطليموس) و (كليوباترا) من مسلة جزيرة الفيلة ورقمنا الاشارات نرى مايلي :

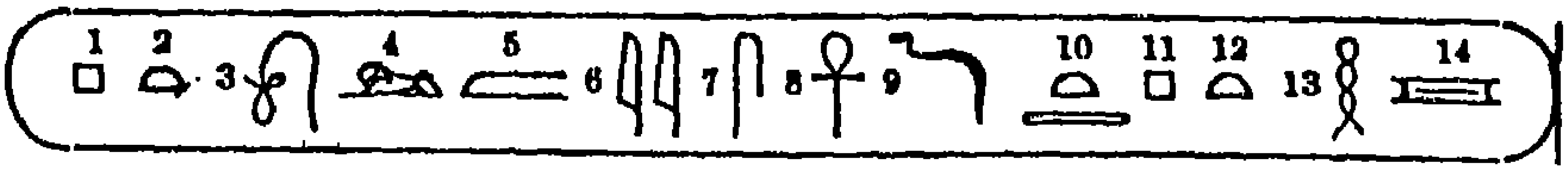

Ptolemy, A.

Cleopatra, B.

ان الاشارة رقم (١) في الخرطوشة (A) والاشارة رقم (5) في (B) لهما شكل واحد ،ونستنتج من وضع كل منهما في الخرطوشتين أن كلا منهما يدل على الحرف (P) ثم رقم (4) في (A) ورقم (2) في (B) يستنتج من موقع كل منهما في الخرطوشتين أنهما يمثلان الحرف (L) واذا كان الحرف (L) هو ثاني حرف من اسم (كليوباترا) فالاشارة رقم (٤) اذا تمثل الحرف (L) وأصبحنا الان نعرف في الخرطوشة (B) التي تحتوي اسم (كليوباترا) دلالات الاشارات ذوات الارقام (1 , 2 , 5) ويمكن أن نكتب على النحو التالي :

في الشكل اليوناني الاسم (كليوباترا) يوجد حرفان صوتيان بين الحرف (L) وبين الحرف (P) ويوجد في الشكل الهيروغليفي الاشارتان رقم (3 , 4) فيمكن أن نفترض الاشارة رقم (3) تدل على الصوت (آ) والاشارة رقم (4) تدل على الحرف (o) وفي بعض خرطوشات اسم كليوباترا فان لاشارة ذات الرقم (٧) استبدل بها لاشارة ( ) وهي مشابهة للرقم (2) في (A) وللرقم (١٠) في (B) وبما أن الحرف (T) يلي الحرف (P) في اسم بطليموس (PTOLEMY) وبما أنه يوجد الحرف (T) في الشكل اليوناني لاسم (كليوباترا) فيمكن أن نفترض أن الاشارة رقم (2) من (A) والاشارة رقم (7) من (B) لهما الصوت نفسه أي (T) وفي الشكل اليوناني لاسم (كليوباترا) يوجد حرفا (A) وهما ينطبقان على الاشارتين ذواتي الرقمين (6) ، (9) ولهما الشكل نفسه (شكل الغراب) فيمكن أن نفترض ان كلا منهما تعادل الصوت (A) واذا استبدلنا ذلك كله بما يقابله في الهيروغليفية في (B) فيمكن أن نكتب الشكل (B) على النحو التالي :

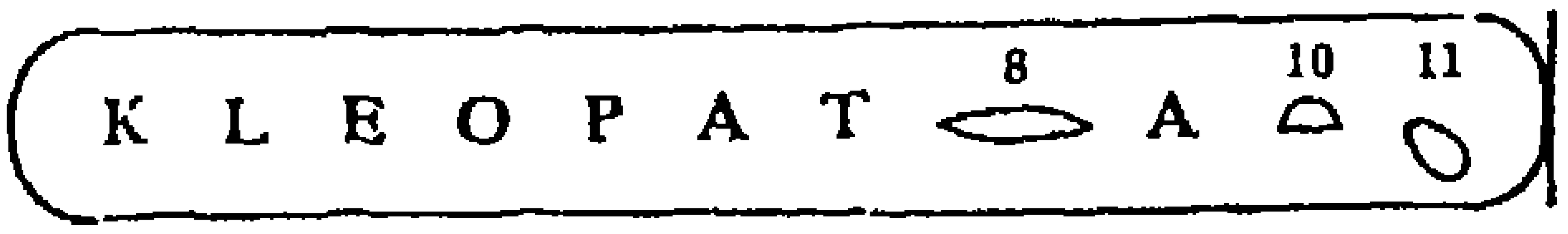

وقدلاحظ(توماس يونغ) أن الاشارتين ذواتي الرقمين(10) و (11) تلحقان دائما أسماء (الالهات) والملكات أو الاميرات ، أما شامبوليون فقال بانهما علامتا التأنيث ،تلحقان اسماء الاناث كلها ، ان الاشارة الوحيدة التي لم يجدلها صوتاهي الرقم (8) (/⊂⊃/) هي بالتأكيد تدل على الحرف (R) وعندئذ نتأكد أن الاسم الوارد في الخرطوشة هو (كليوباترا)

واذا وضعنا الاحرف التي تعلمناها من اسم (كليوباترا) في مواضعها من الخرطوشة التي تحمل اسم (بطليموس) فيمكن كتابة الاسم على النحو التالي :

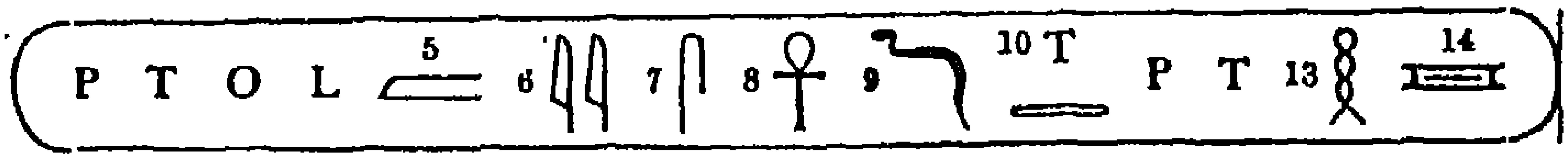

ونرى بوضوح أن الخرطوشة يجب أن تحتوي اسم بطليموس ،ولكن من الواضح أيضا أنها تحتوي على اشارات هيروغليفية لاعلاقة لها باسمه وبعض الخراطيش التي وجدفيها اسم بطليموس على حجر رشيد وجدبشكل بسيط حتى نهاية الاشارة رقم (7) كما في الشكل التالي :

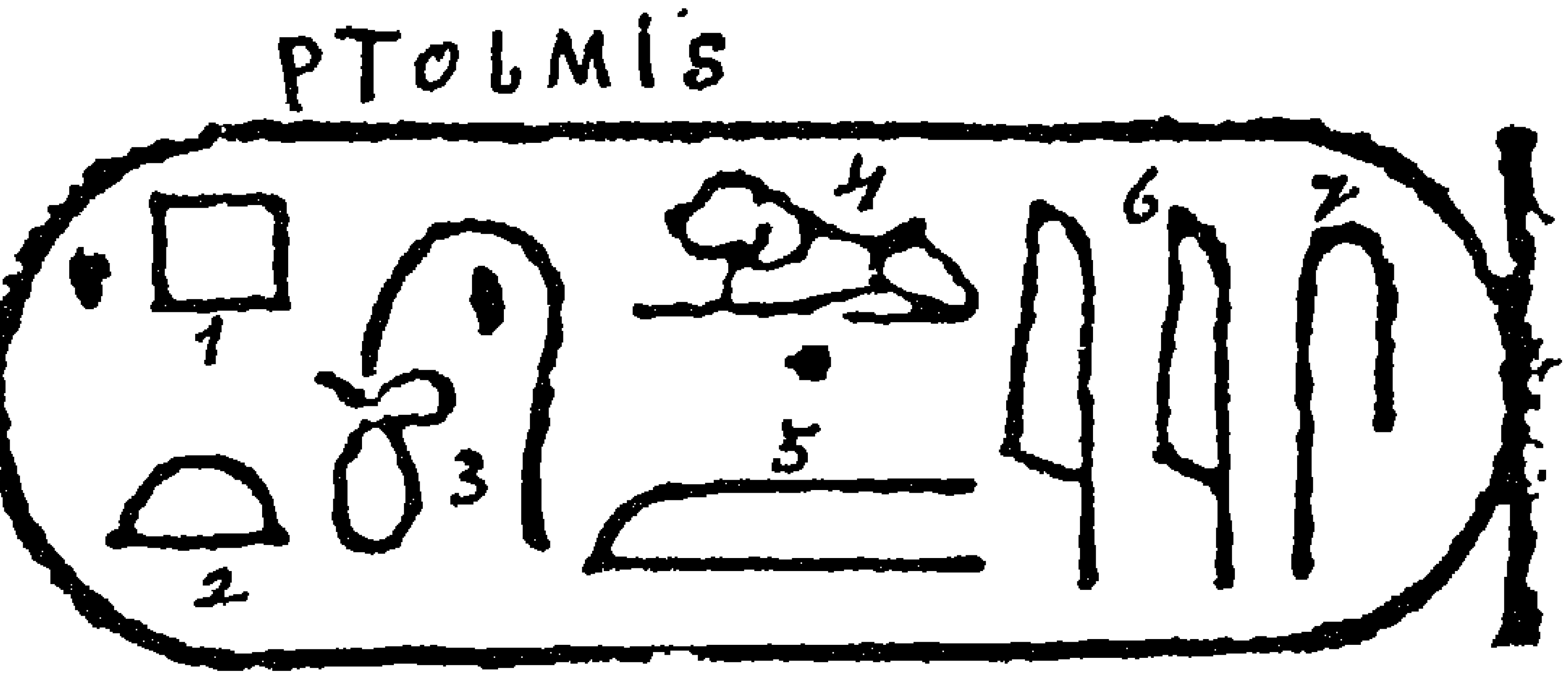

اسم بطليموس
كما ورد في حجر رشيد
بسيطاً بدون
اضافات

ومن الواضح جدا من هذه الاضافات من رقم (8) - (17) هي القابـــة الملكية الواردة في النص اليوناني في حجر رشيد، وهي تعني (الخالـــد المحبوب من بتاح) ، ان الشكل اليوناني لاسم بطليموس هو (ليتوليمايوس PtoLimaias) بنهاية الحرف (s) وهذا يعني أن الاشارة الاخيـــرة من اسمه ، وهي في الشكل رقم (7) تعادل الحرف (s) في نهاية الاسماء اليونانية ، والاشارات الهيروغليفية التي بقيت غامضة وهي تحمل الرقمين (5) و (6) وموقعهما من اسم بطليموس يوحي بأنهما تدلان الصوتين (M) وبعض الاصوات أرجحها الصوت (A) بالفرنسية أي (ي) وهـــذه الاصوات التي وصل اليها شامبوليون ،عن طريق التخمين والاستنتاج طبقها على خرطوشات أخرى : مثلا في الخرطوشة رقم (1) نستطيع أن نقرأها كلها وهي تحوي الحروف الهيروغليفية :

1. PILATRA

وهو واضح أنه يدل على الاسم اليوناني: كيلوباتـــرا .

PHILOTERA

وفي الخرطوشة رقم (2) نعرف فقط بعض الاحرف الهيروغليفية لذلـــك يمكن كتابتها على الشكل التالي :

2. 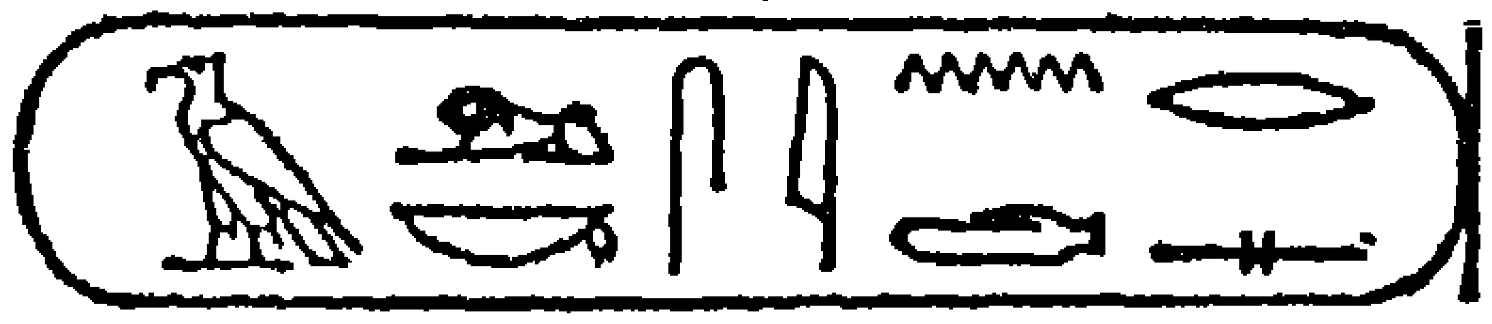

رقم (2) مكـــرر ، وكان معروفا أن هذه الاشارة / ﹏﹏ / / توجد في اسم :

مكرر

2 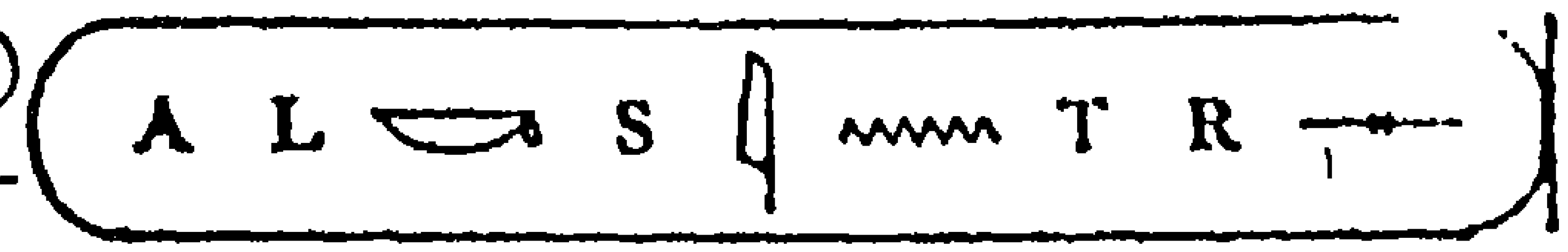

بيرينايس (Berenice) وانها تمثل الحرف ن / N = ، وأن الاشارة ـــ‖ـــ آخر حرف في النص اليوناني من اللقب KAISARS وإذن فالاشارة المذكورة تمثل الصوت (s) وبعض الخرطوشات المتضمنة كلمة (كليوباترا) تبدأ بالاشارة ⌣ مما يدل على أنها تمثل الحـــرف ك = K) وعلى ذلك فيمكن أن نعيد كتابة الخرطوشة رقم (2) مكـــرر

على النحوالتالـــــــــــي :

وهذا يدل بوضوح تام أن الخرطوشة تحوي اســـــم :

(A L K S 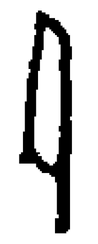 N T R S) ALEXANDROS

فموقع الاشارة الهيروغليفيةفي وسط الكلمــــة يدل على الصوت (A°) أو (E) بالانكليزية = بالافرنسية وأن لفظ الكلمة بالهيروغليفيـــة هو(الكسنترس) .

ولنعدالى الاشارةوالتي تنتهي بهاكلمة (بطليموس) كمــــاوردت على مسلةجزيرة الفيلة وهي تدل ،كمارأيناعلى اللقبين الملكييــــن الخالد و محبوب بتاح وعلينا أن نبرهن على ذلك :

من المعروف ،من ترجمة النص القبطيأن الكلمةالمصرية القديمة لمعنـى (يعيش) أو(عائش) هي (عنخ = ANKH) أو:عنخ = ONKH)وهذه الكلمة مثلت بالرمـــــز الذي وردعدة مرات في النص ويمكن أنستخلص بأن الاشا رات: 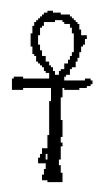 تعنيأبدا أودائماو اللغةالقبطية تدل على

الاشارة الاولى على شكل ثعبان ،هي أول حرف من الكلمةالمصرية القديمـة التي تعني (أبدا ،عمر،خلود) وهي الكلمة /دجت = DJT وقدعلمنـــا أن الاشارةالثانية: تعادل الصوت (ت = T) أما الاشارةالثالثة 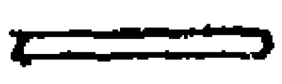 فهي حرف يكتب ولايلفظ ،كماهوشأن بعض الاحرف في اللغات الحديثـــة الاوربية والعربية وعلى ذلك فان اللقب يعني : يعيش دائمـا أي (الخالد) أو(المخلد) وبقيت الاشارات :

نحن نعرف ممامربنا سابقا أن (11)و(12)تدلان علـــــى الحرفين

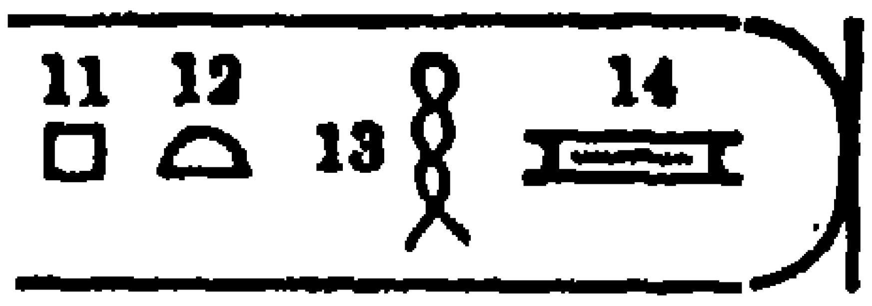

الاشارتين ذواتـــي الرقمين(T -P) بالتتابــــــع

أي الحرفين الاولين مناسم الاله (بتاح) والاشارةالتي تحمل الرقـــــم (13)يجبأن تدل على الحرف (2) بالعربيةو(H) بالاوروبيـــة

واذاكانت لاشارات الثلاث المتتالية تدل علىاسم الاله (بتـــاح) فالاشارة الاخيرةذات الرقم (14) الملحقة بالاسم (بتاح) يجبأن تعنـــي

(محب أو محبوب) وهنا أيضا ساعدت اللغة القبطية شامبوليون على معرفة الاشارة المذكورة : فالكلمة القبطية التي تعني كلمة أحب هي كلمة (ميـر) (MFRE) بلفظ الاحرف الانكليزية وأن الاشارة رقم (14) تعني مير.

والان فان الخرطوشة التي تحتوي اسم (بتوليس = بطليموس على حجر رشيد ، يردفيها هذه الاشارات بعد اسم الاله (بتاح) ( ) 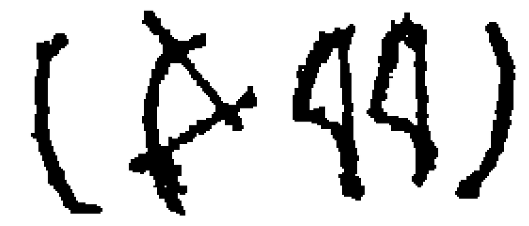)

ومن الواضح أن هذه الاشارات بديل للاشارة =/مير/ونستنتج بكل وضوح ، أن الاشارتين(٩٩)تدلان على الحرف (آ)= ي وأن الاشارة التي تسبقها تعادل كلمة (مير) وقد تأكد شامبوليون من ذلك بمقارنة نصوص تحتوي الاشكال المختلفة لكلمة (مير) وهكذا نرى أن شامبوليون بذكائه المدهش وباستعماله الحاذق لمعرفته العميقة باللغة القبطية نجح بوضع نظام لحل رموز اللغة الهيروغليفية ،بلغ من الدقة والاحكام ، نه لايزال مستعملا حتى اليوم دون أن يطرأ عليه أي تغيير كما وضع الاسس المتينة لعلم مصر(FgoyptoLagie)الذي كشف النقاب عن تاريخ الفي سنة وأكثر من تاريخ البشرية ،كان مسرحها مصر.

وكان من نتائج جهود شامبوليون أن وضع كتابا بعنوان(علم النحو المصري)الذي نشر بين(١٨٣٦-١٨٤١) كما اكمل قاموسه (الفرنسي الهيروغليفي)وقام برحلة الى مصر من تموز١٨٢٨- كانون الاول ١٨٢٩) زار فيها جميع آثار مصر القديمة عبر النيل وكان الوحيد الذي يقرأ ويفهم تلك الاشارات والرموز المنحوتة على جدران الكرنك وآثار وغيرها وأكدت هذه الرحلة صحة الطريقة التي كشف فيها النقاب عن اللغة الهيروغليفية مما مكن الذين جاؤوا بعده من الانتقال من مرحلة قراءة الهيروغليفية الى مرحلة كتابتها ففي أحد ملاعب التنس في قصر(سيدنهام Scdenhom) الملكي ،توجد لوحة نقش عليها بالهيروغليفية اسم الملكة (فيكتوريا) والامير(كوتسورن آلبرت) الا أن الاجل لم يمهله كثيرا بعد رحلته الى مصر اذ توفي بعد ثلاث سنوات من عودته من مصر وذلك في العام (١٨٣٢) بعد أن تحققت نبوءة الساحر فيه : فولد صبيا ومات مشهورا جدا .

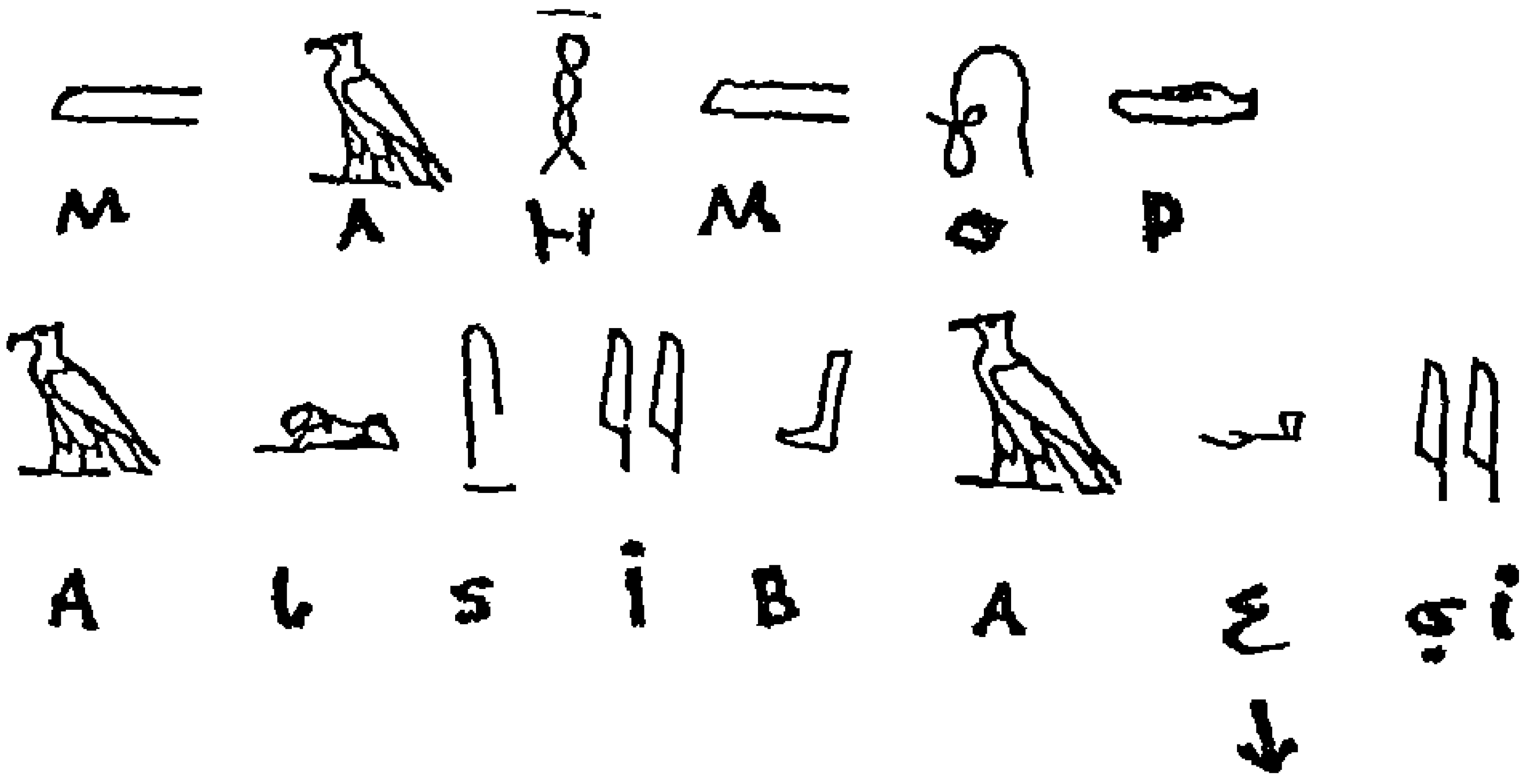

لا يوجد حرف العين بالفرنسية أو الانكليزية
ولكنه موجود في الهيروغليفية

محمود
السباعي
١٩٨٤/٤/٤

مصادر البحث :

I- C. W. Ceram. Des dieux, des tombeause, des savants. Traduit de l'Allemand: par: Gilberte Lambrichs

II - The Rosetta Stone: published by the trustees of the British Meseum: London, July 1968.

مع روّاد اليقظة القومية

المناضل محب الدين الخطيب

الدكتورة سهيلة ياسين الريماوي

الريماوي - الجامعة الاردنية

لقدكانت صلتي بالسيد محب الدين الخطيب (١)، ومكتبته وأوراقة نتيجة عاملين مهمين :

العامل الاول هوعامل البدء والاستكشاف لوثائق هذه المكتبة والذي وجهني اليه محب الدين الخطيب نفسه بين (١٩٦٦و١٩٦٩) عندما سعيت لمقابلته كرائدمن الرواد الاوائل الذين وعوا اهمية (التنظيم) ودعوا وساهموا في اقامته في الفترة التي يدورحولها موضوع الرسالة التي تقدمت بها لنيل درجة الماجستيرفي التاريخ الحديث وعنوانها (الحياة الحزبية في سورية بين (١٩٠٨- ١٩٢٠) .

أما العامل الثاني والاهم فهو : عامل الاستمرار والدراسة لهذه الوثائق والاوراق والذي وجهني اليها استاذنا الدكتور أحمدعزت عبد الكريم المشرف على الرسالة وكان ذلك الوقت رئيس جامعة عين شمس اذ انه بعد اطلاعه على محتويات ماحملته اليه من وثائق اعتبر أوراق محب الدين الخطيب كنزا وثائقيا هاما ، نتيجة ادراكه ووعيه لمضامين هذه الوثائق ومدى ارتباطها بموضوعات ذات صلة مباشرة بالمسائل الحية التي تواجهها وتعانيها أمتنا اليوم وشجعني على الاستمرار في كشف أسرار هذا الكنز والغوص فيه .

---

(١)- محب الدين الخطيب : ابن الشيخ ابوالفتح الخطيب من علماء دمشق ولد (١٨٨٦ وتوفي ١٩٦٩) ، حصل على شهادته الابتدائية بدرجة (علي أعلى) أي جيدجدا من مدرسة الترقي النموذجية بدمشق (١٨٩٦) ثم درس في مكتب عنبر وانتقل الى بيروت ليكمل في مدرستها الثانوية وتخرج (١٩٠٥) بدرجة أعلى والتحق في استنابول بكليتين معاهما (الحقوق والادب) .
انظرفي ترجمة محب الدين الخطيب كتاب الاعلام للزركلي ٥: ٢٨٢ط رابعة وفي حاشية عدة المقالات .

وكانت ثمرة هذا الغوص وهذه الاستمرارية أن حصلت على درجة الماجستير التي ذكرتها سابقا ثم حصلت على درجة الدكتوراة وعنوانها (الحياة الحزبية في سوريا بين ١٩٢٠-١٩٤٦) أي فترة الانتداب الفرنسي .

ومشاركة مني وتقديراً لهذا الجهد الذي قام به ويقوم به استاذنا الجليل ، قدمت بحثا عن (اوراق محب الدين الخطيب) طبعته مشكورة جامعة عين شمس (١٩٧٦) ضمن (بحوث في التاريخ الحديث) مهداة الى الاستاذ الدكتور احمد عزت عبد الكريم بمناسبة انقضاء عشرين عاما على الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس .

وقد أردنا من هذه المقدمة أن نشير الى الحقيقة التالية وملخصها : انه مهما طال بحثنا حول حياة محب الدين الخطيب ووثائقه وأوراقه ، فاننا نبقى مقصرين عن ايفائها ما تستحق من شرح وتصنيف وتحليل وتقويم ولانبالغ عندما نقول : ان دراسة شاملة لحياة محب الدين الخطيب تكون دراسة دقيقة لسير النضال العربي ومسيرته طوال نصف قرن كما أن دراسة شاملة لاوراقه توفر سجلا أمينا مفصلا غنيا بوثائق متنوعة لذلك السير وهذه المسيرة في مرحلة الريادة للنضال العربي في القرن العشرين .

*** معالم شخصية محب الدين الخطيب :**

لقد اختار المناضل العربي السوري محب الدين الخطيب عنوانا لمذكراته يدل على معالم شخصيته الفذة ألا وهو (سيرة جيل) (١) وهو فعلا بشخصيته المتعددة الجوانب (سيرة جيل) ، فهو شخصية قومية من الرعيل الاول للحركة القومية الاولى ومن روادها الذين نشعر بهم الان ونحس بضرورة احياء نضالهم وتراثهم ومن هذا الرعيل : الشهداء عبد الغني العريسي وعارف الشهابي وعبد الحميد الزهراوي وعبد الكريم الخليل ومحمد محمود المحمصاني وغيرهم .

والرواد : عزت الجندي وعوني عبد الهادي والدكتور احمد قدري وعزيز علي المصري وكامل القصاب ومحمد رشيد رضا ورفيق العظم وغيرهم .

وهو شخصية متعددة الجوانب نادرة التكوين : فيه الجانب الفكري والجانب الصحافي والجانب الادبي والجانب السياسي بصفته النضالية

---

(١)- هي مذكرات مخطوطة لم تطبع بعد حتى ١٩٧٦ كما علمت من ابنه قصي محب الدين .

والتنظيمية والجانب الديني الذي اشتهر به .

وفوق ذلك كان يتميز كما تثبت مكتبته (١) و(اوراقه) بصفة خاصة بقدرته العجيبة وكفاءته المنقطعة النظير، بالمحافظة على (الاوراق) مهما كان نوعها (٣) ولا أدعي انني قمت بدراستها أوقرأت كل محتوياتها ولكنني قمت بمجهود متواضع استغرق مني بضعة اسابيع تمكنت من الاطلاع عليها وعرفت محتوياتها في نطاق الاضواء التي ألقاها على بعضها (محب الدين الخطيب) رحمه الله جوابا على عدد من الاسئلة كنت قد وجهتها اليه من سنة (١٩٦٦-١٩٦٩) .

وسأقدم لقراء مجلة البحث التاريخي دراسة عن محب الدين الخطيب أقدم فيها الجانب السياسي بصفتيه النضالية والتنظيمية من خلال الوثائق الحزبية والاوراق التي تدور حول المهمات التي كلف بها والاوراق التي تدور حول المؤتمرات مثل مؤتمر باريس وبعض الاوراق الصحفية تاركا لغيري من الباحثين الاختصاصيين دراسة الجوانب الاخرى كل حسب اختصاصه .

* محب الدين الخطيب والتنظيمات الحزبية :

لقد أسس الخطيب وساهم في تأسيس عدد من الاحزاب بدأها (بحلقة دمشق الصغرى) سنة (١٩٠٣)(٤) وكان طالبا في المرحلة الثانوية ثم اسس جمعية (النهضة العربية) في استانبول في (١٩٠٧/٧/١٣) وفرع جمعية النهضة في دمشق في (١٩٠٧/٨/١٦) والفرع الرابع عشر لجمعية (الشورى العثمانية) في اليمن اوائل (١٩٠٨) واشترك في تأسيس حزب (اللامركزية الادارية العثماني) وجمعية الدول العربية التي عرفت بجمعية (الوحدة العربية) فيما بعد بين (١٩١٢-١٩١٣) في القاهرة ثم أسس اللجنة الوطنية العليا وفروع

---

(٢)- تضم مكتبة آل الخطيب في القاهرة مايقارب (٢٥٠٠٠) كتابا وما يعادل (١٠٠،٠٠٠) مجلد مثلا كتاب الطبري يعد كتابا واحدا ولكنه (٣٠) الف مجلد .

(٣)- راجع بحوث في التاريخ الحديث من صفحة (١٠١ الى صفحة ١٢٧) .

(٤)- من اعضائها الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبد الرزاق البيطار وسليم البخاري وفارس الخوري ورفيق العظم ومحمد كرد علي وعبد الحميد الزهراوي وسليم الجزائري وشكري العسلي .

اللجان الوطنية في دمشق اوائل عام (١٩٢٠) ومما يلفت النظر حقا وتجدر الاشارة اليه انه كان يحتفظ لنفسه بمركز (كاتم السر) في هذه الاحزاب .

كما كان عضوا في الجمعية القحطانية وجمعية الشورى العثمانية وجمعية (العربية الفتاة) وحزب الاستقلال أحد فروع حزب الفتاة .

وقد قام بعدد من المهام الحزبية كلف بها على فترات كان اهمها في اليمن ونجد وباريس والبصرة كما تشير الوثائق ، كما أصدر صحفاً منها : صحيفة (القبلة) في الحجاز وصحيفة (العاصمة الرسمية) في دمشق ومجلة (الزهراء) و صحيفة (الفتح) والمجلة (السلفية) في مصر ، وساهم في تحرير جريدة (المؤيد) من اول ايلول (١٩٠٩) وبقي الى ما بعد وفاة الشيخ علي يوسف وفي هذه الاثناء أسس المكتبة السلفية كما التحق بقلم تحرير الاهرام (١٩٢٠ الى ١٩٢٥) كما كتب في كثير من المجلات مثل (المقتطف والتمدن الاسلامي) .

* النزوع القومي عند محب الدين الخطيب :

تثبت الوثائق الحزبية ان محب الدين الخطيب أسس حلقة دمشق الصغرى أسوة بحلقة دمشق الكبرى التي أسسها الشيخ طاهر الجزائري(١) ، وكان يلازم الاجتماع في الحلقتين (ليكون الصلة بينهما) أما محب الدين الخطيب فيقول في مذكراته (سيرة الجيل) كنا نتردد انا ورفاقي في مكتب عنبر بدمشق على حلقة الشيخ طاهر الجزائري لحضور الندوات والاجتماعات ثم اتفقنا على تأسيس حلقة سرية سياسية في دمشق (١٩٠٣) كان من اعضائها زملاء الدراسة صلاح الدين القاسمي وعارف الشهابي وصالح قنباز اما خارج المدرسة فكان من اعضائها لطفي الحفار ورشدي الحكيم ولا بأس من الاشارة الى أن الوثائق والصور تشير الى وجود اسماء أخرى منها : عثمان مردم وزكي الخطيب وسيف الدين الخطيب .

ويبرر محب الدين الخطيب تردده ورفاقه على حلقة دمشق الكبرى بقوله لان المعلم الذي كان يعلمنا اللغة العربية وصرفها هو معلم تركي وشيخ مسن يعلمنا اللغة العربية من كتاب باللغة التركية اسمه (المشذب) وهذا المعلم لا يكاد يعرف النطق باللغة العربية ، ومن هذا المناخ حدد طلاب مكتب (عنبر)

---

(١)ـ من اعضائها الشيخ جمال الدين القاسمي ، الشيخ عبد الرزاق البيطار سليم البخاري وفارس الخوري ومحمد كرد علي وعبد الحميد الزهراوي وسليم الجزائري وشكري العسلي .

هدف الحلقة وهو : تعريف شباب العرب المثقف بعروبتهم ودعوتهم الى التعاون في اصلاح المجتمع العربي من جبال طوروس الى باب المندب .

ولم يكن الكلام مجرد كلام انشائي او حبراً على ورق ذلك ان محب الدين الخطيب ورفاقه انطلقوا فعلا واتخذوا خطوات ايجابية لتدعيم فكرتهم فأسسوا غرفاً للمطالعة وساهموا في التعليم بالمدارس الاهلية بالمجان واقتصروا في دعوتهم السرية على برنامج سياسي محدود وهو مطالبة الدولة العثمانية باتخاذ نظام لامركزي(١) يضمن للعرب حقوقهم في الحكم ويجعل لغتهم في الولايات العربية لغة رسمية في مدارس الحكومة ودواوينها ومحاكمها (٢) .

وقد توسع انتشار حلقة دمشق الصغرى عندما سافر عدد من اعضائها الى بيروت واتصلوا بزملائهم في الكلية الاميركية وكلية الشيخ عباس الازهري وانضم الى عضويتها هناك عارف النكدي وعبدالغني العريسي ومحمد المحمصاني والامير عادل ارسلان (٣) وغيرهم .

وعندما انتقل عدد من اعضاء الحلقة المؤسسين الى استامبول للدراسة وكان منهم محب الدين الخطيب وعارف الشهابي تحولت حلقة دمشق الصغرى الى جمعية سياسية هي جمعية (النهضة العربية) وكان ذلك سنة (١٣٢٤ هـ ١٩٠٦م) وانضم اليهم عبد الكريم قاسم الخليل وشكري الجندي وغيرهما .

وتشبع قيمة البداءات القوميه لهؤلاء الرواد الذين وعوا قيمة التنظيم فاتخذوه تجسيماً لشعورهم القومي بكونها ترد رداً مفحما على كل شعوبي يدعي بان القومية لم تعرف الا عن طريق الدول الاوربية وسفاراتها او قنصلياتها في البلاد العربية اوعن طريق الارساليات عندما يحاولون تأسيسها على آساس طائفي لغاية في نفسهم .

---

(١)- اول حزب نادى باللامركزية الادارية هو حزب (التشبث الشخصي واللامركزية الادارية) الذي تشكل اثر انعقاد مؤتمر باريس الذي عقده (الاحرار العثمانيون) ١٩٠٢ اما رئيس المؤتمر ثم رئيس الحزب فهو الامير صباح الدين ابن الداماد محمود باشا وكان مركز الحزب مدينة باريس وكان رفيق وشفيق العظم وغيرهما من الاعضاء العرب في الحزب .

(٢)- مصطفى الشهابي - القومية العربية (صفحة ٥٣) .

(٣) - مصطفى الشهابي ،القومية العربية (ص٥٣) ومذكرات محب الدين الخطيب (سيرة جيل) .

ان النزوع القومي ينبع عندهؤلاء الرواد من حبهم لبلادهم فقد ادركوا بوعي وهم على خشبة الدراسة في المراحل الثانوية ان التناقضات القائمة في الامبراطورية العثمانية تقتضي وجوب حلول لها في داخل الامبراطورية العثمانية نفسها سواء أكانت هذه التناقضات تتصل بنظام الحكم نفسه في داخل الامبراطورية مثل قضية الاستبداد والشورى وغيرها او التناقضات التي كانت تتصل بحقوق القوميات التي تتألف منها شعوب هذه الامبراطورية سواء كان مدى مشاركتها في الحكم مثلا او ممارستها لحقوقها القومية وقد نما الوعي القومي على تلك التناقضات وضرورة حلها عند المسلمين والمسيحيين بعد نداءات المصلحين ودعواتهم الى الاصلاح من جهة والتفاعل بين الامبراطورية وبين اوربا من جهة أخرى .

وقد ظهر جليا لهؤلاء الطلبة الرواد انه لايمكن حل تلك التناقضات من خلال النشاطات الفردية كدعوات المصلحين اومخاطبة السلطان ومناشدته الاصلاح والتوسل اليه ، فترتب على ذلك نشوء الحاجة الى العمل الجماعي المنظم ونشوء الجمعيات التي تحل محل الافراد وقد زاد في نمو وتطور هذا الوعي ضياع قسم كبير من البلاد العربية ، دون استطاعة الدولة العثمانية الدفاع عنه او الاحتفاظ به ، مما أدى بهؤلاء الرواد الى تأسيس احزاب جديدة بمفاهيم جديدة اكثر ثورية ، خصوصا بعد ضياع طرابلس الغرب اذ تخطى العمل الحزبي بشكل علمي مرحلة اللامركزية الى مرحلة الاستقلال كما سنرى في دراسات قادمة .

ومما يؤيد وجهة نظرنا هذه أن هؤلاء الطلبة الروّاد هم أنفسهم الذين أسسوا الاحزاب العربية ذات النزوع القومي والهدف الاستقلالي فيما بعد .

وهم الذين أسسوا الجمعية القحطانية والعربية الفتاة والمنتدى الادبي وحزب اللامركزية وحزب العهد وغيره .

أما مضمون الفكر السياسي عند محب الدين الخطيب فانه ينطلق من تأكيد القيم الدينية ومن التركيز على القومية العربية فيتفاعل الاساس الديني والاساس القومي عنده ليقدم لنا سمات فكره السياسي .

والخطيب الى جانب منطلقه العقائدي الاول كمؤمن مسلم فهو تجاه مسألة المجتمع الانساني في هيئته وحدوده ومقوماته قد واجه المسألة القومية وادركها وهو كذلك قد أدرك ارتباط القومية بالحقوق السياسية

القومية اي بالدولة القومية بصورة لاتقيم تناقضا بين المنطلقين الديني والانساني والقومي الاجتماعي .

لقد دعا محب الدين الخطيب الى عقد اجتماع في الحديقة البصرية في جزيرة بيوك (وهي مصيف شهير لاستامبول) صباح الثلاثاء (٥) جمادى الاخرة (١٣٢٥ هـ الموافق ١٣ تموز ١٩٠٧) لاعلان تأسيس جمعية النهضة العربية ماذا قال الخطيب في كلمته ؟ ..

أعلن محب الدين الخطيب في كلمته (عن مولد) جمعية النهضة العربية كما أعلن مبادئ الجمعية وتتخلص في :

آ- ان العروبة أكرم عناصر الجامعة الاسلامية .

ب- ان العربية هي المسؤولة عن حمل رسالة الاسلام وتجديد شبابه وذلك بازالة الاسباب التي فرضتها الدولة العثمانية .

ثم أخذ يحدد هذه الاسباب منها : استعجام اللغة العربية وتجاهل ما كان يقع في الغرب من نهضة في الصناعة والعلم والتنظيم .

وهذه المبادئ تؤكد لنا بان الفكر السياسي في الوطن العربي وهو في مرحلة اليقظة مع مطلع هذا القرن كان تجسيما لتفاعل الحركتين التاريخيتين الكبيرتين حركة اليقظة الاصلية التي تتجه للتراث بحثا عن مضامين الحياة السليمة وحركة اليقظة المتأثرة بالغرب والمواجهة له فنجدها في افكار الثوار والمصلحين بشكل يتفاوت من مفكر الى آخر وفقا لنشأته وثقافته ووفقا للمنطقة من الوطن العربي الذي تركز نشاطه فيها ، ولكننا في جميع الاحوال نجد ذلك الاثر واضحا لانفتقده بالنسبة لاي مفكر أو أية دعوة .

كما أعلن الخطيب في هذا الاجتماع اهداف الجمعية كالاتي :

آ- تعريف شباب العرب المثقفين بعروبتهم .

ب- دعوتهم الى التعاون في اصلاح المجتمع العثماني الذي كان يتوقف على صلاحه صلاح المجتمع العربي من جبال طوروس الى باب المندب .

ومن باب الحذر استقر الرأي على أن تكون الجمعية سرية ومركزها استامبول وفي (٦ آب ١٩٠٧) الموافق (٧رجب ١٣٢٥هـ) تأسس فرع الجمعية في دمشق باشراف صلاح الدين القاسمي ولطفي الحفار .

* فعاليات محب الدين الخطيب ونشاطاته :

لقد شكل اعضاء جمعية النهضة العربية في استامبول حلقتين لتقوية الطلاب باللغة العربية وتقويم لسانهم ، وأشرف محب الدين الخطيب بنفسه على احداها بينما أشرف الامير عارف الشهابي على الحلقة الاخرى .

واقتضت فعاليات محب الدين الخطيب ونشاطاته بأن يغادر استامبول عائدا الى دمشق خوفا من ملاحقة السلطات العثمانية له ، فتابع التحاقة بحلقة دمشق الكبرى وتعهد برعاية جمعية النهضة العربية في الوطن الام والاشراف على الحلقة الصغرى .

وقد خشي عليه اخوانه من ملاحقة السلطات العثمانية له ، وأشاروا عليه في قبول وظيفة (ترجمان) في القنصلية البريطانية في الحديدة ، رشحه اليها صديقه (سليم الجزائري) وهكذا غادر دمشق في (١٥ تشرين الاول ١٩٠٧) متوجها الى اليمن ووصل اليها في (٢٧ تشرين الثاني بعد أن عرج في طريقه على بيروت ثم على القاهرة حيث قابل فيها الشيخ طاهر الجزائري واعضاء جمعية الشورى العثمانية رشيد رضا ورفيق العظم وغيرهما وكلف من قبلهم بتشكيل فرع للجمعية في اليمن وعلم أن حاكم مركز الحديده وهو البكباشي شوقي بك المؤيد العظم ابن عم رفيق وحقي العظم فاطلعه على قانون الجمعية وجريدتها التي تصدرها في القاهرة بالتركية والعربية فارشده بدوره الى طائفة من الضباط الاحرار الذين أبعدوا الى اليمن عقوبة على نزوعهم للحرية وكراهيتهم للحكم الفردي وميلهم الى الحياة النيابية وبفضل هؤلاء ومساعدتهم (صار لجمعية الشورى العثمانية في الحديدة الفرع الرابع عشر) واتسع نطاق نشاط محب الدين الخطيب في اليمن باتساع فروع الجمعية مع مواصلة نشاطه السابق بالمكاتبة الى اخوانه في دمشق واستامبول والقاهرة ومن اهم الاعمال التي قام فيها باليمن مع اعضاء جمعية الشورى واعضاء جمعية النهضة العربية - فرع اليمن - نشر انباء ثورة تموز (١٩٠٨) بقيادة أنور ونيازي ومطالبة الثورة بالدستور .

ان فعاليات محب الدين الخطيب ونشاطاته تبين لنا بشكل واضح مدى ايمانه بوحدة هذا الوطن من جبال طوروس الى باب المندب كما اعلنها

ورفاقه هدفا من أهداف جمعية النهضة العربية .

*** الصراع بين الاتحاديين واعضاء جمعية النهضة العربية :**

ان أهداف الجمعية تدل بشكل واضح على وعي هؤلاء الرواد لقوميتهم العربية ووعيهم للمكانة التي يجب أن تتمتع بها هذه القومية في ربوع الامبراطورية العثمانية ، ولذلك كانت مشكلة القوميات وتشبثها بالمساواة في الحقوق السياسية والقومية من أهم المشاكل التي واجهت حزب الاتحاد والترقي غداة انقلاب (١٩٠٨) الدستوري وكان امام هذا الحزب - الديناميكي - مشكلة تتلخص في كيفية استقطاب هذه الاحزاب وفي مقدمتها جمعية النهضة العربية .

ذلك أن العرب واحزابهم شاركوا جمعية الاتحاد والترقي افراح الاحتفال بالانقلاب الدستوري كما شارك الطلاب العرب في استامبول آملاً منهم وتطلعا الى عهد جديد من الحرية الفردية والعربية .

ولم يكتف فرع جمعية النهضة العربية في دمشق بالاحتفال فقط بل توافد أعضاؤه في اليوم الثاني لاعلان الدستور الى مقهى القوتلي في دمشق واعلنوا عن أنفسهم كجمعية قومية عربية وهكذا أصبحت جمعية النهضة علنية بعد أن كانت سرية .

وقام الخطباء من أعضاء الجمعية يلقون بكلماتهم الوطنية المعبرة عن اتجاهات جمعيتهم وآمالها وكيف كانوا يعدون العدة لمثل هذا اليوم بتهيئة رجال للمستقبل على مبادىء دستورية ، ثم تتشكل الجمعيات وتتألف القلوب على مبدأ واحد وفكر واحد حتى اذا ما حصل انفجار كهذا يكون منهم رجال عاملون في أن يتقدم (الاحرار) وحزبهم على حزب التقهقر ويسعى الجميع لبذل النفس والنفيس لتنفيذ أحكام القانون الاساسي (١) .

كان من الطبيعي - بعد أن كشفت جمعية النهضة العربية أوراقها - أن ترى نفسها وجها لوجه أمام حزب الاتحاد والترقي لدى تطبيقه مبادىء برنامجه في التتريك والمركزية والتنكر لمطالب تلك الجمعيات القومية .

ونتيجة لذلك مرت جمعية النهضة العربية بتطورات كبيرة بعد فشل الانقلاب المضاد (١٩٠٩) اذ عاد الاتحاديون الى الحكم أكثر شراسة وتحديا للقوميين عموما أي جميع القوميات التي تتكون منها الامبراطورية العثمانية - بما فيهم العرب على النحو التالي :

---

(١) - صلاح الدين القاسمي - آثاره (ص ٣٧) .

طلب الاتحاديون تغيير اسم الجمعية بعد تصديق المادة الرابعة من قانون الجمعيات (١) فعقد الاعضاء جلسة أقروا فيها تغيير اسم الجمعية الى جمعية النهضة السورية (بدلا من العربية) وعندما قدمت الجمعية نظامها ودستورها لحكومة الاتحاديين من أجل الحصول على الترخيص القانوني لها تحت اسمها الجديد رفض طلبها وردت أوراقها .

لذلك اضطرت جمعية النهضة السورية الى تغيير اسمها مرة أخرى عندما قررت في جلستها العامة التي عقدت ليلة السبت (١٣ربيع اول ١٣٢٧) قبول التعديل الذي أدخلته اللجنة الادارية على قانونها (رعاية لما يقتضيه الحال وناموس بقاء الانسب) وأجازت تغيير اسم جمعية النهضة السورية باسم (النهضة) فقط .

وقد أرفقت الجمعية هذا القرار بنظامها الاساسي والداخلي وطلبت الترخيص القانوني لها على أساس ذلك (٢) ولكن حكومة الاتحاد والترقي لم تمنح الترخيص للجمعية الا بعد أن أدخلت تعديلات أخرى على هذا النظام الاساسي نفسه بحيث تحولت جمعية النهضة العربية السياسية ثم النهضة السورية الى جمعية علمية ثقافية مرخصة تعرف باسم جمعية النهضة على اساس الدستور الذي أقره الاتحاديون بعد مماطلة دامت سنتين واكثر من (١٩٠٨- ١٩١٠م) أخذ الاتحاديون خلالها في ملاحقة أعضاء الجمعية وتشديد الحصار عليهم في الاستانة مما أدى الى هجرة أكثرية الاعضاء وعودتهم الى وطنهم الاصلي .

* محب الدين الخطيب وحزب اللامركزية :(٣):

اقتضت الاحداث أن يعود محب الدين الخطيب من اليمن الى دمشق وأمام ضغط الاتحاديين ومطاردتهم له توجه الى القاهرة ثانية ليمارس نشاطه الحزبي متخذا من الصحف مجالا لنشر أفكاره ومبادئه حتى تأسس حزب اللامركزية في القاهرة وأواخر (١٩١٢) وأول (١٩١٣) فكان محب الدين الخطيب

---

(١) – راجع نص المادة الرابعة من (ص ٨٧ – ٨٨) مجلة البحث التاريخي العدد الثاني .

(٢)– وجدت القانون المقترح للجمعية وقانونها المعدل بين وثائق محب الدين الخطيب .

(٣)– سنتناول حزب اللامركزية في بحث خاص نقدمه للاخوة قراء مجلتنا الاعزاء .

(كاتم السر الثاني) للحزب(١) .

وقد نشأ هذا الحزب حزباً علنياً في مصر أثر ضياع طرابلس الغرب، حيث آمن العرب الشاميون المقيمون في القاهرة أن الامبراطورية العثمانية غير قادرة على حماية حدودها أو على تطبيق نظامها المركزي الاداري .

وكان طبيعياً أن يكون أحد مؤسسيه محب الدين الخطيب الذي آمن بوحدة هذا الوطن ورشيد رضا الذي يقول(كنا نعتقد أن الدولة لا يمكن أن تعيش طويلاً اذا أصرت على شكل حكومتها المركزي وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة (٢) . هذا بالاضافة الى رفيق العظم رئيس الحزب وحقي العظم كاتم السر الثاني واسكندر عمون وغيرهم .

* الخطيب عضو (الارتباط) الحزبي :

ان حزب اللامركزية تأسس في مصر في نفس السنة التي بدىء بها بتأسيس الجمعيات الاصلاحية في بيروت ودمشق وغيرها في فترة حكم حزب الحرية والائتلاف وكانت الغاية الاساسية للاعضاء المؤسسين الوصول الى تحقيق اللامركزية الادارية عن طريق هذه الجمعيات الاصلاحية ولكن عندما حدثت في عاصمة السلطنة ضربة الحكومة المؤيدة من حزب الحرية والائتلاف وعاد حزب الاتحاد والترقي الى الحكم ثانية في (١٩١٣/١/٢٣) كان أول عمل قام به الاتحاديون تجاه الولايات العربية الغاء هذه الجمعيات الاصلاحية واغلاق منتدياتها قبل أن تنتهي هذه الجمعيات الاصلاحية من وضع برامجها (٣) .

كانت باريس المركز الرئيسي لجمعية العربية الفتاة السرية اثناء سير هذه الحوادث وقد خشي أعضاء الجمعية من قتل روح الاصلاح عند العرب بعد هذا الجو الارهابي الذي فرضه الاتحاديون ، فتقدموا للعمل حسب مبادىء حزبهم السري والاسس القومية التي يؤمنون بها (٤) .

---

(١)- مصطفى الشهابي - القومية العربية (ص ٨١) .

(٢)- رفيق العظم - آثاره من المقدمة بقلم رشيد رضا .

(٣)- ساطع الحصري - محاضرات في نشوء الفكرة القومية (ص ١٨٩) .

(٤)- ان حزب العربية الفتاة جدير بعدة دراسات لاهميته ومكانته القومية .

وقدجاءت المبادرة من قبل قيادة حزب الفتاة للاتصال بالاحزاب العربية الاصلاحية في هذا الوقت وهي : حزب اللامركزية العلني في مصروكان أول تأسيسه ثم الجمعيات الاصلاحية في دمشق وبيروت والبصرة وغيرها .

اتصلت القيادة المركزية للحزب باعضائها في فرع بيروت وطلبوا منهم موآزرة الحركة الاصلاحية التي ينادي بها أهالي بيروت .

أما بالنسبة لمصرفلم يكن للعربية الفتاة فرع ولا أعضاء فيها لذلك أخذ عبد الغني العريسي مكاتبة صديقه محب الدين الخطيب ، عضو حزب اللامركزية يدعوه للدخول معهم في حزب العربية الفتاة ولذلك نرى اسم محب الدين الخطيب في قائمة أسماء أعضاء الفتاة على الشكل التالي :

الاسم	البلدة	التاريخ	واسطة الانتساب	الرمز الجزئي
محب الدين الخطيب	دمشق	١٩١٣	عبد الغني العريسي مكاتبة	١٨٩/ ط ٠ لا

وعندما تم للعريسي ما أراد ، طلب من الخطيب أن يكون صلة الوصل بين الحزبين الكبيرين من جهة وبين الجمعيات الاصلاحية في بيروت ودمشق وأوصاه (بالتكتم الشديد والتجاهل العميق) كما طلب منه أن يرسل امضاءه الصريح من المرة الاولى حتى يرسل له صورة القبول من المركز ثم يأخذ النمرة التي سيتخابر بها معه دون الاسم ويعلل العريسي هذه التكتمات كما يلي :

١- حتى لا يتفهم الاصدقاء من القرائن حقيقة الامر ومصادر المنشورات

٢- لان الغاية الاساسية هي الوصول الى تحقيق المبدأ شيئا فشيئا دون المجاهرة بالاسماء والمظاهرة بالعمل .

ثم طلب العريسي من العضو الجديد ، محب الدين الخطيب عدة طلبات أهمها :

١- تمزيق كل الرسائل المتبادلة التي تصل عن اعمال الحزب لانه يحدث في الدقائق من الذهول ما لا يخطر في بال أحد فتوطيدا للطمأنينة افعل كما أشير عليك .

٢- عدم تبليغ سلامه لاي فرد من الاخوان لان السلام عليهم سيصلهم

من غيرطريق (فالوطنية تتطلب الاعمال الخفية كثيرا) ٠

وكان امضاء العريسي اوبالاحرى رقمه في باريس هوالرقم (٢١) (١) ٠

قام العضومحب الدين الخطيب بالاتصال بزميل الدراسة عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي في الاستانة ورشحه ليكون عضوحزب اللامركزية وصلة الوصل بين الحزب والجمعيات الاصلاحية في بيروت وكانت ضربة حزبية ناجحة سجلت لصالح محب الدين الخطيب اذسرعان ماتم قبول الخليل في الحزب ورشح ليكون صلة الوصل بين اللامركزية والجمعيات الاصلاحية على النحو التالي :

قررحزب اللامركزية الاتصال باعضاء الجمعية الاصلاحية في بيروت وقدموا لهم برنامج الحزب ، مع عبد الكريم الخليل واقترح اعضاء حزب اللامركزية طلب الاصلاح لجميع الولايات السورية بدلا من طلب الاصلاح لولاية بيروت فقط ،وان تكون طلباتهم حسب مواد حزب اللامركزية التي سيرشحها لهم عبد الكريم الخليل دون الاشارة الى اسم الحزب وبيّن اعضاء اللامركزية غرضهم من هذا الاتصال من اعضاء جمعية بيروت بقولهم : حتى نكون يدا واحدة في العمل والمطالبة بتحقيق مبادىء الحزب ثم طلبوا أن تكون المكاتبات مع حزب اللامركزية عن طريق حقي العظم احد كتاب السر للحزب (٢) ٠

وهكذا تمكن حزب العربية الفتاة من الاتصال بالحركتين العلنيتين الكبيرتين آنذاك حزب اللامركزية في مصر، والجمعيات الاصلاحية في بيروت ودمشق عن طريق محب الدين الخطيب ٠

وبهذا الارتباط الحزبي واجهت الاحزاب العربية تحديات الاتحاديين وموقفهم من الحركات الاصلاحية في البلاد ولم يكن هذا المخطط الحزبي حبرا على ورق اومجرد كلام متبادل ، اذسرعان ماظهرتأييد هذه الاحزاب بعضها للاخرفي مواجهة الاحداث التي جاءت سريعة ومستفزة من الاتحاديين ولكن لامجال لذكرها الان في بحثنا هذا ٠

---

(١)- كل هذه الوثائق موجودة بخط العريسي في مكتبة محب الدين الخطيب ٠

(٢)- وثيقة حزبية في مكتبة محب الدين الخطيب (اوراق حزب اللامركزية) ٠

غير أنه يمكننا القول أن الصراع بقي قائما بين الاحزاب العربية والمنتدى الادبي ، من جهة والاتحاديين من جهة ثانية حول تطبيق البرامج الاصلاحية فترة طويلة ، دون جدوى وعندما فكر أعضاء حزب العربية الفتاة بتخطي هذ العمل الحزبي الى عمل حزبي اكثر صلابة واكثر ايجابية لمواجهة الاتحاديين وكان هذ العمل هو عقد مؤتمر باريس (الجمهوري) وكان صلة الوصل أيضا بين الاحزاب هو العضو محب الدين الخطيب .

ذلك أنه عندما عقدت لجنة المؤتمر جلسة في (١٩١٣/٤/٤) قررت أن ترسل كتابا الى اللجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة تعرض عليها فيه ان يتبنى المؤتمر وان تعهد رئاسته الى أحد ممثلي حزب اللامركزية .

وفي نفس التاريخ ارسل عضو حزب الفتاة وعضو لجنة تحضير المؤتمر عبد الغني العريسي ، كتابا الى زميله عضو حزب الفتاة وحزب اللامركزية محب الدين الخطيب رسالة جاء فيها (نحن قررنا أن نلتحق بكم كما سيرد صورة للالتحاق الى حزب اللامركزية في مصر لنكون يدا واحدة في العمل ، قلت لك أن جمعيتنا هي القائمة بالمؤتمر دون أن يدرك ذلك أحد من أعضاء المؤتمر نقرر ونسير المؤتمر حسب ما نقرر في جلساتنا ، وقد قررنا قبل أن يحرر كتابك بلزوم دعوة الحزب الى ايفاد احد اعضائه لتسند الرئاسة لمن توفدونه ، فرجاؤنا أن تشجعوا عبد الحميد أفندي الزهراوي برئاسة المؤتمر في باريس ، وان لم يكن في استطاعته المجيء .. فعليكم بشفيق بك ، وآخرين وب عن ولاية سورية كحقي بك) ثم يعدد العريسي لمحب الخطيب الوفود التي ستحضر المؤتمر واسماء الاشخاص المؤيدين له ثم يخبره عن (الشيفرة) التي تستعملها الجمعية لئلا يلحق بعض الاخوان ضررو هي :

بزغ فجروطنك   مت لعضد شخصي   امي ثقة ظسد

فالباء تقابل العدد الواحد وهكذا كيفية الكتابة (عبد) تكتب هكذا :
١٤-١-١٦ (رفيق) : ٦ - ٤ - ٢٢ - ٢٤ -

ثم يشير العريسي في رسالته الى محب الخطيب ان يتكاتب ويتفاهم مع مركز الحزب في بيروت بواسطة هذه اللغة على أن يخصني بالرقم (٢٨) كما يؤكد له اعتزازه بان مركز بيروت هو صاحب الفكرة الاصلاحية فيها ولا يزال

هو العامل فيها (١) .

وقد بقي محب الخطيب يهيىء مناخا ايجابيا يتقبل مخطط الفتاة حتى استلمت الهيئة الادارية لحزب اللامركزية من لجنة المؤتمر في باريس رسالة بينت اللجنة فيها كيف انها ستعهد برئاسته الى أحد اعضاء حزب اللامركزية كما بينت الغاية من عقد المؤتمر والدعوة اليه .

وفي نهاية المطاف تلقت اللجنة التحضيرية لمؤتمر باريس جوابا من اللجنة العليا لحزب اللامركزية مؤرخا في (١٤ نيسان ١٩١٣) توافق فيه على تبني المؤتمر وذلك بعد أن أقرت اللجنة العليا للحزب في جلستها المنعقدة يوم الجمعة (١١ نيسان) (قبول اقتراح لجنة المؤتمر وتعيين وفد يمثل اللجنة العليا لحزب اللامركزية هناك (١) .

كما أقرت اللجنة العليا لحزب اللامركزية ارسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر على أن يكون لهم حق النظر والمشاركة في موضوعات المؤتمر حتى تكون موافقة لمبادىء الحزب وبرنامجه ، وأكدت لجنة الحزب تمنياتها في أن يكون هذا الاتفاق مبدأ ودو سعيد للامة العربية بتضافر أبنائها .

لقد كان محب الدين الخطيب في مؤتمر باريس كعادته رجل عمل وعطاء من وراء ستار ، فقد جمع أوراق المؤتمر وأصدرها في كتاب تحت اسم (المؤتمر العربي الاول (١٩١٣) فقدم بذلك سجلا وثائقيا أمينا لابناء الامة العربية يدور حول اول صيغة (جبهوية) عربية .

اننا سنقدم دراسة وثائقية أخرى حول (الفكر السياسي) عند محب الدين الخطيب نستقيها من وثائق حزبي العربية الفتاة واللامركزية الادارية

رحم الله محب الدين الخطيب .. ألم أقل لكم أنه مهما طال بحثنا حول حياته ووثائقه وأوراقه وفعالياته فاننا نبقى مقصرين .

رحم الله محب الدين الخطيب .... فقد كانت حياته

- امتدادا - عبر المكان

- عصرا - عبر الزمان

ولعله المناضل العربي الوحيد الذي يتميز بهذا الشمول .

==

(١)- من وثيقة بخط العريسي بين اوراق محب الدين الخطيب .

(١)- محب الدين الخطيب - المؤتمر العربي الاول في باريس (ص ٨) .

دور المؤسسات الحموية في حركة النهضة خلال الربع الأول من القرن العشرين

الأستاذ عدنان قيطاز

كانت سورية في القرن الماضي مقسمة الى عدد من الولايات كما هو معروف ، ولم تكن حماة ابان تلك الفترة من الزمن سوى مدينة صغيرة من ملحقات لواء حمص ، غير أن مركز اللواء سرعان ما انتقل من حمص الى حماة أيام هولو باشا عابدزادة الذي أصبح قائمقام حماة عام (١٨٦٨) فأعطى المدينة دوراً قيادياً في حكومة اللواء ، وكانت هذه الحكومة تتألف من أربعة مجالس ، وفقاً للقاعدة السائدة في ولايات سورية كلها ، فالمجلس الاول للادارة ، والثاني للدعاوي ، والثالث للتجارة ، والرابع للبلدية (١) ويأتي على رأس هؤلاء متصرف اللواء الذي كان يمارس صلاحياته المطلقة وفق مشيئته وذكائه ، تساعده قوة عثمانية تشد أزره وتحمي ظهره ، ولكنها لاتستطيع أن تحميه من ارادة الباب العالي عندما يعزل أو ينقل .. ذلك أن عادة تغيير حكام الولايات أو الالوية كان أمراً شائعاً مألوفاً ، فقد تعاقب عدد من الحكام على لواء حماة في فترة قصيرة من الزمن ، ويعزو المؤرخون ذلك الى خوف السلطان من ازدياد نفوذهم ، وربما طمعاً بالاموال التي يجمعونها ثمناً لمنصب جديد ، أو كسباً لامتيازات أوفى من حضرة السلطان ، وقد بقيت هذه التركيبة الادارية قائمة حتى نهاية الحكم العثماني .

أما المجتمع فكان طبقياً ، والمتنفذون فيه هم الذين يدينون بالولاء لاتباع السلطان من طبقة الاقطاعيين ، وطبقة العسكريين ، وطبقة رجال الدين ، وكانت المناصب الدينية لاتتم الا بادارة سنية ، وكثيراً ما كانت ارادة السلطان تصطدم بمقاومة من العلماء المحليين وبخاصة الاشراف . ويلاحظ أنه في بعض المدن السورية كانت بعض المناصب الدينية تتوارثها أسرة معينة لها حظ من الحسب والنسب كنقابة الاشراف في حماة حيث كانت الاسرة الكيلانية تتمتع بمثل هذا الحق ، ويسري الامر

نفسه على مناصب الافتاء كما كان عليه الحال في مدينة دمشق (٢) .

أما في حماة فتشير المصادر الى أن منصب الافتاء كان يتم عن طريق الانتخاب من قبل السكان ، وليس بالتعيين أو الوراثة ، ويحظى بمنصب الافتاء من كان مستأهلا له جديرا به ، ولكن جريدة لسان الشرق الحموية (٣) سجلت احتجاجا للعلماء على الطريقة التي يتم بها اختيار المفتي ، فقد طلبوا من متصرف لواء حماة ناظم بك أن يكون انتخاب المفتي منحصرا في العلماء انفسهم خلافا لارادة السلطان (لانهم هم أهل العلم بمن يصلح أن يكون مفتيا) . ويعد هذا الاحتجاج نتيجة تبلر الافكار الوطنية اثر حركة اليقظة العربية .

وقد تلاه انتفاضة اجتماعية قام بها الفقراء على الاغنياء كرد فعل للسياسة الاقتصادية الحرة التي تقوم على الاحتكار والتلاعب بالاسعار وحرمان السواد الاعظم من عمال وفلاحين من القوت الضروري الذي تنتجه أرضهم ويسقونه مع المطر قطرات الدموع وحبات العرق ، فكان نهب الحبوب من بيوت التجار بمثابة تحد جديد للسياسة العثمانية الآفلة . وقد سرت عدوى الانتفاضة الاجتماعية من حماة الى حمص ،ثم انتقلت الى عدد من المدن السورية (٤) .

كما جاء رد فعل آخر من بعض الفئات المتنورة التي حملت قسطا من هموم البلد ،فذهبت بعيدا ، وتنادت الى تشكيل حزب عمالي يدافع عن قضايا الكادحين ،فدفع بورقة عمل مكتوبة ،أو قل بصيغة برنامج للحزب باللغتين العربية والتركية ،ولكن السلطة لم تأذن له بالترخيص خوفا من انتشار العدوى ثانية (٥) .

وكان الى جانب هذه المظاهر العلنية التي كانت تجري بمعزل عن حركة التحرر العامة تيار خفي يسري ايقاعه من مدينة الى أخرى ،من القاهرة الى بيروت ،الى دمشق ، الى حماة ،الى الاستانة ،تقوده طائفة من رجال الفكر الذين أخذوا على عاتقهم عبء العمل والتنظيم بوعي متأثرين بقادة الاصلاح الديني في العالم الاسلامي ، كالافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وطاهر الجزائري ، أو بقيادة الحركات السياسية التي تناهض الحكم العثماني سرا وعلانية أمثال عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي وأعضاء العربية الفتاة وشريف مكة حسين ، وكان ابرز من اتصل

بهم من رجالات حماة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الشيخ أحمد الصابوني والشيخ حسن الرزق وعلي الارمنازي والشيخ سعيد النعسان والدكتور صالح قنباز والدكتور توفيق الشيشكلي وطاهر النعسان والشيخ محمود العثمان والشيخ صالح الكرم والشيخ سعيد الجابي وسامي السراج وآخرون غيرهم كان لهم فضل كبير في دعم حركة التقدم ،ولقد أسهموا بشكل فعال في قيام عدد من التنظيمات الاجتماعية ذات مضمون وطني موحد ، وان اختلفت في الاطر الخارجية ٠٠ وامتد نشاطهم على مساحة زمنية حافلة بالاحداث الجسام : كالحرب العالمية الاولى ،والثورة العربية والحكم العربي الفيصلي في دمشق ، ومن بداية عهد الانتداب الفرنسي حتى قيام الثورة السورية الكبرى عام (١٩٢٥) ٠

ولعل أهم هذه التنظيمات ماكان م ـطا بقضايا التحرر الاجتماعي والسياسي كالمؤسسات الصحفية والتعليميه والجمعيات والاندية ٠

ومن المؤكد أن مثل هذه التنظيمات لم تعرفها مدينة حماة الافي مطلع القرن العشرين ،أي بعد نجاح جمعية الاتحاد والترقي في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام (١٩٠٩) ،وقد انضم الى هذه الجمعية عدد من زعماء العرب ، وقدموا مساعدتهم لتحقيق أهدافها في القضاء على الحكم الحميدي وقيام الحكم الدستوري ،وهذا يفسر لنا وجود فرع لهذه الجمعية في مدينة حماة عام (١٩٠٩) يتبعه ناد يحمل اسم الجمعية ٠

ولكي نستطيع تقديم صورة صادقة عن دور تلكم المؤسسات التي قامت في الربع الاول من القرن العشرين ،لابد لنا من الاحاطة بظروف قيام كل منها على حدة ،وبيان الاعمال التي أنجزتها في سبيل تقدم المجتمع معتمدين في تحليل تلك الوقائع التاريخية على المادة الوثائقية ٠

١ـ المؤسسات الصحفية :

عرفت حماة عددا من الصحف والمجلات في اواخر القرن التاسع عشر، منها ما صدر عن سورية ،ومنها ما صدر عن لبنان ومصر وتركية ،وكان بعض الموظفين وأصحاب النفوذ يقبلون على اقتنائها ،غير أن حماة لم تدخل عالم الصحافة الا بعد دخول المطبعة اليها على يد الشيخ أحمد الصابوني عام (١٩٠٩) ٠

ويمكن اجمال أسباب صدور الصحافة في حماة بسببين :

اولا : اعلان الدستور العثماني عام (١٩٠٨) .

ثانيا : رغبة اصحاب الدعوات الاصلاحية في نشر افكار الاصلاح .

فقد كان اعلان الدستور العثماني ايذانا بمولد حماة جديدة بعد موجة الارهاب الحميدي ،حيث كفل الدستور الحريات العامة ، وسهل عمليات الحصول على امتياز الصحف وحق اصدارها ،ووجد فيها أصحاب الدعوات الاصلاحية والنزعات الاستقلالية متنفسا للتعبير عن آرائهم وافكارهم فتضاعف عدد الصحف والمجلات ،وازدادت المطابع في بلاد الشام ، وأقبل الادباء والمفكرون على الكتابة والتأليف ونشر خواطرهم على اجنحة الورق ، وكان هذا التحضير الفكري بمثابة ارهاص لقيام الثورة العربية ضد الحكم الاتحادي ،لكن هذا القدر الضئيل من الحرية في الدستور مالبث أن قيد بقيود الاتحاديين الطورانيين ،واستشعر الاحرار بوطأة هذه القيود قبل غيرهم ،فانعكست آثارها على أقوالهم وتصرفاتهم ، ومع ذلك فقد قام نفر من الحمويين وأصدروا اعدادا من الصحف والمجلات ،منها ماكان يؤيد فكرة الاخاء العربي العثماني ، ومنها ماكان يدعو الى الاصلاح اوالتحرر ، وقد نجد فيها مايدعو الى نصرة طائفة أو جمعية أو شخص ذي نفوذ ،وقليل منها ما اكتسب طابعا أدبيا ،وقد صدر في حماة خمس صحف ومجلتان ،أما الصحف فهي ((لسان الشرق)) للشيخ احمد الصابوني الذي يعد بحق مؤسس الصحافة الحموية ، و((انخلي ياهلالة)) للشيخ عبد الرحمن المصري و((المكنسة)) للصيدلاني شمس الدين العلواني و((السيف)) لصاحبيها الشيخ محمد سالم الميرو محمد البارودي و((نهر العاصي)) لمحمد على الارمنازي .

والمجلتان هما : مجلة ((الاخاء)) لجبران مسوح ،ومجلة (الانسانية) للشيخ حسن الرزق .

وماكادت الحرب العالمية تلقي بجرانها حتى اختفت تلك الصحف ولم تظهر في فترة الحرب سوى صحيفة ((حماة)) لصاحبها الشيخ عبد الرحمن المصري .

وعندما ألقت الحرب أوزارها ،وانسحبت القوات العثمانية من سورية وقامت فيها حكومة فيصل العربية .. نشطت الحركة الصحفية من جديد وانطلق الصحفيون يجاهدون بآرائهم في الدعوة الى الاصلاح ،وتخليص

المجتمع من رواسب الحكم العثماني ،والسير به في طريق التقدم والاستقلال ولم يكن صحفيو حماة أقل حماسة واندفاعا من غيرهم . فقد هرعوا الى تأييد الحكم العربي والانتصار له ودعم مواقفه النضالية من أجل الاستقلال التام .

وقد صدرت في حماة خلال فترة الحكم العربي وبداية عهد الانتداب خمس صحف وثلاث مجلات هي : (نهر العاصي) للشيخ عبد الرحمن المصري و(التوفيق) للدكتور توفيق الشيشكلي و(الاخاء) لجبران مسوح و(الهدف) لعبد الحسيب شيخ سعيد ،و(الشعب) لعبد الرزاق الاسود ، أما المجلات فهي(أبحاث زراعية) لتوفيق الاحدب ، و(المجلة البيطرية) لفائق الخطيب و(الزراعة الحديثة) لعمر ترمانيني .

ثمة بعض الملحوظات حول الصحافة الحموية ابان الربع الاول من القرن العشرين تتخلص بما يلي :

١- تميزت الصحافة الحموية بانها صحافة بلدية ، فقد أسهمت في رصد التطور الاجتماعي والسياسي والثقافي لمجتمع المدينة وكانت مرآة صادقة انعكست عليها معظم احداث تلك الفترة الماضية .

٢- لم تكن صحافة منعزلة عن حركة المجتمع العربي بعامة ، بل كانت على ارتباط وثيق بالصحافة العربية الحرة ، وربما شاركتها في اتخاذ مواقف ايجابية من بعض القضايا العامة ، وبذلك ساعدت على تكوين رأي عام عربي موحد .

٣- ورغم كونها صحافة بلدية فقد تجاوزت محيطها في معالجة مشكلات المجتمع العربي السياسية ، اذ وقفت تطالب بالاصلاح وترفض سياسة الاستبداد ، وربما جابهت مزاعم الصحف المأجورة التي كانت تصدر في دمشق وغيرها من المدن السورية ،وللصحافة الحموية موقف مشرف من مؤتمر باريس العربي عام (١٩١٣) فقد أيدت المؤتمر ،ونقلت وقائع جلساته ، ودافعت عن رجالاته وانتقدت مناوئيهم دون أن تخشى أذى المراقبة الصارمة . وقد دفع محمد علي الارمنازي صاحب صحيفة (نهر العاصي) ثمن وطنيته غاليا ، فكان اول شهيد للصحافة السورية تقدمه مدينة

حماة .

٤- ظهور الصحافة المتخصصة في مجال التربية الحيوانية والشؤون الزراعية .

على أن هناك بعض النواحي السلبية في صحافة حماة نذكر منها :

١- كثرتها في مجتمع صغير كحماة ، مما يجعل جبهة الرأي عرضة للتصدع .

٢- قيام بعض ارباب الصحف الهزلية في الدفاع عن مصالحهم والانتصار لانفسهم من خصومهم ، وان اسهمت بشكل غير مباشر في مجابهة التيار العائلي المتعاظم في بداية هذا القرن .

٣- موالاة بعضها للحكم العثماني كصحيفة (حماة) المطبوعة باللغتين العربية والتركية ، وهي الصحيفة الوحيدة التي صدرت خلال فترة الحرب العالمية الاولى .

٤- احتجاب بعضها عن الصدور بعد فترة قصيرة لاسباب مادية أو سياسية . ولاسيما في فترة الحكم العربي الفيصلي ، وفي مطلع عهد الانتداب .

ومهما يقال عن الصحافة الحموية في تلك الحقبة من الزمن ، فان دورها كان رائدا في ابراز المشاعر الغافية ، وتنمية الاحساس بالوطنية ، وكانت كلمات الاصلاح ، الحرية ، الاستقلال ، العلم ، الثورة ، العمال ، الاشتراكية الاقطاعية ، الرجعية أو التراجعية ...)) كل ذلك كان من مصطلحات الحياة اليومية وقاموسها السياسي (٦) .

٢- المؤسسات التعليمية

تلعب المؤسسات التعليمية دورا هاما في حياة المجتمعات ، ونحن لانستطيع أن نتصور مجتمعا متقدما لايولي قضايا العلم والتعليم أقصى اهتمامه ، وان التقدم العلمي والتقني اللذين نشهد اليوم تطاول بنيانهما لم يتما الا بعد مراحل طويلة طوتها الانسانية جاهدة دائبة . ولقد سبقتنا دول الغرب اليهما نتيجة العزلة الطويلة عن العالم الخارجي ، وهي عزلة فرضت علينا ابان الحكم العثماني ، واعتقد أن اجدادنا غير مسؤولين عن حالة التخلف والجمود التي آل اليها الشعب العربي بسبب هذه

العزلة ،وليس من قبيل المصادفة أن تجدشعبا ماملقى في غيهب الجهل وكان له في الماضي مَخْرٌفي عباب العلم ، ان حماة وهي واحدة من مدائن الشام كانت في العصر الايوبي دارة من دارات العلم بفضل استنارة حكامها ورعايتهم للحركة العلمية ،فقصدها طلاب العلم والادب من كل مكان .. من مصر والعراق والحجاز وفارس والمغرب ،ونبغ من ابنائها رهط غير قليل من العلماء والادباء والشعراء والمؤرخين ،وسطعت منها آسر علمية بسطت اجنحتها على عدد من المدن كأسرة ابن البارزي وابن جماعة ،وكانت مدارسها تفتح ابوابها لطلبة العلم الوافدين ،وتفسح مكان الصدارة لرجال الفكر والادب كابن مالك صاحب الالفية ، والفيروزبادي صاحب القاموس ،وسيف الدين الامدي رجل الفكر الآبق من مصر ،وقد اقيمت للامدي مدرسة خاصة يعلم فيها احتفاء بقدومه ، وكان الملك المنصور محمد يحضر دروسه ،زد على ذلك أن بيوت اهل العلم كانت مدارس ،وحلقات المساجد مدارس ،وبلاطات الحكام مدارس .. بل قل كانت حماة جامعة للعلم في العصر الايوبي ،

وهذا يفسر لنا قول العلامة محمد كرد علي . حماة مدينة العلم والادب . (٧)

غير أن هذا الشرف العلمي الذي تألق أرجوانه على جسد المدينة سرعان ماخمد في آخريات العصر المملوكي ،وجاء العصر العثماني ليزيد الطين بلة .. وكان سير المدينة التراجعي واضحا حتى أصبحت المدينة مُدَيْنَة ، وآضت مدارسها رسوما وأطلالا ،فلم نسمع عن مدرسة واحدة آقيمت طوال ثلاثة قرون ،خلا الكتاتيب وحلقات المساجد الصغيرة لتدريس العلوم الدينية فقط ،وأول مدرسة رسمية تأسست في حماة هي المدرسة الرشدية عام (١٨٧١) لتعليم الاطفال علوم العربية والتركية والفارسية والجغرافية والتاريخ وقد آشار الى ذلك المؤرخ الحموي (نوري باشا الكيلاني) في ديوانه المخطوط (نديمة الخاطر..) وله أرجوزة يمتدح بها السلطان العثماني على احسانه :

اذ أوجد العلوم والمكاتب	وكثر الفنون والرغائب
وسهل التحصيل للاطفال	حتى ارتقوا لذروة الكمال
واستحوذ الاداب والمعارف	وبعد جهل صار كلٌ عارف
وقد حبانا مكتب الرشديه	من جوده بحماتنا المحمية

وكانت المدرسة تمنح طلابها شهادة تخرج هي كالاجازة العلمية التي يحصل عليها طالب العلم من شيخه ، وقد اطلعت على شهادة تخرج من مكتب الرشديه مذيلة بسبعة وعشرين توقيعا ، منهم المفتي وقمندان العسكر ومتصرف لواء حماة (٨) .

ومن المؤكد أن تأسيس هذه المدرسة كان بمثابة رد فعل على قيام مدرسة تبشيرية هي المدرسة الامريكانية ، وربما اطلق عليها الحمويون اسم (مكتب البروتستاند) (٩) .

وقد أسهمت زيارات الشيخ طاهر الجزائري لحماة في اواخر القرن التاسع عشر في ظهور مدرستين : دار الشفاء للذكور ، ومكتب الانات (البارزية) وكانتا برعاية الشيخ سعيد النعسان أحد رواد النهضة العلمية والاجتماعية في المدينة ، وقد تخرج من حلقته في جامع النوري ومن مدارسه معظم رجالات حماة الذين قادوا حركة التحرر الوطني على مدى خمسين عاما ، واذ اعلمنا أن نسبة عدد الطلبة الى عدد السكان عام (١٨٩٩) لا يتجاوز (١٪) أدركنا أية أمية يغط في سباتها مجتمع حماة في نهاية القرن الماضي

غير أن الحركة التعليمية لم تنشط في حماة الا بعد اعلان الدستور العثماني عام (١٩٠٨) وبخاصة بعد تعيين ناظم بك متصرفا على لواء حماة ، وقبله كانت معارف اللواء غير معروفة . ومدارسه دارسة ، وأحوالها كالحة على حد تعبير جريدة لسان الشرق الحموية (١٠) ، فقد استجاب لرغبة الراغبين في نهضة العلم وقيام مدارسه ، وعمل على تأليف لجنة برئاسته قوامها خمسة أشخاص أنيطت بهم شؤون التعليم في المدينة وريفها (١١) ، وقد اطلق عليها اسم (شعبة المعارف) وكانت تتولى الاشراف على أربع مدارس للذكور ومدرسة للاناث ، والمدارس هي :

دار الشفاء ، وبرهان الترقي ، والمدرسة العلمية ، والمدرسة البارزية ، ومكتب الرشدية الذي تحول الى مكتب اعدادي باسم (المكتب الاعدادي الملكي) ، وتعتمد شعبة المعارف في نفقاتها على ماتخصصه حكومة لواء حماة من واردات المعارف ، بالاضافة الى ماتدره أوقاف البيمارستان النوري (١٢) ، ومايدفعه تلاميذ المدارس من أجور شهرية (الاجرة الشهرية في المدرسة العلمية نصف مجيدي تدفع سلفا ، وفي

مكتب برهان الترقي خمسة قروش للطلبة الاغنياء ،وقرشان ونصف لمتوسطي الحال ،ومجانا للفقراء) ،ولم تكن ميزانية شعبة المعارف بحماة لتزيد عن عشرة آلاف قرش ، أي أقل من مائة ليرة عثمانية (١٣) وهذه الميزانية لاتكفي رواتب نصف موظفي شعبة المعارف فضلاً عن نفقات المدارس التابعة لها (١٤) ٠

وعلى غرار هذه المدارس الرسمية قامت مدارس أهلية أخذت بالتعليم الحديث حيث يعطى الطلاب – الى جانب علوم الدين والعربية – دروسا في التاريخ والجغرافية والحساب والاخلاق ،عرفنا منها : مدرسة شمس المعارف ومدرسة ترقي الوطن ،ومدرسة المظفر ،ومدرستين لابناء طائفة السريان احد اهما للاناث ٠

أما طلبة العلم الشرعي فكانوا يتحلقون في المساجد حول أشياخهم يحفظون القرآن الكريم ، ويقرؤون السنة المطهرة ،والفقه الحنفي او الشافعي ويأخذون قدرا من علوم العربية على غير نظام او منهاج ،حتى اذا أوتوا نصيبا من العلم غادروا حماة الى طرابلس الشام لاداء الامتحان أمام لجنة من العلماء ،فيجهزون من يرونه صاحب رواية ودراية ٠ وقد سافر من حماة تسعة عشر طالبا عام (١٩٠٩) ،وفتحت أمامهم الابواب لنيل الوظائف الدينية ،وربما يذهب المتفقّه منهم الى مصر لمتابعة التحصيل في العلم الشرعي ،والظفر باجازات علمية من شيوخ الازهر الشريف (١٥)٠

ولقد وجدت هذه الحركة العلمية سندا من الصحافة المحلية ،فكانت تضم في ثناياها مقالات وأشعاراً أحيانا تحض على العلم وتبشر بمستقبله ، وتنفر من الجهل وتحذر من عواقبه ،وماتزال على لهاتي نداوة بيتين من الشعر قرأتهما في جريدة لسان الشرق الحموية هما :

دعوا الشقاق بني الاوطان واتحدوا لنشر علم فإنّ الجهل يردينا
ان لم تقوموا بهذا الفرض وا أسفي سيصبح الشعب لادنيا ولادينا (١٦)

ولم تقتصر الدعوة الى تعليم الذكور، وانما شملت الاناث أيضا ،فقد دعا الشيخ سعيد زهور عام (١٩٠٩) في قصيدته (حنان الامهات) الى تعليم المرأة وانقاذها من حمأة الجهل ،ويرى ان المجتمع الصالح لايقوم الا اذا أخذت المرأة نصيبها من العلم أسوة بالرجل :

عليكم يا دعاة العلم فرض فأدوا ما عليكم للبنات
فما فسدت خلائق كل شعب بشيء غير جهل الجاهلات

وما أحسب هذه الصيحة الاصدى وانعكاسا لصيحة شاعر العراق معروف الرصافي (١٧) ٠

كما سمعنا من يدعو الى افتتاح مدرسة ليلية لمحو الامية بين (ارباب الصنائع) (١٨) ٠ وذهب محمد شمس الدين العلواني الى أبعد من ذلك فطالب بافتتاح (كلية عربية عظمى) في دمشق للدراسات العالية (١٩) ٠ بينما نجد الشيخ سعيد النعسان يدعو معلمي المدارس الى عقد اجتماع أسبوعي كل خميس في المدرسة العلمية (للمذاكرة بما يوجب رقي العلم وتوحيد طرق تعلمه) (٢٠) في حين يطالب الشيخ احمد الصابوني صاحب (لسان الشرق) في مقال (العربية وتعلمها) الى تأليف كتب مدرسية باللغة العربية ، وفي المقال اشارة الى أن مدارس حمص وحماة الوطنية تدرس الحساب والجغرافية والتاريخ وسائر الفنون بغير العربية ، ويعني التركية - لعدم وجود كتاب علمي بالعربية (٢١) ٠

أما أحمد سامي السراج فيهيب بطلبة العلم الديني أن يستقوا من حوض الفنون الادبية ، ويأسف لجفاف البيان العربي من ماء الجمال وسحر الخيال ، فيبكي اللغة العربية على طريقة الرومانسيين ٠٠ فيقول :

احزني أيتها الطبيعة ، واندكي أيتها الجبال الشامخة ، وجفي أيتها البحور ٠٠ والبسي الحداد على اللغة العربية (٢٢) ٠

هذا غيض من فيض ٠٠ تناثر على صفحات جريدة (لسان الشرق) و (مجلة الانسانية) وغيرهما قبيل الحرب العالمية الاولى ، غير أن ظروف الحرب باعدت بين دعاة العلم وغاياتهم ، فأصاب الحركة العلمية شلل سنوات الحرب ، كان من اعراضه اغلاق المدارس جميعا طوعا وكراهية ، وانصراف الناس عن التفكير بالعلم الى البحث عن الرغيف ، وهنا يصدق قول من قال ان البطون الفارغة لاتعرف المعاني السامية ٠

ولما انقشعت غمة الحرب بادر رجال العلم والاصلاح الى تأسيس المدارس من جديد اثر انسحاب العثمانيين من سورية ، ويشير الاستاذ محمود فاخوري في بحثه القيم عن (تطور التعليم في مدينة حماة) الى أن عدد المدارس الابتدائية عام (١٩١٩) ثماني مدارس ، منها خمس للذكور هي :

مدرسة برهان الترقي ، مدرسة الاخاء ، مدرسة النجاح ، مدرسة المظفر مدرسة المحبة ، وثلاث للاناث هي :

مدرسة الاستقامة ، مدرسة العفاف ، مدرسة الشرف (٢٣) ، أما المكتب الاعدادي الملكي فقد تحول الى (المدرسة السلطانية) في عهد الحكومة العربية الفيصلية ، ثم اعطيت اسم (المدرسة التجهيزية) ٢٤ .

غير أن أهم هذه المدارس جميعا هي مدرسة (دار العلم والتربية) التي تجاوزت أهدافها التعليمية الى أهداف سياسية ، فقد قامت هذه المدرسة الاهلية عام (١٩١٩) بتأييد من الامير فيصل الذي أرادها (مدرسة تبث في نفوس الناشئة الجديدة مبادىء الخير والوطنية والاخلاق الحسنة ، وتحثهم على السعي والعمل ليكونوا أعضاء خير وفلاح لامتهم ووطنهم) وقد اقترح بعضهم تسمية المدرسة باسم (مدرسة فيصل) ولكن الامير فيصل رفض وسماها (دار العلم والتربية) ، وتولى أمر اعداد المدرسة رستم بك حيدر مستشار الامير ، والدكتور عبد الرحمن الكيالي الذي وضع لها نظاما داخليا على غرار نظام الجامعة الامريكية ، ولكن هذا النظام أهمل لعدم امكانية تطبيقه . وانضم الى هيئة المؤسسين التي ترأسها نوري الكيلاني كل من الدكتور صالح قنبار والدكتور توفيق الشيشكلي ، واطلق على تلك الهيئة اسم (هيئة أمناء دار العلم) .

وقد خطت المدرسة خطوات سريعة الى الامام ، فاصبح لها بناء خاص بها ، وعقارات تدر عليها واردات تحميها من الاختناق ، فازدهرت المدرسة وتطورت مع الزمن بفضل وعي المشرفين ، ويسجل المرحوم احمد الوتار (٢٥) . في مذكرات تاريخية عن دار العلم :

في تأسيس اول روضة للاطفال تفتح في حماة ، وكانت موضع اهتمام الدكتور صالح قنبار اذ أتى بالكتب والوسائل التربوية المتعلقة بحدائق الاطفال من فرنسة .

وفي تكوين أول فرقة كشفية في حماة جعلت فرعا للكشاف المسلم في بيروت ، وفي تأليف أول فرقة موسيقية من شباب حماة باشراف الاستاذ أحمد الابري ، وأهم من هذا وذاك قيامها بدور تربوي ووطني ، فهي لم تكتف بتربية أبنائها وتعليمهم العلم الصحيح ، وبث الفكرة العربية والقومية مع الاخلاق الاسلامية .. بل كانت بما تقيمه من حفلات تمثيلية

وموسيقية وكشفية في مختلف المناسبات تربي جمهور الحمويين واستدلاعت بفضل هيئة الامناء وعلى رأسهم الدكتور صالح قنباز والدكتور توفيق الشيشكلي ، وبفضل ايمان أساتذتها أن تقوم بواجب وطني هام ظهرت آثاره فيما بعد .. في تكوين رأي عام وطني قاوم الاستعمار والاقطاع بعنف وتغلب عليهما معا ، ولم تكن ثورة حماة عام (١٩٢٥) الاصنيع نفر من أساتذتها الذين قرنوا القول بالعمل ، وكان من ضحاياها الشهيد الخالد الدكتور صالح قنبار .

٣- الاندية الادبية

آ- النادي العربي :

نشطت الحركة العلمية والادبية بعد قيام حكومة فيصل في سورية وقد أسهم الشباب الناهض في تكوين بعض المؤسسات التي أصبحت مراكز للتنوير الفكري والوطني ، وكان النادي العربي أحد هذه المراكز التي قامت بدعم من الامير فيصل ، وقد ساعدت زيارته لبعض المدن السورية كحلب وحماة في انشاء فروع لهذا النادي ، وانحصرت مهمته الاساسية في التحضير العلمي والادبي لمستقبل المجتمع العربي .

ومن الواضح أن الشباب الحموي استجاب لدعوة الامير العربي ، والتف حول النادي العربي - فرع حماة - نخبة مختارة من رجال العلم والادب والصحافة ودعاة الاصلاح الاجتماعي والسياسي ، وكانت لهم ندوات محاضرة ومناظرة حول ماضي الامة العربية وحاضرها ، وعندما اصدر الدكتور توفيق الشيشكلي جريدة (التوفيق) عام (١٩١٩) جعلها سنداً وظهيراً للنادي العربي (٢٦) .

ويعود الفضل في مواكبة حركة النهضة الى اعضاء النادي الذين وقفوا بحزم الى جانب الحكومة العربية ، وآزروها بكل ما أوتوا من قوة ، ولكن ظروف السياسة الدولية كانت أقوى منهم ، فانفرط عقد النادي أثر دخول الفرنسيين الى سورية تطبيقا لصك الانتداب في اعقاب معركة ميسلون عام (١٩٢٠) .

ب - النادي الادبي :

عمل دعاة التحرر في حماة على احياء النادي العربي ثانية تحت

اسم جديد هو النادي الادبي ، وقد وافقت متصرفية لواء حماة بتاريخ (١٧ كانون الثاني عام ١٩٢٤) على الترخيص الذي تقدم به الطبيب علي الشواف والذي يحمل اسم (النادي العلمي الموسيقي) غير أن النادي لم يشهر في حماة الا باسم النادي الادبي ، ومن المؤكد أن الاعضاء المؤسسين آثروا هذه الصفة ليصرفوا أنظار الفرنسيين عن النشاط السياسي للنادي ودوره القيادي في النضال من أجل الاستقلال .

وقد وزع النادي الادبي على الشعب الحموي منشورا يحتوي على نظامه الداخلي الذي يتألف من أربع عشرة مادة ، توضح الغاية من تأسيسه وشروط قبول الاعضاء وموارد النادي المالية ولجنته الادارية ووظيفتها ، ونحن نستطيع أن نتلمس من بنود هذا النظام بعض الامور الرئيسة :

١- اسباغ الصفة العلمية والادبية والموسيقية على اعمال النادي.
٢- التأكيد على اعضائه بعدم التدخل في الشؤون السياسية .
٣- حق الانتساب مفتوح أمام كل عربي .

وبذلك يكون النادي قد بذر بذور القومية العربية المبرأة من عار التعصب والطائفية منذ خمسين سنة .

وقد أسندت رئاسة النادي الى الدكتور توفيق الشيشكلي منذ تأسيسه وحتى اغلاقه من قبل الفرنسيين في اعقاب الثورة السورية الكبرى عام (١٩٢٥) ورغم قصر المدة التي عاشها النادي الادبي فقد قام بدور الريادة في حركة العلم والادب ، ودور القيادة في ثورة حماة ويمكن اجمال اعماله بما يلي :

١- تأسيس مكتبة ضخمة تضم طائفة من كتب اللغة والدين والادب والتاريخ وسائر العلوم الاجتماعية والطبيعية بالاضافة الى عدد من المخطوطات العربية والتركية ، وتخصص غرفة للمطالعين صباحا ومساء .
٢- تجديد مرقد أبي الفداء صاحب حماة .
٣- احياء ذكرى الشهداء لاول مرة في تاريخ حماة .
٤- توجيه الحركة الموسيقية ودعمها وتشجيع أفرادها على الظهور امام الجمهور .
٥- اقامة العديد من الحفلات الادبية .

٦- تحقيق التعاون مع الصحافة العربية والمهجرية ، و الاطلاع المستمر على اخبار العرب في كل مكان .

٧- القيام بالمراسلات العلمية مع المجمع العلمي العربي بدمشق والمؤتمر الجغرافي الدولي العام بالقاهرة ، وكان احمدزكي باشا - عضو شرف - ممثلا للنادي الادبي في المؤتمر .

٨- توعية المواطنين وطنيا وقوميا عن طريق سلسلة من المحاضرات ذات مضمون سياسي كالدعوة الى تشكيل حزب عمالي على غرار الاحزاب العمالية في أوربة .

وقد فطنت دوائر الانتداب في دمشق وبيروت الى أهمية الدور الذي يلعبه النادي في توجيه الحركة الوطنية بصورة غير مباشرة ، ومدى تأثير اعضائه - وهم من طبقة المثقفين - على جمهور الشعب الحموي ، فطلبت من مصلحة الاستعلامات بحماة بث العيون ومراقبة تحركات اعضائه ، ولاسيما بعد قدوم وفد من دمشق للاشراف على تشكيل النواة الاولى لحزب وطني يأخذ زمام المبادرة في توحيد الصفوف وتعبئة القوى لمجابهة تحديات السلطة المنتدبة عشية قيام الثورة السورية .

ويستفاد من تقرير الاستخبارات رقم (١١) تاريخ ١٠ شباط عام ١٩٢٤ الصادر عن مصلحة الاستعلامات بحماة أن الحزب لم ينظم رسميا لكن الحمويين ينتسبون اليه سرا ، وله فرعان : مدرسة دار العلم والتربية والنادي الادبي .. وان اجتماعاته تتم تحت ستار الدراسات الادبية والمحاضرات العامة .

كما يشير التقرير رقم (٧٥٣) تاريخ ١٥ حزيران عام ١٩٢٥ الصادر عن دائرة الاستخبارات بحماة .. الى أن رئيس الحزب هو الدكتور صالح قنباز ، وان "الاعضاء يمثلون العناصر الوطنية المتطرفة في مدينة حماة وهذا يعني أن اعضاء النادي الادبي يشكلون الطليعة الاولى لاول حزب وطني تعرفه حماة .

وعندما قامت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ وشاركت حماة في احداثها وتخفيف الضغط العسكري عن أبناء جبل العرب ، اتهم النادي الادبي بأنه موقد الثورة في المدينة ، فاعلن اثر قيامها تطبيقا للقرار (٤١٣) المؤرخ في ١٥ تشرين الاول عام ١٩٢٥ ، ولوحق اعضاؤه

فهرب نفر، واعتقل آخرون، واحيل معظم أعضائه الى المحاكم العسكرية .

وقد جرت محاولة لاعادة افتتاح النادي عام (١٩٢٨) بعد تعديل نظامه الداخلي لكن سلطات الانتداب لم توافق .. ولما يئس الدكتور توفيق الشيشكلي من محاولاته قرر أعضاء النادي بالاتفاق مع الدكتور توفيق تحويل مكتبة النادي القيمة الى المكتبة العامة التي تأسست في مدرسة دار العلم والتربية عام (١٩٣١) .

وهكذا اختفى النادي الادبي عن مسرح الاحداث، لكن حركته النضالية لم تهمد، لانها تحمل في طياتها عوامل البقاء والتجدد، وما لبث أعضاء النادي أن أصبحوا رافدا هاما لتيار (الكتلة الوطنية) التي وقفت تناصب الفرنسيين العداء، وتقود نضال الجماهير في معركة الحرية والاستقلال (٢٧) .

رابعا : الجمعيات السرية والعلنية

يرتبط قيام الجمعيات في بلاد الشام بحركة اليقظة العربية في القرن التاسع عشر، وذلك عندما بدأ العرب الاحرار بالتحرك ضد السياسة العثمانية، اما طلبا للاستقلال، او طمعا بالاصلاح، ومن الواضح ان ظهور الجمعيات في مدينة حماة لم يتم الا في مطلع القرن العشرين، قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها .

آ- قبل الحرب العالمية الاولى :

ظهرت في حماة قبل الحرب العالمية الاولى أربع جمعيات اثنتان سياسيتان واثنتان كل منهما انسانية ذات صفة دينية .

فالاوليان : احدهما علنية، والاخرى سرية .

أما الاولى فهي (جمعية الاتحاد والترقي) التي قامت بعد خلع السلطان عبد الحميد عام (١٩٠٩)، وقد التف حولها نفر من الحمويين اخلاصا منهم للعهد الجديد، وأملا بانصاف الاتحاديين للعرب، ولما كشف الاتحاديون عن مقاصدهم الحقيقية تجاه العرب، انصرف الحمويون عن الجمعية .. خلا بعض المتخاذلين الذين وجدوا في الانضمام اليها تحقيقا لمآربهم، وطمعا في الحفاظ على مكاسبهم التي أحرزوها ابان الحكم العثماني، فاستحقوا نقمة دعاة الاصلاح والتحرر من ابناء المدينة (٢٨) .

ويؤيد ما ذهبنا اليه مقال نشر على صفحات جريدة (لسان الشرق) الحموية بعنوان (بعد الدستور) انتصر فيه صاحبه لجمعية الاتحاد والترقي ودافع عن أهدافها وغاياتها، متهما خصومها بالدناءة، وقد جاء بالمقال:

... ان جمعية هذه أعمالها ومقاصدها الخيرية تسعى الليل والنهار في سبيل ترقي الوطن ورفع شأنهما، لم تدع وسيلة من الوسائل لتجعل الامة كسائر الامم الراقية ، أيجوز أن تعاكس وتذم ، ويقام ضدها ويبخس حقها؟ ... ان ذلك غاية في الدناءة (٢٩) .

وأما الثانية فذات طابع قومي عربي، وان أخذت منحى اصلاحيا ولها جناحان :

- جناح مدني علني اطلق عليه اسم (الجمعية اللامركزية) وهو الجناح الذي تزعمه مبعوث حماة الشيخ عبد الحميد الزهراوي - من ابناء حمص .
- وجناح عسكري سري تزعمه الضابط عزيز علي المصري .

وقد انضم الى الجناح الاول عدد من رجالات حماة أمثال محمد علي الارمنازي وأحمد سامي السراج والدكتور توفيق الشيشكلي ومحمد البارودي وغيرهم من دعاة القومية العربية ، وانضم الى الجناح الثاني الضابط الحموي سعيد العاص شهيد موقعة الخضر بفلسطين عام (١٩٣٦) والذي يعد من مفاخر الثورة العربية .

وقد لعبت الجمعية اللامركزية دورا رئيسا في قيام مؤتمر باريس العربي عام (١٩١٣) وكان الشيخ الزهراوي رئيسا له ، وجدير بالذكر أن أنصار اللامركزية في حماة بادروا الى دعم المؤتمر، فبعثوا ببرقية تأييد الى رجال المؤتمر ، وحفلت صحفهم باخبار المؤتمر ، ومقالات تدعو الى استحسانه ممجدين هذه الخطوة الاصلاحية للنهوض بالامة العربية من عثارها .

ويشير الاستاذ أحمد سامي السراج في مقال له (محفوظ لدي) بعنوان (وطنية حماة في مجال النضال) الى أن الذين عبروا الى كهوف التشكيل القومي من أبناء حماة قد التحقوا بجمعية العهد وجمعية العربية الفتاة ، وما ذكرته آنفا هو الثابت لدي تاريخيا لعدة أسباب :

١- اعترافات عبد الغني العريسي في محاكمات عالية بأن جمعية العهد واللامركزية كلاهما واحد .

٢- اعترافات محمدعلي الارمنازي في محاكمات عالية بأنـه معتمد اللامركزية في حماة ٠

٣- ماكتبه أبو الهدى اليافي في جريدة المضحك المبكي السورية بعنوان (صفحات من جهادنا الوطني) وقدذكر بان الجمعية اللامركزية في مصر أرسلت للارمنازى روسما (كليشة) خاصا باسم جريدة نهر العاصي ،مشيرا الى أن الارمنازى كان مندوبها في حماة

٤- لم يرد ذكر الجمعية العربية الفتاة في كتاب(ايضاحات عن المسائل السياسية) الذى أصدره أحمد جمال باشا في اعقاب محاكمات عالية لان الجمعية - كما هو معروف - تشكلت في باريس على أيدى بعض الطلبة السوريين ،ولم تنقل نشاطها السري الى سورية الا بعد محاكمات عاليـة ٠

٥- لم نجد في صحف حماة أية اشارة الى الجمعية العربية الفتاة في فترة ماقبل الحرب ،بينما كانت (اللامركزية) العمود الفقري لكثير من كتابات الصحفيين الحمويين ٠

وانى أرجح بأن الخطأ الذي وقع فيه أحمد سامي السراج مرده الى أن كلتا الجمعيتين (اللامركزية) و(العربية الفتاة) تمثل تطلعات الشباب العربي في التحرر ،وأن التمييز بين أفراد كل جمعية كان غير واضح بسبب طابع السرية ،زد على ذلك فان الجمعية العربية الفتاة عمرت طويلا بالنسبة الى عمر اللامركزية القصير ،لذا بقي اسمها ماثلا في الاذهان ،في حين غاب اسم اللامركزية عن العيان بعد حملة الاعدامات التي قام بها احمد جمال السفاح ،حيث استهدفت معظم رجالات الجمعية اللامركزية وعلى رأسهم الزهراوي والارمنازي ٠

والثالثة هي (جمعية الاتحاد القويم للسريان القديم) وتعد أقدم جمعية عرفتها المدينة ،فقد قامت عام (١٩٠٨) واقتصرت في خدماتها على ابناء طائفة السريان الذين لايتجاوز عددهم الخمسمائة نسمة في مطلع هذا القرن وكانوا على قلتهم فقراء ،وأهل اليسار منهم لايعدون اكثر من عائلتين أو ثلاث ، ومع ذلك فقد أحسنوا صنعا في تشكيل هذه الجمعية اسهاما منهم في تخفيف الشقاء عن الانسانية المعذبـة ٠

ويبدو أن هذه الجمعية كانت تقوم على ثلاث مهمات :

- الاولى: دينية لان الجمعية تمثل المجلس المختلط الملي المأذون به للبطاركة والمطارين من قبل الحكومة العثمانية .

- والثانية : خيرية لانها كانت تعتمد على الاحسان ومدّ يد المساعدة الى الضعفاء والمحتاجين من أبناء الطائفة عن طريق جمع التبرعات وقبول الهبات ، أو بوساطة (اليانصيب الخيري) .

- والثالثة : تعليمية لانها شعرت بان تربية الناشئة على اساس العلم هو خير ما تذخره للمستقبل ، فعملت على تأسيس مدرسة ابتدائية للذكور وأخرى للاناث .

وكانت الجمعية تتولى اهدافها برعاية رئيسها موسى عبد الله نزها ، وتنشر كل سنة (مجنى) يشتمل على خلاصة أعمالها السنوية ، ورغم الطابع الانساني للجمعية فقد تعرض أعضاؤها للعقوبة من السلطة المحلية لعدم ترخيصها رسميا ، وجميل بنا أن نذكر بان الشيخ حسن الرزق صاحب مجلة (الانسانية) الحموية دافع عن أهدافها النبيلة ، ونوه بما قدمته لابناء السريان من احسان ، وكان يأمل منها نفعا وطنيا عاما (٣٠) .

أما الجمعية الرابعة فهي .. أعمال البر الاسلامية "التي أسسها الشيخ سعيد النعسان ، ومن المؤكد أنها بدأت (لجنة خيرية) عام (١٩١٠) (٣١) . ثم تحولت الى جمعية عام (١٩١١) ، وقد أسهمت هذه الجمعية بشكل مباشر وفعال في التخفيف عن ذوي الحاجة من عجزة وأيتام وفقراء لايسألون الناس الحافا ، كما شاركت في تدعيم الحركة التعليمية وتوجيهها عن طريق المدارس المتعددة التي قامت بانشائها في مطلع هذا القرن (٣٢) .

ب - بعد الحرب العالمية الاولى :

شهدت مرحلة ما بعد الحرب قيام الحكم العربي وسقوطه ودخول الفرنسيين الى سورية ، وهي مرحلة جديدة تتسم بالصعوبات نظرا لما يكتنفها من ظروف دولية تجري لغير صالح العرب ، لذا غلب على الجمعيات صفة السرية ، وبخاصة في بداية عهد الانتداب ، وعدد هذه الجمعيات أربع منها ثلاث جمعيات سرية هي :

- جمعية الخلافة الاسلامية ، والحركة الماسونية ، وجماعة الواجب الوطني أما الرابعة فهي جمعية الاسعاف الخيري .

وقد بدا لي أن عمل هذه الجمعيات كان متداخلا ، اذ أن معظم الاعضاء

مشتركون فيهاجميعا ،لان الهدف كان واحد اوهومقارعة الاستعمار الجديد.

فجمعية الخلافة الاسلامية قامت تأييداً للشريف حسين أمير مكة ،ودعت الى خلافته ردّاً على من يقول بخلافة عثمانية ،غير أن هذه الجمعية لم تدم طويلاً لأن اعضاءها لايريدون خلافة اسلامية بقدر مايريدون مجابهة حقيقية للفرنسيين والتحرر من قيودهم (٣٣) .

ومحفل أورانتس الماسوني القائم برعاية الشرق السامي الفرنسي ، فانه يمثل الجناح الوطني المعتدل ،وكان أعضاؤه يودون العمل بحرية بعيدين عن المراقبة الفرنسية ،ولكن هذا الجناح المعتدل اتهم بخفض جناح الذل من الخوف .. لذا كان دوره غامضا ، وبخاصة بعد اتلاف وثائق المحفل في مطلع الستينات (٣٤) .

أما جماعة الواجب الوطني فيمثلون الجناح المتطرف الداعي الى الثورة ضد الوجود الفرنسي على ارض الوطن ،ويتزعم هذه الجماعة فوزي القاوقجي الضابط في الجيش الفرنسي ،ويسميها فوزي في مذكراته (حزب الله) وكان من أبرز أعضائها سعيد الترمانيني وعثمان الحوراني وعبد القادر مليشو ومنير الريس والشيخ محمود العثمان وغيرهم ،وقد عمد فوزي – زيادة في الحذر – الى اعلام المستشار الفرنسي بانضمامه الى الطرق الدينية ليدرأ عن نفسه تهمة الكفر بانتسابه الى الجيش الفرنسي(٣٥) .

وكان أعضاء هذه الجماعة على صلة برجال الثورة في جبل العرب أمثال سلطان باشا الاطرش والدكتور عبد الرحمن شهبندر ،وقد حاول فوزي أن يكسب الى جانبه قادة الفكر في حماة ،فاتصل بالدكتور صالح قنباز وأعلمه بعزمه على الثورة ،ويشير فوزي في مذكراته أن الدكتور صالح لم يحبذ الثورة اعتقاداً منه أن ليس في البلاد قوة تستطيع مجابهة الفرنسيين(٣٦) .

والحقيقة أن الدكتور صالح ورفاقه لم يعلنوا انضمامهم مع فوزي لسببين:

اولهما: انهم يشكون باخلاص فوزي – بصفته ضابطا في الجيش الفرنسي – وهم يجهلون حقيقته وغايته ،وربما ذهبوا الى أبعد من ذلك فظنوا أن في الامر خدعة (٣٧) .

وثانيهما: أنهم لايرون صوابا في ثورة تقوم داخل المدن (٣٨) .

غير أن جماعة الواجب الوطني(حزب الله)تمكنت من تفجير الثورة في تشرين الاول عام (١٩٢٥) وجرّت اليها كل من كان بعيدا عنها – خلا بعض

المتخاذلين – وبذلك غلبت حماسة المتطرفين حكمة العقلاء وتردد المتشككين كما يقول عثمان الحوراني (٣٩) .

جمعية الاسعاف الخيري :

تفردت جمعية الاسعاف الخيري عن سائر الجمعيات بكونها ذات طابع سياسي وانساني ، ولقد بدا لي دور هذه الجمعية هاما خلال الدراسات التي قمت بها عن تاريخ الصحافة الحموية ، فرأيت أن أوضح أهداف هذه الجمعية ، والاعمال التي حققتها في مجال الخدمة الانسانية ، والتنويه بدورها التحضيري والعملي في ثورة (١٩٢٥) .

ومن المؤكد أن فترة الحكم العربي (١٩١٨ – ١٩٢٠) على قصرها كانت خيرا على سورية ، اذ دفعت بها الى النهوض والتقدم واعتماد العلم سبيلا الى الانطلاق والتحرر من رواسب الحكم العثماني لبناء دولة تقوم على اسس قوية ، وقد أكد الامير فيصل على قيمة الثقافة وأهميتها في دعم الحركة القومية ، وكانت (ترقية المعارف) هدفه الثاني بعد حفظ النظام العام (٤٠) ، فسعى الى تعريب التعليم وتوسيعه ، وانشاء المدارس والمعاهد لتخريج جيل عربي جديد مؤمن بعدالة قضايا أمته وبلاده ، ودفع الشبان الى السفر نحو الغرب للاطلاع على علوم أوربة وفنونها بعد أن سبقتنا دولها اثر قيام الثورة الصناعية .

ومن هنا نستطيع أن ندرك سبب تأسيس جمعية الاسعاف الخيري في حماة ، ذلك أن ظهورها مرتبط برغبة الحكومة العربية في ارسال عدد من النابغين السوريين الى اوربة للتزود بالعلم الحديث وطلب (الفنون والاشغال الميكانيكية) على نفقتهم ان كانوا اغنياء ، أو على نفقة الموسرين من أبناء المدينة ان كانوا فقراء ، وقد طلبت (مفتشية المدارس الابتدائية) بحماة تشكيل جمعية خيرية تسعى لتحقيق هذه الغاية ، وعهدت الى الدكتور توفيق الشيشكلي وتوفيق الاحدب القيام بهذه المهمة بتاريخ (٢٦ آب ١٩١٩)

ولم يأل الدكتور توفيق وصاحبه جهدا في أداء هذا الواجب ، فاشترك مع نفر من اخوانهم ممن عرفوا بميولهم الوطنية والتقدمية ، وأخص منهم الدكتور صالح قنباز ومحمد البارودي وعبد الرزاق الاسود ، وهم الاعضاء المؤسسون لهذه الجمعية ، ووضعوا لها نظاما يتألف من مقدمة وتسع عشرة مادة ، وقد تم التصديق عليه من جانب الحكومة العربية بحماة في (٢٢ ايلول

عام ١٩١٩) تحت رقم (٤٣٣) .

ونستطيع أن نستقرىء من مقدمة النظام الامور التالية .

١- دعوة كل عربي الى اليقظة ،لان الاحلام والاوهام لاتصد المطامع الاستعمارية .

٢- التأكيد على أهمية اليد العاملة الصناعية والزراعية .

٣- احياء الصناعات الضرورية دون الكماليات والعمل على استقلالها .

٤- التقليل من دور العلوم الانسانية .

ومن الواضح أن الهدف العام لهذه الجمعية قد تجاوز الغاية الاساسية من تأسيسها ،وجعل السبب المباشر لقيامها أمرا ثانويا ،غير أن نظام الجمعية حدد مهمتها وهي : ايفاد النبغاء من التلاميذ الفقراء الى أوربة لتحصيل العلوم والفنون ،وجعلت المادة الثالثة حق الانتساب الى الجمعية وقفا على كل عربي ،كما نوهت المادة السابعة عشر باصدار جريدة محلية لتوزيعها على الاعضاء بلاثمن مرة كل شهر .

وبعد تعميم نظام الجمعية على الشعب الحموي بادر فريق من علماء المدينة وأدبائها وأصحاب النزعات الاصلاحية الى المشاركة في دعمها لتنهض بالمهمة التي انيطت بها ،ووقفت الى جانبها طائفة من سيدات المجتمع الحموي ،وبذلك سجلت المرأة الحموية في الربع الاول من هذا القرن دورا رياديا في العمل مع الرجل جنبا الى جنب في الحقل الوطني والانساني .

وعندما حل الانتداب الفرنسي محل الحكم العربي الفيصلي بقيت جمعية الاسعاف تمارس نشاطها الاجتماعي ،غير أنه اكتسب ابان الانتداب بعدا جديدا ،أعني مضمونا سياسيا ،فقد حصل نفر من اعضائها على ترخيص من الفرنسيين بتأسيس ناد أدبي الى جانبها ،وقد تحدثنا عنه سابقا .

ويمكن تلخيص الاعمال التي قامت بها جمعية الاسعاف في فترة الحكم العربي وبداية عهد الانتداب بمايلي :

١- ايفاد عدد من الطلبة الحمويين الى أوربة .

٢- تقديم العون المادي الى المدارس الفقيرة دون تمييز ديني

وقد اطلعت على كتاب مطرانية الروم الارثوذكس بحماة بتوقيع الارشمندريت بنيفون ، يشكر فيه غيرة رجال الاسعاف على التلامذة المسيحيين ، ويرى في هذا العمل الخيري دليلا على الاريحية والمحبة

وحسن الوئام .

٣- ايجاد نظام لمحو الامية بين ابناء الشعب وتأمين مستلزماتها وكانت أماكن تعليم الاميين موزعة على المساجد والمدارس والاندية الليلية، وقد ورد في (نداء الى الشعب الكريم) وزعته الجمعية بعد أربع سنين من تأسيسها أنه (لا فائدة لهذه الامة ما لم يعم العلم اكثر أفراد طبقاتها) وأكد النداء على أن (الحياة الاستقلالية الحرة التي تنشدها أمتنا لا بد لها من أساس ثابت وهو العلم المفيد) .

٤- انشاء الحركة المسرحية وتشجيعها، وكان محمد البارودي أول من نهض بالمسرح في مدينة حماة، فقد ألف فرقة تمثيلية من شباب جمعية الاسعاف قاموا بتمثيل عدد من الروايات العربية والاجنبية على مسرح الزهرة ومسرح صالون الكوكب، وتميزت هذه الروايات باسقاطات تاريخية ووطنية، نذكر منها (في سبيل التاج) و(أبي عبد الله الصغير) و(مجلس العبر) .. كما شجعت الجمعية فرقة جورج أبيض عندما قدمت الى حماة لتقديم رواية (البطل عطيل) .

٥- الاتصال برئاسة المعارف في دولة دمشق لرفع نسبة المقبولين مجانا في المدرسة التجهيزية بحماة تحقيقا لنشر العلم بين ابناء الشعب .

٦- العمل على احياء بعض الصناعات التي أوشكت على الانقراض كصناعة سكب النحاس الاصفر، وتقديم المساعدات المادية لاصحابها .

٧- اقامة مسابقات علمية ويدوية وفنية لتفجير طاقات الشباب وتشجيع المبدعين منهم بالمكافات المادية والمعنوية .

٨- وكان الفرع النسائي للجمعية يقوم بجمع الاعانات والتبرعات من نسوة المدينة، ويعمل الفرع على تقديم العون لمن فقدن المعيل أو قعدن عن الكسب بسبب العجز، ويهيء فرص العمل الشريف للقادرات من النساء .

٩- اصدار جريدة (التوفيق) للدفاع عن قضايا الشعب ومطالبة الحكومة العربية باجراء الاصلاح المنشود (٤١) .

تلك هي خلاصة عن اعمال جمعية الاسعاف الخيري، ولا يخفى ما لها من أثر في مناهضة سياسة الانتداب بصورة غير مباشرة، اذ أن الجمعية كانت بمثابة مدرسة اجتماعية أحيت ميت الهمم، وأذكت في النفوس

حب الوطن ، وأسهمت بشكل عملي في تذويب الفوارق الطبقية ، وتحرير السواد الاعظم من جهالته وغفلته ، فكانت أول معول في صرح الانتداب ، وأول معول في صرح الاقطاعيات .

وأهم من هذا وذاك فان الجمعية نبهت الشعب الى مساوىء الانتداب وخلقت فيه الاحساس بالظلم والقهر والبؤس ، وجعلته يشعر بأنه لا يملك من مقدرات بلاده شيئا ، ومن الطبيعي أن هذا الشعور الصارم هو الذي دفع اعضاء الجمعية الى المشاركة في احداث الثورة السورية عام (١٩٢٥) .

وقد صب الفرنسيون جام غضبهم على اعضاء الجمعية والنادي معا ، فلوحق اعضاؤهما وتعرض مقرهما للسلب والنهب ، ولم يسلم من وثائقهما الا القليل ، وانطوت بذلك صفحة مشرقة من صفحات كفاحنا السياسي والانساني .

* * *

هذه ملامح من حركة النهضة في حماة خلال الربع الاول من القرن العشرين وهي كما رأينا مرتبطة بحركة اليقظة العربية ، ونحن عندما قصدنا وضع هذه المرحلة من تاريخ البلد في دائرة الضوء لاول مرة فلان الكثير من ابناء هذا الجليل يكاد لا يعرف عنها شيئا بعد أن مرت عليها أحداث وأزمان .

ولا يغربن عن البال أن دعاة النهضة لم يسيروا في طريق سهلة مأمونة محفوفة بالرياحين ، وانما اختاروا الصعب العسير ، فساروا وسط الاشراك والاشواك ، والزوابع والصواعق تلهبهم الجاهلية الحديثة بسياطها .. فلا تتزلزل أقدامهم ، وتفجأهم برجومها .. فلا يحسون زهقا ولا رهقا ، انهم الطبقة التي عقدت الخناصر على معاكستها ، لقد كانوا في صراع دائم مع القوى المضادة لحركة التقدم ، فصبروا كما صبر أولو العزم من الرسل ، وتحملوا ما يطاق وما لا يطاق ، ولا أجد من وصف لهذه المعاناة المريرة سوى ما كتبه أحد دعاتها في مقال بعنوان (هل نرقى) صور فيه آلام تلك الفئة الداعية الى الرقي بقوله :

(هذه الطبقة من الناس ، أشدهم عذابا ، وأكثرهم زفيرا ، وأتعبهم سيرا وأكثرهم عناء ، يلامون ويكذبون فيما يقولون ، ان دعوا الى انتباه من رقدة قيل : ان هؤلاء يريدون أن يوقعوا فتنة ويدسوا دسيسة ، أو يلقوا

التفرقة بين العناصر ،وان طلبوا منهم أن يقلعوا عن سجية ارتكبوها قال المفسدون في الارض : ماذا يطلب هؤلاء ، أيريدون أن نكون كما يشتهون وربما التف حولهم زعانف ناصحون يقولون : دعوا الناس في ماهم عليه انهم هكذا خلقوا ، أو أنكم أنتم المخطئون (٤٢) .

فاذا وصلت هذه الفئة المستنيرة الى حافة اليأس تمثلت أو تعللت بقول الشاعر :

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

ولو أنها سمعت ماقاله أحمد شوقي :

فعلم ما استطعت لعل جيلا سيأتي يصنع العجب العجابا

اذا لنعمت بالا ،وقرت عينا بمصير الاجيال القادمة .

((حواشي البحث))

١- ديوان نديمة الخاطر - مخطوط .
٢- المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني (١٢٥) .
٣- لسان الشرق - العدد ١٢٠ - تاريخ ١٢ آذار ١٩١٠ .
٤- لسان الشرق - الاعداد - ٢٥٠ تاريخ ١١ آب ،٢٥١ تاريخ ١٣ آب ٢٥٣، تاريخ ١٥ آب ،٢٥٤ تاريخ ١٦ آب ،٢٥٦ تاريخ ١٨ آب ،٢٥٧ تاريخ ٢٠ آب ١٩١٠ .
٥- لسان الشرق - العدد ٢٤٣ تاريخ ٣ آب ١٩١٠ .
٦- تاريخ الصحافة الحموية - مخطوط .
٧- خطط الشام - الجزء الرابع : ٥٠
٨- محفوظات مصطفى الحوراني .
٩- ديوان نديمة الخاطر - مخطوط .
١٠- لسان الشرق - العدد - ٢٠٣ تاريخ ١٨ حزيران ١٩١٠ .
١١- لسان الشرق - العدد - ٨٣ تاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩١٠ .
١٢- لسان الشرق - العدد - السابع تاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩٠٩ .
١٣- لسان الشرق - العدد الخامس تاريخ ٢٤ تشرين الاول ١٩٠٩ .

١٤- كانت مخصصات المعارف في الدولة العثمانية عام (١٩١٠) حوالي (٨٨) مليون غرش ، أوما يساوي (٢٠) مليون فرنك ، بينما هي في فرنسة للعام نفسه (٣٠٢) مليون فرنك ، أي بزيادة (١٥) ضعفا (انظر لسان الشرق - العدد - ١٦٦ تاريخ ٥ أيار عام ١٩١٠) .

١٥- لسان الشرق - العدد - ٥٨ - تاريخ ٢٨ كانون الاول ١٩٠٩ .

١٦- لسان الشرق - العدد ٢٥٤ تاريخ ١٦ آب ١٩١٠ والبيتان منسوبان للصارخ المكتوم .

١٧- لسان الشرق - العدد - ١٢ تاريخ ١ تشرين الاول ١٩٠٩ .

١٨- المرجع السابق .

١٩- لسان الشرق - العدد - ٣٤ تاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٠٩ .

٢٠- لسان الشرق - العدد ٨٢ - تاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٩١٠ .

٢١= لسان الشرق - العدد التاسع تاريخ ٢٨ تشرين الاول ١٩٠٩ .

٢٢- لسان الشرق - العدد ٨٢ تاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٩١٠ .

٢٣- تطور التعليم في مدينة حماة (١٣) .

٢٤- خواطر - الجزء الاول (١٤٧) .

٢٥- عاصر الاستاذ احمد الوتار قيام دار العلم والتربية ، ودون تاريخها في مخطوط اعتمدنا عليه في هذا البحث .

٢٦- التوفيق - العدد الثامن تاريخ ١٩ شباط ١٩١٩ .

٢٧- اعتمدنا في هذا البحث على محفوظات بيت الامة .

٢٨- ورد ذكرها مرارا في صحيفة لسان الشرق ، انظر على سبيل المثال الاعداد - ١ - ١٤ - ١٢٧ - ١٨٦ - ٢٤٨ لعام ١٩٠٩-١٩١٠ .

٢٩- لسان الشرق - العدد الاول - تاريخ ١٩ تشرين الاول ١٩٠٩ .

٣٠- لسان الشرق - العدد - ٧٨ تاريخ ٢٠ كانون الثاني ١٩١٠ ومجلة الانسانية ، السنة الثانية العدد الثاني - ايار ١٩١١ .

٣١- لسان الشرق - العدد ١٣٦ تاريخ ٣١ آذار ١٩١٠ .

٣٢- مجلة العمران - عدد خاص عن مدينة حماة صدر عام ١٩٦٩ (انظر مقال : تطور التعليم في حماة للاستاذ شوقي الكيلاني) .

٣٣- اطلعت على قائمة بأسماء اعضاء الجمعية محفوظة لدى الاستاذ محمد الحافظ .

٣٤- لدي صورة عن تقريرومحضرجلسة سلمامن التلف ٠
٣٥- مذكرات فوزي القاوقجي - الجزء الاول - ٨٣ ٠
٣٦- المرجع السابـــق ٠
٣٧- مجلة النواعير- عددالحرية - المجلد الثاني - الجزءالسادس والسابع أيار ١٩٤٦ (انظرمقال : يوم من أيام حماة للاستاذعثمان الحوراني
٣٨- مع ثورة حماة لسنة (١٩٢٥) : ٤٢
٣٩- مجلة النواعير - عدد الحرية المذكورآنفا ٠
٤٠- الحكومة العربية في دمشق : انظر ص ٢٣٣ ومابعدها ٠
٤١- اعتمدنافي هذا البحث على محفوظات بيت الامـة ٠
٤٢- لسان الشرق : العدد الثامن تاريخ ٢٧ تشرين الاول ١٩٠٩ ٠

* كشــاف المراجع *

آ- المراجع المطبوعـــة :

١- ايضاحات عن المسائل السياسية : نشرة القائدالعام للجيش الرابع مطبعة طنين - عام ١٣٣٤) هـ ٠
٢- تطورالتعليم في مدينة حماة : رسالة جامعية مطبوعة على الالة الناسخة تأليف محمودفاخوري عام ١٩٥٩ ٠
٣- الحكومة العربية في دمشق : تأليف خيرية قاسمية - دار المعارف بمصر عام ١٩٧١ ٠
٤- خطط الشام (الجزء الرابع) : تأليف محمدكردعلي ٠
٥- خواطر(الجزء الاول) تأليف عبد الحسيب الشيخ سعيد - المطبعة الوطنية بدمشق - عام ١٩٢١ ٠
٦- المجتمع العربي السوري في مطلع العهدالعثماني : تأليـــف الدكتورة ليلى الصباغ منشورات وزارة الثقافة - دمشق عام٩٧٣
٧- مذكرات فوزي القاوقجي (الجزء الاول) اعداد خيرية قاسميـة الطبعة الاولى - دارالقدس - بيروت عام ١٩٧٥ ٠
٨- مع ثورة حماة لسنة ١٩٢٥ : تأليف محمدسعيدالزعيم - مطبعة الضاد - حلب عام ١٩٦٢ ٠

ب ـ المراجع الخطية :

١ـ تاريخ دار العلم والتربية : تأليف احمد الوتار .

٢ـ تاريخ الصحافة الحموية : تأليف عدنان قيطاز .

٣ـ ديوان نديمة الخاطر : نظم نوري باشا الكيلاني .

٤ـ محفوظات بيت الامة ـ حماة .

٥ـ محفوظات الاستاذ محمد الحافظ ـ حماة .

٦ـ محفوظات الاستاذ مصطفى الحوراني ـ حماة .

ج ـ صحف ودوريات :

١ـ مجموعة (لسان الشرق) الحموية الصادرة بين عامي ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ .

٢ـ مجلة (الانسانية) الحموية ـ السنة الثانية ١٩١٠ .

٣ـ مجموعة (التوفيق) الحموية الصادرة عام ١٩١٩ .

٤ـ مجلة (النواعير) الحموية ـ المجلد الثاني ١٩٤٦ .

٥ـ مجلة (العمران) الصادرة عن وزارة البلدية والشؤون القروية (عدد خاص عن مدينة حماة ١٩٦٩) .

صومعة حمص

عن

الأستاذ محمد ماجد الموصلي

يذكر عدد من المعمرين الحمصيين أن بناء أثريا معروفا باسم (الصومعة) كان قائما على طريق طرابلس قبل اندلاع حرب السفربرلك (الحرب العالمية الاولى) .

ان أقدم الوثائق التاريخية التي قدمت وصفا ورسوما توضيحية لبناء الصومعة ،كان كتاب (رحلة الى سورية) للفرنسي (ل . ف .كاساس) (١) ، ويعتبر توثيق بناء الصومعة زمن صدور الكتاب المذكور في عام (١٧٩٩) من أهم مثيلاته (٢) ،فاستنادا الى الرسوم التصويرية والمعمارية التي نشرت في كتاب كاساس ، كانت الصومعة بناء كاملا عند بداية القرن التاسع عشر ، بقي بناء الصومعة بعيدا عن انظار الرحالة والمهتمين بآثار الشرق الكلاسيكية نحو قرن من الزمن ،وذلك الى أن حضرت اول بعثة أثرية امريكية الى سورية في عام (١٨٩٩) (٣) . وكانت حمص احدى المدن التي زارتها تلك البعثة ،حيث قام احد اعضائها بالتقاط اول صورة فوتوغرافية للصومعة ،وتمثل تلك الصورة مشهد الجدار الشمالي الوحيد الذي بقي قائما حتى عام (١٩٠٥) .

وكان المستشرق السويدي الاستاذ (فون كارل فاتسينجر) (VonC.Watginger) آخر من حالفه الحظ في مشاهدة آثار الصومعة عام (١٩٠٧) حيث أن بلدية حمص قد هدمت ما بقي من آثارها في عام (١٩١١) ،وبهذا العمل كانت البلدية قد أزالت والى الابد آثرا عربيا هاما بقي قائما في حمص نحو امن ثمانية عشر قرنا ، وشيدت مكانه مادعي وقتها بالكازخانة (أي محطة بيع الكاز) .

كانت صومعة حمص عبارة عن ضريح تذكاري بني تخليدا لافراد السلالة العربية الملكية التي عرفت باسم (شمسيغرام) والتي حكمت سورية الوسطى خلال القرن الاخير قبل الميلاد والاول والثاني الميلاديين .

لايعرف بدقة تاريخ ابتداء حكم سلالة (شمسيغرام) لسورية الوسطى

خلال القرن الاول (ق٠م) ،ولكن اقدم توثيق معروف لظهور اسم تلك السلالة الملكية في التاريخ المدون للمنطقة يعود الى زمن حكم الامبراطور الروماني بومبي الذي غزا سورية في عام (٦٤ق٠م)، فقد جاء في وصف حملة هذا الامبراطور انتصاره على امير (اوملك) ايميسا (حمص) من اسرة شمسيغرام ٠

كان من ملوك سلالة شمسيغرام دابل ملكا وشمسيغرام حيميليك والاسكندر ،وجيميليك الثاني وشمسيغرام الثاني(٤) وعزيز المتوفى في عام(٥٤) ميلادي وسهيم الذي حكم في عام (٧٣) ميلادي ،كان من افراد سلالة شمسيغرام أيفانصروشمش ابن شمسيغرام(٩٩ ميلادي) وايوتابي ابنة شمسيغرام الثاني المتوفية في عام (١٠٨) ميلادي وشمسيغرام ابن سهيم المتوفي في عام (١٣٧) ميلادي (٥) ٠

يعود تاريخ تشييد بناء صومعة حمص الى عام (٧٨) اوعام (٧٩) ميلادي وتوافق هذ العام الاخير(٧٩م) مع العام الذي توفى فيه الامبراطور الروماني فيسباسيان ،وقد اثبت تاريخ بناء الصومعة نقش تأسيسي دون بالقلم اليوناني القديم على لوح حجري مستطيل في اعلى الطابق الثاني من البناء ،شاهد الحجرة التي نقش عليها النص التأسيسي بوكوك(PococLce) في عام(١٧٤٥) وكاساس في عام(١٧٩٩) ،وفي العام الذي نسخ فيه النقش العالم الفرنسي وادينغتون(٦) ،كانت الحجرة قد انتزعت من مكانها (أوسقطت مع تهدم الطابق العلوي)ونقلت الى منزل الحاج محمود الجهني الكائن في حي باب هود ٠

ترجمة النقش :

(بنى غايوس يوليوس من قبيلة فابيا ،شمسيغرام ،المدعو ايضا بسيلاس بن غايوس الكيسيون ،في حياته هذ المدفن لنفسه ولاسرته عام ٧٨ (او٧٩م) ،(٧) ٠

يوضح النقشان هذ الضريح التذكاري(الصومعة)كان قد شيده غايوس يوليوس شمسغرام الذي ينتسب الى القبيلة القيصرية فابيا وكان غايوس هذا احد السادة الذين ينتسبون الى سلالة شمسيغرام الملكية ،ويعتقد أنه كان آخر من حكم حمص من تلك السلالة ٠

كما ويوضح النقش توافق زمن حكم غايوس يوليوس مع عهد حكم الامبراطور فيسباسيان .

يوضح النقش أيضا ان غايوس هذا كان يحصل لقب اثانيا وهوسايلاس والاسم الاخير معروف خلال زمن حكم الامبراطور الروماني بومبي .

حدد الاستاذ فاتسينجر المكان الذي شاهد فيه آثار بناء الصومعة عام (١٩٠٧) بالكلمات التالية :

(تقوم آثار ضريح تذكاري قديم على بعد عدة مئات من الامتار الى الجنوب الغربي من مدينة حمص (٨) وعلى مقربة من الطريق المؤدية الى محطة القطار) (٩) .

اذا اردنا أن نحدد المكان الذي تقوم فوقه الصومعة ، فاننا نستطيع القول انها كانت تقوم مقابل بناء المركز الثقافي الجديد من جهة الشمال وذلك بين شارعي علاء الدين الدروبي واحمد شوقي ، وتؤيد هذا التوقيع المكاني للصومعة ذكريات المعمرين الحمصيين الذين حدثوني عنها .

* الوصف المعماري للصومعة :

ذكرنا في المقدمة ان كاساس كان اول من وثق الصومعة بالرسوم والمقاطع المعمارية (ارجع الى مخطط البناء) ، وقد استطاع المستشرق السويدي فاتسينجر اعداد دراسة معمارية هامة معتمدا في ذلك على ما شاهده من بقاياها المعمارية وعلى مقارنة ذلك مع دراسات سابقيه .

كانت الصومعة عبارة عن بناء مربع عند قاعدته ، يتألف من طابقين ويعلو الطابق الثاني هرم من النموذج المعماري المعروف باسم (ObeLisque) والبناء يشبه بمجمله تقريبا القبور الهرمية التدمرية التي مازالت ماثلة للعيان حتى يومنا هذا ، شيد بناء الضومعة فوق مصطبة تعلو عن مستوى الارض المجاورة مقدار نصف متر ، وقد بنيت بأحجار الطوب ، وبني طرفها الخارجي على شكل درج ، بلغ عدد درجاته خمسة ، بلغ طول ضلع مربع القاعدة (٥ر١٣)م وبلغ ارتفاع المبنى (٥ر٢٢)م ، جعل للبناء مدخلا في الجهة الشرقية .

تألف الطابق الارضي من قاعدة مربعة ذات سقف عقدي مثمن ، وقد بلغ طول ضلع المربع ثمانية امتار ، انيرت القاعة عبر ثلاثة فتحات مائلة

نحوالداخل ،هذا ما أكدت وجوده الاشارالتي بقيت من الجدارالشمالي، ولربما وجدت تلك الفتحات ايضا في الجدار الجنوبي ، اما الطابق العلوي فقد تألف هو الاخرمن قاعة واحدة دائرية وهي اصغرمن قاعة الطابق الارضي شيد الطابق العلوي بتراجع عن الطابق الارضي بلغ مقداره (١)م في كل جهة ،كان سقف قاعة الطابق العلوي عبارة عن عقد يقوم فوق ثمانية محاريب نصف دائرية ،وقد جعل فوق كل محراب ثلاثة اقواس متتابعة ٠

امتازت واجهة الطابقين بوجود خمسة اعمدة لكل واجهة طابق وكان يعلو كل عمود تاج حمل فوقه افريز نافر ،وشيدت الجدران الخارجية الصامتة باحجار متناوبة في اللون بين الاسود (احجار بازلتية) و الابيض (احجار كلسية) وهي نفس العمارة التقليدية التي اشتهرت بها بيوتات حمص عند نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي ،تبرز الاحجار البيضاء للمدماك الذي يعلو التيجان عن مدماك الاحجار البازلتية ٠

زخرف سياق المداميك الذي يفصل بين واجهة الطابقين بدعائم محددة ونحتت فوقها جبهات مثلثة ومتكررة ٠

اما الجدران الداخلية فقد ازدانت بالزخارف الهندسية الملونة والمتناوبة ،وتعتبر تلك الاشكال الزخرفية من الزخارف الفريدة في تاريخ العمارة ومن ابكرها زمنيا ،فقد ظهرت مثل تلك الاشكال الزخرفية خلال ازمنة لاحقة في مناطق شمال / شرق اوربا وغيرها ٠

واخيرا وقبل ان نختم الحديث عن صومعة حمص لابد لنا من ان ننوه الى ان مثل هذا الطراز المعماري الذي ميز بناء الصومعة كان معروفاً في مصر القديمة وقد انتقل استخدامه الى سورية عبر فلسطين اولا ،فمن اقدم النماذج المبكرة زمنيا لهذا الطراز هو قبر ابنة الفرعون الذي اكتشف في كفرسلوان بالقرب من مدينة القدس ،والذي يعود تاريخ تشييده الى القرن السادس ق ٠ م ٠

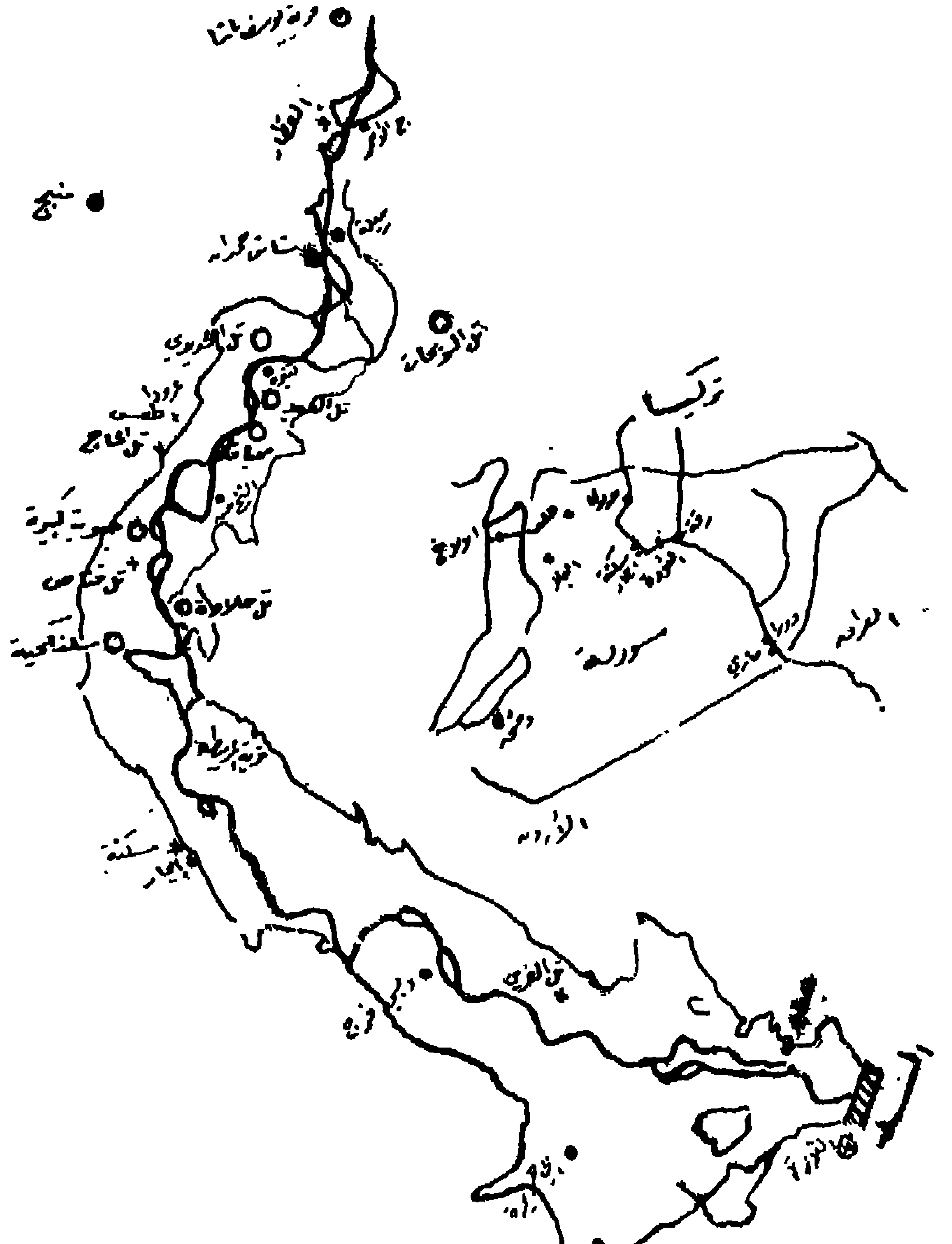

نسخة عن خريطة البعثة

الكشف في مدينة آزو الميتانية

الأستاذ
محمد الخولي

نعود لنتابع ما بدأناه في العددين الاول والثاني من هذه المجلة عن أخبار موقع تل الحديدي الكائن في منطقة حوض الفرات على بعد (٣٠) كم الى الجنوب الشرقي من مدينة بنج ، ولكي نأخذ فكرة عن الحضارات التي تعاقبت على هذا الموقع لابد من إلمامة سريعة تذكر بما أسلفنا من حديث منه .

يعتبر هذا التل واحداً من مواقع أثرية كثيرة انتشرت على ضفاف حوض الفرات ، ولكنه يتميز بكبر حجمه وامتداده على رقعة واسعة ، هذه تعتبر من الصفات التي تعبر عن أهمية الموقع الاثري ، تعود أقدم آثار هذا التل الى طبقة الالف الخامس قبل الميلاد وقد تسلسلت مظاهر العمران فيه عبر التاريخ حتى غدت تمثل في عصور البرونز مدينة لاشك في أنها كانت تعتبر من كبريات المدن ، وقد استمر عمران هذا الموقع من الناحيتين السكانية والحضارية حتى نهاية عصر البرونز الاخير حيث توقف ، ثم عادت الحياة الى الجانب الجنوبي الشرقي في العهد الروماني خلال القرون الثلاثة الاولى من التاريخ الميلادي ثم توقف ثانية ثم عاودته الحياة في الزاوية الغربية الجنوبية في العهدين الايوبي والمملوكي الاسلاميين ثم هجر .

وبما أننا استعرضنا في العدد الثاني فكرة عن عصري البرونز القديم والوسيط لذا سنخص هذا المقال بدراسة عن عصر البرونز الاخير ، وهنا لابد لي بادىء ذي بدء من الاشارة الى أني استقيت معظم معلوماتي الاساسية لهذا المقال من محاضرة ألقاها رئيس البعثة الاثرية المنقبة في هذا الموقع الدكتور- رودولف دورنمان - في مؤتمر ستراسبورغ الاثري في عام (١٩٧٦) ، ومن بحث نشره في المجلة الاثرية (ARCHAEOLOGY) ، الامريكية العدد (٦ لعام ١٩٧٨) .

وقبل أن أخوض في الحديث عن أسرار الطبقة التي ترجع الى عصر البرونز الاخير أشعر بضرورة التعرف بمواقع عصور البرونز من التاريخ الخاص بالشرق القديم وهي على النحو التالي :

عصر البرونز الاول يقع مابين (٢٣٠٠ – ٢٠٠٠) قبل الميلاد .

عصر البرونز الوسيط يقع مابين (٢٠٠٠ – ١٥٥٠) قبل الميلاد .

عصر البرونز الاخير يقع مابين (١٥٥٠ – ١٢٠٠) قبل الميلاد .

ومما تجدر الاشارة اليه أيضا أن كل عصر من هذه العصور ينقسم الى ثلاثة أدوار يشار اليها بحسب قدمها بالارقام المتسلسلة (١–٢–٣) فنقول عصر البرونز الاول الدور (١) أو (٢) أو (٣) ونفس الشيء بالنسبة الى عصري البرونز الاخيرين ، الوسيط والاخير .

أهم توفيق يتعلق بعمران التل السكاني والحضاري يعود الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد حيث اكتشفت مجموعة من الرقم الفخارية في طبقات عصر البرونز الاخير ، عثر عليها في بناء جرى تهديمه بالقوة أثر حريق أو حملة عسكرية ، وهذه الرقم على قلة عددها – حيث لايتجاوز عددها سبعة عشر رقيما – فهي هامة جدا لانها تشير الى اكتشاف مدينة ميتانية تعرف بمدينة آزو ، كانت قد ذكرت في وثائق موقعين متباينين آخرين ، اكتشف أحدهما في سورية وهو موقع الالاخ (تل عطشانة) القائم في سهل العمق بالقرب من مصب نهر العاصي على البحر الابيض المتوسط والثاني في العراق وهو موقع نوزي القائم في شمالي الاراضي العراقية .

تحدثت هذه الرقم التي نقشت بالكتابة المسمارية عن المنزل الذي اكتشف فيه (١) ، فذكرت أن المنزل يعود الى شخص يعرف ب(يابابن عزيروبن واجان) (٢) ، وقدمت كذلك الاسم الخاص بالمدينة وهو آزو ، هذا بالاضافة الى معلومات هامة غنية أسهمت في كشف جوانب من حياة شعب المدينة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، هذا الاكتشاف ولو أنه لم يضف معلومات جوهرية الى ماهو معروف عن العصر الميتاني ان كان من جهة حكام العصر أو الجانب السياسي بشكل عام لكنه مع المكتشفات الاثرية

---

(١) – ربما أن هذه الرقم كانت تؤلف جانبا من مكتبة خاصة بصاحب المنزل المذكور .

(٢) – لعله الاصل لاسم يحيى .

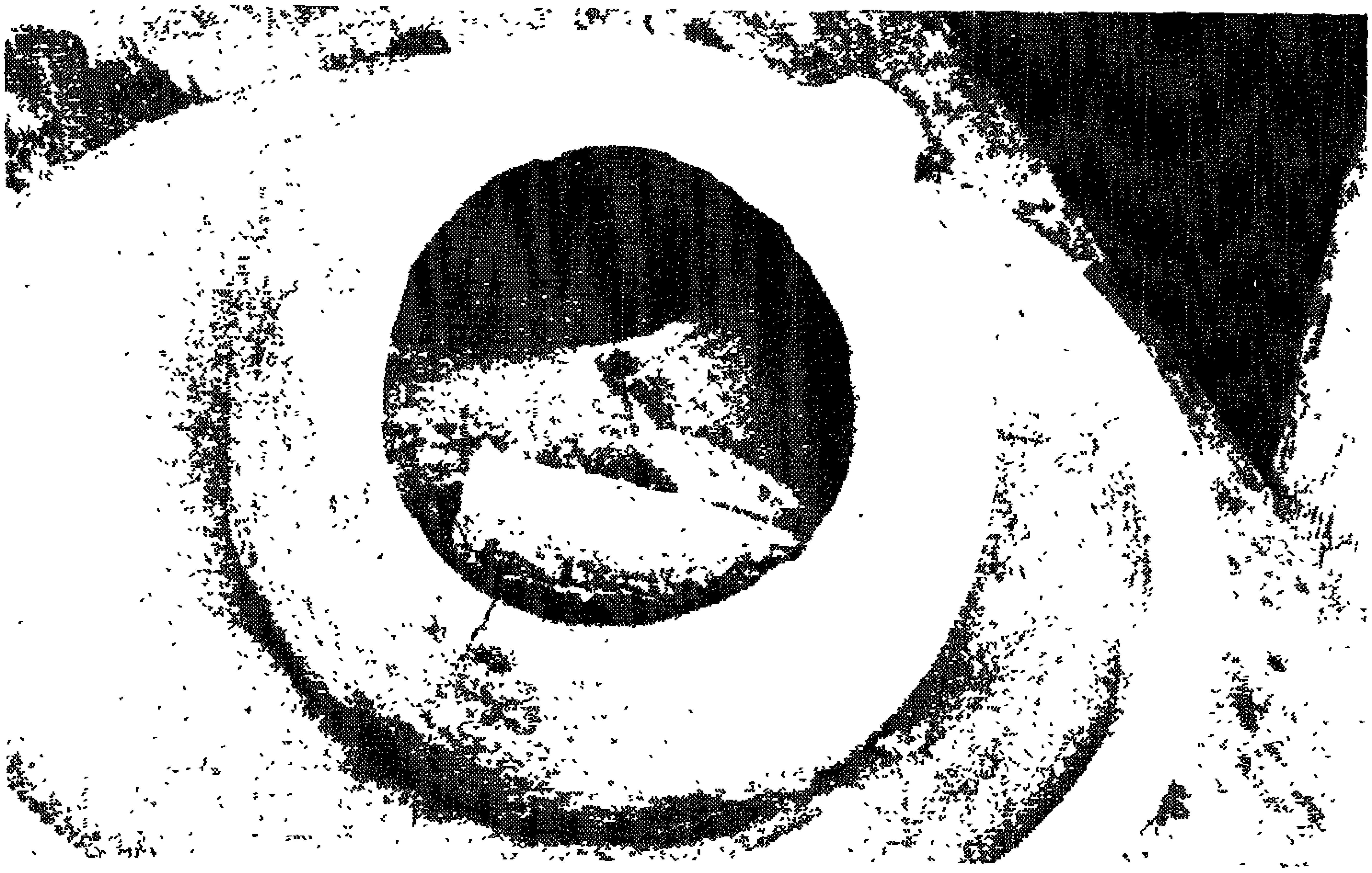

- الصورة رقم /٢/ مجموعة من الرقم الفخارية المنقوشة بالكتابة المسمارية

الاخرى ولاسيما الاواني الفخارية ساعدعلى تكوين الاطار التاريخي لمدينة آزو المكتشفة وأعلن عن سبق مدهش في ابرازموقع المدينة الحقيقي ، أما الاطار التاريخي فيمكن تحديده بالقرن الخامس عشرقبل الميلاد وبشكل أدق يمكن اعادته الى الفترة الواقعة ابان الحملة الحثية التي اجتاحت شمال سورية في حوالي نهاية عصر البرونز الوسيط وتابعت تقدمها الى أسفل حوض الفرات حيث ومرت مدينة بابل في حوالي (١٥٩٥) ق ٠ م وأخيرا تم لها احتلال وسط سورية بعهد الملك الحثي الشهير سيبلوليوما حوالي (١٣٣٥ - ١٣٧٥) ق ٠ م ٠

ظهرت المملكة الميتانية في القرن الخامس عشر كقوة جبارة اكتسحت جميع أعدائها واستطاعت أن تمد نفوذها من الساحل السوري وحتى جبال ايران الغربية ،وقد استفاد الميتانيون من ضعف خصومهم الحثيين فقاموا بتدعيم قواتهم العسكرية وتعزيز موقعهم السياسي بعقد الاتفاقات مع فراعنة مصر الذين استطاعوا أن يمدوا نفوذهم آنذاك الى اجزاء هامة من سورية تجدر الاشارة الى أنه ليس لدينا في موقع تل الحديدي أي أخبار أو معلومات يمكن ربطها بشكل أكيد بأية من المحاولات العسكرية التي

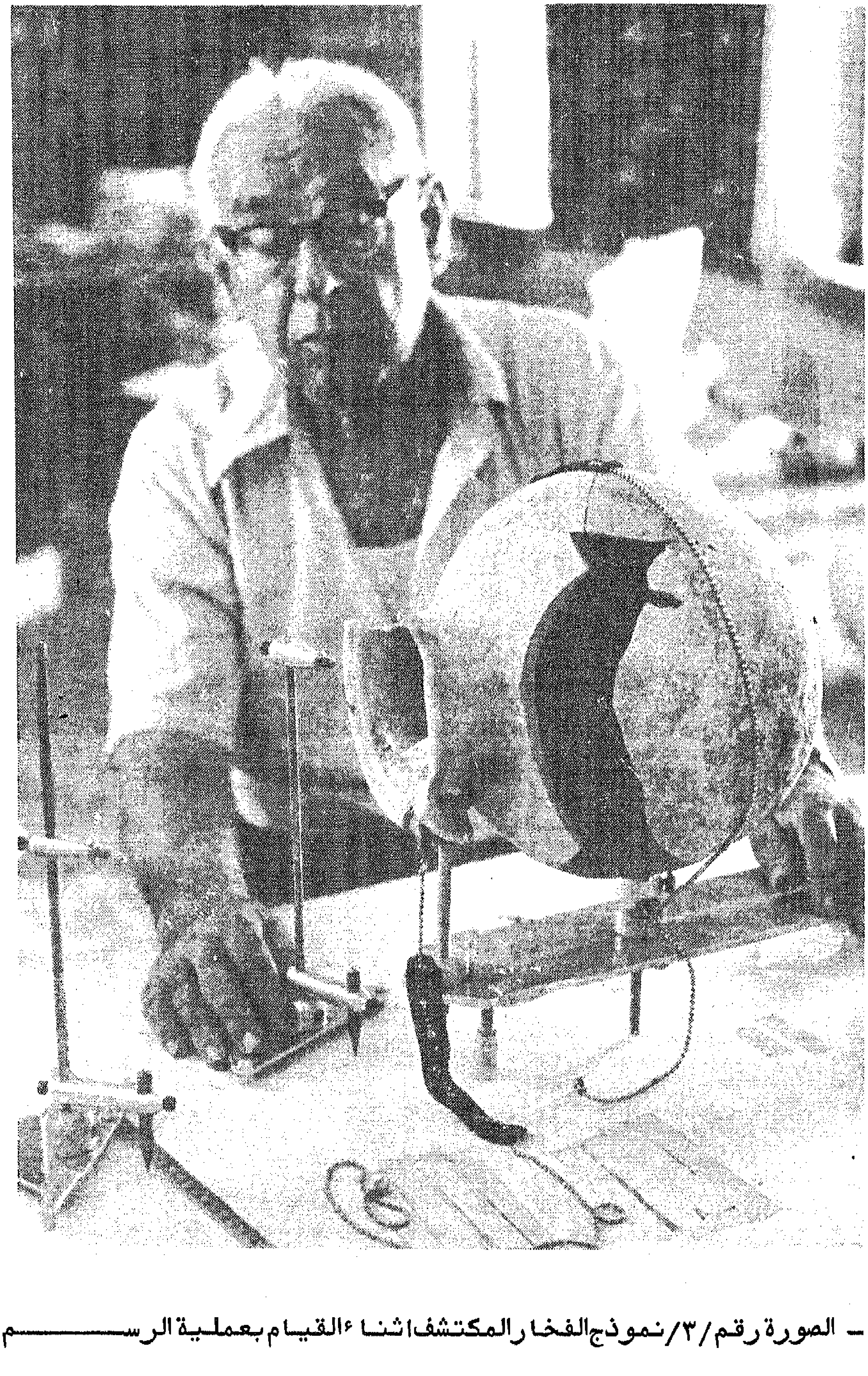

ـ الصورة رقم/٣/نموذج الفخار المكتشف اثناء القيام بعملية الرسم

تعرضت لها المنطقة سواء الاشورية منها أو الحثية أو المصرية أو كل ما يمكن ربطه من النواحي العسكرية هو تحصنات المدينة المدروسة جدا والتي تتألف من منحدرات حادة تتقدم خنادق عميقة وأبراج وأسوار حجرية تحيط بالمدينة يتجاوز عرض بعضها المترين والنصف وهيكل عظمي لانسان سقط من عل بعد أن غرس دبوس معدني في جسد صاحبه ، وتتجلى أهمية المكتشفات في كونها ذات مضامين اجتماعية حيث ألقت الاضواء على المستوى المعاش للمجتمع هناك وقدمت أفكارا عن شؤون التملك وشؤون الثروة وعن الدخل الوسطي للفرد في مجتمع المدينة السوري آنذاك :

* <u>أهم اكتشافات هذه الطبقة :</u>

تم اكتشاف دار مكونة من باحة وثمانية غرف ، الجزء الاسفل من جدران هذه الدار مبني بالحجارة غير الموجهة بينما الاجزاء العليا منها مقامة بواسطة الطوب وقد ليست الجدران بالطين وكذلك غطيت أرض الغرفة بطبقة طينية ناعمة .

اذا تأملنا مليا هذا المخطط الخاص بالدار المذكورة لامكننا القول أنه ما زال يتكرر حتى يومنا هذا كما أن اسلوب التنفيذ والمواد المستخدمة فيه ما زالت هي نفسها ويكفي للتأكد من ذلك مشاهدة الدور المعاصرة في القرى المجاورة كالحديدي والشجرة والشاش وغيرها ، والفارق الوحيد أنه في الابنية القديمة تختلف كمية الحجارة في اساس البناء العادي الخاص بالسكن ويتراوح ارتفاع الاساس من المدماك الواحد حتى الاربعة في مستودعات الغلال والغرف الخاصة بالوثائق والمقتنيات الهامة مثلا كان أساس الغرفة التي عثر فيها على الرقم الفخارية يتراوح ما بين (١٥٠و٢٠٠سم) .

لم يكن هذا الاعتبار خاصا بارتفاع الاساس فقط بل كذلك بعرضه ، حيث اكتشفنا أن عرض الاساس مختلف ما بين غرف الدار الواحدة ، كذلك ما بين أساس دور السكن والمعابد والاسوار ، نرجح أن عوامل ذلك هو مدى ارتفاع البناء والطبقات التي يتكون منها .

أما الاسقف فيمكننا القول بأنها تشبه الاسقف في القرى المعاصرة والمواد المكتشفة تشير الى استعمال خشب الحور وفوقه القصب أو أغصان الاشجار لاسيما الطرفه التي تنبت على ضفاف الفرات وفي جزره أو القش ومن ثم الطين .

عثر في باحة الدار على صف من الجرار الكبيرة الخاصة بمخزن المواد التموينية بالاضافة الى الانية الفخارية الخاصة بشؤون الطبخ والخدمات المنزلية

- الصورة رقم /٥/ مجموعة من جرار الخزن وقدور الطبخ اكتشفت في باحة الدار

الاخرى وهناك فرنان أقيما في الجانب الشرقي من باحة الدار الى جوار مصطبة واطئة متصلة بأحدهما ، وفي الباحة أيضا منطقة نصف دائرية ، مرصوفة بالحجارة ومغطاة بطبقة من الطين - لم نهتد بعد الى طبيعة استعمالها · ثلاث غرف من هذا المجمع تحتوي على مجموعة جرار من الحجم الكبير الخاص بالخزن وكذلك قواعد لهذه الجرار بالاضافة الى أباريق ومطرات وطاسات حجرية ومحارية ، وكذلك اختام اسطوانية وهيكل عظمي لانسان مع انواع من اللقى الاخرى ٠

تتميز الغرفة الكائنة في الزاوية الجنوبية الغربية بأن أرضها أعلى مستوى من أرض الغرف الاخرى وقد تعرضت محتوياتها الى الاحتراق فأصاب التلف معظمها ، واحترق بعض الفخار حتى تحول الى اللون الاخضر ، وبعض القطع تحولت الى صهارة من شدة ارتفاع الحرارة ، أما الغرفة الكائنة في الزاوية الجنوبية الشرقية فقد احتوت على نماذج أقل من الفخار حيث وجدنا

ارض الغرفة مغطاة بارتفاع (٢٠-٤٠سم) من المواد المحترقة لاسيما الحبوب التي كانت مخزنة في الغرفة .

واكتشفنا كذلك نماذج من هذه الغلال لما تحترق تماما في الغرفة الجنوبية (٣) هذا بالاضافة الى قطع خشبية من أثاث منزلي متفحمة .

وما يلفت النظر أن الجدار الفاصل ما بين القاعة الكبيرة وباحة الدار يحتوي على ثغرة ربما كانت محرابا أو نافذة أو خزانة جدارية وأي كانت فهي تمثل ظاهرة غريبة في عمران ذلك العصر، وقد كانت محاولاتنا بحثا في التعرف على حقيقة استخدامها ، رغم وجود بعض المعطيات المساعدة مثل كسور فخارية خشنة عثرنا عليها فوق الجدار نفسه وأجزاء القاعدة تمثال فخاري مع انقاض عمرانية توضعت عند أساسه ، وكل ذلك عجز عن تقديم الدليل اللازم لتصور حقيقة تلك الظاهرة .

وكل ما تفتق الظن عنه هو أنها ربما كانت محرابا تحفظ فيه جرة ماء الشرب الكبيرة .

- التقليد الذي مازال متبعا لدى شعب حوض الفرات - وان صح ذلك فتكون هذه الظاهرة استثناء لانها غير مألوفة في ابنية هذا العصر .

* الرقم الفخارية المسمارية :

توالى كشف مجموعة الرقم الفخارية تباعا وفق البيان التالي :
استفتحنا بالعثور على لوحتين تامتين ملقاتين فوق الدوم الذي يملأ ساحة الدار وتلا ذلك اكتشاف أجزاء الثلاث لوحات أخرى ، هناك لوحة عثر عليها في الغرفة الغربية قرب زعرور الباب ، واللقيا الاهم هي تلك التي تشتمل على ثماني لوحات توضعت في حوة (انظر الصورة رقم (٢) ، أما بقية اللوحات فقد وجدت فوق الانقاض التي تجمعت الى جانب الجدار الغربي .

ان معظم هذه اللوحات تحمل نصوصا قانونية وتعنى كذلك بشؤون امتلاك المزارع والكروم والمستودعات وبعضها اختص بالارث ونوه بعضها عن وضع المرأة في المجتمع الميتاني وحقوقها في الارث والتملك ، ان مثل

---

(٣)- من المعلوم أن فحص المواد العضوية المتفحمة على جهاز الفحم (١٤) يساعد على معرفة التاريخ التقريبي لعصر استعمال تلك المواد .

هذه النصوص هامة جدا الاسيما ما يتعلق منها بشؤون البيع ، ولعل أشهر نصوص البيع في هذه المجموعة هما نصان نظما لبيع واحد وهو بيت للسكن ، في النص الاول بيع البيت بواسطة الياهي بن سورسي بن الاله داجان الى لومس آحي ولم يذكر الثمن وفي النص الثاني ذكر أن البيت يخص الياهي بن الاله داجان والثمن (٣٠٠) شاقل من الفضة ولم يذكر اسم الشاري ، تحدثت لوحة عن وصية ياياصاحب بيت ترك فيه جميع ممتلكاته لبناته ، ولوحة تحمل رسالة قصيرة مؤلفة من ثمانية اسطر وهي موجهة من أوحي الى أريجاليا وفيها يسأل عن اشياء كانت قد أخذت من أورجال وهي احدى القرى التابعة لمدينة آزو التي سرقت ممتلكاتها .

وهناك لوحة تحدثت عن استبدال راعي براع آخر وثلاث لوحات احتوت على قوائم اثنتان منها تذكر سلع امرقنة والاخرى منظمة باسماء أشخاص شكلوا طاقم لسفينة .

لقد تم استخراج حوالي (١٥٠) اسما من الالواح ذوات القوائم والالواح القانونية ، أشارت الدراسات الاولية لهذه الاسماء في انها تمت الى أصول لغوية مشتركة بين سكان المدينة وسكان المناطق المحيطة ذوات الانشطة الفعالة مع محتمع مدينة آزو ، وان معظم هذه الاسماء ذات خصائص سامية غربية بالاضافة الى اسماء أخرى أكادية وحثية وحورية ، ولم تشتمل هذه الاسماء على اسم ملكي واحد لكنها حوت اسماء عدد من القناصل ، وهؤلاء القناصل لم يعرف شيء عن طبيعة عملهم أو صلاحياتهم سوى أنهم كانوا على صلات بمنظمة الاله الذي يمثل الاله الرئيسي للمدينة ومنظمة داجان هذه كان لها دور رئيسي في توجيه الشؤون الحياتية في مدينة آزو ، وقد كشفت بعض الرقم اسماء بعض اعضاء هذه المنظمة مثل لوميس آحي ولو آحيا ولوجال سالو آحيا ، وحملت احدى هذه الرقم خاتم المنظمة ربما للاشارة بانها نظمت باشراف منظمة داجان .

بما أن منظمة داجان كان لها دور في حياة المدينة يشبه الى حد بعيد دور الحكومة في ايامنا هذه ولذلك ذكر موظفو معبد داجان في كثير من الكتابات ولفظة داجان ذات الاثر المقدس نجدها في كثير من الاسماء العادية الدراجة مثل : مانتي داجان ، الي داجان ، داجان فقط .

- الصورة رقم/٦/لوحة تمثل خاتم منظمة داجان في مدينة آزو

وهذا يشير الى اهمية هذا الاله هذه الاهمية لم تكن فحسب بالنسبة لشعب مدينة آزو بل بالنسبة الى جميع المدن المنتشرة على جانبي حوض الفرات بالاضافة الى ممالك ومدن وسط سوريا التي تعود الى عصر مدينة آزو الميتانية ورجوعا حتى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد .

ويؤكد ذلك ماورد في آثار مملكة ايبلا (تل مرديخ) اذ اعتبر داجان الاله الاول والمعبد النفوذ والاقوى على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ان عدم ورود ذكر لاي ملوك تلك الفترة في الرقم المكتشفة اوقع البعثة في صعوبة تأريخ هذه المرحلة بشكل مباشر ودقيق ،لكن هنالك عدد من الاشارات التي تضمنتها النصوص ، اضافة الى اسلوب الكتابة في هذه النصوص وخصائصها البلاغية واللغوية وكذلك الاشكال الفخارية المكتشفة الى جوار الرقم والاسلوب الفني الذي تميزت به نقوش الاختام ، جميع ذلك كان بمثابة اشارة واضحة الى نتاج القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

ـ الصورة رقم /٧/ختم وطبعة تمثل خصائص الزخرفة الفنية في العصر الميتاني

* أهم الاختام المكتشفـــــــــــة :

ليست جميع الاختام المكتشفة تتمتع بالحالة الجيدة التي تبدو في هذا الختم بل معظم زخارف الاختام لم تحفر حفراً عميقاً لذلك كان صعباً استجلاء آثارها على اللوحات لكن ميسمها العام يدل بشكل لايدع مجالاً للشك بأنها سوريـــــة ميتانية ،وفيما يلي سنقدم دراسة لاثنين من هذه الاختام ليصار الى آخـــــذ فكرة عن المواضع الفنية المستخدمة في زخرفة الاختام الميتانية :

١ـ طبعة ختم تحتوى على مشاهد وصور انسانية ذوات تعبير اقرب للواقعية اذا ما قورنت بالزخارف الانسانية المحورة التي نفذت على الاختام البابلية وموضوع زخرفة هذا الختم (الهة جالسة تلبس ازاراً طويلاً ويدها اليمنى ممتدة مـــع عطفة بسيطة نحو الاعلى بالكوع ،كأنها تعبر عن رفع كوب او تعطي اشــــارة تحية) . الى اليسار شخص متجه نحو اليمين ويلبس ثوباً طويلاً واليدان مرفوعتان باشارة تحية اوطاعة ، يحتمل أن يمثل هذا الشخص ربة الخصوبة وفي الوسط شخص آخر نصفه الاسفل مستور ونصفه الاعلى عار وامامه ألف متشابكة ،يبدو أن الختم

لم يطبع بعناية لذلك فان معظم التفاصيل غير واضحة وقد تسبب ذلك في طمس لوحة الكتابة المتوضعة خلف رأس الالهة ٠

٢- في اسفله يبدو نصف المشهد التقليدي للالهة العارية وهي ترفع ثدييها بيديها (المألوف في اختام هذه الفترة أن تصور المرأة مرتديه ثوبا منفرجا من الامام) ٠

ب - صور الختم بثلاث حيوانات هي عبارة عن أسد وحصان وعنقاء : مثلث متلاحقة باسلوب رشيق حدا ، مثل الاسد بصورة جانبية وهو مقع وذيله مرفوع ومثل الحصان والعنقاء واقفين والاخيرة مثل ذيلها يمس الارض ٠

ان الواقعية في التشكيل وتمثيل الكائنات تعتبر ظاهرة ملازمة لنتاج هذا العصر الفني لذا فاننا نستطيع القول ' ان الاختام وطبعاتها التي قمنا بمشاهدتها ودراستها تمثل جانبا هاما من الطابع الفني الغالب للعصر الميتاني وان معظم النتاج الذي اشتهر به هذا العصر ان فارق قليلا فانه لا يعدو بمفارقته الملامح الاساسية التي اتينا على ذكرها ، واما ما يخص مستوى التنفيذ بالنسبة لحفر الاختام فان استخدام الميتانيين للمثقب والمحك لم يضف على انتاجهم سوى بعض الدقة في التفاصيل في حين تراجع انتاجهم في مرحلة الاولى في مجال نعومة الملمس وتسوية حافات الحفر الذي اشتهرت به هذه الصناعة السورية التقليدية فيما قبل العصر الميتاني ٠

* أهمية المكتشفات :

ان مجموعة الوثائق التي اكتشفت في هذا الموقع وتعود الى عصر البرونز الاخير هي على جانب كبير من الاهمية لانها ثبتت جغرافيا وبشكل قاطع مكان مدينة آزو الميتانية التي تحدثت عنها مجموعتان كبيرتان من الرقم اكتشفتا قبلا وتعودان الى العصر الميتاني ، وقد أشرنا الى أن احداهما اكتشفت في موقع نوزي وهي تشتمل على الاف من النصوص : مئات منها تحدثت عن العصر الميتاني وأشارت الى أهم مدن العصر المذكور مثل عاصمة الميتانيين واشوكاني التي مازلنا تائهين عنها رغم البحث الجاد الذي شمل معظم اصقاع وتلال الجزيرة وما زال مستمرا حتى اليوم (٣) و مدينة آزو موضوع بحثنا ٠

(٣)- يسود الاعتقاد الان أن واشوكاني تتوضع في قلب تل الفخيرية الذي اسماه الاراميون سيكاني (عن الدكتور علي ابو عساف) ٠

والثانية اكتشفت في موقع الالاخ السوري الذي ورد ذكره في مستهل هذا البحث وفي هذه المجموعة لوحة ذكرت مدينة آزوو أخرى أرخت بعهد ملك الالاخ فكميبا وقد أشار النص الى تمثال و الدتكميبا أدريحي الذي كان بدوره ابن ملك حلب ،وأوضح النص كيف اضطر ادريحي للهرب من حلب والتجأ الى مملكة ايمار وبعدها ، حل الى الالاخ بعد أن احتل والده المنطقة واقامة ملكا عليها ،خضع ادريحي وخلفاؤه من بعده لسلطة الملوك الميتانيين امثال شتارنا ووالده ارتاتاما ، ورغم أنه لايوجد في مجموعة الالاخ نص صريح يشير الى آن مدينة آزو خضعت للملوك الميتانيين كما خضعت الالاخ الا ان هذه المدينة كانت تشكل مركزا هاما من الناحيتين الاستراتيجية والتجارية تجعله ببداهة ضمن نفوذ الميتانيين من غير منازع .

ما تجدر الاشارة اليه أن الميتانيين الذين استطاعوا من نفوذهم السياسي والحضاري والاقتصادي على منطقة واسعة ، كانوا قادرين على فرض شخصيتهم الحضارية على هذه المنطقة وقد تميزت صناعاتهم بانتاج الفخار الملون الخفيف وكان هذا الانتاج مختلفا بعض الشيء عن ما كان مألوفا في حوض الفرات ، ولعل العامل المهم في اختلاف نتاجهم الفني هو انفتاحهم تجاريا على منطقة البحر الابيض المتوسط وتبادل الخبرات والافكار عبر هذه المنطقة الواسعة وكذلك تعاونهم مع مصر مما اعطى الانتاج الحضاري الميتاني طابعا خاصا تجلى كذلك في صناعة المعادن والخرز والتماثيل وانواع الزخارف المنفذه في رسوم الاختام ، ولكن الاختلاف لاسيما في الاشكال لم يكن واسع ، البون لان الخلفية الحضارية للمنطقة كانت قد قطعت مرحلة متقدمة في تطورها ، وكذلك فان فترة الحكم الميتاني لم تكن طويلة نسبيا ليكون لها قوة دفع واستمرار لذلك سرعان ما توقف مدهم الحضاري بعد ان انتهى وجودهم السياسي باجتياحهم من قبل الحثيين لاسيما منطقة حوض الفرات التي أخلوها تماما من نفوذهم ، وهؤلاء الحثيون بدورهم لم يلبثوا أن اعطوا المنطقة مسحة من حضارتهم حيث اقاموا المستوطنات وآثروا في التراث الفني والثقافي للمنطقة ، ومن اهم اثارهم العمرانية المكتشفة في حوض الفرات هي اثار مدينة ايمار الواقعة بالغرب من مسكنة والتي اكتشفت ابان الحملة الدولية لانقاذ آثار حوض الفرات وكانت فترة ازدهار هذه المدينة فيما بين ١٣١٠ و١١٨٧ قبل الميلاد ،ربما أن اكتشاف مدينة

ايمار آثار دوريا في عالم الاثاريين المؤرخين لذلك يستحسن تقديم دراسة خاصة بها ، اما منطقة تل الحديدي فما زال لنا معها شأن سنتحدث عنه في مقال قادم ان شاء الله .

طبعة قالب تمثل شاربي البيرة – عصر البرونز الأخير – تل الحديدي

دراسة في كتاب الحدائق الغناء في أخبار النساء

الأستاذة
سكينة الشهابي

تأليف : علي بن محمدبن علي بن جميل المعافرى المالقي/ت٦٠٥هـ
تحقيق: الدكتورة عائدة الطيبي .
طبع : الدار العربية للنشر - ليبيا - تونس ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

من المخطوطات النادرة النفيسة التي تضمها مكتبة تشستري بيتي بدبلن كتاب صغير في اخبار النساء ادرج في خزانة المكتبة برقم (٣٠١٦) وتحت عنوان تراجم شهيرات النساء .

يتألف الكتاب من أحد عشر جزءاً حديثيا اختارت منه الدكتورة عائدة الطيبي سبعة اجزاء حققتها وطبعتها تحت عنوان الحدائق الغناء في اخبار النساء .

جامع الكتاب علي بن جميل المعافري الاندلسي المالقي(١) ولد في مالقة في منتصف القرن السادس الهجري ، وقصد الشرق شأنه في ذلك شأن معاصريه من علماء الاندلس الذين جعلوا الشرق كعبتهم يولون وجههم اليه حين يبحثون عن العلم ويريدون ارتشافه من منابعه الاولى . وقد أهّله فضله وعلمه أن يقع الاختيار عليه لتولّي امامه قبة الصخرة والخطابة فيها أيام الملك العادل صلاح الدين .

جمع المالقي اخبار كتابه وسمعها وكتبها سنة (٥٨١) وفي هذه السنة بالذات نجد اسمه بين سامعي التاريخ الكبير على القاسم في المسجد الجامع بدمشق(٢) .

---

(١)- انظر حديثا أوفي عن المالقي في الاعلام (٤/٣٣٠) ومقدمة الحدائق الغناء .

(٢)- انظر تاريخ دمشق (كولومبيا ١٥٣ق ١٠٣/٨٢ب، ١٢٤ ، ١٤٥ ب) وانظر كذلك الحدائق الغناء ص(٨٩) فقد ورد في نهاية الجزء الخامس ، آخر الجزء: والحمدلله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه وكتبه علي بن محمد بن علي بن جميل المعافري المالقي بدمشق في شهور سنة احدى وثمانين وخمسمائة بعد أن سمع ما فيه من الاخبار على الشيوخ المذكورين في اول كل خبر فيه التاريخ المذكور)) .

استطاع المالقي أن يؤلف من حوله القلوب فأجمعت على محبته ، حتى أ إذا ادركته المنية سنة (٦٠٥)هـ رافقته الالوف الى مثواه الاخير رافعة الاكف الى الله أن يسكنه فسيح جنانه .

وبقليل من التأمل في تاريخ دمشق ، وفي هذا الكتاب الذي جمعه المالقي في اخبار النساء يبدو لنا بوضوح أن كتاب المالقي ليس الامختارات من أخبار نساء ترجمهن الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق كتبها بخطه ، وسمعها على عشرة من شيوخه (١) ، وقسمها الى أحد عشر جزءا ، ووضع في كل جزء عددا من التراجم .

ولم يكن ذا منهج واضح في توزيع مترجماته على الاجزاء ، كذلك فان هؤلاء اللواتي اختارهن لم يكن اختياره لهن بدافع من سبب بيّن الا اذا قدرنا أنه كان يرغب بالطريف من الاخبار دون سواه ، ومثل هذا التقدير تؤيده اختيارات المالقي في الترجمة الواحدة ، فهو يحذف من الاخبار مافيه ضبط اسم او كنية ، أو تحقيق نسب ، كذلك يختار من الروايات الكثيرة التي يوردها ابن عساكر في الخبر الواحد أكثر هذه الروايات طولا ، وأجملها عرضا ، فهو في اخبار سلامة القس لا يذكر ما نقله ابن عساكر عن ابن ماكولا والدارقُطني في ضبط اسمها ، ولا ماقرأه في كتاب عتيق من جمع الصولي في الحديث عن ولادتها (٢) ، بل يصطفي من ترجمتها الطويلة غرائب الاخبار والاشعار ، ومثل هذا نستطيع ان نقوله في ترجمة سكينة بنت الحسين ، وعائشة (٣) ، بنت طلحة ، وغيرهن من النساء اللواتي اتسعت ترجماتهن ، وتنوعت أخبارهن .

---

(١)- الشيوخ الذين سمع منهم مختاراته هم : أبو محمد القاسم بن عساكر وأحمد بن حمزة بن علي بن الحسن السلمي الموازيني ، وابو المواهب الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصري ، وابو طاهر بركات بن ابراهيم الخشوعي ، واسماعيل بن جوهر ، وابو الحسن هبة الله بن علي بن خلدون ، وابو القاسم غانم بن محمد ، واسماعيل بن علي بن ابراهيم أبو الفضل الجنزوي ، وعبد الرحمن بن الحسين بن الخضر ، وعبد الله بن علي ابن المسلم ، وقد راعيت في ترتيبي لاسمائهم غزارة الرواية (٢) انظر الحدائق الغناء ٩٢ وأخبار النساء (ت ٥١ (٣) انظر الحدائق الغناء (٥٤) ، ١٤٢ ، وأخبار النساء ت ٤٣ .

واذا كنا قد استطعنا بهذا أن نجد ما يشبه التعليل لانتقائه الترجمات من تاريخ دمشق ، ولاختياره للاخبار في الترجمة الواحدة فاننا لانستطيع أن نعلل هذه التقسيمات العامة في الكتاب كله ، فقد تقدم أن الكتاب يتألف من أحد عشر جزءاً حديثياً يبدأ كل واحد من هذه الأجزاء بفهرس للتراجم التي يضمها الجزء ، وذكر للسماع وينتهي بعضها باسم الناسخ .

هو المعافري – وتاريخ النسخ ومكانه ، وتأكيد لسماعه على الشيوخ المذكورين في الاخبار(١) .

وقد يخص بعض مترجماته بجزء كامل . فقد استغرقت أخبار عائشة بنت طلحة الجزء الرابع من مختاراته ، وسكينة بنت الحسين استغرقت أخبارها الجزء الثامن(٢) ، ولكنه لم يراع في اسماء اللواتي اختارهن الترتيب الهجائي ، ولا الموضوع الواحد ، قد يوهم عرضه للترجمات في الجزء الواحد أن هناك ما يشبه التسلسل الهجائي ، ولكن مثل هذا الترتيب يخص كل جزء من اجزائه مستقلا عما قبله وما بعده ، فلو نظرنا في الجزء السابع مثلا(٣) لوجدنا المالقي بدأ هذا الجزء بعزّة وأنهاه بليلى بنت الجودي مراعيا في اسماء المترجمات الترتيب الذي وردن عليه في تاريخ دمشق ، ولكنه بعد أن بدأ هذا الجزء بعزّة وأنهاه بليلى قصر الجزء الثامن كله على سكينة بنت الحسين ، وكذلك بعد أن خص الجزء الرابع لعائشة بنت طلحة أتبعه في الجزء الخامس بترجمة (هوى) وهكذا ..

وعمل المعافري هذا لانستطيع تفسيره الا بشيء واحد وهو أنه كان يريد أن يطمس الصلة الواضحة بين أخباره والمورد الذي انتقاها منه ،فقد حافظ على الترتيب الهجائي لاسماء مترجماته ضمن الجزء الواحد من اجزائه المختارة والمسموعة على شيوخه ، ولكنه عرض هذه الاجزاء ليس على نسق واضح يمكن أن يفهم منه مغزى معين سواء كان ذلك في الشكل أو المضمون كان ذلك ليبعد الصلة بين الاصل والفرع ، بين التاريخ وبين الاخبار التي سمعها من التاريخ ، فأراد أن يجمعها ويختصر بأسلوب معين ليؤلف منها كتابا صغيرا يضمن أخبار العدد ممن ترجمهن الحافظ في التاريخ ، ولكن قارئ تاريخ دمشق سرعان مايكشف تلك الصلة الوثيقة بين الكتابين فيحس أنه انما يقرأ في تاريخ دمشق ، والجديد في الامر أن اسم الحافظ

---

(١) – انظر الحدائق الغناء (٨٩) .
(٢) – = = = (٥٤ – ١٤٢) .
(٣) – = = = (١٣٠ – ١٤١) .

واسم ابنه القاسم اضيف الى حلقات الاسانيد حيث رويت عنهما الاخبار وربما اختفى اسم الحافظ وبقي القاسم وغيره من شيوخ المالقي رواة للاخبار عن شيوخ ابي القاسم أنفسهم الذين روى عنهم هذه الاخبار في التاريخ .

كان ابن عساكر في تراجمه مؤرخا يجمع كل ما سمعه وقرأه وكتب به اليه من أخبار تتعلق بالمترجمة ، كان يهتم باسم المترجمة وضبطه ، وضبط نسبها يحقق في ذلك تحقيقا كبيرا ، ويهتم برواياتها ان كانت لها رواية ، وينقل ما قيل في مولدها ووفاتها ، ويلم كل ما استطاع الوصول اليه من اخبارها ، اما المالقي فكان يهمه لون واحد من الاخبار ، وهو اكثرها طولا وطرافة ، ويقصد أن يكون من ذلك النوع الذي يمتع القارئ ويسليه فحين يأتي ابن عساكر بالخبر من طرق متعددة يأخذ المالقي الخبر من طريق واحد فقط ، ويجتهد أن يكون اطول الاخبار وأشملها ، وأغزرها بالفوائد الادبية على القارئ وهو في عمله هذا يلتقي بابن منظور المصري مختصر تاريخ دمشق ، كل من الرجلين يتجنب التكرار إلا حين يكون في هذا التكرار جديد اذا غناء ، ولكن المالقي كان حريصا اشد الحرص على الاسانيد كما وردت في التاريخ بدءا من شيخ الحافظ ابن عساكر ، أما ابن منظور فانه حذف الاسانيد في مختصره .

وكذلك فان ابن منظور حافظ على الصلة بين التاريخ وبين مختصره ، ولم ينسب العمل لنفسه ، اما المالقي الذي روى الاخبار عن شيوخه ووصل هذه الرواية بشيوخ الحافظ ابن عساكر في قسم كبير منها ، فكأنه أراد أن يضيع نسبة الاخبار ، وأن يبهم الصلة بينها وبين موردها الكبير أراد أن يختار ساقية من بحر متلاطم ليطلق عليها اسمه ،ولكن ماء ذلك البحر كان ذا طعم خاص لا يخفي على المتذوق .

والحقيقة أن كتاب المالقي هذا ذو قيمة كبيرة ، ولا يكتسب قيمته من أنه كتاب صنعه مؤلفه في القرن السادس الهجري بغرض واحد ، ولكن أهميته تأتي من أمرين :

اولهما انه يطلعنا على ذلك النوع من الكتب التي عملت في تاريخ دمشق تنظيما واختصارا واختيارا .

وثانيهما انه يعتبر قطعة نفيسه من التاريخ كتبها أحد العلماء الذين سمعوا تاريخ دمشق على القاسم سنة (٥٨١هـ) . وحين نتذكر ان القسم

الذي يتعلق باخبار النساء من تاريخ دمشق وصلنا بخط متأخر جدا ، كتبت نسخة أحمد الثالث في القرن العاشر ونسخة سليمان باشا في القرن الثاني عشر ، نعلم ان تراجم شهيرات النساء اجود قطعة وصلتنا من اخبار النساء لابن عساكر .

وكم كنا نتمنى آن تنشر هذه المخطوطة كاملة ، ولكن المحققة السيدة عائدة الطيبي اكتفت بسبعة اجزاء وجدت فيها اخبار الشهيرات النساء في عصر صدر الاسلام ، واهملت الاجزاء الباقية لانها لم تجد فيها اخبارا لنساء عشن في هذه الفترة .

وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها الدكتورة عائدة في تحقيق هذه الاجزاء من تراجم شهيرات النساء ، فقد وقعت في اوهام كثيرة يمكن آن تقسم الى نوعين :

الاول أوهام في الاجتهاد ، والمجتهد قد يخطىء وقد يصيب .

والثاني أوهام في القراءة ادّت الى كثير من التصحيح والتحريف في الالفاظ .

١- اختارت المحققة - كما اسلفت - الاجزاء (٣-٩) من الأحد عشر جزءا التي يتألف منها كتاب المالقي واهملت الاجزاء (١-٢-١٠-١١) لاعتقادها ان هذه الاجزاء الاربعة خارجة عن موضوع المخطوط الرئيسي :

((فالجزء الاول يتكلم عن حواري السيد المسيح ، والثاني عن حواء ، والعاشر يروي قصة بلقيس وسليمان ، والحادي عشر يدور حول ايوب وزوجته (١))) .

والحقيقة أن ما ظنته الدكتورة عائدة موضوعا رئيسيا ليس إلا كثر من نسبة معينة للتراجم زادت في اخبار النساء اللواتي عشن في القرون الاسلامية الخمسة ، ونقصت في اخبار اللواتي وردن دمشق قبل الاسلام او كن من ساكنيها واهلها ، ان ما اهملت نشره من اكثر تراجم النساء اهمية لان فيه قسما حسنا من الاخبار

---

(١) - انظر مقدمة الحدائق الغناء (١١ - ١٢) .

التي رواها الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق وسقطت من الاصول التي وصلت الينا ، فقد ذكرت في وصفي للمخطوطتين اللتين صدرت عنهما في تحقيق اخبار النساء من تاريخ دمشق (١) أن هناك خرما يبدأ بنهاية اخبار بثينة وينتهي ببداية ترجمة رملة ، وآخر ذهب بنهاية حرف الميم وبداية حرف النون من اسماء المترجمات ، ومعنى ذلك ان ماظنته المحققة لاعلاقة له بموضوع كتابها هو من اكثر اخبار النساء اهمية في تاريخ دمشق فيه اخبار بلقيس وحواء وزوجة ايوب ، ولايشك انها هي الاخرى يبدأ اسمها بحرف من الاحرف التي سقطت من اصل التاريخ الذي بين ايدينا .

٢- رأت المحققة أن آبا محمد القاسم بن عساكر (كان مصدر معظم الاخبار التي جمعها المعافري في كتابه الذي نحن بصدده)) (٢) ، وهذا صحيح من حيث المبدأ فقد روى عنه (٧٦) خبرا من اصل (١٣٨) خبرا يتألف منها الكتاب ، ولكن الامر كثير التعقيد ، فلم يكن القاسم مصدر هذه الاخبار ، وانما مصدرها الحقيقي هو التاريخ الكبير الذى رواه الحافظ ابن عساكر وسمع عليه ، وكان ابنه القاسم اول من سمعه عليه ، كما أن القاسم سمع قسما من اخبار التاريخ على شيوخ ابيه وكانت له اجازة من عدد كبير منهم .

٣- لم تلق المحققة بالا الى العبارات التي وردت بلفظ الحافظ ، واهمها مايفيدنا فيه ابن عساكر الى اخبار ذكرها في بعض تراجم نسائه ، ففي عائشة بنت طلحة (٣) ، جاء في قصة مصعب وام منظور: (وقد ذكرت ذلك في ترجمة بثينة) ، ومن الواضح ان مختارات المالقي من تاريخ دمشق ليس فيها ترجمة لبثينة والعبارة المتقدمة نقلت بلفظها من تاريخ دمشق (٤) .

---

(١)- انظر مقدمة أخبار النساء .
(٢)- انظر مقدمة الحدائق الغناء (ص ٩) .
(٣)- انظر (ص ٦٥) من الحدائق الغناء .
(٤)- انظر (ص ٦١) من اخبار النساء .

٤- مارواه الحافظ ابن عساكر بلفظه في اخبار النساء من غير طريق الى كتاب بعينه يرويه المالقي عن شيوخه عن ابن عساكر، قال ابن عساكر في وفاة عريب المأمونية : بلغني ان مولد عريب سنة (احدى وثمانين ومائة) وتوفيت سنة (سبع وسبعين ومائتين) ولها ست وتسعون سنة ، وماتت بسرمن رأى ، فصدر المالقي هذا الخبر بالطريق التالي :

أخبرنا الحافظ ابو محمد القاسم قراءة والقاضي ابو المواهب لفظا بدمشق قالا : اخبرنا الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن ، قال (١) .

وهذا يدلنا بوضوح على أن المالقي يروي مايرويه من التاريخ الكبير ولم يلفت ذلك انتباه المحققة .

٥- تقول المحققة ان الحجاج بعث بليلى الى من يقطع لسانها ، وقد انقذت نفسها بذكائها (٢) ولا أظن أن الحجاج أراد بقطع اللسان ظاهر معناه ، والذي اراده فعلا هو أن يقطع لسان ليلى بالبر والصلة ، ولكن الرجل الذي ارسلت اليه ليلى لم يكن يتقن الاساليب العربية فاراد ان يقطع لسانها ، يؤكد لنا ذلك غضب الحجاج وثورته عندما أخبرته ليلى بما عزم عليه الرجل ، نقم على ذلك الرجل جهله ، ولم يغضب عليه لانه لم يُنَفِّذْ لامره .

٦- ولأن محققة (الحدائق الغناء) لم تعرف المصدر الاساسي للمالقي في كتابه من جهة ، ولانها ليس لديها المام بمصادر ابن عساكر في تاريخه من جهة ثانية وقعت في كثير من الاوهام ، فقد ظنت تعقيب المعافي بن زكريا القاضي على اسهابه في التفسيرات اللغوية التي ذيل بها خبراً رواه عن ليلى الاخيلية والحجاج من كلام المعافري ، واتخذت منه دليلا على ان المعافري جمع هذه الاخبار (ليمتع بقراءتها من ناحية ، وليستغلها من ناحية اخرى اما عن طريق روايتها على تلاميذه ، واما باستعمالها بكتاب آخر) (٣) .

---

(١) - انظر الحدائق الغناء (ص ١٠٩) .
(٢) - انظر الحدائق الغناء (ص ١٩) .
(٣) - انظر الحدائق الغناء (ص ١٦٩) والجليس والانيس ق ٢٥ (مصورة) .

تقول (يطول الحديث في شرح كلمات لليلى الاخيلية ويتشعب فيضع المؤلف حداً لهذا الاستطراد ، ويعلق على ذلك بكلمات من عنده هي على مايبدو الوحيدة في المخطوطة التي لم يروها عن غيره) والحقيقة ان المخطوطة كلها ليس فيها كلمة لم يروها المعافري عن غيره ، ولو اطلعت المحققة على كتاب : ((الجليس والانيس)) للمعافى بن زكريا لعرفت هذه التعليقات التي يختم بها مجالسه ، وهذه التفسيرات اللغوية التي تتلو الاخبار في المجالس ، ولكن السيدة عائدة لم تعرف اسلوب المعافى ومنهجه في الحديث فظنت تعليقاته من كلام المعافري .

٧- تعترض المحققة على ادراج هذا الكتاب في كتب التراجم ولاتأتي بالحجة القوية من آجل هذا الاعتراض ، فهي ترى آن محتوياته (واردة بشكل وحدات منفردة من الاخبار والحكايات المتفاوتة الطول يدونها المؤلف حرفياً كما سمعها من شيوخه ، ويستهلّ كلاًّ منها باسناد ...) والاعتراض على قولها قوي وهو آنه لم يكن يدخل في الترجمة الواحدة ماليس فيها ، كان يختار من اخبار المرأة التي يترجمها ابن عساكر في التاريخ ، وهو وان لم يكن له طابع واضح في الاختيار ، ولامنهج في حذف مايحذف ، وتثبيت مايثبت الا انه كان يقصد الى الاخبار الطريفة الطويلة قصداً ، ويحذف الروايات الوثائقية التي تعين سنة الولادة والوفاة ، أو تبحث في النسب وضبط الاسماء والانساب ، فقد كان همه المتعة الادبية ، يهتم بالخبر الطريف الممتع وبالاخبار ذات الطابع الصوفي .

فالكتاب لاشك كتاب تراجم ، وماذا تقول المحققة عن فهرس الموضوعات الذي كان يضعه المؤلف بين يدي كل جزء ؟ ألم يكن سرداً لاسماء المترجمات ؟ .

- اما اوهام القراءة التي ادت الى كثير من التصحيف والتحريف فاثبت فيما يلي بعضها واحتفظ ببعضها الاخر الى حين تصبح المخطوطة الاصلية بين يدي ليكون لي معها وقفة اكثر تثبيتاً (١) .

---

(١)- ماذكرت صوابه من غير أن أبين حجتي في ذلك يكون مما حققته في التاريخ اومما معروف جداً .

في صفحة (٣٤) س	قالت : (دَلْحة) والصواب (دُلْجه) ، انظر الاشتقاق والقاموس .
في صفحة (٣٥) س ٣	قالت : (تخرُق الارواح) والصواب (تخرِق) بكسر الراء .
في صفحة (٣٦) س ٦	قالت : (.. ابن منسم) والصواب (ابن مِقسم) روى أبوبكر بن مِقسم كتاب (المجالس) عن أبي العباس أحمد بن يحيى ، ثعلب .
في صفحة (٣٧ س ١٧)	قالت : (الشاسي) والصواب (الشاشي) نسبة الى شاش مدينة وراء نهر سيحون ، انظر الانساب واللباب ومعجم البلدان ، ونسب الى هذه المدينة الهيثم بن كليب صاحب المسند ، منه قطعة كبيرة في الظاهرية برقم (٢٧٧) - حديث .
في صفحة (٣٨ س ١٢)	قالت: (الحرشي) وهو في تاريخ دمشق (كولومبيا ١٥٣ق ١٢٨) الجرشي .
في صفحة ٤٦-٨٨-١٤٦	وما بعد : (الكناني) والصواب (الكتاني) ، وموضع أبي محمد عبد العزيز بن أحمد الكتاني معروف في هذه الاسانيد التي ذكرتها ، انظر خبره وتحقيق نسبه في الانساب واللباب .
في صفحة (٤٧ س ٤)	قالت : (فَلق) والصواب (فِلق) بكسر الفاء ، وفلق الخبز كِسَره .
في صفحة (٤٨ س ١٣)	قالت : (حر) والصواب (جِسْر) انظر الاكمال ١٠٠/٢
في صفحة (٤٩ س ١)	قالت :(هشام بن عماد) والصواب (هشام بن عمار) معروف .
في صفحة (٤٩ س ١٤)	قالت (ابو الحسين علي بن المسلم) والصواب (ابو الحسن) انظر مشيخه ابن عساكر ق ١٥٢ ، وسير اعلام النبلاء (١٥٢/١٢) .
في صفحة (٥١ س ١)	قالت : (ابو الحسن بن النقور) والصواب (ابو الحسين) انظر ترجمته في المطبوع (عاصم ، عايذ ، من تاريخ دمشق ص ٧٤ .

في صفحة (٧٢ س ٨)	قالت (صُمري) ،ضبطت اللفظة بضم الصاد اكثر من مرة ولا أدري من أين جاءت المحققة بذلك ،والمعروف انها بفتح الصاد الاولى وسكون الثانية ، انظر تحقيقا لهذه اللفظة في اعلام الزركلي ٢/٢٢٥، وقارن بنظيرهذا الاسناد في المطبوع ((عاصم - عايذ) ٨٩ .
في صفحة (٨٠ س ٥)	قالت : (إنني) ضبطت الهمزة بالكسر، والصواب فتحها لمناسبة البيت قبله .
في صفحة (٨١ س ٤)	قالت (محمد بن سعيد) والصواب (محمد بن سعد) صاحب الطبقات الكبرى ، أحد من رواه عنه الحارث بن محمد، بن ابي اسامة .
في صفحة (٨٤ س ٩)	قالت : (اختلى الناس) والصواب (اختلف الناس) كما في التاريخ .
في صفحة (٨٤ س ١٣)	قالت :(احتسبت) والصواب (احسست) .
في صفحة (٨٥ س ١٥)	قالت : (نزّاعةٌ) وصواب اللفظة النصب في هذه الاية ، وذكرت في هامش هذه الصفحة أن سعدا هو سعد بن الربيع وهو أخو زيد بن خارجة لأمه ،والصواب انه سعد بن خارجه أخو زيد ابن خارجة لابيه وامه انظر الاصابة (٢/٢٤(ت ٣١٤٣) .
في صفحة (٨٦س ١٩)	قالت : (العسلي) والصواب انه (العنبسي) .
في صفحة (٨٨ س ٢)	قالت : (حماد بن سلمه بن عطاء بن السائب). والصواب (حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب) .
في صفحة (٨٩ س ٢)	قالت (امرأة ساقة) والصواب (امرأة شابة) .
في صفحة (٩٢ س ٩)	قالت (أبو على صفوان) والصواب (ابو علي بن صفوان) .
في صفحة (٩٣ س ١٠)	قالت :(عن عمه والحارث بن عيسى بن عبد الاعلى) والصواب (عن عمه الحارث بن محمد عن عيسى بن عبد الاعلى .
في صفحة (٩٤ س ١٤)	قالت (ذرياق) والصواب (ترياق) .

في صفحة (٩٤س ١٧) قالت : (عن ابي الفرح) والصواب (عن ابي الفرج) بالجيم .

في صفحة (٩٦ س ٤) قالت : (المنحي) والصواب (المنبجي) .

في صفحة (١٠١س ٤) قالت :(يطرق عريبا) والصواب منع عريب من التنوين فهي علم الأُنثى .

في صفحة (١٠٤س ٢) قالت (ياخيرمن مُسي)والصواب (ياخيرمن مشى)

في صفحة (١٠٤س ١٢) قالت (ملأُته في سعادات) والصواب (مليته) .

في صفحة (١٠٩س ٧) قالت :(أصبحونا) والصواب(اصبحونا) فهمزة الفعل همزة وصل .

في صفحة (١٠٩س ٨) قالت (العدوية)والصواب(العذرية) كمافي التاريخ

في صفحة (١٢٠ س ١) قالت (عزة بنت حميد)والصواب (حميل)كمافي التاريخ .

في صفحة (١٢٤س ٢) قالت (فلمامضت يأسا)والصواب (قفت يأساً) .

في صفحة (١٢٤ س ٥) قالت (فضربت رجله)والصواب (رَحْله)كمافي التاريخ .

في صفحة (١٢٥ س ٣) قالت (فتحانت) والصواب (فتحايت)كمافي التاريخ .

في صفحة (١٢٨ س٩) قالت :(مربد)والصواب (مُرَيْد) انظر الاكمال ١٣٤/٧ .

في صفحة (١٣١ س ١٨) قالت (لانزوجه)والصواب (لاتزوجه) .

في صفحة (١٣١ س ٢٠) قالت (المِطْرف) والصواب (المُطرف) بضم الميم ففي القاموس : مُطْرِف كمكرم لقب عبد الله بن عمرو بن عثمان لحسنه .

في صفحة (١٣٧ س ٨) قالت : (خلة)والصواب (خُلة)بالضم لان معناه الصديقة في النص ،والخُلة ، بالضم الصديق للذكر والانثى ، أماالخِلة فهي المصادقة .

في صفحة (١٣٦ س ٨) قالت :(حدثنا أبومحمدالعلوي وهويحيىبن محمد بن احمدبن زبارة ، (حدثنا) - ابومحمدالعلوي..) وحدثنا الثانية مقحمة لان أبامحمدهذا هوالمتقدم

وهوصاحب كتاب النسب .

في صفحة (١٣٧س ١) قالت :(وقدذكرانها) والصواب(وقدذكرنا انها) كمافي التاريخ .

في صفحة (١٣٩ س ١) قالت :(سقطتاسنانهاسن سن) والصواب (..سنا سنا) .

في صفحة (١٤٢ س ١٩) قالت (ابوبكربن ربذة) والصواب(ابوبكربن ريذة) معروف .

في صفحة (١٤٣ س ٢) قالت (حدثني) والصواب (حدثتني) .

في صفحة (١٤٥ س ١٦) قالت (ابومنصوربن رزيق) والصواب (ابومنصور بن زُريق) .

في صفحة (١٤٨ س ١٣) قالت (ونقذت اسباب) والصواب (وبعدك) .

في صفحة (١٤٩ س ٤) قالت (ولاالموت فيها) والصواب (ولاالموت فيما) .

في صفحة (١٤٩ س ٧) قالت (ويلتقي .. روحي وروحها) والصواب (تلتقي ...) .

في صفحة (١٥٠ س ٢) قالت (الهمزاني) والصواب (الهمداني) .

في صفحة (١٥٠ س ٢) قالت (احمدبن سعيدالبخاري) والصواب (احمد بن شعيب) انظرتاريخ بغداد ١٩٣/٤ .

في صفحة (١٥٠ س ٧) قالت (الخطفي) والصواب انه في هذين الموضوعين

و (١٥٢ س ٤) (الخطفيّ) بلفظ النسب لان اباه لم يذكر .

في صفحة (١٥٠ س١٥) قالت (تُبَصّ) بضم الباء والصواب(تِبِص) بكسر الباء

في صفحة (١٥٣) يبدوان العبارة (من عودةٍ عندك محمودة) التبست على المحققة فاثبتت في المتن (من عوده عندك محمود) وعلقت في الحاشية في الاصل (محموده) فقد ظنت التاء المربوطة هاء لانها غيرمعجمة .

في صفحة (١٦٢ س ٨) قالت (تبدل عزمهم) والصواب (عزمم) .

في صفحة (١٦٢ س ١٢) قالت (احمدبن عبيدبن ابي الحسن المدائني) والصواب (احمدبن عبيدعن ابي الحسن المدائني)

في صفحة (١٦٢ س ١٣) قالت (مولى الغبسة) والصواب (مولى لِعَنْبَسة) .

في صفحة (١٦٣ س ١٠) قالت (والله لايعطى العداة) والصواب (ولله لاتعط)

في صفحة (١٦٣ س ١٤) قالت : (زف كتيبة) والصواب (رزكتيبة) وهو الصوت تسمعه من بعيد .

في صفحة (١٦٤ س ٥) قالت :(بالقور) والصواب (القوز) وكأن المحققة لم تنتبه الى تفسير المعافى للفظة ، واعادت التصحيف ذاته في الصفحة (١٧٠) والسبب ان الزاي جاءت في اصل الكتاب من غير اعجام . وهذا كثير في الزاي شريطة الايوضع على الحرف اشارة اهمال ،وفي اللسان ، قال الازهري (سماعي من العرب في (القوز) انه الكثيب المشرف ،والجمع أقواز واقاوز .

في صفحة (١٦٤ س ٣) قالت :(بلى قدتصبر العين) وهي تحريف واضح لايستقيم به وزن ولامعنى صوابه (بلى قديضير العين) .

في صفحة (١٦٦ س ١٦) قالت (وإصابتنا) والصواب (وأصابتنا) .

في صفحة (١٦٧ س ٣) قالت (التي تأتي والصواب (الذي يأتي) .

في صفحة (١٧٠) عقب المعافى على قول النابغة (أرى ناري ليلى اويراني بصيرها)قال : أي مبصربها ، والعرب تقول : ليل نائم ،وسركاتم أي منوم ومكتوم .. ولكن المحققة كان لها اسلوب خاص في تفسير النص لم ادرك كنهه ،فعلقت في الهامش على كلمة بصير: (وردت كلمة بصير في المعاجم بمعنى كلب (انظر لسان العرب) والحقيقة ان البيت من شواهد اللسان (بصر) وجاء في تفسير: (بصيرها) (قال ابن سيده : يعني كلبها لان الكلب من احدّ العيون بصراً لقد اتعبت قارئها في عرضها الملتوي لمادة اللسان .

في صفحة (١٧١س ٣) قالت (وهي بالنقد) والصواب (وهي تأليفه) تصحفت اللفظة على المحققة لانها على مايبدو كانت من غير اعجام ،والمتأمل لمعنى النص يجد ان كلمة

(بالنقد) لاتصحف في هذا المكان لان اليزيدي قرأ هذه الابيات على عمه الفضل بن محمد وذكر عمه انه قرأها على ابي المنهال عيينة بن المنهال وهي من تأليفه .

في صفحة (١٧٢ س ١١) قالت : (محمد بن احمد بن ابي البلح) والصواب (محمد بن احمد بن ابي الثلج) وهو شيخ المعافى بن زكريا القاضي اكثر عنه في كتابه الجليس والانيس انظر مصورة ق (٢٥) .

في صفحة (١٧٤ س ١٨) قالت : (شينجت) والصواب (سيبخت) انظر الجزء المحقق من التاريخ (عبد الله بن جابر - وعبد الله بن زيد) ص ٣١ هـ ٣ .

في صفحة (١٧٥ س ١) قالت اعلاه (نمرقه) صوابه (اعلى نُمْرُقة) والذي قادالى هذا التصحيف في اللفظة الاولى رسم آخر (أعلى) بالالف الطويلة ، وهذا كثير في الاملاء القديم ، والنمرقة ذكرتها المعاجم بالضم وقالت انها مثلثة فلماذا افضلت الكسر ؟

هذا بعض ماجرى به قلمي وأنا أقرا كتاب (الحدائق الغناء في اخبار النساء) فأرجو أن يتسع له صدر المحققة السيدة عائدة الطيبي .

على أن ما سجلته من هفوات لاينقص من عمل الدكتورة عائدة ويبقى لها فضل السبق في تقريب القسم الاكبر من هذه المخطوطة النفيسة الى أيادي القراء ، وتذليل الصعوبات امامهم للاطلاع عليها والافادة منها .

معركة قادش

الدكتور شاكر مطلق

في تاريخ الانسان القديم والحديث ثمة عدد من المعارك الشهيرة التي كان فيها كثير من التضحية والشجاعة والبطولات ، غير أن هذا لا يكفي لاعتبارها معارك ذات صفة تاريخية عالمية حيث أن مثل هذه المعارك يجب أن تسهم وبشكل عميق في صنع مرحلة جديدة من التاريخ ولعدد من الشعوب ، وهذا هو حال المعركة التي نحن الان في صدد الحديث عنها وهي المعركة المعروفة تاريخيا باسم (معركة قادش) وقادش هو اسم نهر صغير في موقع تل النبي مندو الحالي قرب بلدة القصير في منطقة حمص المعروفة تاريخيا باسم (Emossa اميسا) والواقعة على نهر العاصي (Orontes) في وسط سورية .

وهذه المعركة التاريخية الهامة التي جرت أمام بلدة (قادش) الحثية في أواخر أيار (Mai) من العام (١٢٩٦ – ق.م) بين الفرعون (رمسيس الثاني) (Ramses - II) وبين ملك الحثيين موفاتالس (MuwataLis) وأعوانه من الشعوب الاسيوية هي من الاهمية بمكان يستوجب شرح الاحوال السياسية والعسكرية التي كانت تسود تلك الحقبة وتسليط الانوار على ما كان يجري في المنطقة من تفاعلات ممهدة لهذا الصدام المحتم وعلى مجرى المعركة بدقة كاملة تنفي ما عرف عنها حتى الان ، بسبب التزوير الهائل في حقائقها التي دونها الفراعنة في بلادهم والعدة التي استعملت في المعارك وخاصة عربات القتال .

* الخلفية التاريخية :

ان الفترة الزمنية الواقعة تقريبا ما بين (١٦٠٠ – ١٤٠٠ ق.م) لم يحدث فيها كل ما عرضه المؤرخون من نظريات جريئة استناداً الى البحوث والمعطيات الجديدة .

فامبراطورية تليبينوس (TeLipinus) مرسي القوانين

أعقبتها مباشرة امبراطورية (تودهالياس) الثاني(II TudhaLiyas)
مابين (١٤٦٠ – ١٤٤٠ ق٠م) يتخللها حكم بعض الملوك المغمورين وعلى
الرغم من ذلك فقد حدثت في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد، أحداث
هامة في حياة تاريخ شعوب تلك المنطقة ٠

* الحوريون :

الذين كانوا يعيشون جماعات في شرقي الامبراطورية الحثية وحتى سورية تمكنوا تحت قيادة ملوك من أصل هندي ، ايراني ،وبعضهم كان يحمل أسماء هندية من بناء دولة قوية وحضارة عريقة عرفت بامبراطورية (ميتاني) (Mitani) والتي كانت تهدد بعد موت ملك الحثيين (مرزيلس I MnrsiLis) الاول مملكة (حثّي) ذاتها ، وبمثل هذا التجمع ابتدأ على الارجح الزحف الصاعق لـ (الهكسوس) (Hyksos) على مصر، هذا الزحف الذي نعرف عنه القليل واجتاح تحت قيادة مايسمى (الملوك الرعاة) ، دلتا النيل وطرد الفراعنة ، واستولى على السلطة وحكم مئة عام قبل أن يتصدى له المصري اموزيز(Amosis)
ويقهره ٠

ان سمات المرحلة التاريخية هذه تتميز بظهور قوي للحورين – بظهور واختفاء جماعات الهكسوس ، وباستيلاء الكاسيتين(Kassiten) القادمين من ايران على بلاد بابل التي دمرها الحثيون ٠ غير أن حدثاً هاماً حصل ايضاً في منتصف الالف الثاني – ق٠م – هذا والذي كان له التأثير الكبير في تغيير ملامح الفترة التاريخية وهو ترويض الحصان وما أدى اليه من بروز الفروسية وعربات القتال الخفيفة التي غيرت مسار المعارك وبالتالي مسار التاريخ ٠

ففي عاصمة الحثيين القديمة (حتوساس) (hattusas) بالقرب من مدينة بوكازكوي(Bogaskoy) التركية عثر على نص يضم حوالي الف سطر باللغة الحثية عن تربية الحصان وهو بذلك أقدم نص حول الحصان وتربيته وله من القدم حوالي(٣٤٠٠) عام ٠

أما مؤلف النص فهو شخص يدعى(كيكولي KikoLi)من بلاد (ميتاني Mitan)وهو اذن حوري الاصل ، وان كثيراً من

الاصطلاحات المذكورة من اصل (سنسكريتي) (Sansakrit) أي هندي ونتذكر على التوّانّ أسماء بعض ملوك الحورين كانت ايضا هندية الاصل وهذا دليل اخر عن اصلهم وقدومهم ، وان الفترة اللازمة لترويض الحصان ـ حسب تعليمات الحوري كيكولي ، هي سبعة اشهر، وفيها كثير من التزمت في العمل مما يشير الى عراقة هذا الفن في بلاد الحوريين وتطوره حيث حضر (كخبير) الى بلاد الحثيين للاشراف على تدريبات الخيول .

اما اين نشأ فن (تربية الحصان) فمن الصعب تحديد ذلك ويمكن البحث عنه في اماكن اعمق و ابعد شرقا .

اما عربة القتال التي كان من اهم مستلزماتها الحصان المدرب فانها وان لم تكن من اختراع الحثيين ـ الا انهم استطاعوا بما ادخلوه من تطورات هامة على هيكلها ، من تحقيق الانتصارات الباهرة في التاريخ والتي كان وقعها (يبعث الرعب في قلوب السوريين) كما أشارت التوارة في وقت لاحق .

وانه لمن الطريف الملاحظة هنا أن الحثيين شأنهم شأن اليونانيين والرومان لم يعرفوا (كواكب الفرسان) وانما عرفوا الفارس فقط وعربات القتال . عاعربة القتال الخفيفة ـ ذات العجلتين التي تحمل كل منهما ستة ضلوع اي الدولاب المفرغ ـ والتي كانت تحمل مقاتلين اثنين عدا سائق العربة بخلاف عربة المصريين التي كانت تحمل مقاتلا واحدا فقط ، والتي من اهم مميزاتها (السرعة) في الحركة والتي أمنت لها التفوق في المناورة القتالية مما يمكن اعتبارها دون تحفظ من اختراع الحثيين .

واذا كان بعض المؤرخين يشيرون الى أن (السومريين) قد عرفوا قبل ذلك بكثير من مئات السنين (عربة قتال) فان هذا لا يمكن اعتباره بحق عربة قتال بالمفهوم العسكري ، واننا اذا دققنا النظر في لوحة موزائيك أور التي كشف عنها وولي (WooLLy) في مدينة (أور) (UR) والمحفوظة في المتحف البريطاني والتي فيها ، من جملة ما فيها خمسة عربات وجدنا انها كانت تستعمل للنقل ولمرافقة الجيوش فقط وليس في المعارك ، فهي عدا انها تصور نقل متاع واشخاص (جالسين) باسترخاء ينافي وضعية المقاتل الواقف المتنبه ، فان عجلاتها الضخمة والمغلقة اي

غير المفرغة والتي تشبه عجلات عربات الفلاحين البطيئة التي شاهدتها في بعض بلدان الشرق الاقصى ، لاتسمح على الاطلاق بالحركة السريعة اللازمة للمناورة في القتال كما هو الحال في عربة الحثيين .

والان نعود الى الحقبة التاريخية التي سبقت معركة قادش تمهيداً لفهم نشوئها ومجراها .

بعد موت - تليبنوس (TiLipinus) واستناداً الى احدث البحوث التاريخية يبدو ان امبراطورية ميتاني كانت المسيطرة على المنطقة وعلى الرغم من ذلك تمكن ملوك الحثيين : تودهاليس الثاني (TudhaLiyas II) حتوزيلنز (HattusiLis) وتودهاليماس الثالث (Tudh III) وأرنوفانداس (Arnuwandas) أيضاً من السيطرة على الاوضاع في امبراطوريتهم وحفظها من التفكك وخاصة في الاحوال الخطرة التي ألمت بها في عهد تودهاليماس الثالث حتى ظهر للحثيين الملك الكبير (ملك الملوك) وشارلمان الشرق كما يدعوه المؤرخون الغربيون (CharLemagne) الملك العظيم .

سوبيلوليموماس الاول (SuppiLiumas I) مابين (١٣٧٥ - ١٣٣٥ ق.م) لم يكن هذا الملك معروفاً بشجاعته فحسب وانما بحكمته في معاملة اعدائه وفي تسامحه الديني وتشدده في تطبيق العادات الجيدة والقوانين التي يمكن الاطلاع عليها من خلال الاتفاقات الفخمة التي عقدها ابان فترة حكمه التي دامت اربعين عاما .

أما عاصمته (حتوساس) فقد قام بتحصينها خاصة من ناحية الجنوب بسور عظيم - حارب مملكة ميتاني - استولى على عاصمة الحوريين جاب ضفاف الفرات غازياً فاتحاً ، غير أنه لم يستعبد الشعوب المغلوبة وزوج ابنته الى امير الميتانيين المقهورين المسمى (ماثيوازا) (Mattiwasa) وربطهم بامبراطوريته .

احتل سورية التي كثر النزاع عليها كما احتل مملكة حلب وكركميش (Carchamisch) وذلك بعد حصار لها دام ثمانية ايام فقط حيث انقض عليها بهجوم صاعق واستولى على كثير من الغنائم الذهبية والادوات البرونزية وأسر (٣٣٠٠) شخص وعلى غفلة من الفرعون (أمينوفيس Amenophis Iv) الرابع وخصمه القوي والمعروف ب (اخناتون)

(Echnaton)والذي كان بامكانه أن يحول بينه وبين تحقيق اهدافه غير أنه كان منهمكا في صراع داخلي ديني من أجل الغاء تعدد الالهة في مصر لصالح آله الشمس وخلفه توت – عنخ – آمون TUT-ENCH-AMON الذي مات وهو في سن الثامنة عشرة ، وهكذا كان بامكان ملك الملوك سوبلوليوماس أن يستولي على الارض ويوطد حكمه عليها ، واطلق على نفسه لقب (لابارناس Labarnas) الملك العظيم ، ملك بلاد حثي البطل – محبوب آله الطقس) وعظم شأنه وذاع اسمه حتى أن أرملة توت عنخ آمون – بعد استيلائه على كركميش و آمكا (Amka) في لبنان الملكة آنشين آن آمون (Rnchen - En -Amon) كتبت إليه طالبة أن يرسل اليها أحد ابنائه للزواج به وتتويجه ملكا على عرش الفراعنة لانه كثير الاولاد على ما تعلم وهي لا أولاد لها وقالت :

((أوتريدني اذن أن اتزوج عبداً واجعله ملكا ؟))

ولدينا النص الطريف التاريخي لهذه القصة التي خلاصتها أنه بعد أن زال شكه وتحفظه ارسل لها أحد أبنائه غير أنه قتل قبل وصوله الى هناك .

وغالبا تبدأ الممالك بالانهيار بعد موت مؤسسيها العظام وكاد هذا يحدث ايضا لامبراطورية الحثيين ، حيث تسلم الملك بعد وفاة ابيه الملك (أرنوفانداس الثالث Arnawandas III) الضعيف غير أنه مات بالطاعون بعد عام فقط من تسلم الحكم وجاء دور الابن الثاني (مرسيلز) الثاني (MursiLis II ١٣٣٤– ق.م) والذي انقذ الامبراطورية من الانهيار وكان عظيما مثل ابيه ولكنه كان حساسا شاعري المزاج كما نستخلص من المستندات التي تركها وخاصة تلك المسماة (صلوات الطاعون) .

وكان عليه أن يبدأ فوراً الحروب لتثبيت اركان الامبراطورية فحارب مدة عامين ضد بلاد (ارزافا) (Arzawa) غربا وشرقا والتي نعرف عنها القليل ، وفي الشمال حارب عشائر الكاسكا (KasKa البربرية العاتيه ، وكذلك حارب ضد ال(أحياوا) (Ahhiyawa الذين يظن بعض الباحثين أنهم اغريق من أصل مكيني (Mykene) وهو الاخليين (Achrern)وعلى الرغم من أن هناك بعض الامور التي تشير الى امكانية أن يكون هذا الملك ضعيف الجسم ومصابا بصعوبة في النطق الا انه بلاشك ذو شاعرية رقيقة يدل عليها ما جاء في صلوات

الطاعون ، وهذا أنموذج عنهــــــا :

يا الــه الطقس الحثـــــــي
ياسيـــــــدي
وأنت ايتها الالـهة التي هي سيدتـــــي
ان الامركذلـــــك :
يذنب المـــــرء
وكذلك آذنب أبـي أيضــــا
وتخطى كلمة الــه الطقس الحثـــــي
الذي هوسيـــــدي
غيرانني لم اذنـــــب
ولكن الامرهكــــــذا
خطيئة الاب تنقل الخطيئــــــة
الــــى الابـــــن
وكذلك جاءت إليّ خطيئة أبــــي
غيرانني اعترفت بها الى اله الطقس الحثيّ
الـذي هوسيـــــدي
والى الالـهة التي هي سيدتي ايضـــا
هكـــــــذا :
لـقـد قمنابذلـــــك
ولانني اعترفت بخطيئة آبـــــي
فليلطف مشاعره الـه الطقس الحثيي
الذي هوسيدي
والالـهة التي هي سيدتـــــي
ولـتكن لطيفة نحـــــوي
ولـتطرد (الطاعون) من بلاد (حثـــي)
ايتها الالـهة ـ التي هي سيدتـــي
والتي تريدالثـأرلـدم (تودهاليمــــاس)
الذين قتلوا (تودهاليماس)
دفعوا ضريبة الدمـــــاء

وايضا بلاد (حثي) أفنتها ضريبة الدماء هذه
وبذلك نالت أرض (حثي) ما عليها من جزاء
ولان الجزاء جاء الي الان
فسوف اقوم مع كل عائلتي بتقديم البديل والغفران
والالهة - التي هي سيدتي
سيهدىء خاطرها
أعيدي عطفك الي
أيتها الالهة - التي هي سيدتي -
وسوف أظهر امامك
ولانني أصلي اليك
استجيبي الي
لانني لم أفعل شرا
ومن أولئك الذين غابوا وفعلوا الشرور
لم يبق أحد ، لانهم أموات
وبما أن مسألة أبي جاءت الي
- انظر - فسوف أقدم لك
أيتها الالهة التي هي سيدتي
من البلد الذي جاءه الطاعون
سأقدم عطاءات الغفران
اطردي من قلبي الالم
وأما من روحي فانزعي الخوف ...

وخلف (موفاتالى) (MuwataLis)(١٣٠٦-١٣٨٢) اباه في الحكم وكان عليه أن يحافظ على حدود الامبراطورية التي استلمها من ابيه غير ان هذا لم يكن بالامر السهل لاسيما بعد ان حدثت تطورات هامة في مصر وظهر فيها فرعون فتى نشيط وهو (رعمسيس الثاني) Ramses II الذي رأى بالحدود السورية حاجة الى اعادة نظر ، فتوجه لهذا الغرض نحو قادش حيث قابله هناك ملك الحثيين موفاتالى في العام (١٢٩٦ق٠م) وانتصر بذلك على الفرعون الذي زور وقائع التاريخ ، كما نعرف اليوم - فغير

بذلك مجرى تاريخ شعوب المنطقة في تلك المعركة ذات الصفة العالمية تاريخيا في ذلك الزمان وذلك لانها ليست كالمعارك الكلاسيكية التي تدرس في الكليات الحربية على موديل من الرمال لمعرفة سير معركة ماوليست كالمعارك الوطنية التي يدافع فيها عن الوطن كمعركة غابة توتن بورغ (TeuteBurger WaLcL) التي جرت في المانيا ضد هجوم الرومان بين الجرماني ارمينوس (Arminus) والروماني فاروس (Varns) وليست مجرد معركة تاريخية يدرسها الباحثون لانها دراسة ما أو حقبة من الزمان وانما (المعركة التاريخية عالميا) وقليل جدا منها في التاريخ لاتحصل فقط وانما تغير معطياتها وبشكل عميق مجرى التاريخ وحياة الشعوب التي قامت بها فترة من الزمان والمقصود بالعالمية هنا هو ماكان يعرف في العالم القديم : بالعالم ،ومن هذه المعارك العالمية تاريخيا معركة (كاتالاون (KataLaun) في العام (٤٥١ ب ٠ م) لانها قررت مصير المسيحين فترة طويلة واذا كان لايمكن اعتبار معركة (واترلوا) (WaterLoo) من هذا الطراز العالمي تاريخيا غير أن معركة نابليون امام موسكو التي قررت اوروبا هي من هذا الطراز وكذلك معركة ستالين غراد ومعركة نهر المارنة (Marne) في فرنسا لانه تقرر فيها مصير اوروبا في حربها مع النازية ، ومن هذا الطراز ايضا معركة الهند الصينية الشهيرة (دين - بينفو) (Dien - Bien -Pha) لانها قررت مصير الاستعمار الاوروبي في الشرق الاقصى غير أن أهمها على الاطلاق تاريخيا هي :

* معركة قادش : التي نحن في صددها الان لانه فيها تقرر مصير الشعوب ما بين النيل ودجلة وخاصة شعوب سورية وفلسطين ومسألة التوازن الاستراتيجي بين الفراعنة والحثيين ٠

والطريف في هذه المعركة انها اول معركة في التاريخ القديم ، يمكننا اليوم استنادا الى الوثائق المتعددة التي عثر عليها ، ان نعيد تصميمها وسير مجراها في دقة متناهية وهي اول معركة تاريخية تمكننا من قراءة الاتفاقات التي اسفرت عنها والتي لاتقل حكمة وحنكة سياسية عن اتفاقات قرننا العشرين ٠

وكما ذكرنا فقد سبق هذه المعركة ، معركة قادش ،وبعشرات السنين

صراعات دامية بين المصريين والحثيين كان ضحيتها دوماشعوب سورية وفلسطين ولم تكن هذه النزاعات نزاعات حدود (فقط كما صور المؤرخون المصريون ، وانما كانت في الواقع صراعا من أجل السيطرة على جميع الساحل الشرقي للبحر المتوسط وكان المعتدون فيها من الجانبين أو من حلفائهم .

حتى الرسائل التي كشف عنها في (تل العمارنة) في مصر والتي ارسلها الامراء السوريون والفلسطينيون الى الفرعون يستنجدونه المساعدة ضد الغزوات القادمة من الشمال ،هذه الرسائل لم تلق أي اعتناء من الفرعون (اخناتون) الذي كان كما ذكرنا مشغولا بمسألة توحيد الدين في شخص اله الشمس والذي اضاع ماضمه اسلافه الى امبراطورية مصر .

وأما خلفه على العرش الجنرال (حارمحاب)(HARFMHAB)

(١٣٤٥-١٣١٨ ق.م) فانه لم يستطع ان يفعل من احل ذلك شيئا ذا بال وجاء (سيتوس) الاول(Sethos-I) للحكم على عرش مصر(١٣١٧-١٣٠١ق م) وقام بحملات تأديبية في عمق فلسطين وطرد منها عشائر الصحراء غير انه اضطر الى التوقف على ارتفاع - صور- دمشق (tyrus-Damasc) لانه وجد امامه خصما قويا لاطاقة له عليه كان هذا : جيوش الحثيين .

وجاء الان دور(رعمسيس الثاني) Ramses ١٣٠١-١٢٣٤ ق.م على عرش الفراعنة ، وفي العام الخامس من حكمه هجم الحثيبون على فلسطين فخرج في طلبهم في جيش من اربعة فيالق : امّون - رع - بته- سوتخ. (Amom - reh -ptah -suteh)وفيه مايقارب عشرين الف محارب وهو في ذلك الزمان جيش عظيم .

وقد سلك طريق الساحل الفينيقي نحو الشمال واحتل المرافىء من اجل الامدادات وهو الطريق نفسه الذي سلكه سلفه الجنرال حارمحاب (Haremhab)وعندما تقدم في اتجاه نهر العاصي orontes وصل الخبربان جيش الحثيين بزعامة ملكه (موفاتالس) MuwataLis مجمع في حصن قادش(Kadesch)قرب بحيرة (قطينة) والمعروف اليوم باسم (تل النبي مندو) وشعر في نفسه القوة بمكان حتى انه قرر غزوهم في الحال وتمكن قبل ذلك من كسب دعم اميرالعموريين(Amurra المسمى(بنتزينا) (Bentisina)والذي كان قد عاهد الحثيين

على الوقوف معهم ، أما موفاتالي – ملك الحثيين فقد جمع ايضاما يقارب عشرين الف مقاتل من البلاد والحلفاء والشعوب المجاورة كافة وطوع حتى لصوص البحار الاغريق من(LYKIEN)وتحصن في قادش وكانت الجيوش المتجمعة من اكبر ما عرف التاريخ عددا في ذلك الزمان .

اما استراتيجية رعمسيس فكانت مخفقة منذ البدء لانها لم تكن خطة مدروسة بشكل دقيق .

وسار بفرقه الاربعة نحو قادش وعسكر على مقربة منها في اواخر آيار من العام ١٢٩٦– قبل الميلاد .

ولم يجد هناك أي أثر لخصومه الحثيين ودهش لذلك وبدأ مع قادة فرقه تدارس الامر .

في هذه الاثناء كان ملك الحثيين موفاتالى قد بدأ التحضير للمعركة وجمع جيوشه في الشمال من قلعة قادش وفي منأى عن أعين اعدائه على ضفاف العاصي وبدأ بتطبيق خطته الدقيقة للمعركة فارسل (تكتيكيا) اثنين من البدو الى معسكر الفرعون، قال الرئيسيس انهما فروا من جيش الحثيين وان ملكهم الذي راعه جدا ما رآه من عظمة جيش الفرعون قد فر مع اتباعه وجيشه الى قرب حلب .

وبما أن مخابرات الفرعون – وهذا الاصطلاح الحديث يسهل فهم الامور لم تكن تعمل بدقة كافية ولم تتحقق من الامر ، اقول ان مخابراته لم تقدم له الدليل القاطع على صحة هذه الادعاء ات وبما انه كان مأخوذا من عظمة نفسه فقد اقدم عندها على عمل أحمق متهور، حيث انه سار محاطا بضباطه على رأس الفرقة آمون وابتعد حوالي عشرة كيلومترات عن الفرق الاخرى لجيشه وتقدم نحو قادش في ارض لم يتم استطلاعها بعد وفي النص الهيروغليفي في معركتبو افيما بعد :

((جلالته تقدم ، كالإله مونت(Month)سيد طيبة واجتاز عتبة العاصي مع جيشه الاول آمون)) .

(انظر المخطط رقم (١) –

في هذه الاثناء كان ملك الحثيين يراقب تقدم الفرعون وفرقته الاولى وادرك ان الطوق بدأ ينعقد ببطء حول عنق خصمه واتباعه وانتقل بجيشه من الشمال الشرقي قاطعا العاصي وتركز خلف اسوار الحصن وعلى منأى من

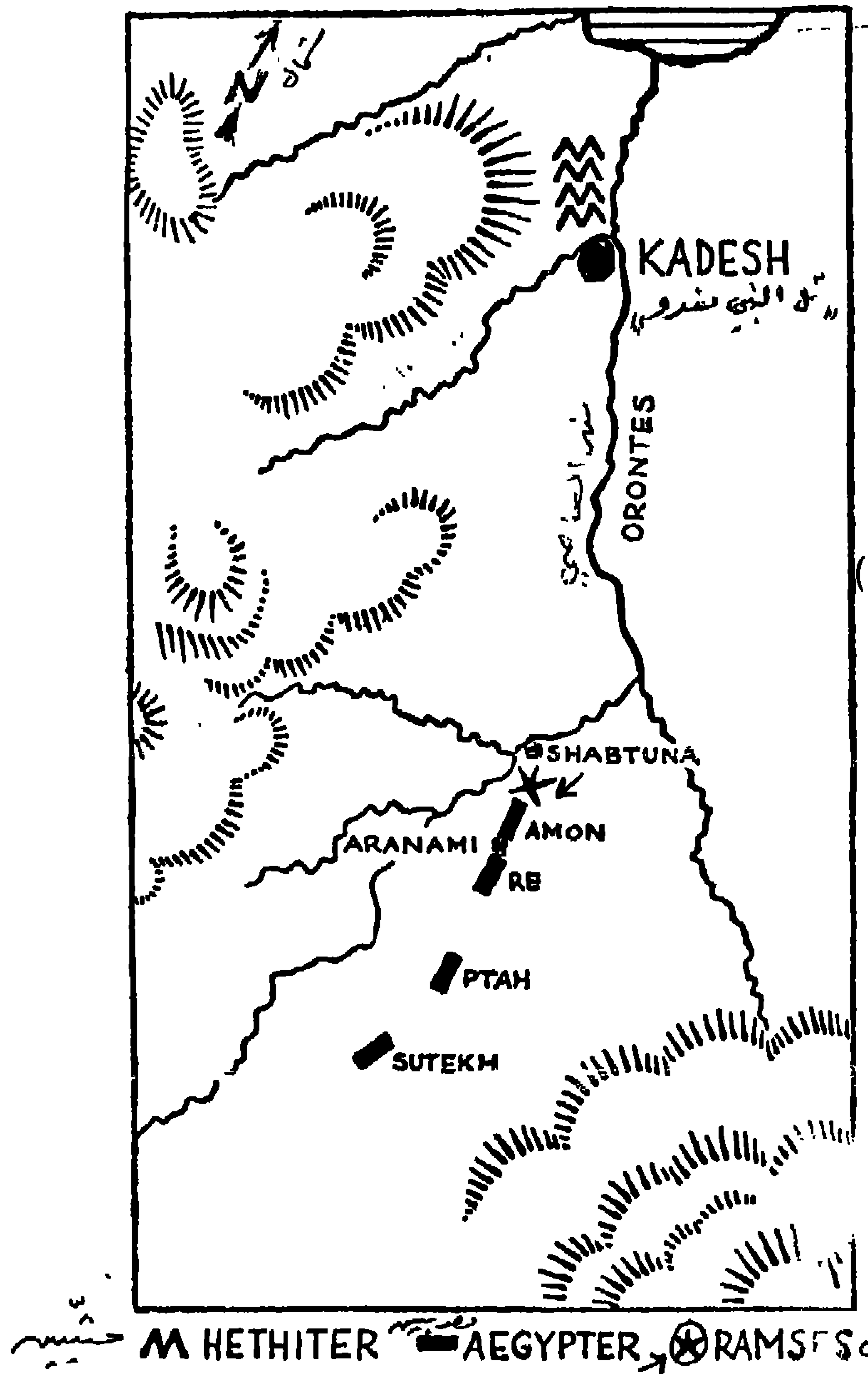

الشكـــــل (١)

انظار الفرعون في الشرق من قادش اما فرعون ، الذي لم يجد ويـــــرى من جيوش خصمه احداً فقد استمر على رأس فرقته الاولى ، وكانت فرقـــة (رع) (Reh) تتبعها ببطء بينما الفرقتان الاخريتان مازالتا جنـــوب العاصي في البعيد ـ فقد استمر سيره نحو الشمال باتجاه بحيرة قطينـــة .

ان هذه المناورة التي قام بها موفاتالي وهي الالتفاف بجيشه فـــي ظل الحصن من الشمال الى الشرق فقد استغرقت طوالة بعد ظهر ذلك اليوم مـــن

ايام او اخر ايار في العام (١٢٩٦ق٠م) الذي دخل التاريخ من بابه العريض كما يقـــــال ٠

في هذه الفترة سمح رعمسيس لجيشه المتعب أن يعسكر ليستريـــح ويطبخ في الشمال الغربي من القلعة حيث كانت جثث الحثيبين قد وصلت الـــى هناك قبل وقت قليل ، فيهذه الاثناء كانت فرقة (رع) (Reh) تتقـــدم خلفه ببطء وكما في كثير من الاحداث التاريخية لعب الحظ لعبته الى جانب فرعون حيث تمكن ضباطه من القبض على جاسوس من الحثيين وفي الاستجواب الذي تم طبعا ،كما هو مصور في المعابد المصريه ، باستعمال العصي بناء على امر من الفرعون اعترف هؤلاء أن موفاتالي لم يفر الى حلب وانه مع جيشه هنا في قادش خلف القلعـــــة ٠

(انظر الشكل رقم (٢) :

الشكـــل رقم (٢)

ووضحت الصورة الان في ذهن رعمسيس وبدا له الخطر الشديد المحيط بـــه وبدأ ويا للعجب يوبخ ضباطه الذين كانوا قبل ذلك قد اشاروا عليه بالتروي وعدم السير الى قادش سريعـــــا ٠

وارسل يستعجل جيش بتـه (Ptah) ويأمل ان يقترب جيش (رع Reh) منه خلال هذا الوقت ، ولكن موفاتالي الذي كان يراقب في هذه الاثنـــاء مايجري امامه كالنسر الجارح ، والذي كان قد عبر النهر بجيشه من جديـــد

الى جنوب القلعة قادش ، انقض على جيش الفرعون (رع) (RFH) بعرباته الحربية الخفيفة التي ذكرناها سابقا والتي كانت تحمل عدا قائدالعربة اثنين من المحاربين ولكن عربات المصريين كانت تحمل محاربا فقط •
(انظرالشكل رقم (٣) :

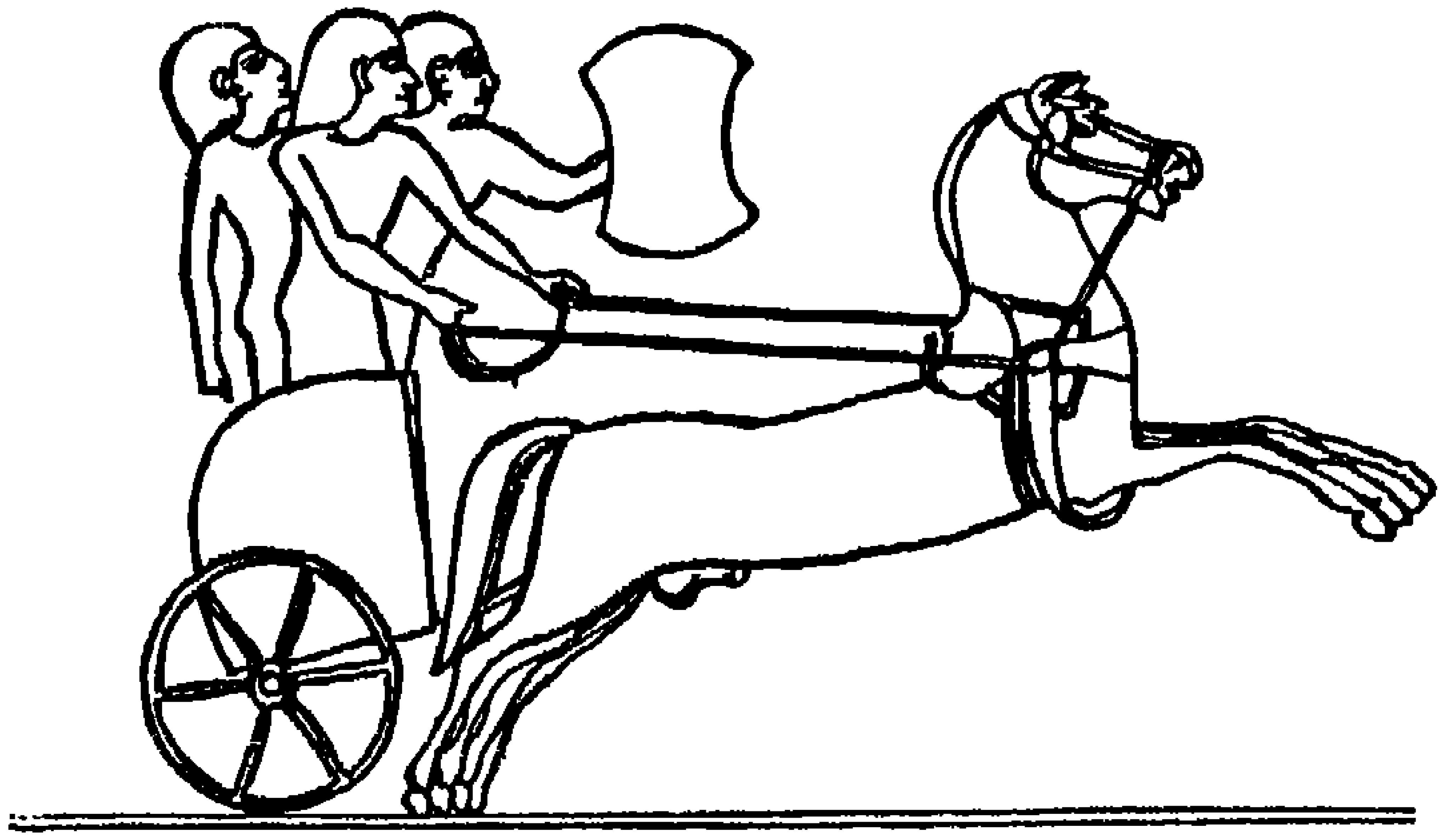

الشكل رقم (٣)

وكما في النص الفرعوني فقدتم ذلك على الشكل التالي:
(هاجموا جيش رع في وسطه ،وكان سائرا غافلا غير مستعد للقتال ،وانهارت عربات قتال جلالته وجيشه امامهم) شكل (٤) •

وتمكن موفاتالي من القضاء الكلي تقريبا على فرقة (رع) وطارد الهاربين ممابقي منها والذين لجأواخائفين من وحشية عربات قتال الحثيين الى فرقة آمون التي يقودها رعمسيس شخصيا ونقلوا اليهم الذعر حتى ان عددا منهم فرّوا واصبح الفرعون على وشك الاسر وهذه هي ذروة معركة قادش التي حطم فيها موفاتالي جيش رعمسيس وابتدأ بتحطيم فرقته الخاصة (آمون) •

وأما فرقة بتة (Ptah) فكانت ماتزال في الطريق تُغِذّ السير ببطء الى المعركة دون علم بما يجري هناك ،واما فرقة سوتخ (Sutekh) فمازالت تعسكر جنوب العاصي دون علم ايضا ، وتم فعلا حصار الفرعون وفرقته آمون من قبل الحثيين وبان النصر (انظرالشكل ـ ٤ ـ) •

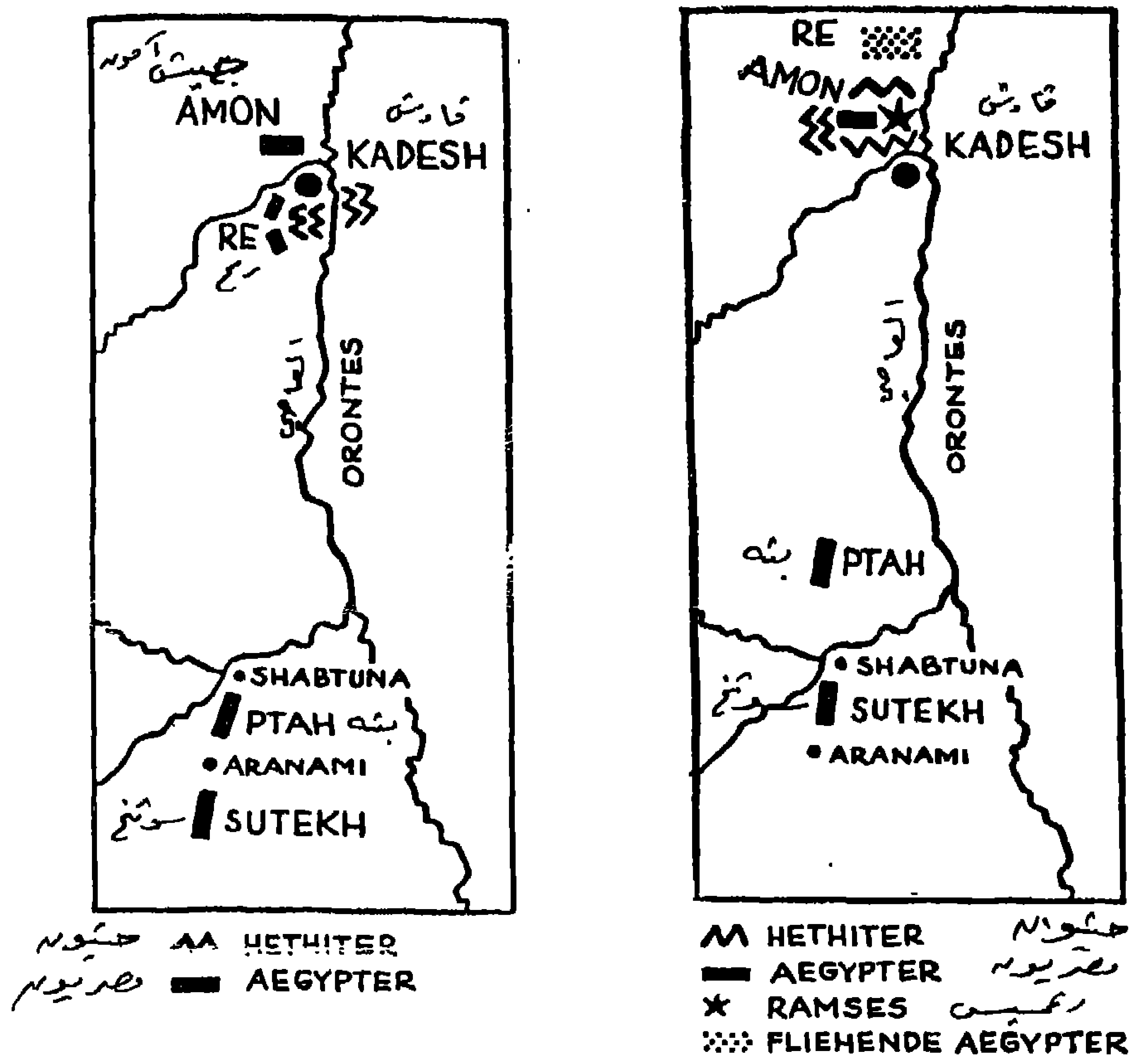

شكـــــل (٤)

ولكن في هذه الاثناء حصلت المعجزة التي لم تكن في الانتظار وانقذ الفرعون من هذه الهزيمة النكراء والاسر المحتم ، وكان ذلك كمايلي :

١- عندما بانت علامات النصر الاكيد للحثيين ، قامت الجماعات المرتزقة والعشائر الخلفية التي دهشت لما رأته من خيرات ونفائس في خيام الفرعون المهجورة بالنهب وتقاعست عن متابعة القتال ولم تعد لتستمع الى الاوامر .

٢- في هذه الاثناء ، ودون معرفة سابقة وربما دون امر واضح بالقتال ظهرت قوة مصرية قادمة من ناحية بحيرة قطينة وعلى ما يتضح اليوم انها مجموعة من طلاب ضباط ورتب اخرى كانت قد انزلت في احد المرافئ واعطيت امر الالتحاق بجيوش الفرعون - رأت الامر: فرعون المحاصر بما بقي من جيش آمون - العشائر الممعنة في

السلب وقامت بتلك المعجزة اللازمة لانقاذ الوضع :
بنظام تام ضربت قوات الحشيين القائمة بالسلب واحلت في صفوفهم الرعب.
اما كيف تمكن فرعون رعمسيس ان ينجو بنفسه فهذا امر طريف وفيه من المبالغات شيء كثير كما خط رجال السياسة في مصر والفنانون والشعراء ويمكن اعتباره بحق تزويراً فجّاً لحقائق التاريخ واطراء للفرعون بلا حدود وحطا من قيمة خصمه الشجاع الذكي موفاتالي حتى انه كان يظن لفترة قرن مضى أن ماكتبه المصريون في معابدهم هي حقائق التاريخ وان شعب الحثيين هذا مجرد مجموعة بدائية ليست ذات شأن حتى تم الكشف عن الحقيقة منذ وقت قريب .
امهم كما يبدو ان رعمسيس تمكن من أن يجمع جيشه بعد القيوم باعمال جريئة لا بد منها؛ وان يجتاز في صباح اليوم الثاني سهول قادش المليئة بالحثيين ويتجه منسحبا بما بقي من جيشه نحو الجنوب حتى المناطق الواقعة على عرض خط دمشق .
وللاختصار نستبق شرح تزوير التاريخ من قبل الفرعون ونقول ان هذه المعركة ادت الى عقد (معاهدة سلام) بقيت قائمة على الرغم من تعدد حوادث الحدود بين الحثيين والمصريين الذين لم يتجاوزوا بعدها الخط الاحمر وهو نهر الكلب في لبنان .
وكان من نتائجها تحسن العلاقات بين الطرفين حتى ان رعمسيس الثاني قد تزوج بعدها بعشرة اعوام وعلى ما يبدو بناء على رغبة حثية ابنة ملكهم الجديد (حتوزيلز) الثالث (HattusiLis) وجعلها في حرمة زوجته الاولى واطلق عليها اسم ما انته فروره (Ma Amte Frure) أي (الحقيقة هي جمال لها) واما السلام فقد تم بين العام (١٢٨٠-١٢٦٩ ق.م) وتاريخ عقده بدقه مايزال موضوع نقاش حاد بين المهتمين بمصر واولئك المهتمين بالحثيين من البحاثة ويبدو انه تم في العام العشرين من حكم رعمسيس الثاني الذي ابتدأ عام (١٣٠١ق.م) وكان الاصل المفقود محفورا على لوحة من الفضة وكذلك على اعمدة معبد الكرنك ولم تتم كتابة العقد فقط بالخط البسماري الحثي أو الصور الهيروغليفية المصرية وانما ترجمت المواد لكل لغة منها وكانت تعدل بما يلائم المصالح الخاصة لكل طرف والنص المسماري موجود حتى الفقرة الرابعة عشره والتي تعادل الفقره

السابعة عشرة المصرية واما النص المصري فله ثلاثون مادة وينتهي بوصف للوحة الفضية التي حفر عليها العقد ٠

ومن أهم ما جاء في هذا العقد (المعاهدة) الذي تمكن من احلال السلام بين مصر والحثيين مدة سبعين عاما ما يلي :

١- يتعهد كل من الطرفين بعدم القيام بغزوات في بلاد الاخر ٠

٢- يتعهد الطرفان بالقيام بتحالف دفاعي ٠

ومن طرائف هذا الاتفاق النص التالي :

(اذا هرب رجل - اثنان او ثلاثة - من بلاد مصر الى ملك الحثيين العظيم فعليه اعتقالهما واعادتهما الى سيد مصر الكبير رعمسيس ، ولكن عندما يحضر هذا الرجل الى سيد مصر الكبير رعمسيس الثاني فلا يجوز محاكمته كمجرم ولا يجوز القضاء على بيته وزوجته واولاده ولا قتله او ضربه سواء على العينين او الاذنين والفم ولا على ارجله ولا يجوز تجريمه ابدا) ٠

وهذا طبعا ينطبق على الجانب الاخر ٠

اما الضمان للوفاء بهذا العقد فكان نصه كالتالي:

((أما بشأن هذه الكلمات المحفورة على طبق من الفضة بين بلاد الحثيين وبلاد المصريين : ممن لم يف بما فيها فلتخرب الاف الالهة الحثية والاف الالهة المصرية بلاده وخدمه)) ٠

القاضي أبو الوليد الباجي

الأستاذ محمد كمال لطفي

١- نظرة الى واقع الاندلس في القرن الحادي عشر :

سادت الاندلس بعد سقوط الخلافة الاموية حالة من الارتباك والحيرة تبينت خطوطها السوداء بقيام دول متعددة ، عرفت بدول الطوائف هذه التسمية واضحة المدلول في وصف حالة الاندلس ، الذي توزعته عدة ممالك ، وان تفاوتت قوتها وأهميتها ومساحتها ودورها في احداث الاندلس .

كان بعضها يتربص ليحوز ما بيد غيره من الامراء ، وفي ذات الوقت كانت السلطات الاسبانية تتربص بهم جميعا حتى ولو كانت لها مع بعضهم صداقة أو عهد . ذلك ديدن السلطات الاسبانية قبل هذه الظروف يوم كانت الاندلس العربية تتمتع بالقوة والحزم ... فكيف الان وقد تغير ميزان القوى في الجزيرة الاندلسية وغدت هذه السلطات هي الاقوى ؟ ... (١) .

لم يكن الامراء النصارى يخشون جانب الدويلات الاسلامية بعد أن سادتها الفوضى . اذ إن بعضهم امتشق الحسام على بعضهم الاخر مثلما فعل امراء العرب .. فكانت حروب طاحنة تارة تدور مع الدويلات العربية المجاورة لهم وتارة فيما بينهم .. (٢) .

لقد ذهبت الخلافة الاموية في اسبانيا ضحية لغطرسة الحرس الخليفي وبنيه ، وأطماع الولاة ، وانحلال شعب فقد حبه وولاءه للاسرة الحاكمة القوية .. (٣) .

انقسمت الدولة الاسلامية في الاندلس بادئ ذي بدء الى دويلات عديدة ،حتى كان لكل دولة تقريبا أميرها المستقل متخذاً لقب الملك أو الامير او والي أو القاضي تبعا لحجم المدينة أو المنطقة التي يحكمها ...

---

(١) - التاريخ الاندلسي (د - عبد الرحمن علي الحجي ص ٣٢٦) .

(٢) - تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين تأليف المؤرخ الالماني يوسف اشباخ ترجمة محمد عبد الله عنان .

(٣) - نفس المصدر السابق .

كان بعض هؤلاء الولاة يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم عن كل سيادة ،ولم يكن الامر ممكنا الا اذا رأى جيرانهم الاقوياء هذا الاستقلال في صالحهم ... وأهم هذه الدويلات قرطبة و أشبيلية وغرناطة ومالقة وبطليوس وطليطلة وسرقسطة وكان بعضهم يخاصم بعضا حسبما تمليه بواعث الطمع والغرور وسلطان الامارة التي تسير اولئك الامراء... ذلك لان الاقوى يبطش بالاضعف ،فيحاول الاضعف أن يدرأ الخطر عن نفسه بالتحالف مع جار أقوى يغدو تابعاله ويعاونه على إحراز النصر على عدوهما المشترك وقد يهزم معه .. هذا اذا لم تنجده معونة الامراء النصارى لقاء اجرة فادحة الثمن ... وهكذا تكونت بعد قيام معركة دامية بين الفئات المتنازعة أربع دويلات رئيسية غلبت جميع الدويلات الاخرى اوتحالفت معها ...

آ- في جنوب الاندلس ، في غرناطة ،غلب - الادارسة - بنو حمود أصحاب مالقة وحالفهم أمير غرناطة وقرمونة وانضموا تحت لوائهم اضافة الى ذلك كانوا يحكمون عدة مدن في شمال افريقية مثل مليلة وطنجة وسبتة ،

ب - في جنوب غرب الاندلس - في اشبيلية - غلب بنو عباد ،واضطر أمير قرطبة وبطليوس الى الانضواء تحت لوائهم حليفين أومغلوبين .

ج- في اواسط الاندلس في طليطلة - غلب بنو ذي النون ،بيد أنهم لم يحققوا ذلك الاعلى حساب استقلالهم حيث كانوا يدفعون الجزية لملك قشتالة التماسا لعونه ضد خصومهم .

د- في شرق الاندلس - في بلنسية ومرسية - غلب بنو عامر وكانوا أضعف من الفئات الثلاثة ... وكانوا دوما يعقدون التحالف مع جيرانهم من دول الطوائف الاخرى ، تبعا للظروف مع الادارسة أوبني عباد أوبني ذي النون نظراً لموقعهم الجغرافي ، وهم يتأرجحون بين بني هود والتجيبيين سادة سرقسطة وتطيلة ووشقة ...

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد :

كانت حال دول الطوائف فيما بينها أشد خصومة وتطاحنا من دول امارات اسبانيا النصرانية ... ولم تكن هذه الدويلات العربية تتورع عن التحاور مع الدول النصرانية أو تعقد معها معاهدات الصداقة اوأن تستمد

عونها نظير الجزية ... وحتى أن أمير طليطلة القوي ،المأمون يحيى بن ذي النون – الذي خلف أباه سنة (١٠٤٣) م لم يكتف باغتنام عون حليفه القوي عبد العزيز بن أبي عامر، بل عمد الى استئجار الفرسان القشتاليين النصارى ليبطش بأمير قرطبة محمد بن جَهْوَر.. وقد كان سقوط ابن جهور محققا لو لم يجمع حلفائه الاخرين لاتقاء العاصفة التي كادت أن تودي به ، ويتراجع على مضض عن دعواه في سيادة الاندلس وأن يعترف باستقلال جيرانه وخصوصه بني عباد أمراء اشبيلية وبني الافطس أصحاب بطليوس ،وأن يدعوهم الى معاونته ضد طليطلة التي كانت تهددهم جميعا بالويل والفناء ... ومع أن أمير اشبيلية ابن عباد كان يشتبك يومئذ مع الادارسة امراء مالقة ، فانه بادر الى قبول التحالف المرغوب إذ رأى فيه وسيلة لتوسيع سلطانه.أما أمير بطليوس فقد كان أقل أثرةً وهوى ،ذلك أنه ما كاد ابن جهور يعترف بسيادته على الغرب (١) حتى وضع قواته رهن تصرفه ،وابتداءً من سنة (٤٧٠ هـ – ١٠٧٨م) عمل الفونس السادس ملك قشتالة على تحقيق حلمه الكبير من أجل الاستيلاء على طليطلة ،بالرغم من المعاهدات والمواثيق بين الطرفين ... فأغار على أرضيها يعيث فيها قتلا وتخريبا واتلافا للمزروعات والمحاصيل لينهك قواها كي تصبح لقمة سائغة يتناولها حينما يريد .

كانت هذه الامور تجري تحت سمع وبصر ملوك وأمراء الطوائف الذين وقفوا جامدين لا يتحركون لنجدة طليطلة ،وكأن الامر لا يعنيهم ..

والعجيب في ذلك أن عدداً منهم يستعطف ملك قشتالة طالبا عونه أو عارضا عليه الخضوع بذلّة ((تأباها النفس العربية الابية)) (١) .

ولم يكن همهم سوى منفعتهم وبقائهم متربعين على كراسي عروشهم مهما كانت قوائم هذه الكراسي قصيرة أو مهزوزة ، ويقول لسان الدين ابن الخطيب عنهم :

((وذهب أهل الاندلس من الانشقاق والانشعاب والاختراق الى حيث لم يذهب كثير من أهل الاقطار ... ليس لاحدهم في الخلافة ارث ولا في

---

(١) – ولاية الغرب : منطقة غرب الاندلس تدعى (ALgarve) .

(١) – التاريخ الاندلسي (د. عبد الرحمن علي الحجي) .

الامارة سبب ولافي الفروسية نسب ولافي شرط الامارة مكتسب)) (١) .

وقال عنهم ابن خلدون في مقدمته :

((اقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها القوة استبدادهم عليها بما كانوا قبيلها وعصبيتها ، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها ...)) .

هانت لديهم مصالح الامة ، باعوا خلقهم وبلادهم للعدو المتربص بهم وانحرفوا عن النهج الحنيف الذي كانت عليه حضارة العرب في الاندلس .

في سنة (٤٧١ هـ - ١٠٧٩ م) أعلن الفونسو السادس الحرب على طليطلة بالرغم من أنه لقي فيها ملاذا وحماية من مطاردة أخيه شانسو وبالرغم من أنه يرتبط مع حكامها بني ذي النون بروابط الصداقة ..

كان الوضع في دول الامارات كالتالي :

آ- أمير اشبيلية المعتمد بن عباد سار بجيشه لمحاربة أمير غرناطة عبد الله ابن بلكين بن باديس ليخضعه لسلطانه .

ب- أمير سرقسطة المقتدر بن هود كان يرى أن الخطر يتهدده من شانسو ملك الاراغون فلم يتحرك من مكانه .

جـ- أمير بطليوس يحيى بن الافطس هو الوحيد الذي قدم بعض العون .

د- باقي امراء الدويلات ، وقفوا موقف المتفرج لا أكثر ولا أقل .

هـ- لم تكن البلاد تخلو من قادة وعلماء يدعون الى الجهاد لتوحيد البلاد ورد الاعداء مهما اختلفت تسمياتهم وقوتهم .. ولكن بعض الامراء راحوا يستعينون بعدوّ امتهم الذي يتمنى هلاكهم .. وفي هذه الظروف و الاحوال ارتفعت في الاندلس دعوة تجمع شمل الولايات والدويلات بدولة قوية ضد قوى الاسبان المتعاظمة يوما بعد يوم .. كان على رأس هذه الدعوة العلامة القاضي الفقيه سليمان بن خلف الشهير بأبي الوليد الباجي آزره فيها حاكم بطليوس أبو محمد عمر (المتوكل على الله) بن سيف الدولة ابو بكر محمد (المظفر) بن الافطس

---

(١) - من كتاب اعمال الاعلام . لسان الدين بن الخطيب تحقيق ليفي بروفنسال (ص ١٤٤) .

٢- القاضي ابو الوليد الباجي - حياته - ودعوته الى توحيد الاندلس :

سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي المالكي الاندلسي الباجي ، فقيه مالكي كبير ، من رجال الحديث ...

ولد في بطليوس عام (٤٠٣ هـ ١٠١٢م) .. سكن شرق الاندلس ثم رحل الى الشرق سنة (٤٢٦هـ) .. أقام فترة قصيرة في مصر ثم رحل الى الحجاز فأقام في مكة مع أبي ذر الهروي ثلاثة أعوام وحج فيها أربع حجج .. ثم انتقل الى بغداد ، فأقام فيها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحديث ، ولقي فيها بعض سادة العلماء في ذاك العصر وأبا الطيب الطبري الفقيه الشافعي والشيخ أبي اسحق الشيرازي ، والضميري ، وابن عروس المالكي ... وفي بغداد أجر نفسه لحراسة الدروب لكي ينفق على معيشته ودراسته ثم رحل الى الموصل فأقام فيها فترة من الزمن مع الفقيه أبي جعفر السمناني يأخذ عنه علم الكلام .. فبرع في الحديث ، وعلله ، ورجاله ، وفي الفقه غوامضه وخلافه ، وتدبج مع الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي وروى كل واحد منهما عن الاخر ... (١) .

يروي الحافظ أبو بكر الخطيب أن ابا الوليد الباجي أنشده :

اذا كنت اعلم علما يقينا   بأن جميع حياتي كساعه

فلم لا أكون ضنينا بها   وأجعلها في صلاح وطاعه

ورجع الى الاندلس بعد غياب ثلاث عشرة سنة بعلم جمّ حصله مع الفقر والتعفف سنة (٤٤٠ هـ) .. نشأ وهمته في العلم .. بدأ في الاداب فبرز في ميادينها ، وجعل الشعر بضاعته ، فنال به كل الرغائب ، ثم مال الى العلوم الدينية فمشى بمقياس ، وبنى على أساس حتى صار كثير من العلماء يسمعون منه ويرتاحون للاخذ عنه .

وبعد عودته من المشرق العربي الاسلامي ، تولى القضاء في عدة دويلات أندلسية .. وقد أحزنه وضع المسلمين في الاندلس من التفرقة والتباغض والتناحر والعدوّ يتربص بهم ويلتهمهم قطعة فقطعة ، مما دعاه الى حمل راية الدعوة الى الوحدة الاندلسية لتشكيل دولة قوية ، عزيزة ، تجمعها الكلمة الواحدة والصف الواحد ... ومرت دعوته الى توحيد الاندلس بمرحلتين :

---

(١) - وفيات الاعيان (ج١) للقاضي ابن خلكان .

الاولى : عندما طاف في الدويلات الاندلسية يدعو الى التضامن والوحدة من ذات نفسه عندما كان قاضيا ...

والثانية : عندما أرسل بمهمة رسمية من قبل المتوكل بن الافطس أمير بطليوس رسولا ليجمع كلمة العرب ضد الاسبان بعد ازدياد قوتهم بقيادة ملك قشتالة الفونسو السادس وتهديدهم لاكثر من امارة عربية اندلسية .

* المرحلة الاولى :

يقول ابن بسام في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة عن الباجي بعد عودته من المشرق :

((لاول قدومه رفع صوته بالاحتساب ، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الاسباب ، فقام مقام مؤمن آل فرعون (١) لو صادف اسماعا واعية ، بل نفخ في عظام ناخرة ، وعطف على اطلال داثرة بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب وأجزل حظه في التأنس والتقرب ، وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم ولكنه كان يرجو حالا تثوب ومذنبا يتوب)) .

وعن نفس الموضوع يذكر المقري في كتابه نفح الطيب بقوله :

((ولما قدم من المشرق الى الاندلس بعد ثلاثة عشر عاما وجد ملوك الطوائف أحزابا متفرقة ، فمشى بينهم بالصلح وهم يجلونه في الظاهر ويستثقلونه في الباطن ويستبردون نزعته ، ولم يفد شيئا ، فالله تعالى يجازيه عن نيته)) .

انفق ابو الوليد الباجي معظم وقته في خدمة العرب والاسلام والدعوة الى توحيد دويلات الاندلس المتفرقة سواء في تدريسه تعاليم الاسلام ، او في روايته للحديث الشريف ، فقد كان بارعا في روايته حافظا له .. وكان

---

(١) - مؤمن آل فرعون الوارد في نص ابن بسام هو المعني في قوله تعالى من سورة غافر ((وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا ، فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذين يعدكم ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب .

رحمه الله مولعا بالتدريس فقدقال أحد تلامذته : (كان يخرج الينا للاقراء وفي يده أثر المطرقة) (١) .

وقدسمت بالباجي تقواه ، وهمته لهذ الواجب العظيم من ذات نفسه وزار أكثر دويلات الطوائف يقيم في كل منها مدة ليست قليلة ، ثم ازداد نشاطه وتضاعف اشتد ادحال الاندلس سوءاً منذ حادثة (بربشتر) سنة (٤٥٦ هـ) والحادثة تتلخص بمايلي (٢) .

بربشتر : هي احدى مدن الثغر الاعلى تقع على بعد (٦٠) كم شمال شرق سرقسطة وواحدة من القواعد الاندلسية المنيعة وهي من أعمال أبي عامر يوسف المظفر حسام الدولة بن أبي أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي المستعين بالله ، شقيق حاكم سرقطة ابوجعفر المقتدر بالله ..

في سنة (٤٥٦هـ) هاجم جماعة من النورمنديين والفرنسيين المدينة بقيادة جيوم دي موزي أحد كبار خدم الكرسي الرسولي ، وقد وفد قبل ذلك على ايطاليا في أواسط القرن الحادي عشر (القرن الخامس الهجري) وخدم الكرسي الرسولي حتى أصبح قائد الجيوش الرومانية والبابوية .. وتذكر بعض المصادر العربية والاوربية أن البابا اسكندر الثاني هو الذي أشار على النورمان بحرب المسلمين في الاندلس (٣) ..

ويقدر عدد أفراد الحملة بأربعين ألفا أو يزيد .. استمر حصار المدينة أربعين يوما جرت خلالها معارك طاحنة خارجها ، ولما قلّت الاقوات .. واشتد الضيق بأهل المدينة ، استطاع النورمانديون دخولها بعد قتال عنيف فاستباحوا امن فيها .. وقدّر عدد القتلى والاسرى بين أربعين ومائة وألف .. اعطى قائد الحملة الامان للاهالي ، ولكنه حين رأى كثرة أهل المدينة أمر جنده أن تقتل اعدادهم حصاداً بالسيف ، فاطيح أرضا بستة الاف من الرؤوس اضافة الى نهبهم المدينة واحتلالهم دورها لانفسهم حيث ارتكبوا أفظع الجرائم قتلا وسلبا وهتكا للاعراض ، ولم ينجدها عاملها المظفر ولا أخوه المقتدر .. وقد اتصفت هذه الحملة بطابعها الصليبي وبقي فيها قائد الحملة فترة من الزمن ثم غادرها بعد أن ترك حامية فيها ..

---

١) أي من عمله اليدوي الذي يمتهنه .
٢)- نفح الطيب (ج٤) (ص ٤٤٩ - ٤٥٤) .
٣)- التاريخ الاندلسي (د. عبد الرحمن علي الحجي) .

دعا احمد بن هود أمير سرقسطة الى قتال النورمنديين ، فلبى النداء العديد من الفرسان العرب ، ويذكر ابن عذارى في البيان المغرب أن عدد المجاهدين بلغ (٦) آلاف فارس استطاعوا اقتحام المدينة بعد محاصرتها وجرت معركة شديدة انهزم فيها المعتندون شرّ هزيمة وذلك سنة (٤٥٧هـ) بعد أن دام احتلالها مدة (٩) أشهر على أثرها سمي أحمد بن هود (بالمقتدر بالله) ويقول ابن حيان :((ان لامراء السوء في دول الطوائف نصيب كبير في المسؤولية عن هذه الحادثة الفظيعة ،حيث أنهم انحرفوا عن جادة الصواب والنهج الاسلامي)) ، ويلوم الناس أيضا لركونهم الى أمثال هؤلاء الامراء ...

ان حادثة بربشتر وضحت للباجي حقيقة الحال وفرضت عليه الهروع الى العمل الجاد والدائم وبهمة وعزم ، انها كانت المحرك والدافع القوي له ولغيره من العارفين بالامور ويمكن القول ان وجوده في حينها في سرقسطة ، ودعوته للجهاد ، كان له الفضل الاكبر والاثر العظيم في استعادة المدينة في السنة التالية .

ومن الممالك التي زارها الباجي ، بعد تجواله شرقا - مملكة بطليوس المدينة التي ولد فيها ، ولعله تولى هناك بعض المهام وقام بالتدريس .. وان دعوته لم تكن موجهة الى ملوك وامراء الطوائف فحسب ، بل كانت موجهة أيضا الى عموم الناس ، يدعو الى ذلك في تدريسه وصلاته الاخرى .

يذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك حين ترجم لابي الوليد الباجي ((وكان اكثر تردد أبى الوليد الباجي بشرق الاندلس ما بين سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية)) .

يدل على ذلك أنّ الباجي أقام في هذه المدن فترة من الزمن ،وكذلك زار جزيرة ميورقة حيث ناقش ابن حزم هناك .. ولعله أقام في مدينة سرقسطة مدة طويلة من الزمن وذلك يتضح من كتابة رسالته التي تولى فيها الرد على رسالة الراهب الفرنسي .. هذا وان أحد بنيه ابي الحسن محمد توفي في سرقسطة .. وكان نبيلا ، ذكيا ،فرثاه أبوه بمراثيه شجية .. (١).

لم تتوفر معرفة كل المدن التي زارها الباجي وتاريخ ومدة تلك الزيارة ،ونوع نشاطه واتصالاته ، أو نصوص من خاطب به هؤلاء أو اولئك،

---

(١) - التاريخ الاندلسي ، د. عبد الرحمن علي الحجي .

أو أسلوب دعوته .

جل المصادر التي ترجمت له وذكرت تطوافه هذا على مدن الاندلس وقواعدها لم تعين مدة أو تاريخ بدء ، لكن الظاهر أنه لم يبدأ بها توا بعد عودته من الشرق سنة (٤٤٠ هـ) .

لقد بدأ مهمته بالدعوة الى توحيد الاندلس بشكل غير محدود وان لم يكن يأخذ شكل المهمة الرسمية .. وان النصوص الواردة في الذخيرة ونفح الطيب تؤكد كلها على أن الباجي بدأ دعوته الى توحيد الاندلس بعد عودته من الشرق .

ويمكن القول أنه بدأ دعوته مطوفا في المدن الاندلسية بعد أن تولى القضاء في أكثر من مدينة واشتغل في التدريس ، وبذلك عرف مكانه وذاع صيته العلمي .

المرحلة الثانية :

يذكر ابن فرحون صاحب الديباج المذهب عن ابي الوليد الباجي ((كان يستعمله الرؤساء في الرسل بينهم)) ...

وأورد القاضي ابن عياض أن الباجي .. ((كان يصحب الرؤساء ويرسل بينهم ، ويقبل جوائزهم وهم له على غاية البر)) .

يفهم مما ذكر أعلاه أن الباجي كان يعمل أحيانا سفيرا فوق العادة للملوك والامراء العرب الذين عمل في خدمتهم .. ونظرا لسوء الوضع العام في الاندلس ، ولازدياد خطر الاسبان وخاصة مملكة قشتالة بقيادة ملكها الفونسو السادس .. ارتأى أمير بطليوس المتوكل بن الافطس أن يدعو العرب الى توحيد الاندلس للوقوف في وجه الاسبان فكلفه ، أو وجهه الى دعوة عرب الاندلس للتوحد والجهاد ضد الاسبان فأخذت الدعوة طريقها الرسمي بعد ذلك ... وجرى استقصاء - ولكن دون جدوى - لمعرفة التاريخ الصحيح لبدء تطوف الباجي بشكله الرسمي ، الا أن النصوص المتوفرة لا تبين تاريخا صحيحا .

ينقل صاحب الحلل السندسية شكيب ارسلان عن تكملة ابن الابار التي ورد فيها أن ابن هذيل (من أهالي قلعة أيوب يكنى أبا يونس يروى عن أبي الوليد الباجي سمع منه صحيح البخاري بسرقسطة في جيئته رسولا اليها

في رجب سنة (٣٧٠ هـ)) (١) ..

والظاهر من النص أن ذهابه الى سرقسطة كان خلال تطوافه الرسمي الذي جرى بعد معرفته بسرقسطة واقامته فيها قبل ذلك .

أورد القاضي عياض في ترتيب المدارك في آخر ترجمته للباجي ينقل قول أبي علي الجياني عن الباجي بأن :

((مولده ذي العقدة سنة ثلاث وأربع مائة وتوفي بالمرية سنة أربع وسبعين لسبع عشرة خلت من رجب .. وكان جاء الى المرية سفيرا بين رؤساء الاندلس يؤلفهم على نصرة الاسلام ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملك المغرب المرابطين على ذلك فتوفي قبل تمام غرضه .. رحمه الله)) .

ويستفاد من النص أن المتوكل بن الافطس أمير بطليوس تبنى دعوته ضمن الاطار التالي :

١- الدعوة الى توحيد الاندلس وجمع كلمة ملوكها .

٢- الاستعانة بالمرابطين بالمغرب لنصرة الاسلام في الاندلس .

ان دعوة الباجي الى توحيد الاندلس كانت سابقة لكتابة المتوكل الى يوسف بن تاشفين حتى جاء سقوط طليطلة سنة (٤٧٨ هـ) فأرسل بكتابه الى ابن تاشفين أمير المرابطين في المغرب الذي كان يتهيأ لدخول الاندلس بعد أن جاءته الوفود ووصلته الرسائل من دويلات الاندلس .

لقد كانت استجابة أهل الاندلس لدعوة الباجي بتوحيد الاندلس أسرع من حكامهم .. فقد كانت النفوس مهيئة للدفاع عن الارض والنفس واعادة مجد العرب في الاندلس بعد أن أصبحت مجزأة الى دويلات صغيرة هزيلة يأكل بعضها بعضا ، اضافة الى استعانة الملوك والامراء بالاعداء الاسبان لتثبيت عروشهم .

ان نص ابن الابار والقاضي عياض يشيران الى أن الباجي كان سفيرا متجولا بين ممالك الطوائف داعيا امراءها الى الوقوف صفا واحدا ونبذ منازعاتهم وخلافاتهم التي قد تؤدي بهم جميعا الى الهلاك والدمار ..

وهو أمر لا تنسجم تعاليمه مع الاسلام الذي يرفض التنازع والتباغض ويقرنه بالكفر :

((وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا

---

(١) - الصحيح سنة (٤٧٠ هـ) .

ان الله مع الصابريـــــــن)) (١) .

حل الباجي في بلنسية سنة (٤٦٨ هـ) يدرّس صحيح البخاري كما كان يفعل في سرقسطة، كما يدرّس العلوم التي مهر فيها، ويذكّر الناس بالواقع الاليم الذي صار اليه العرب في الاندلس ويدعوهم الى الوحدة والتماسك فيما بينهم وتفجير النبع الصافي في قلوبهم .. كان يفعل هذا في تدريسه أو يعمل على الحديث في مجالسه .. كلاما يقوم على منابع الشريعة الاسلامية من القران الكريم والسنة النبوية الشريفة .. وقد ورد عند ابن الابار في تكملته حين ترجم أبا مروان بن السماد المقري أنه ((من أهل بلنسية وصاحب الصلاة والخطبة فيها بعد تغلب الروم عليها، سمع من أبي الوليد الباجي صحيح البخاري سنة (٤٦٨ هـ)) .

وبالرغم من كل الصيحات التي اطلقها بعض علماء العرب آنذاك (٢) وعلى رأسهم الباجي، فان اغلب ملوك الطوائف بقوا في غيهم سادرين ففوتوا فرصة توحيد الاندلس للوقوف ضد الزحف الاسباني المتعاظم يوما بعد يوم .. حتى حلت المصيبة، ووقعت الكارثة، فسقطت طليطلة احدى قواعد الاندلس، ومراكز القوة فيها سنة (٤٧٨ هـ) .. وكان لسقوط طليطلة وقع أليم ومريع لا في الاندلس وحدها بل في سائر انحاء البلاد الاسلامية، وأظهرت هذه الحادثة بشكل واضح وجلي تقصير ملوك الطوائف ومسؤليتهم عنها نتيجة سياستهم المنحرفة .

((وجعل الله بين اولئك الامراء وملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات)) (٣) .

بعد سقوط طليطلة اعتقد ملك قشتالة، وقد لبسه ثوب الغرور وعلت مكانته بين ملوك وامراء النصرانية، وتسمى بالامبراطور أو بالامبراطور ذي الملتين الاسلامية والنصرانية .. واعتقد أن كافة أمراء الطوائف وملوكها قد أصبحوا طوع بنانه ورهن اشارته وأنه سوف يقضي عليهم جميعا

---

(١) - الاية (٤٦) من سورة الانفال .
(٢) - ابوعمر يوسف بن عبد البر (٣٦٨ - ٤٦٣ هـ) .
- ابوحفص عمر بن حسن الهوزني (٣٩٢ - ٤٦٠ هـ) .
- الفقيه ابن حزم .
- الفقيه الزاهد ابن أبي رندقة ابي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (٤٥١ - ٥٢٠ هـ) .
(٣) - من كتاب (اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام) للسان الدين ابن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال طباعة دار المكشوف (ص ٢٤٤) .

ويعيد مجد اسبانيا النصرانية ..

أمام هذه الظروف كلها لم يجد المتوكل بن الافطس صاحب بطليوس نجاحا مرضيا لدعوته واستجابة كافية من امراء الاندلس .. فتوجه بفكره ثم بفعله نحو المرابطين في المغرب ... فكاتب أميرهم يوسف بن تاشفين كذلك فعل أمير اشبيلية ابن عباد عندما صحا من غفلته وعرف أن قوة العرب تكمن بوحدتهم ضد العدو .

لقد كان لدعوة الباجي آثرها الفعال في قدوم المرابطين الى الاندلس للقاء القشتاليين في معركة (الزلاقة) الشهيرة التي انتصر فيها العرب بعد توحدهم على جيش ملك قشتالة الفنسو السادس وهزيمته شر هزيمة .

لم يحضر الباجي هذه المعركة العظيمة فقد توفاه الله الى رحمته بالمرية ليلة الخميس في (١٩ رجب عام ٤٧٤ - ١٠٨١م) ودفن في الرباط على ضفة البحر وصلى عليه ابنه قاسم ، الا أن دعوته لاقت طريقها الى نور الوجود .

* آثاره :

كان ابو الوليد الباجي فقيه الاندلس وامامها .. رحل الى الشرق في سبيل العلم ، ولما عاد قدم خير ما عنده من العلم والنور ... نظم الشعر ولكنه كان شعرا ذاتيا وجدانيا ((وذكر أن نظمه موقوف على ذاته ، غير مصروف الى رفث القول وبذاءاته)) (١) .

ومن أهم أعماله :

- السراج في علم الحجاج .
- احكام الاصول .
- اختلاف الموطآت .
- شرح فصول الاحكام وبيان ما مضى به العمل من الفقهاء والحكام .
- الحدود .
- الاشارة ، رسالة في شرح اصول الفقه .
- المنتقى ، في شرح موطأ مالك .
- شرح المدونة .

---

١) - خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني - قسم شعراء المغرب والاندلس ص ٤٧٢) تحقيق آذرناش آذرنوش .

- التعديل والتجريح لمن روى عنه البخاري في الصحيح .
- التسديد في اصول الدين .

اليقظة العربية في سورية في القرن التاسع عشر

الدكتورة
تغريد الهاشمي

خضعت سورية للاحتلال العثماني في مطلع القرن السادس عشر وقد ظلت لعدة قرون تابعة للامبراطورية العثمانية المترامية الاطراف، تعيش في عزلة عن العالم الخارجي، ويسيطر عليها الجهل والتخلف، لقد عمق الاحتلال العثماني لسورية الازمة العامة والدمار اللذين خلفهما الغزو المغولي للمنطقة العربية وأعاق التطور التاريخي لسورية وبقية البلدان العربية لعدة قرون .

لقد سيطر الجهل والامية على البلاد التي كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية التي بدأت تعاني أزمة خطيرة في أواخر القرن السابع عشر، هذه الازمة ترددصداها في كافة ميادين الحياة الاجتماعية فقد تدهور الاقتصاد ودب الفساد في أجهزة الدولة وخرجت الاقاليم عن طاعة الحكومة المركزيه وفقد الجيش المتفسخ قدرته القتالية وانحطت الثقافة وانطفأ التطور الثقافي لذلك وعلى استمرار قرون عديدة بقيت الثقافة في سورية والثقافة العربية الاسلامية بشكل عام في ركود وانحطاط تامين، ولم يلمع في هذه الفترة أي اسم ليطور أو على الاقل ليتابع الارث الفكري للفارابي والغزالي والرازي وابن سينا وابن خلدون والجاحظ وغيرهم فقد كان النظام التركي بتركيبته الاقطاعية عائقا ضد التطور .

ولكن مع مطلع القرن التاسع عشر طرأت تغيرات جذرية على حياة سورية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فكان من نتيجة تطور التجارة واتساع العلاقات مع الاوربيين ((زمن السلطان سليم الثالث)) وتطور وسائل الاتصال أن تقوضت عزلتها الاقتصادية والثقافية، وتطور سورية من "الناحيتين الاجتماعية والثقافية انما كان جزءا من حركة الاصلاح والتحدد التي شملت جميع انحاء السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر، لقد كانت الهزائم المتوالية التي أنزلتها الدول الاوربية بالسلطنة العثمانية منذ أواخر القرن السابع عشر قد أيقظت العثمانيين على تفوق أوربا الحربي وضرورة اعتماد أساليبها ثم جاءت حملة نابليون بونابرت على مصر عام (١٧٩٨)م فأقلقت حكام الاستانة أشد القلق وأثارت انجازات الغرب العلميه التي

أتى بها بونابرت الى مصر اهتمام قادة المسلمين لذلك عمد حكام الاستانة ومصر الى ادخال تغييرات مهمة في انظمة الحكم وفي مختلف وجوه الحياة العامة مما جر الى تطورات أخرى قلبت المجتمع الاسلامي رأسا على عقب فكان لابد وآن تشعر البلاد العثمانية الاخرى وفي مقدمتها سورية بوطأة ذلك .

ولايقاف الازمة التي بدأت تعاني منها الامبراطورية بعد حرب القرم (١٨٥٣ – ١٨٥٦م) – فرغم ان الدولة العثمانية خرجت منتصرة من الحرب الا أن ذلك لم يمنع الانحلال العميق في الامبراطورية والذي قاد الى سقوط هذه الامبراطورية – فقد ازداد تغلغل النفوذ الاوربي الاستعماري في الامبراطورية وأصبحت خاضعة أكثر للسيطرة السياسية والاقتصادية الاوربية لذلك ولتلافي انهيار الامبراطورية التام أعد ممثلو الاوساط البيروقراطية الاقطاعية الاكثر فطنة برنامج اصلاحات مقبلة اذ أدركوا ان الاصلاحات التي قام بها السلطان محمود الثاني كانت غير كافية لانقاذ الامبراطورية وان من الضروري تحقيق تحولات حاسمة ، وسميت الاصلاحات بالتنظيمات الخيرية او الاصلاحات الخيرية ،ولم تلق التنظيمات النجاح في أي حقل سوى حقل التعليم ففي عهد التنظيمات ازداد الاهتمام بتطوير التعليم وقد نادت التنظيمات بمبدأ التعليم الاجباري الالزامي وقد أدى هذ القانون الى نتائج ايجابية معروفة رغم أنه بقي كغيره حبرا على ورق اذ وضعت المدارس الملحقة بالمساجد تحت مراقبة الدولة وانشئت المدارس الثانوية العلمانية حيث كان يدرس التاريخ والجغرافية ومبادىء الحساب وأنشئت وزارة المعارف (١٨٤٧م) وهكذا فإن التنظيمات فتحت منفذاً لتطوير العناصر البورجوازية في البلاد الا انها كانت غير كافية لتجديد النظام الاجتماعي .

لذلك ونتيجة لهذه العوامل ولعوامل أخرى عاشت سورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نهضة أدبية واجتماعية وأول هذه العوامل كما ذكرنا حملة نابليون على مصر وادخاله الطباعة اليها اول مرة ،لقد كانت الحملة بمثابة طرقة شديدة على باب الشرق ليصحو من سباته ويطلع على منجزات الحضارة الاوربية فحدثت نهضة فكرية في مصر امتد تأثيرها الى سورية وباقي البلدان العربية ، فقد نشطت دار النشر التي اسسها محمد علي في مصر عام (١٨٢٠م) في بولاق في نشر الكتب ،فقد نشرت حتى عام (١٨٥٠م) ما ينوف على ثلاثمائة كتاب وأصدرت كتباً ذات قيمة علمية وأدبية وخصوصا

المطبوعة بالغة العربية والتي كانت تتسرب الى بلاد الشام مما ساهم في النهضة الفكرية فيها (١). كما أن هناك عاملا آخر ساهم في النهضة الفكرية والثقافية والاجتماعية في سورية في مطلع القرن التاسع عشر هو ازدياد العلاقات التجارية بين اوربا والشرق الاوسط في بلاد الشام، لقد ساعدت التجارتان الداخلية والخارجية على تكوين طبقة بورجوازية لعبت دوراً هاما في اليقظة الفكرية وفي زعزعة النظام الاقطاعي والقضاء على الاستعمار العثماني فيما بعد، ان تطور التجارة ونمو المدن التجارية كبيروت ودمشق وحلب قد ساعد على زيادة الازدهار والنفوذ اللذين حظيت بهما بعض الطوائف المسيحية في السلطنة ولاسيما في دمشق وحلب وبيروت.

لذلك كان لابد وأن يؤدي هذا الازدهار المادي الى انتشار العلم والتيقظ الفكري، ان متطلبات التطور البورجوازي قد أدت الى الاهتمام بمنجزات الفكر الغربي العلمية وبتأثير هذه العوامل بدأت نهضة فكرية في بداية القرن التاسع عشر روّادها من الذين ترعرعوا في بيوت تجارية اوعائلات تعالج أمور الفكر مثل العلماء كأمين الشميل (١٨٢٨– ١٨٩٧م) والشيخ يوسف الاسير (١٨١٥– ١٨٨٩م) الذي اشتغل بالتجارة وألف في التاريخ، وميخائيل مشاقه (١٨٠٠– ١٨٨٨م) من لبنان ولد من عائلة تجارية في صيدا وعمل استاذا في اللغة العربية وألف في الفقه، وسليم بُستُرس (١٨٣٩–١٨٨٣م) ولد في عائلة تجارية أيضا في لبنان وخدم في الجهاز المصري الذي أقامه ابراهيم باشا في سورية وألف كتابه الشهير (الاعيان في احوال سورية ولبنان) ونوفل نعمة الله الطرابلسي، والذي قام بدوره في تعجيل هذه النهضة الفكرية كان نهج الادارة المصرية خلال حكم لم يزد على عقد من الزمن (١٨٣١–١٨٤٠م) لقد قام الجهاز المصري بتطبيق الكثير من الاصلاحات في سورية ولاسيما في مجال التعليم، فقد أنشأ ابراهيم باشا المدارس في جميع المدن السورية كما أسس كليات كبيرة في دمشق وحلب وانطاكية واعتمد في ادارة شؤون البلاد على الطبقة المثقفة، وكان حريصا على غرس بذور الوعي القومي العربي في المدارس، ولم يكن غرض ابراهيم باشا في هذا العمل نشر التعليم بل كان يرمي في الوقت ذاته الى تسخير المدرسة لتكون آلة ينفذ بواسطتها نواياه

---

(١)– كمال صليبي، تاريخ لبنان الحديث، بيروت، ١٩٦٧، دار النهار للنشر.

السياسية وييسرعن طريقها حاجاته العسكرية كما يقول الدكتور الرفاعي ، ولاتفيدنا في هذا المجال الاهداف التي توخاها ابراهيم باشا من نشر التعليم ولكن ما يهمنا هو الاثر العميق الذي خلفه في سوريا فقد أيقظت حملة ابراهيم باشا على سوريا الروح العربية وشجعت الاهتمام بالتعليم ، لقد مهدت حكومة محمد علي باشا في سورية السبيل لنهضة علمية أدبية (لان تنظيماتها تطلبت اختيار المتنورين لادارة البلاد كما سهلت قدوم الافرنج من مرسلين وتجار وسواهم فأنشأوا المدارس)[2] . وخلال حكم ابراهيم باشا تدفق سيل البعثات التبشيريه ورغم ان المبشرين كانوا رسل الاستعمار في الشرق فقد ساعدوا مع ذلك على جذب المسيحيين المحليين لتعلم القراءة والكتابة وعلى انتشار اللغات الاوربية وكانت لهم (المبادرة في بعض الاحيان في مشروعات ثقافية وبخاصة في انشاء اول جمعية تنويرفي البلدان العربية) (٣) .

لقد نشطت هذه الارساليات في مجال التعليم فأنشأت شبكة واسعة من المدارس والمعاهد الدينية وأسست عدة مطابع كما أصدرت عددا من الكتب العربية ، وقد أوكلوا هذه المهمة الى المنورين بطرس البستاني وناصيف اليازجي غير أن جميع هذه البعثات كان لها دور سلبي في نهاية المطاف لدورها المشبوه الذي قامت به في تزكية الخلافات والنعرات الطائفية ظهرت نتيجتها في الفتنة الطائفية التي اشتعلت في لبنان منذ عام (١٨٤٠م) حتى كانت ذروتها عام (١٨٦٠م) كما ساهمت في ازدياد تغلغل النفوذ الاجنبي في الشرق .

في هذه الفترة نشأت الصحافة في سورية على أيدي السوريين في بيروت بعد أن انتشرت في مصر والاستانة وظهر الكثير من الصحفيين كرزق الله حسون واسكندر شلهوب واحمد فارس الشدياق والبستاني وغيرهم من الذين لعبوا دوراهاما في النهضة بما كانوا يبثونه من آراء حرة في صحفهما والتي كانت

---

(٢)ـ لينين، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسورية ومصر ترجمة بشير السباعي ،بيروت (١٩٧٨م ص (٤٨) .

(٣)ـ داود بركات ـ البطل الفاتح ابراهيم باشا ١٩٣٤، ص (٢١٣) .

صدىً خافتاً لبعض المذاهب الجديدة السائدة في آوربا والتي انبثقت عن مبادىء الثورة الفرنسية ،هذه العوامل مجتمعة خلقت التربة الملائمة ليقظة فكرية تجلت في دراسة اللغة العربية واحيائها وفي بحث التاريخ وتحليل اوضاع البلاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ،لقد كانت النهضة الفكرية تعني احياء الحياة الثقافية بعد طول رقاد وقد سلكت تطور النهضة العربية طريقه في اتجاهين رئيسين تداخلا فيما بينهما تداخلا وثيقا فقد لجأ المفكرون العرب في آن واحد الى ثروة ماضيهم الثقافي الذي يرجع الى العصور الوسطى والى المدنية البورجوازية للغرب المعاصرة لهم فبرزت امام المفكرين العرب بروزا حاداً مسألة امكانية التوفيق بين الثقافتين الشرقية والاوربية .

وقد نشطت حركة التشيع للقديم واتخذت هذه الحركة صورة يقظة عربية قومية كبيرة و اقترنت اذ ذاك باسماء رجال كالشيخ ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم الذي وقف حياته على احياء اللغة العربية والادب العربي كما ساعد في تأليف الكتب المدرسية (كما رأينا سابقا) والتي تبحث في علم اللغة العربية والقواعد والمنطق والخطابة والعروض ،وكان هناك صراع بين التيارين القديم والجديد فقد دافع بعضهم عن التراث كمطهّر من كل سوء بينما أصبح البعض الاخر دعاةً متطرفين للغرب متخلين عن كل ما يربطهم بالتراث العربي تقريبا كشبلي شميل، بينما نادى فريق ثالث بالتوفيق بين منجزات الثقافتين الشرقية والغربية . ومن أبرز ممثلي هذا التيار بطرس البستاني الذي يعد أكبر ايديولوجي البورجوازية السورية في العقد السابع من القرن التاسع عشر والذي عمل كثيراً على احياء اللغة العربية الفصحى التي كانت في حالة انحطاط خطر كما عمل على نشر المعارف الاوربية بين العرب المثقفين وكان مثقفا يجيد عدة لغات ومعلما وكاتبا اجتماعيا لا يكل ، اذ أنشأ في بيروت أول مدرسة عربية وطنية (١٨٦٣م) ونشر باللغة العربية ثلاث مجلات عربية اسبوعية (نفير سورية) (١٨٦٠م) و(الجنة) و(الجنان) (١٨٧٠م) كما صنف معجما باللغة العربية وسبعة اجزاء من الموسوعة العربية (واصل سليمان البستاني ابن خاله) نشر الموسوعة العربية بعد وفاته كما ترجم الالياذة لهوميروس الى العربية ،لقد ندد على صفحات مجلاته بالتعصب الديني والخرافات وفساد السلطات التركية وباستبعاد المرآة فوضعت هذه المجلات لاول مرة في متناول القراء السوريين القضايا السياسية والثقافية والادبية .

لقدكان المنورون العرب كبطرس البستاني وناصيف اليازجي واديب اسحق وغيرهم يهدفون الى نشرالتعليم والمعارف العلمية والتقنية اعتقادا منهم ان التنويرهومحرك التقدم الاجتماعي بيدأن التنويرلم يقتصرعلى ذلك فقدتحول في سورية الى حركة فكرية موجهة ضدالمؤسسات والرواسب والتقاليد الاقطاعية المعرقلة للتقدم وهوماكان يخدم من الناحية الموضوعية قضية تدعيم العلاقات الاجتماعية البورجوازية ، ان المفكرين العرب في دعوتهم الى تغييركافة مظاهرالحياة على اساس بورجوازي قدوجهوا النقد للتخلف والاقطاعية وللمؤسسات الاقطاعية كلها لاالسياسية وحدها لذلك تصدرت مشكلة الانسان بوصفه فردا مفيداً من الناحية الاجتماعية مركز اهتمامهم لذلك اكتسبت مهام تنويرالشعب أهمية من الدرجة الاولى ، وسائل الاخلاق التي حلت في روح الايديولوجية البورجوازية ومشكلة تحريرالعقل الانساني من نيرالعقائد الجامدة (١) .

ويمكننا أن نميزمرحلة التنويرالعربي في اطرالنهضة تمييزا خاصا فقد امتدت هذه المرحلة في سوريا من الخمسينات الى اوائل الثمانينات أي منذ انشاء اول جمعية تنويرية في سورية (١٨٤٧م) الى بداية حكم السلطان عبد الحميدالثاني عندما انتهى الامرالى نشاط المنورين في البلادالى مايشبه العدم ، أما الافكارالتنويرية فقد أصبحت جزءا لايتجزأ من مفاهيم الحركة القومية التحررية التي ولدت مع بداية الربع الاخيرمن القرن الماضي والتي احتلت مع بداية القرن العشرين مكانة رئيسية في حياة العرب الايديولوجية (٢) .

والى جانب التنويروهو الاتجاه العلماني في النهضة ،ظهرفي الربع الاخيرمن القرن الماضي إتجاه ديني هو الاصلاح الاسلامي وتعتبرهذه الظاهرة المعقدة اتجاها عقلانيا في النظرالى الاسلام في فترة تكون البورجوازية العربية وفي ظروف التوسع الاستعماري الاوربي في الشرق ،لقد اكد المصلحون آن الدين الاسلامي بعد اصلاحه قادرعلى تأمين التطورالتقدمي للمجتمع بينماكان المنورون لايرون امكانية لحدوث هذا التحول الاعلى أساس العقل وبمساعدة المعارف والتنوير ،لقد تطورالفكر الاجتماعي السياسي في ارتباط وثيق بالتطورات والافكار الاسلامية التقليديه ،ولعب

---

(١)ـ لينين ـ المصدرالسابق (ص ٤٣ ـ ٤٤) .
(٢)ـ المصدرالسابق (ص ٤٥) .

الاسلام دورا هاما في الحياة الاجتماعية ـ السياسية اذ كان يعني بالنسبة لهم قوة قادرة على انقاذ بلادهم من خطر الاستعمار الاوربي وضمان التقدم الشامل وكان ذلك كله في الظرف التاريخي للثلث الاخير من القرن الماضي بمثابة مقدمة لتطور اتجاهات فريدة كنزعة الجامعة الاسلامية والاصلاح الاسلامي (١) . لقد كان من الطبيعي أن يتجه عدد من الرواد اتجاها فكريا يكون محور الاسلام ، فالاسلام دين ودنيا لذلك اعتقد هؤلاء الرواد أن اصلاح السلطنة يكون باصلاح الدين الاسلامي والمسلمين وكان الافغاني ومحمد عبده من باعثي الاتجاه الاصلاحي في البلدان العربية وكان القصد منه بعث نهضة اسلامية تشبه الى حد بعيد النهضة التي بعثها لوثر في أوربا وتقوم على التوفيق بين الدين الاسلامي والعلم الحديث وقد تأثر أغلب المفكرين السوريين من المسلمين بهذا الاتجاه وان اختلفوا بموقفهم من الخلافة العثمانية والرابطة العثمانية والخلافة العربية ومن أقوى ممثلي هذا الاتجاه رفيق العظم ومحمد كرد علي .

ويمكننا أن نميز ثلاثة اتجاهات في الفكر الاجتماعي والسياسي لدى رواد الفكر العربي :

١- الاتجاه الاسلامي الاصلاحي الداعي الى الخلافة الاسلامية والرابطة العثمانية والذي تزعمه رفيق العظم ومحمد كرد علي .
٢- الاتجاه الاسلامي الاصلاحي الداعي الى الرابطة الاسلامية والخلافة العربية ويمثله عبد الرحمن الكواكبي .
٣- الاتجاه القومي العربي الخالص الذي يعود الى الطوائف المسيحية العربية والقائل بأمة عربية ووحدة عربية على أساس علماني وقومي والداعي الى استقلالها بالقوة وبمساعدة فرنسا وانكلترا ويمثله (نجيب عزوري) ويمثل آراء البورجوازية السورية واللبنانية وقد لعب في الاصل مسيحيون درسوا في المدارس البروتستانتية دورا هاما في بعث هذا الاتجاه وعلى رأسهم بطرس البستاني وجرجي زيدان .

هذه هي أهم الاتجاهات في الفكر الاجتماعي والسياسي لتلك الفترة وهناك اتجاهات أخرى ولكنها لم تنتشر بشكل واسع ولم تؤثر كثيرا في

(١) ـ لينين ـ المصدر مذكور (ص ٤٥ ـ ٤٦) .

الفكر العربي في عصر النهضة كالاتجاه الاسلامي الرجعي الذي كان يدعو الى الخلافة العثمانية ويمثله (ابو الهدى الصيادي وعزة باشا العابد) وكان اتباع هذا الاتجاه يمثلون الطبقة الارستقراطية والروحية والتي كانت تدعم الخلافة العثمانية لان في ذلك تأمين مصالحها ثم الاتجاه العربي الاسلامي القائل بقومية عربية اسلامية والوحيد الذي دعا اليه جمال الدين القاسمي .

لقد كان ممثلو الاتجاه الاول حريصين على بقاء الدولة العثمانية لان في ذلك حماية لمصالحهم فقد كان رفيق العظم مثلا من الطبقة الارستقراطية الاقطاعية لذلك مال الى الدفاع عن حماية الدولة العثمانية والجامعة الاسلامية ، كان رفيق من مؤيدي الرابطة العثمانية التي توحد بين الاتراك والعرب في ظل الديمقراطية التي يراها اساس هذه الوحدة .

ومن المفكرين الاخرين الذين تبنوا الافكار الاصلاحية كان عبد القادر المغربي (١٨٦٧-١٩٥٦م) الذي كتب في عدد من الصحف كالظاهر واللواء وجريدة المؤيد وبعض صحف بيروت فدعا الى الاصلاح السياسي والديني والاجتماعي والاقتصادي وهي افكار اصلاحية وتعبر عن أماني البورجوازية العربية والاسلامية الصاعدة في أيامهم لذلك كانت دعوة الى تكييف الاسلام مع العلم الحديث والاوضاع الحديثة الرأسمالية وكانت تسعى لتشجيع البورجوازية الناشئة ولتسويغ وجودها وشق الطريق لها وفي هذا خطوة تقدمية بالنسبة للمدافعين عن الاقطاعية وأوضاعها المزرية (٤) .

الاتجاه القومي العربي :

بصورة عامة لم تعرف المرحلة التي ندرسها أفكاراً واضحة وصريحة في القومية العربية والامة العربية واذا استثنينا نجيب عزوري فلا نجد مؤلفا آخر أبرز فكرة القومية العربية بشكل علمي ومنهجي وما نلاحظه خارج كتاب عزوري من فكر عروبي هي أفكار وطنية عربية تجلت في تيارين الاول علماني قاده مسيحيون لبنانيون أمثال :بطرس البستاني وابراهيم اليازجي وفرح انطون والثاني تيار ديني اصلاحي يدعو :

١- اما الى اعادة الخلافة الاسلامية الى العرب (الكواكبي) .
٢- واما الى أمة عربية اسلامية دعا اليها جمال الدين الافغاني .

لقد دعا نجيب عزوري الى استقلال البلاد العربية استقلالاً تاما عن الدولة

---

(٤) - منير موسى - مصدر مذكور (ص ١٣) .

العثمانية وكان يهاجم الاتراك ويحملهم مسؤولية خراب العرب وتأخرهم ولولاهم لكان العرب في عداد أكثر الامم تمدنا في العالم وكان يرى أن سبيل الخلاص الوحيد لدى العرب هو الاستقلال التام وكان يرى أن السبيل لذلك هو بالعمل من الداخل عن طريق الثورة المكشوفة وبالعمل من الخارج بمساعدة الدولة الاوربية (انكلترا وفرنسا) . (الاستقلال العربي(٣).

أما الكواكبي فقد دعا الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي عبر الاصلاح الديني وبذلك لم يخرج عن الاطار الاسلامي ومن ملامح عظمة هذا الكاتب أنه رأى حقيقة الاستبداد في الولايات العثمانية ولهذا أدخل في انواع الاستبداد أنواع الاستعمار، وأكد على العامل الديني ورآه حاسما فكتب في طبائع الاستبداد (تضافرت آراء اكثر المحررين السياسيين من الافرنج على ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني والبعض القليل منهم يقول ان لم يكن هناك توليد فلا شك انهما أخوان اوصنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون بتذليل الانسان) طبائع الاستبداد (ص ١٢) وفي كتابه أم القرى الذي صاغه على شكل مؤتمر حضره المسلمون من مختلف أقطارهم (الشامي والمصري والفارسي و الافغاني والسيلاني والصيني) وفي كتابه هذا لم يعمق الكواكبي الملامح القومية ولم يؤكد الانتماء القومي بل اهتم بأن يكون المؤتمر تمثيليا لتجمعات المسلمين ورغم ان الكواكبي في دعوته الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي عبر الاصلاح الديني لم يخرج عن الاطار الاسلامي فقد اتجه اتجاها عربيا وبذلك أعرب عن الحنين القومي العربي النامي في سوريا ودعا الى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية على اعتبار أن عرب الجزيرة هم بناة الجامعة الاسلامية وهم أقوى المسلمين عصبة ولغتهم العربية أغنى لغات المسلمين مصونة بالقرآن ولذلك فهي لغة كافة المسلمين المشتركة (كتاب ام القرى ص ١٦٠-١٧٢) .

واتجاهه العربي واضح من دعوته القومية المتنورة فقد كتب في طبائع الاستبداد ((ياقوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين)) وقد طرح الكواكبي المسألة القومية في كتابه طبائع الاستبداد بتساؤله ماهي الامة ؟ واستطراده ((هل هي ركام مخلوقات فانية أو جمعية عبيد لمالك ....)) .

ورغم أن الكواكبي طرح المسألة هنا بصيغة الاستفهام وليس بصيغة التقرير الا أننا نرى أنه جعل كلمة الجنس واللغة والوطن والحقوق المشتركة روابط الامة . لقد فرضت حقائق الحياة على الكواكبي هذا التوجه على الرغم من أنه انطلق من التيار الاصلاحي الاسلامي ومن المحتمل أن عددا من العوامل أوحت اليه بالتفكير القومي العربي على الرغم من عمق توجهه الاسلامي ومن أبرز هذه العوامل بروز الوعي القومي العربي في سورية اثر الادارة المصرية والتطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي واكبته واستمرت بعده وقد ساعد على اتساع نمو هذا الوعي الاستبداد العثماني وظهور القومية التركية في مقر السلطنة العثمانية على صورة قومية مستعلية تتسم ببعض الملامح العنصرية وتعرب عنها بتعداد مثالب العرب وقد ايقظت المذابح الطائفية في عام (١٨٦٠) الكواكبي على حقيقة دسائس العثمانيين والاجانب ودفعته الى تحسس طريقه نحو القومية ويقظته القومية دفعته الى محاربة المركزية العثمانية والى الدعوة الى اللامركزية .

وبالرغم من النواقص في عقائد الكواكبي كانت نشاطات هذا المفكر بلاريب ذات مدلول تقدمي وكانت بمثابة اعداد ايديولوجي للنهضة الوطنية وأحد العوامل التي سببت نهوض الحركة الوطنية التحررية في سورية والاقطار العربية (١) .

أما أديب اسحاق (١٨٥٦-١٨٨٥)م فقد هاجر الى مصر هربا من الاستبداد الحميدي حيث أنشأ هناك صحيفتين (مصر) و(التجارة) وقد وصل في دعوته الى الثورة على الاستبداد والى القومية العربية وهو من الكتاب الذين استوعبوا مفاهيم الثورة البورجوازية الفرنسية فكانت حافزاً لهم على نشاطهم فقد دعا الى الحرية والمساواة ولكنه لم يوفق في فهم ملامح الامة حين قال (ثبت أن الامة هي الجماعة من الناس تتجنس جنسا واحدا أي تتسم بسمة واحدة على اختلاف اصولها ولغاتها) (٢) . فهو باسقاطه اللغة يوحي بأنه خلط بين الامة والدولة ، الا أنه لم يدرك مقومات الامة علميا فقد انطلق في دعوته من تصوره وجود أمة عربية واحدة في اقاليم جغرافية محددة وهو أول كاتب عربي معاصر حدد جغرافية العالم العربي وأهمية تقديره الجغرافي الدقيق في قوميته في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر

---

١) - لوتسكي (ص ٢٨٨) .
٢) - رئيف فوزي ، الفكر العربي الحديث ، دار الكسوة ١٩٦٣ - ص ١٣٢-١٦٨) .

حين كانت الفكرة القومية اما غير واضحة بسبب التيار الاسلامي او اقليمية بسبب الظروف السياسية المتباينة ، يمثل ابراهيم اليازجي مكانة مرموقة بين صفوف هؤلاء الرواد وأهميته في قصائده العربية التي كان يدعو فيها العرب الى أن ينتبهوا ويستفيقوا وينهضوا الامرهم ويذكرهم بتاريخهم المجيد وبمفاخر أمتهم العربية .

لقد كان من الطبيعي أن يهتم هؤلاء المفكرون بالتاريخ العربي القديم لاسيما بعد أن وعى العرب وجودهم كأمة تختلف عن الاتراك وبعد ظهور القومية التركية كقومية مستعلية و احتقارها للقوميات الاخرى الخاضعة لها . كل ذلك استنفر هؤلاء المفكرين فعادوا الى التاريخ القديم يستلهمون منه أسس نهضتهم ، وهذا الاهتمام باللغة العربية والتاريخ العربي يعود الى بذور عربية جنينية كانت قد بدأت تعتمل في المجتمع العربي ، وعامل التاريخ ظهر في انتاج الكثيرين من هؤلاء الرواد الذين نشطوا في احياء اللغة العربية والتراث العربي وفي الكتابة عن التاريخ الاسلامي فقد ألف اليازجي كتبا كثيرة في النحو والبلاغة والمنطق وكان مهتما باللغة العربية والثقافة العربية وكان يدعو جميع العرب من مسلمين ومسيحيين الى العودة الى تراثهم العربي ليشيدوا على اسسه مستقبلهم وليزيحوا التراب عن تراثنا الفكري ويظهروا عظمته وتألقه ويقدموا روائعه الى القارئ العربي .

وكان هناك صراع يدور بين التيار الاسلامي والتيار القومي وبين ممثلي هذين الاتجاهين ، لقد كان هناك تناقض في تفكير بعض المفكرين الذين وعوا القضية القومية والرابطة العربية ولكنهم يرفضون الاصطدام مع الاتراك باعتبارهم أقوى شعوب الاسلام او لخوفهم من مطامع الدول الاوربية ، وباعتقادنا أن القوميين العرب في مطلع القرن العشرين الذين عالجوا القضية القومية كانوا يصدرون عن مفاهيم عملية تأخذ الوضع الراهن بالحسبان والذي خلق الظروف الملائمة للاصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في اطار السلطنة نتيجة لتطور البورجوازية العربية تطوراً بدائيا .

ولكن بنهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حصلت تطورات عديدة في السلطنة جعلت الفكرة الاسلامية تتراجع لتحل الفكرة القومية في صدارة التفكير العربي ففي المجال الاجتماعي – الاقتصادي نشأت وتوطدت

عناصر نمط الرأسمالية ومن النواحي السياسية والايديولوجية والثقافية نرى صياغة لايديولوجية بورجوازية وتطوراً للوعي القومي ، وقد ساعدت بعض الظروف على نشوء أفكار جديدة تعكس العلاقات الاجتماعية والسياسية الجديدة فتوسيع العلاقات مع أوربا ونمو التجارة مع الاوربيين قد أدّى منذ زمن بعيد الى طرح الحاجة الى تشريع جديد يرتكز على اساس علماني ،ومع احتدام أزمة النظام العسكري - الاقطاعي ازدادت استقلالية الحكام الاقطاعيين ولم يعد بوسع الحكومة المركزية السيطرة على الوضع في السلطنة وازداد الحكم المطلق لولاة السلطان ، ولم يكن بوسع العلاقات الجديدة التي نشأت بين مناطق معينة من الامبراطورية العثمانية والسلطة المركزية الآن تترك آثاراً معينة في وعي الناس فقد خبت في أعين العرب هالة الزعيم الروحي التي كان السلطان محاطاً بها ،يضاف الى ذلك الثورات القومية في البلقان وتحرر شعوب البلقان من السيطرة العثمانية واقامة بعضها كاليونان مثلاً دولها القومية كل ذلك لعب دوراً هاماً في اليقظة القومية العربية وقد عبرت هذه اليقظة عن نفسها بالاحزاب والجمعيات التي أسستها والتي لعبت دوراً كبيراً في التمهيد للانفصال عن الاتراك ، وفي عام (١٨٦٧م) تألفت في القاهرة جمعية الشورى العثمانية بقيادة محمد رفيق العظم ومحمد رشيد رضا من اجل الاصلاحات الدستورية ،ولكن بعد انتصار الثورة البورجوازية في تركيا في (١٠تموز ١٩٠٨م) ووصول جمعية الاتحاد والترقي الحكم واتباعها سياسة التتريك اضطر كثير من القوميين الى الاتجاه نحو التنظيم القومي المستقل الذي جسد الفكر القومي العربي الشامي وقد شددت سياسة التعصب القومي التركي الاتجاه العربي القومي والذي كان موجوداً قبل الانقلاب ، وفي عام (١٩٠٨م) أسس بعض سياسي العرب في الاستانة جمعية الاخاء العربي العثماني وانطلق قادتها من مبدأ الجامعة العثمانية واعترفوا بوجود الامة العثمانية وكان همها المحافظة على الدستور وكانت تطالب بالمساواة بين القوميات العثمانية ولكنها لم تدع الى أي نوع من الاستقلال العربي عن الدولة العثمانية (١) ،وبعد حل جمعية الاخاء العربي العثماني وجدت اليقظة العربية منفذاً جديداً لها بتأسيس المنتدى الأدبي وكان من مؤسسيه عبد الحميد الزهراوي ورفيق رزق سلوم

---

١) - لوتسكي - ص ٣٩٩ - ٤٠٠) .

ورفيق العظم ورشيدرضاوقد نشط الطلاب في القاء المحاضرات بهدف تعميق اليقظة القومية العربية وأشرفوا على اصدار صحيفة لسان العرب والبارزفي الفكر القومي الذي نشره المنتدى وشاع في المحافل القومية صدوره عن القاعدة العلمانية المتحررة من التيار الاسلامي القومي وهذا يصور مدى نمو الفكرة القومية ومع هذا تمسك المنتدى الادبي بالرابطة العثمانية لانه كان يرى أن ذلك لايتعارض مع احتفاظ كل قومية بكيانها .

وفي نهاية عام (١٩٠٩م) أسس عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي جمعية سرية سياسية كانت تعمل بموازاة المنظمة العلنية وعرفت باسم القحطانية وكان جل اعضائها من الضباط العرب في الجيش العثماني وتنكر اعضاء الجمعية لمبادئ الجامعة العثمانية التي تبنتها جمعية الاخاء العربي العثماني واعتبروا العرب أمة قائمة بذاتها وكانوا يدعون الى اعادة تنظيم الامبراطورية العثمانية كدولة مؤلفة من الامتين التركية والعربية على غرار النمسا هنغاريا على أن يكون السلطان التركي في الوقت ذاته ملكا للعرب وان تكون الولايات العربية مملكة مستقلة في نطاق الامبراطورية العثمانية لها برلمان خاص وحكومة محلية ولغة رسمية هي اللغة العربية (١) . وكان مركز الجمعية السرية في القسطنطينية ولها فروع في خمس مدن أخرى وتبين أنه كان بين أعضائها عملاء مدسوسون ولذا اتخذ قرار بحل الجمعية قبل أن تنتهي الامور الى مرحلة الاضطهادات ، ثم اسس القوميون العرب فيما بعد سراً كذلك جمعية العهد واعتمد برنامجهم في الحالتين على الاعتراف بوجود القوميتين العربية والتركية ودعوا الى دولة فيدرالية .

الجمعية العربية الفتاة : ثم تبلورت الفكرة القومية العربية في ظروف الاضطهاد القومي وسياسة التتريك وتأسست في عام (١٩١١) جمعية العربية الفتاة وقد أسسها فريق من الطلاب من أعضاء المنتدى الادبي الذين ذهبوا الى باريس لمواصلة دراستهم وكان هدفها (العمل للنهوض بالامة العربية الى مصاف الامم الحية وعدم الانفصال عن الترك...) وقد لعبت الجمعية دوراهامافي تاريخ الحركة العربية الوطنية التحررية ، وفي بادئ

---

١) ـ لوتسكي ـ مصدر مذكور (ص ٤٠٣) .

الامر تكلم أعضاء الجمعية بصورة عامة عن بعث الشعب العربي وأيدوا مبدأ لامركزية الامبراطورية التركية ومن ثم طالبوا باستقلال الاقطار العربية وكافحوا من أجل تحرر العرب من السيطرة التركية ، وكانت الجمعية العربية الفتاة منظمة سرية للغاية وكان أعضاؤها ينقسمون الى ثلاث مجموعات :

١- المجموعة الادارية وهي مؤلفة من ستة قادة .

٢- مجموعة الاعضاء العاملين وهم الذين اجتازوا مرحلة الاختبار التمهيدية .

٣- مجموعة من المرشحين الذين كانوا يمرون بمرحلة الاختبار وهم لايعرف بعضهم بعضا ، وكانت تستعمل الرموز السرية والمصطلحات الماسونية (٢) ، وقد خاض أعضاء الجمعية نضالا سياسيا عنيفا عند عودتهم الى أوطانهم وقد انضم اليها الكثير من المثقفين والوطنيين بعد أن انتقل مركزها الى بيروت عام (١٩١٣م) ثم الى دمشق (١٩١٤م) فبلغ عدد اعضائها (١٨٤) عضوا منهم شكري القوتلي والملك فيصل .

لقد كانت الظروف الدولية تسير في صالح الحركة الوطنية التحررية للاقطار العربية فاستقلال الشعوب اليونانية والسلافية في البلقان من النير التركي وفشل الاتراك في حربهم ضد ايطاليا (١٩١١-١٩١٢م) ثم تحالف دول البلقان (١٩١٢-١٩١٣م) وانتصارهم ضد الاتراك ، كان لهذه الاحداث تأثير كبير على الكفاح التحرري للشعوب المضطهدة فعمت الولايات العربية اتجاهات ثورية وتألقت أحزاب سياسية وجمعيات ثورية جديدة وفي كانون الاول ١٩١٢م) أي في غضون الحرب البلقانية الاولى ألف القوميون العرب في القاهرة برئاسة محمد رفيق العظم حزب (اللامركزية الادارية العثمانية) وكانت له فروع في جميع المدن السورية والفلسطينية وفي أرجاء كثيرة من العراق وبلغ عدد أعضائه (١٠) آلاف شخص وكان رفيق العظم رئيسه كاتبا سياسيا وفيلسوفا وعالما اجتماعيا وكان عبد الحميد الزهراوي نائب رئيس الحزب من الكتاب الاجتماعيين المرموقين ونائبا في البرلمان التركي بالاضافة الى عدد آخر من رواد الفكر العربي والقومية العربية كرفيق رزق سلوم ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وشبلي شميل وغيرهم ، وقد بذل الحزب الجهود لمساهمة العرب القصوى في حكومة الدولة العثمانية وفي مجلس الشيوخ

---

(٢)- لوتسكي : المصدر السابق .

والنواب وطالب بالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في الدولة وتعليمها في المدارس العربية بصورة الزامية كما طالب بالاستقلال الذاتي للولايات العربية مع منح هذه الاقاليم المستقلة ذاتيا صلاحيات واسعة (١) ٠

وازداد تبلور الفكر العربي سياسيا وتنظيميا في اكثر من مظهر وشكل وفي (٨ آب ١٩١٢م) نشرت صحيفة الاهرام أنباء مؤتمر عقده من أطلقوا على أنفسهم (فتيان قحطان) ولخصت الصحيفة مطالبهم بأن تعتبرهم الدولة العثمانية أمة حية ذات حقوق وأن تعتبر لسانهم رسميا وأن تجعل زمام الوظائف في البلاد العربية بأيديهم وأن تحصر خدمة جنود العرب وضباطهم وأن تعمل على توسيع سلطة المجالس المحلية وأن تجعل للقبائل كافة الحقوق كغيرهم من الحضر في انتخاب النواب ولكن هذه الحركة أكثر من صرخة قومية كما يقول الدكتور توما تردد صداها ومضت دون أن تتخذ شكلا تنظيميا ٠

وجرى التبلور الجدي في الفكر القومي العربي والذي ترك آثره في التطور اللاحق في المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس عام (١٩١٣) والذي عقده أعضاء جمعية العربية الفتاة الذين قاموا بمبادرة لتوحيد كافة القوى الوطنية بغية ممارسة ضغط مشترك على الحكومة التركية وفي (٤ نيسان) قدموا اقتراحا الى حزب اللامركزية بعقد أول مؤتمر عربي في باريس فقبل الاقتراح وشرع حزب اللامركزية بالتهيؤ الى المؤتمر وحددوا أبحاث المؤتمر :

١- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال ٠
٢- حقوق العرب في المملكة العثمانية ٠
٣- ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية ٠
٤- المهاجرة من سورية واليها ٠

ونظرت حكومة فرنسا الى عقد المؤتمر بعين العطف الشديد لانه ينسجم وتلك المطاليب التي تيسر تغلغل الفرنسيين في سوريا ولبنان ،ويسرت الحكومة الفرنسية للقوميين العرب محلا لعقد المؤتمر وضمنت نشر موادة ٠

وقد ترأس عبد الحميد الزهراوي المؤتمر الذي انعقد في حزيران (١٩١٣م) وجرت جلساته الرسمية بين (١٨-٢٣) منه وحضره (٢٤) مندوبا وما يربو على (٢٠٠) ضيف وقد أبرز رئيس المؤتمر الوحدة القومية التي تربط بين ابناء

---

(١) - اميل توما : تاريخ مسيرة الشعوب العربية الحديث (ص ١٣٩) ٠

الشعب العربي بغض النظر عن مفاهيم السياسية وأما عن الرابطة الدينية فقد عجزت دائما عن ايجاد الوحدة السياسية ، وأكد القوميون العرب ضرورة الاصلاح وحددوا مطالبهم باللامركزية حتى يتمكنوا من الحصول على تمثيل الصحيح في مجلس الاعيان والنواب على اعتبارهم نصف السكان في الدولة ويسرعوا في تطوير مرافق بلادهم الاقتصادية وأن ينعشوا ثقافتهم القومية (٢) .

واتخذ المؤتمر قرارات نطقت بمطالب العرب القومية وتتلخص هذه المطالب بالاصلاحات وحق العرب في التمتع بحقوقهم السياسية بالاشتراك في الادارة المركزية فعلا وان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لامركزية وأن تعتبر اللغة العربية لغة رسمية في مجلس النواب وفي الولايات العربية وباسم حزب تركيا الفتاة وقع مدحت شكري اتفاقية مع الزهراوي رئيس المؤتمر العربي وتعهد أعضاء تركيا الفتاة بموجبها بتنفيذ جميع قرارات المؤتمر العربي الاول ولكن لم ينفذ الاتراك شيئا من وعودهم واكتفوا بتوزيع الرتب والمداليات على شخصيات عربية مختلفة وبتعيين خمسة من العرب اعضاء في مجلس الشيوخ وباستثناء الزهراوي كان هؤلاء الاعضاء من الاقطاعيين والتجار العرب ، ولم تكن لهم أية صلة بالحركة القومية ولم ينفذ شيء من الاصلاحات وبقي الحال كما كان عليه سابقا .

وقبيل عام (١٩١٤م) تخلت أغلبية المنظمات العربية السياسية والجمعيات السرية عن التكتيك التوفيقي وسلكت طريق الانتفاضة المسلحة وقد بددت السياسة الشوفينية التي اتبعها اعضاء تركيا الفتاة آخر الاوهام حول امكانية التوصل الى أي نوع من الاتفاق .

---

(٢) ـ المؤتمر العربي (ص ٧٢ ـ ٧٣) .

متحف أفاميا

الأستاذ
عبد الرزاق زقزوق

* مقدمـــة تاريخيـــة :

تقع افامية فوق هضبة قليلة الارتفاع ،تشرف غربا على وادي الغاب وتبعد عن مدينة حماة حوالي(٦٠)كم الى الشمال الغربي ،كما تبعد عن حلب (١٣٠)كم وعن اللاذقية (١٢٥)كم الى الجنوب الشرقي منها •

لعبت أفامية دوراهامافي التاريخ ولم يبق منها حاليا سوى قرية محصورة بين اسوار القلعة القديمة تعرف (بقلعة المضيق) ،وقد قامت بعثة اثرية بلجيكية بأول حفريات خلال اعوام (١٩٢٨-١٩٣٠-١٩٣٨-١٩٤٧-) واستأنفت هذه التنقيبات منذ عام (١٩٦٥) مركز الابحاث الاثري البلجيكي بالاشتراك مع المديرية العامة للاثار والمتاحف التي اضطلعت ايضا بمهمة الترميم في اجزاء من الشارع الرئيسي (الصورة رقم١) والجامع الاثري والخان الذي حولته الى متحف رائع لهذا الموقع الهام •

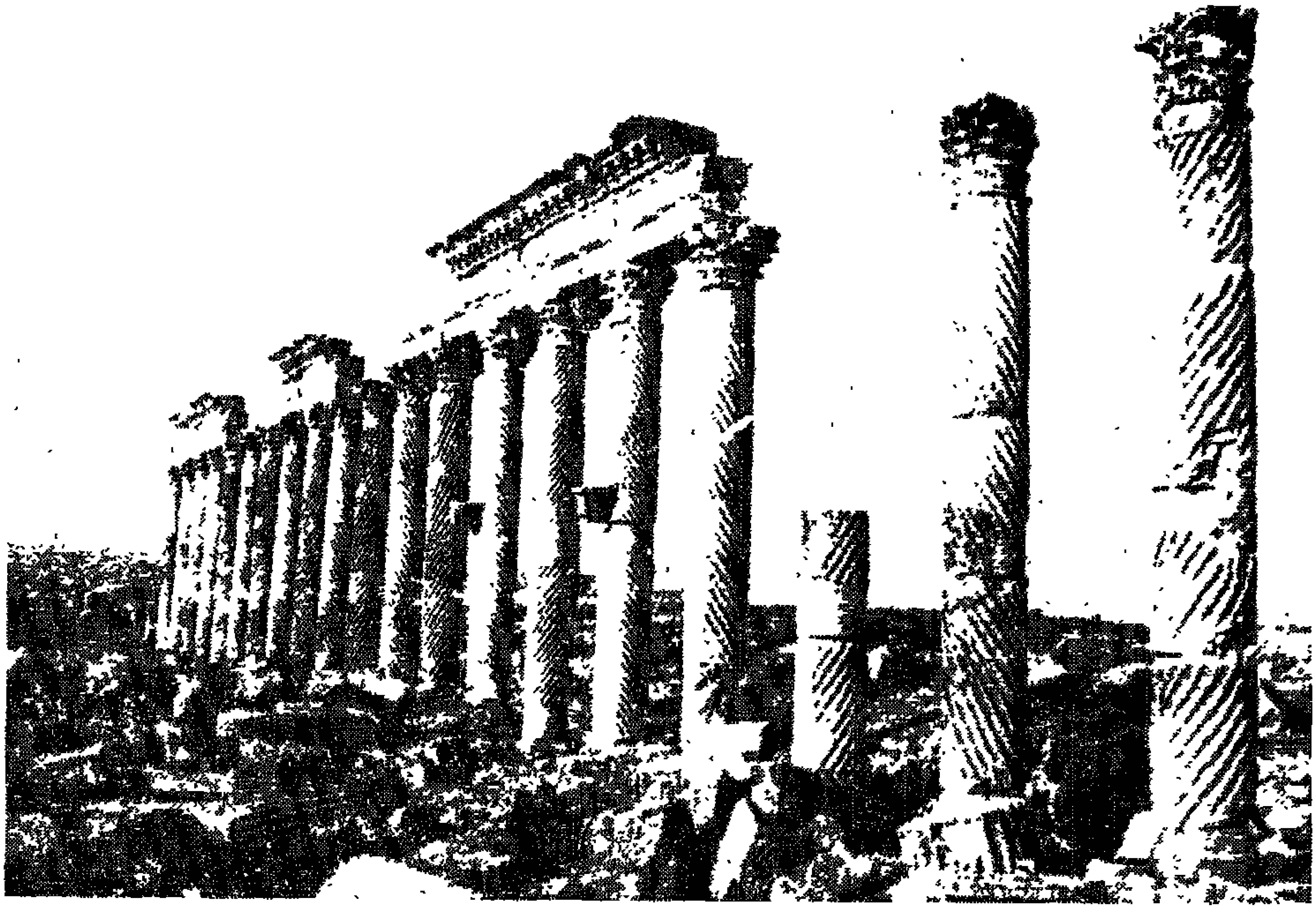

- الصورة رقم /١/ بعض اعمدة الشارع الرئيسي (الكاردو بافاميـــة)

يحتوي موقع افامية على سويات ترقى للعصور الهلنسية والرومانية والبيزنطية والاسلامية ، وأصبحت افامية مركز عاصمة اقليم سورية الثاني منذ بداية القرن الخامس الميلادي .

تتوضع المخلفات الحضارية الرئيسية على الهضبة الواقعة شرق القرية الحالية ، كما توجد مخلفات بشرية ترقى للعصر الحجري الوسيط وما بعده تتوضع بوضوح على الاكروبول (حيث تقوم القلعة الحالية) .

والسفح الشمالي للاخدود المواجه له ، فضلا عن انتشار سكاني زراعي يرقى للعصر الحجري الحديث دلت عليه الاسبار التي حفرت هناك .

وهناك مستوطن ذو طبقات حضارية متعاقبة يرقى للعصر البرونزي وما بعده ، اثبتته تنقيبات قمنا بها منذ عام (١٩٧٠م) كشفت عن لقى فخارية عديدة ومدافن غنية ، وهذا ما يرجح بأن لهذا الموقع علاقة وثيقة باسم (نعيا) التي ورد ذكرها في النصوص الحثية والاكادية والفرعونية وخصوصا في رسائل تل العمارنة ،وكانت لافامية اسماء متعددة قبل أن تعرف بهذا الاسم ، فهناك اشارة الى وجود موقع يرقى لتاريخ ابكر من العصر السلوقي كان يسمى كما يقول الجغرافي سترابو(بارناكه) يرقى لنهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، ولعل لهذا الاسم علاقة مع اسم (فارناكة) ابن المرزبان الفارسي ،وبعد معركة آيسوس (٣٣٣ق٠م) سميت بشكل واضح باسم (بيلا) ، وزودت بحامية مقدونية ، ثم اعيد تأسيس هذه المدينة في زمن سلوقس نيكاتور(الاول - ٣٠٠ - ٢٩٩ ق ٠ م) تحت اسم افامية الذي ما زالت تعرف به حتى الان .

ثم خضعت افامية للرومان بعد أن فتحوا سورية عام (٦٤ ق٠م) وخضعت بعدهم للبيزنطيين الى ان فتحها المسلمون صلحا عام (٦٣٨ م) .

وقد دمرت الزلازل التي اجتاحت المنطقة بين عامي(١١٥٧-١١٧٠م) المدينة تدميرا كاملا حيث اقتصر الاستيطان بعدها في الحصن القديم (قلعة المضيق حاليا) حيث توجد كتابات على بعض الابراج تشير لاعمال الترميم ، ترقى لبداية القرن الثالث عشر الميلادي ويتميز العصر العثماني بوجود خان واسع للحجاج وهو متحف افامية . مع مسجد صغير يقع في نقطة أعلى منه (الصورة رقم (٢) وكلاهما يرقيان لاوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

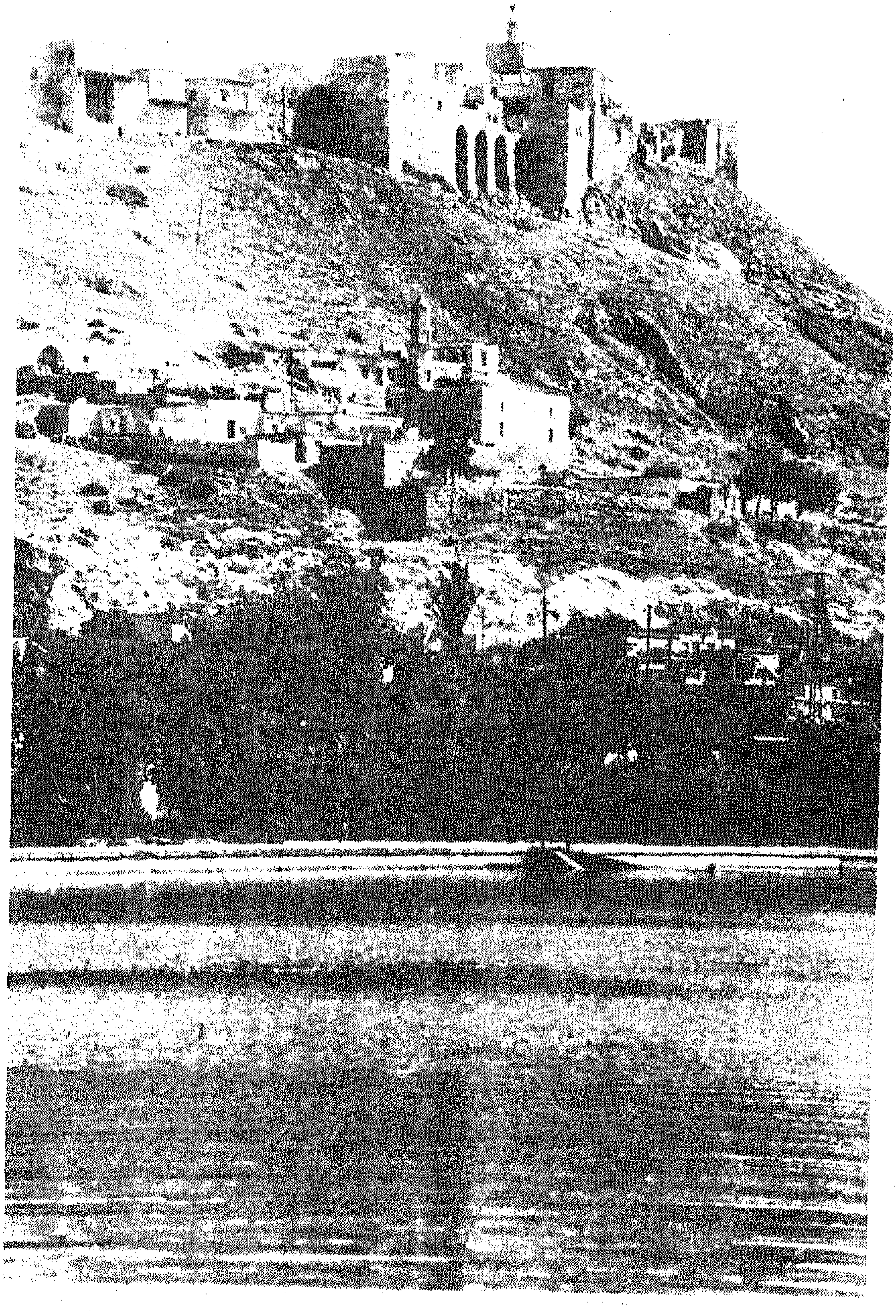

- الصورة رقم /٢/- جامع افامية مع جزء من البحيرة والقلعة الاسلامية

* **متحف الفامية (خان الحجاج سابقا) :**

كان متحف افامية خانا للحجاج والمسافرين يحطون فيه رحالهم لقضاء فترة من الراحة يستعدون فيها الرحيل جديد .

يرقى هذا الخان لبداية العصر العثماني ، وقد ذكر لنا الرحالة الغزي الذي نزل فيه سنة (٩٣١/هـ)م بأنه كان جديداً عندما حل به ونسبه الى محمد آغا قزلار - وهذا يعني أنه بني زمن السلطان العثماني سليمان خان الاول (سليمان القانوني) الذي تولى السلطنة بين عامي(٩٢٦ - ٩٧٤/هـ وذكر الرحالة ابراهيم الخياري الذي زار المنطقة عام (١٠٨٢/هـ ١٦٦٩/م) اثناء سفره من المدينة المنورة الى القسطنطينية ، بانه مر بمنزل يقال له المضيق به خان جديد عمره محمد آغا قزلار، وبنى بالقرب منه جامعا ومنارة ،فيقول الرحالة الخياري في كتابه الذي ألفه عن رحلته تلك وسماه (تحفة الادباء وسلوة الغرباء) ، فوصلنا منزلا يقال له المضيق به خان جديد عمره وجدده محمد آغا قزلار، وبنى قلعة جديدة بقرب الخان ، وبها مسجد ومنارة، والقديمة بأعلى الجبل وفيه ناس ساكنون ،وبه مجتمع ماء وبه عنب نفيس رقيق القشر جدا احلى عنب أكلناه في سفرنا هذا .

يحتل هذا الخان مساحة واسعة تقارب سبعة آلاف متر مربع ،ويتكون من بناء ضخم مربع الشكل (الصورة رقم (٣) يبلغ طول ضلعه (٨٣/م المخطط ١) ، تتوسطه باحة واسعة مرصوفة بالبلاط الحجري ،وبها منهل ماء عمقه سبعة امتار كانت تأتيه المياه بواسطة اقنية فخارية من البحيرة الواقعة الى الغرب من الخان وعلى بعد لا يتجاوز المائة متر .

تحف بهذا الخان من جوانبه الاربعة قاعات وغرف واسعة ،ويقع مدخله في ضلعه الشمالي وهو مدخل واسع على جانبيه صفتان حجريتان ،ويكتنف هذا المدخل من جانبيه غرفتان عن يمين وشمال تنفتحان على باحة (الصورة رقم (٤) ،واهم اجزاء هذا الخان جناحان طويلان وراثعان ينبثقان من الغرفتين الواقعتين على جانبي المدخل الرئيسي ،وهما الجناح الشرقي والجناح الغربي ، ومن الملاحظ أن جناحه الشرقي يناظر جناحه الغربي تناظرا تاما ، اما القسم الجنوبي فقد كان مشابها لجناحيه الشرقي والغربي ،واغلب الظن أنه تهدم في فترة من الفترات ،ولم يكن

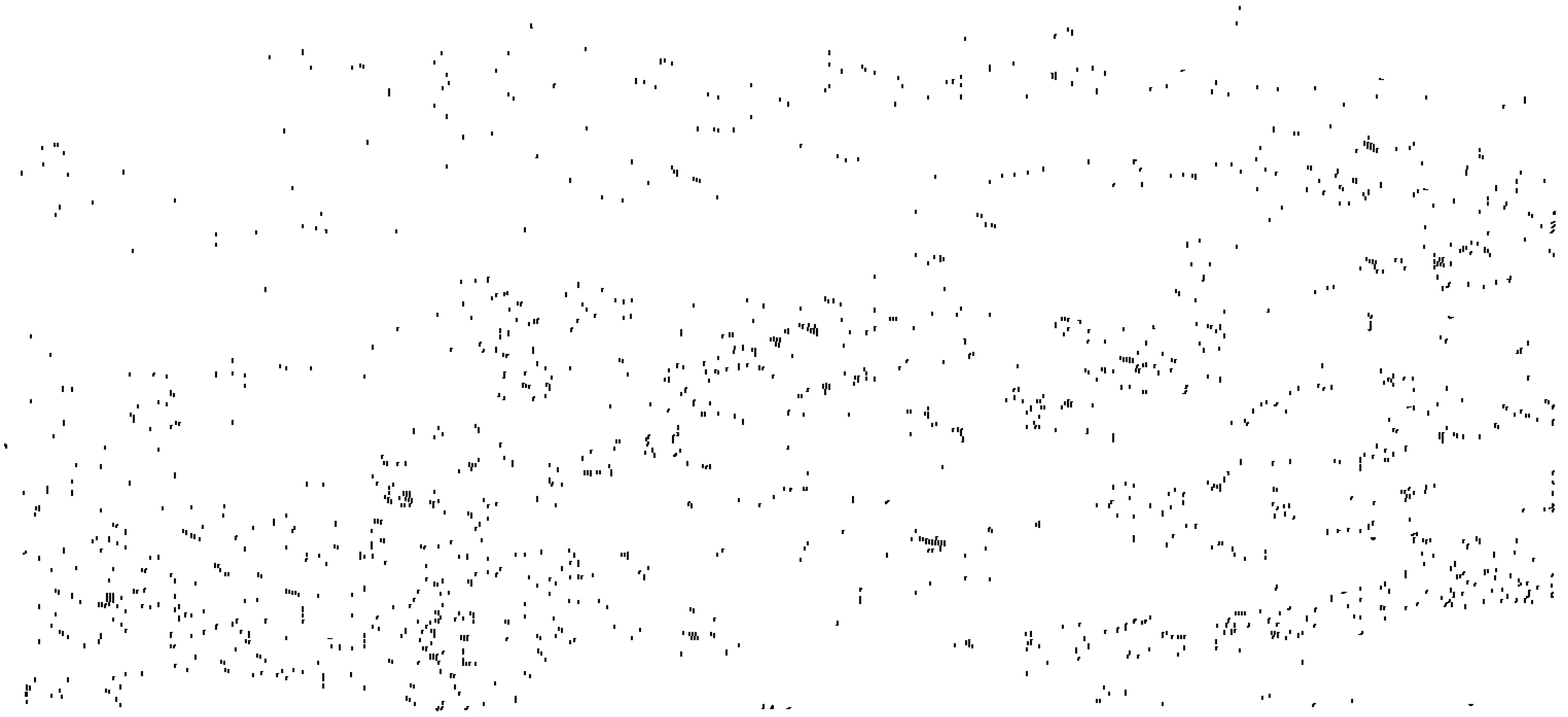

ـ الصورة رقم /٣/ ـ منظر للمتحف وما حوله يرى من القلعة

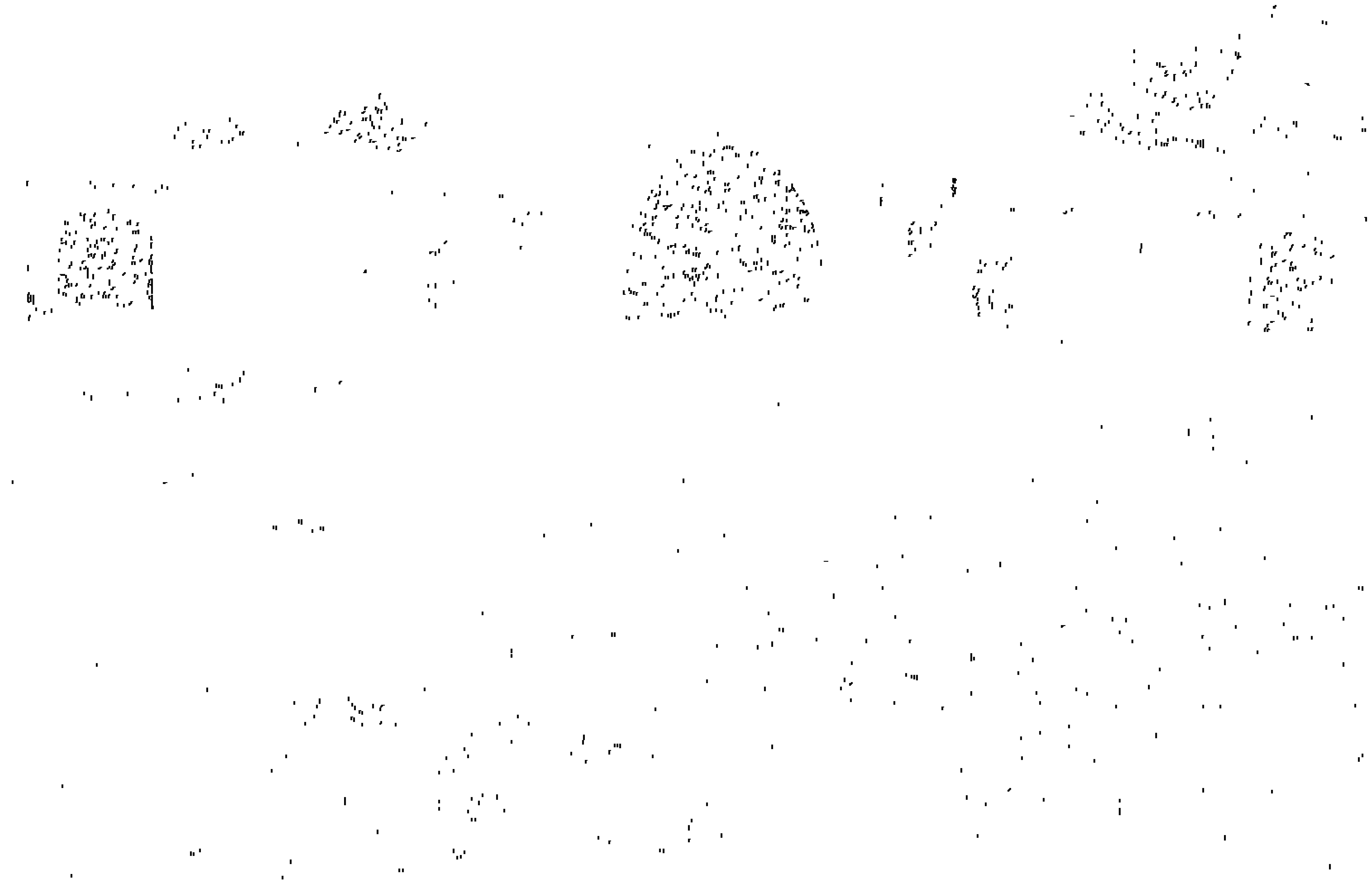

ـ الصورة رقم /٤/ ـ الواجهة الشمالية في المتحف ، مع جزء من بلاطه الحجري

بالامكان اعادته الى ماكان عليه في ذلك الحين ،فتم بناء سبع غرف صغيرة بدل الجناح الجنوبي (الصورة رقم (٥) هذا ،وبقي جزء صغير منه فقط ،هو ما اصطلح على تسميته بالجناح الجنوبي الغربي .

- الصورة رقم /٥/- الغرف الجنوبية - وجزء من الباحة - مع منهل الماء

ان جميع قاعات الخان وغرفه مبنية بالحجارة الكبيرة ومسقوفة باقبية برميلية الشكل تحملها عقود حجرية نصف دائرية ،ماعدا نقطة تقاطع الجناح الجنوبي الغربي فانها مغطاة بقبو متقاطع وتوجد في جميع غرف هذا الخان واجنحته مواقد كثيرة ،تتقدمها مصاطب عريضة كان الحجاج والمسافرون يستعملونها للنوم ،وتختص كل مجموعة او عائلة بموقد من هذه المواقد تطبخ فيه طيلة مدة اقامتها ،ويواجه هذه المصاطب في الجهة الثانية كوى تنفتح كل منها على الباحة الخارجية بنافذة تشبه فتحات السهام ، ولكنها مدروسة بشكل يسمح للنور الكافي بالدخول الى قاعات الخان فتبقى منيرة طوال النهار .

لقد تعرض هذا الخان للاهمال بعد انتشار وسائل النقل الحديثة وأثرت عليه عوامل الزمن فانهار قسم كبير من سقف جناحه الغربي ،وكادت بقية سقوفه تنهار ،وراحت تتغلغل فيها مياه الامطار وتهدمت اقسام كبيرة من واجهاته وأبوابه ،وازيلت جميع مصاطبه وتغيرت معالمه

تغيرا كبيرا ،وامتلاء فناؤه الرحيب بالروث والاتربة ، وضاع منهل الماء الموجود في باحته بعد ان ملاءته الاوساخ والاقذار ،وسكنه بعض الاعراب مع مواشيهم منذ بداية القرن العشرين ، فتأثرت جدرانه وسقوفه من دخان النيران التي كان يشعلها السكان في داخل قاعاته وتراكمت عليها طبقة ثخينة من الهباب الاسود ، فاصبح من المتعذر على الداخل الى تلك القاعات ان يرى لمسافة بعيدة فيها ،كما استخدمه بعض الخزافين لصناعة الجرار في بداية القرن العشرين ايضا ،ولازال واحد من افران شيّ الفخار موجوداً حتى الان في الزاوية الجنوبية الغربية من باحته ،وتحولت بعض اقسامه في السنوات الاخيرة الى اصطبلات تربى فيها الابقار والاغنام .

وتقديرا لقيمة هذه الابدة العمرانية الرائدة وحرصا على انقاذها من الدمار المحتم ان بقيت على ماهي عليه فقد باشرت مديرية الاثار اعمال الترميم وبذلت في سبيل ذلك جهوداً مضنية طيلة سنوات خمس ،فتم الكشف خلالها عن باحته المرصوفة بالبلاط الحجري وترميم الناقص منها ،وكشف حوض الماء الذي يبلغ عمقه سبعة امتار ، كما اعيد بناء جدرانه المنهارة كما كانت عليه سابقا ،وتم الكشف عن جميع اسطحته واعيد بناء المتهدم منها واكمل بناء الناقص من الواجهات والمداخل بنفس الاسلوب المعماري القديم ، وازيلت جميع الاحداثات فيه ،وتم تنظيف جدرانه وعقوده مما علق بها من هباب واوساخ ، كما اعيد بناء جميع المصاطب وترميم المواقد ، وتلييس السقوف بالكلس المقنب طبقا للاسلوب الاثري القديم وتم تصنيع ابواب خشبية وحديدية تتلائم مع طبيعة هذا الخان الرائع واعيدت جميع الحلقات الحديدية التي كانت تربط بها الخيول في الفناء وداخل القاعات الى اماكنها الاصلية وباسلوبها القديم .

ورافق ترميم الخان ، اعمال ترميم الجامع الاثري على سفح القلعة شمالي الخان ،والذي يرقى لنفس التاريخ فعاد الى سابق عهده بعد أن كان مهجوراً تأوي اليه بعض الحيوانات ، وتناولت اعمال الترميم في هذا الجامع اللطيف نفس المراحل التي تمت في الخان .

وبعد الانتهاء من اعمال ترميم الخان واعادته الى بهائه ورونقه القديمين تم تحويله الى متحف اقليمي لمدينة افامية وتم افتتاحه في (٢٤ تشرين الثاني من عام ١٩٨٢) ،وقد خصص النصف الشرقي من هذا

المتحف للعهد الوثني في افامية ، بينما ترك النصف الغربي للعصرين البيزنطي والاسلامي ، وصرفت مديرية الاثار جل اهتمامها الى رصفه من الفسيفساء المكتشفه في افامية وحورته ومواقع آثرية اخرى في محافظة حماة وغلبت هذه الصفة عليه ، واصبح المتحف الوحيد الخاص بالفسيفساء في القطر العربي السوري .

* اقسام المتحف واجنحته :

آ- الجناح الشرقي :

١- القسم الشمالي :

بعد أن يعبر القادم الى المتحف مدخله الواسع ، تواجهه باحة رحبة يتوسطها منهل ماء ذو سلم حجري كانت تستقي منه القوافل التي تحط رحالها في هذا الخان الرحيب واذا ما متع الزائر نظره بهذه الباحة وما يحيط بها من غرف وقاعات ، ينعطف نحو اليسار ليدخل الى القاعة الشمالية الشرقية ، وهي الجزء الشمالي من الجناح الشرقي (المخطط رقم ٢) حيث تم عرض مجموعة من الكتابات والتوابيت الحجرية مع فسيفساء رائعة .

فسيفساء سقراط : تم عرض هذه الفسيفساء امام الباب ، وقد عثر عليها تحت بناء الكاتدرائية الكبرى في افامية ، وتؤرخ بسنتي (٣٦٢-٣٦٣م) وتمثل سقراط وحوله ستة حكماء ، ويمثل الجانب الايمن من هذه الفسيفساء زخارف هندسية رائعة ، ضمن اطار نباتي جميل ، ويحيط برأس سقراط كلمة بأحرف يونانية تشير الى اسمه . وتوجد الى يسار المدخل حنية عرضت فيها التحفتان التاليتان :

١- تمثال نسر من الحجر الكلسي : عثر على هذا النسر في المقبرة الشرقية بأفامية ، ومن المعروف انه قد تم العثور على كثير من شواهد القبور تزينها نسور مجنحة في منطقة منبج وشمال سورية .

٢- شاهدة قبر حجرية : تخص هذه الشاهدة رجلا وزوجته وتؤرخ بسنة (١٦٠)م ، وقد عثر عليها في احد ابراج الاسوار الشرقية نص كتابتها :

السطران العلويان : سنة (٤٤٤) حسب التاريخ السلوقي الذي يبدأ عام (٣١٢) ق.م .

في (٦) من شهرديسيوس ٠
هيرايوس ، المأسوف عليه ،وداعـــــا ٠

السطران السفليان : سنة (٤٧٢) (حسب التاريخ السلوقي) ٠

في ١٠ من شهر ديستروس ٠
ميلينا ، المأسوف عليهاوداعــــا ٠

وفي مواجهة الزائر،وعلى طول الصفة التي تحاذي الجدارالشمالي من هذه القاعة تم عرض عدد من شواهد القبوروالتوابيت الحجرية التي تحمل كتابات يونانية ولاتينية ،رتبت حسب التسلسل التاريخي ،ونوع الكتابة واسلوب النحــت ٠

فالشاهدة رقم٣(١)، ذات طرازهلنستي تخص اوجينا ابنة ابـو لونيوس المأسوف عليها ،وبجانبهاشاهدة اخرى (الرقم٤) من الحجرالكلسي ذات طراز هلنستي ايضاويمكن ارجاعهاالى القرن الثاني اوالقرن الاول قبل الميلاد وتحمل اسم ديمونيكوس المأسوف عليه ، اماالشاهدة التالية (الرقم ٥) فقد عثرعليهابجانب بحيرة افامية الواقعة غرب المتحف وتؤرخ بسنة (٤٤٠) سلوقية ، اي (١٢٨/ ميلادية ،وتخص مالخا المأسوف عليه ، وعثرعلى الشاهدة (رقم ٦) ،المعروضة الى جانب الشاهدة رقم (٥) في مقبرة افامية الشرقية وتؤرخ بسنة (٤٣٠) سلوقية ١١٨/م، وتحمل اسم غوروس المأسوف عليه ٠

وتحمل الشاهدة (رقم ٧) اسم آموس المأسوف عليهاوتؤرخ سنة ٤٤٧/ سلوقية ،١٣٦/م ،وقد عثرعليهافي المقبرة الجنوبية الشرقية لافاميــة ٠

وعثرعلى الشاهدة التالية (رقم ٨) في الاسوارالشرقية من افامية حيث اعيد استعمالهاهناك وتؤرخ بسنة (٤٤١) سلوقية ١٣٠/م وتحمل اسم باتروخيلا المأسوف عليها ٠

أماالشاهدتان رقم (٩ - ١٠) فتخصان جنديين خدمافي افامية وماتافيها ،وتؤرخان بين سنتي (٢٣١- ٢٣٢/م) وتحمل الاولى اسم اوليبوس بريفاتوس سيروس الذي كان فارساعظيماكماتذكرالكتابــة

---

(١)- اعطيت هذه المعروضات ارقامامتسلسلة طبقالمكان عرضهافي المتحف اماالفسيفساء فتم عرضهافي ارضيات الاجنحة ولم تعط ارقامهالكونها مميــــزة ٠

الموجودة عليها ، بينما تحمل الثانية اسم ماركوس اوريليوس فلورنتينوس الجندي في الفيلق الثاني الذي كان موجودا في افامية وقد خدم (٢١) سنة ومات وعمره (٤١) عاما .

وبعد الشاهدة الاخيرة تم عرض تابوت حجري (الرقم ١١) وعثر عليه مع تابوت آخر (الرقم ١٢) في مقبرة افامية الشمالية ، وأحد هذين التابوتين لواحد من قواد الجيش في افامية في القرن الثاني الميلادي ، والثاني لزوجته ، ويلاحظ من النصين المكتوبين على هذين التابوتين ان الزوجة (وهي انتوناكارا) قد توفيت قبل زوجها فصنع لها زوجها (بروبيوس سانكتوس) هذا التابوت (التابوت رقم ١٢) ويبدو انه تزوج زوجة أخرى بعد وفاة زوجته الاولى ، ثم توفي قبل زوجته الثانية فقامت الاخيرة واسمها كما يذكر النص (مارسيا فيفا كريسينتينا) بصنع تابوت له (وهو التابوت رقم ١١) ودفنته بجانب زوجته الاولى .

واليكم شرحاً موجزاً لهذين التابوتين مع نص الكتابة اليونانية الموجودة عليها .

<u>١١- تابوت حجري :</u>

يرقى هذا التابوت للقرن الثاني الميلادي ، وقد عثر عليه في المقبرة الشمالية با فامية ، ضمن حجرة تضم تابوتا آخر ، هو التابوت الاتي ذكره يعلوه غطاء يبدو انه ليس الغطاء الاصلي ، اذ ان هذا التابوت قد استخدم مرة ثانية بغطاء آخر هو الغطاء الحالي ، اما الغطاء الاصلي فغير موجود .

نميز على وجهه منحوتات آدمية ونباتية ربة النصر في زوايا التابوت مع بعض اكاليل الزهور ووجه الفرغون ، فضلا عن طفلين مجنحين يمسكان بطرفي اطار يضم بداخله كتابة لاتينية ، كما نميز سطرا من الكتابة على طرف التابوت العلوي ، والغرغون (Gorgone) هن اخوات ثلاث معروفة في الاساطير اليونانية (ميدوزا و اوريالة وستينو) لهن ملامح مخيفة وشعور افعوانية الشكل ، وانياب الخنزير وكانت عيونهن قادرة على تحويل من تنظر اليه الى حجر ، وكن يسكن عالم الظلمات ، وفي العصور اللاحقة للعصر اليوناني خففت من شدة تعابير الغرغون ولطفت ملامحها وأصبحت اقل اخافة كما هو الحال في غورغون التابوت الروماني هذا (للمزيد من الاطلاع

انظرمعجم الاساطيراليونانية والرومانية ، اعد ادسهيل عثمان وعبد الرزاق الاصفرمنشورات وزارة الثقافة دمشق سنة ١٩٨٢) .

وتوجدعلى ظهرالتابوت هذا امنحوتات تمثل اسدين متقابليـــــن يختلف اسلوب نحتهماعن اسلوب المنحوتات الموجودة على وجهه ،ويرجعان لفترة لاحقة ،وهي الفترةالتي استعمل فيهاالتابوت مرة ثانية ،وطبقـــا لاسلوب النحت فانه يمكنتاريخ هذه الفترة بسنتي (٢٣١و ٢٣٣م) نـــص الكتابة الموجودة على هذا التابوت هـــي :

(.. الذي عاش ٤٣/ سنة ، و٥ اشهرو٩ أيام ،خدمفي الجيش بصفة خيال لمدة اربع سنوات ، وحارس لمدة (٤)سنوات وابتيو(اي ضابـــط) ١٣ سنة ،وقائد مائةلسنةواحدة ، ان مارسيافيفاكريسنتينازوجتـــه ووريثته صنعت (هذاالتابوت) لزوجهاالفــذ .) .

وقدعرضناه في الحنيةالمقابلةللتابوت الثاني تحت رقم (١٢) .

١٢- تابوت من الحجـــــر :

عثرعليه بجانب التابوت الانف الذكروله نفس اسلوب الصناعةوالنحت ويحمل نفس الزخارف .

تنص الكتابةالموجودة ضمن الاطارعلى مايلي : (الصورةرقم ٧): لانتولنياكارا) البالغةمن العمر(٢٨) سنة ،و(٤) آشهـــر ، بروبيوس سانكتوس قائد المائةفي الفيلق البارثي الثاني ، قدصنـــع (هذاالتابوت) ، لزوجتةالتي لانظيرلها ..

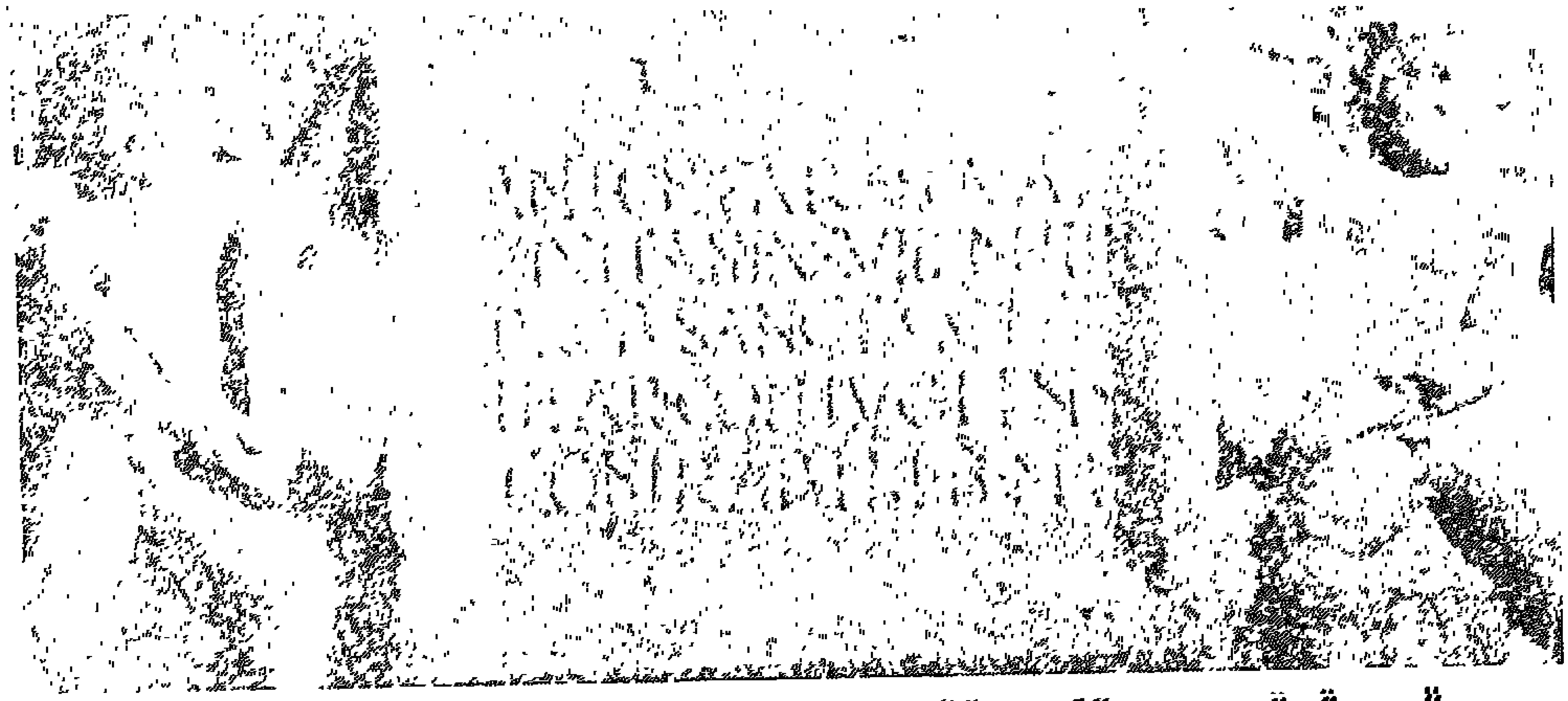

- الصورة رقم/٧/- الكتابة الموجودة على القبـــرقـــم ١٢ .

ونعود للصفة الشمالية حيث تم عرض ثلاث شواهد قبور حجرية اخرى بعد التابوت الحجري عشر على الاول منها وهي الشاهدة رقم (١٣) ، قرب البوابة الشمالية لافامية وترقى للفترة الواقعة بين (٢٣١و٢٣٣)م على وجهها صورة جندي واقف تحته كتابة لاتينية نصها .

((في ذمة الالهة المحلية ، سبيتموس موكابوربن كايوس ، الجندي الذي خدم في الفرقة البارثية الثانية براتب مضاعف ، النقي ، الوفي ، الميمون الخالد ، من الفصيلة الرابعة في الفرقة الاولى ، خدم ٢١سنة و٣٠يوما ، عاش ٤١ سنة ، ان وريثه سبيتموس اندرا ، ضارب البوق ، واوريليوس موكيانوس ضارب البوق ، قد صنعا له مايستحقه (١) .)) .

أما الشاهدة رقم (١٤) فقد عثر عليها في احد ابراج السور الشرقي وتحمل كتابة لاتينية فقد جزء منها بسبب كسر لحق الشاهدة فاضاع اسم صاحبها وبقي اسم فالنتينوس وريثه الذي انشأ له هذه الشاهدة .

وتحمل الشاهدة رقم (١٥) وهي الشاهدة الاخيرة في القسم الشمالي من الجناح الشرقي اسم اوريليوس باللغة اللاتينية واسم وارثه بوليوس فيكتوريوس الذي صنع له هذا الرمس الذي يستحقه ، ويمكن ارجاع هذه الشاهدة لنفس تاريخ الشاهدة رقم (١٣) .

ولنبدأ الان زيارتنا للقسم الشرقي من الجناح الشرقي فقد عرضنا على ارضيته مجموعة من روائع الفسيفساء الرومانية والبيزنطية المكتشفة في افامية ، كما عرضنا على طول الصفة مجموعة من الكتابات المنقوشة على حجارة بعضها كانت قواعد لتماثيل ، وبعضها الاخر حجارة تدشين فضلا عن بعض التماثيل والتيجان .

فالاثر رقم (١٦) ، هو حجر تدشين خاص بأغريبا الاول او أغريبا الثاني ويرقى للقرن الاول الميلادي ، كسر قسمه العلوي ولازال الجزء الاسفل من كتابته اللاتينية موجودا ، نصها :

(الملك العظيم ، صديق (القيصر ، اوصديق الرومان)

---

(١) ـ جميع النصوص اليونانية واللاتينية الموجودة على شواهد القبور والتوابيت وقواعد التماثيل المعروضة بمتحف افامية منشورة في الكتاب الذي الفناه عن متحف افامية (متحف افامية الفسيفساء) تأليف عبد الرزاق زقزوق ، منشورات المديرية العامة للاثار والمتاحف .

أما الاثررقم (١٧) فقاعدة تمثال من الحجرالكلسي ترقىللقرن الاول من المرجح انهاكانت تحمل تمثالامن البرونز، عليهاكتابة لاتينية تبين ان التمثال مهدى الى تيتوس فلافيوس ـ سلوقس .

يلي الاثرالسابق تمثال رجل رخامي (رقم ١٨) يمثل شخصاواقفا (الصورة رقم (٨) ،يرتدي وشاحا يغطى نصفه الاسفل وكتفه الايسر يرقى للقرن الثاني اوالثالث الميلاديين .

يلي هذ التمثال جزءمن قاعدة من الحجرالكلسي رقم (١٩) كان عليها تمثال ،تحمل كتابةلاتينية باسم لوقيوس يوليوس اغريبا .

ويلي هذه القاعدة قاعدة آخرى رقم (٢٠) ذ اتاهمية كبرى ، اذتشير الى اسم اغريبا احدمشاهيرسكان افامية في القرن الثاني الميلادي ،(الصورة رقم (٩) ،ترقى لسنة (١١٦-١١٧)م وقد اعيد استعمالهاثانية اثناء عمليات الترميم القديمة التي جرت في القرن السادس الميلادي ،حيثا عيد نحتهالتصبح ساكفالاحدنوافذ الجدارالخلفي في الرواق الشرقي بالشارع الرئيسي اوواجهة الحمام الشمالي الذي بني من قبل آغريبا وقدعثرعليها ملقاة في الرواق الشرقي قرب الحمام المذكور، نص كتابتها :

(له حقوق اجداده جميعها ،واستثناءخاصابشأن الطقوس الدينية وكل الامجاد الاخرى المسجلة علىالواح البرونزفي الكابيتول بروما ،لقد انجز اعمالا هامة منآجل وطنه ،وطقوساد ينية ،كان قسيقسا ،وكان حاكمامكلفا بمراقبة السوق بشهامة ومروّة ،واشرف على توزيع القمحخلال ستة آشهربدفع مبلغ قدره عشرة دينارافضية ، لقدقدمالزيت للدهن به وانشأ القناطرمسافة عدة اميال ،وكان امين سرالمدينة متخذا اسلوبا غيرعادي ، وطالب بذاته ان تكون الاجازة لمدة عام ،واختاربنفسه زملاءه في القضاء ،وفي العام ذاته كان مفوضاللسلام ،ومسؤولاعن توزيع القمح وقد انشأالحمامات والرواق الذي يتقدمهاعلى الشارع ،والبازيليكا التابعة لها ،مانحا الارض من ماله الخاص ،واقفا اعمالابرونزية في هذه الحمامات : مجموعة تيسيوس والمينوتور . ومجموعة ابولو،واولمبوس ومارسياس والسكيتي .

وقدتطوع بالقيام بسفارات لدى الاباطرة والحكام وكان له ،من جهة امه وابيه ، اجداد ،شرفاءكرماء ،وروساءولايات ،واشخاص لهم نصيب

(الصورة رقم /٨/)

جذع تمثال رجل رخامي

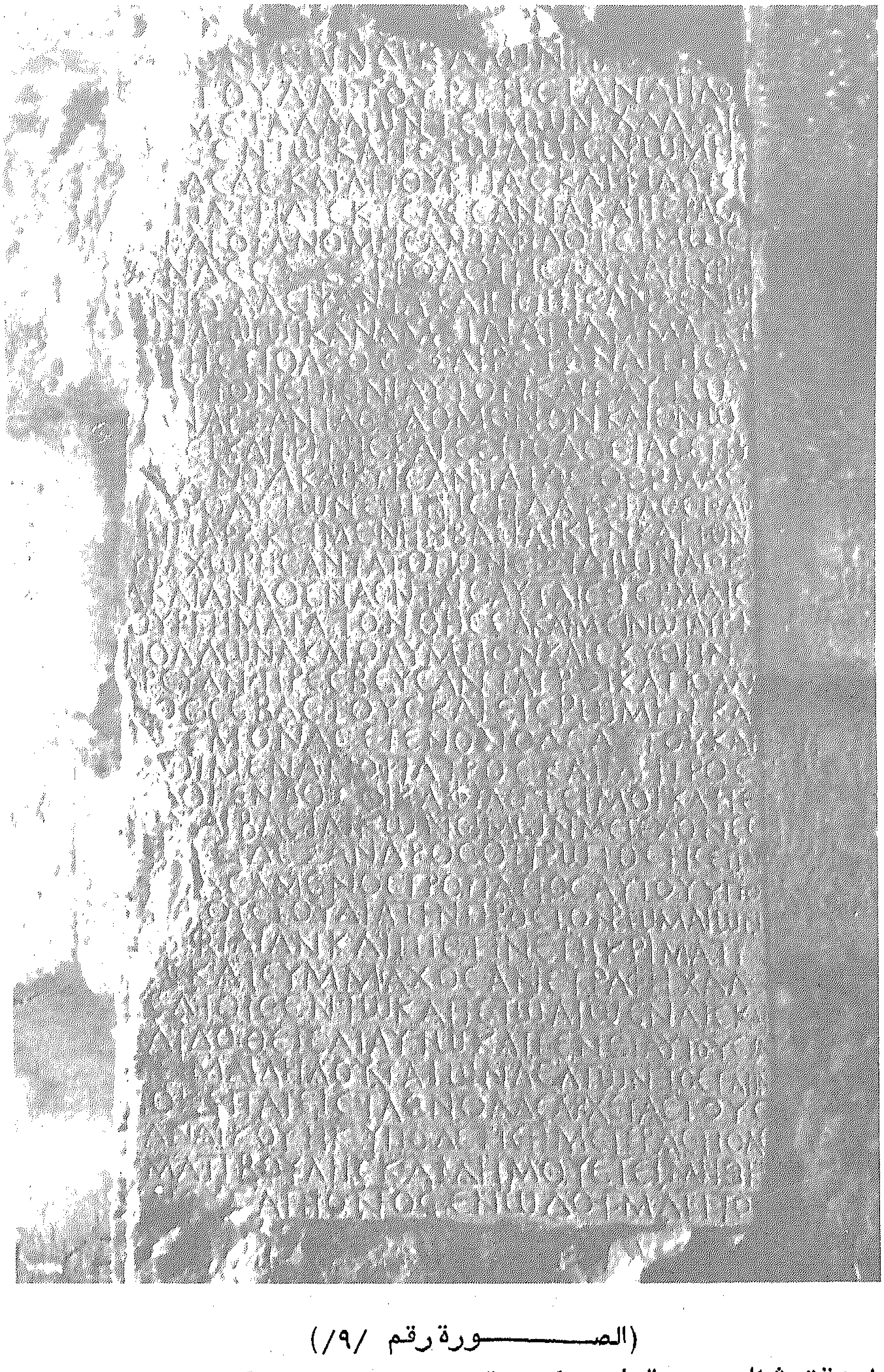

(الصـــــــورة رقم /٩/)

قاعدة تمثال حجرية عليها كتابة يونانية تخص أغريبا

بالقاب الشرف الملكية ،من بين هؤلاء ،ديكساندروس جده الاكبر ، اول كاهن كبيرفي الولاية ،ونظرالصداقته ووفائه للشعب الروماني .. فقد سجل صديقا وحليفا على الواح البرونزفي الكابتول ،من قبل اغسطس المعظم وعلى هذه الالواح ذكرت ايفابقية لقاب الشرف الاستثنائية الممنوحة له ولعائلته ، ومن بين هذه الالواح ،الخلاصة المحفوظ (هنافي الوثائق السنة ... شهركسانديكوس ، اليوم ٢٨ ،من قبل مدينتنا) وطبقا لقرار المجلس والشعب ،فقد منح (ديكساندروس) لقب شرف ،في شهربيريتيوس اليوم الثالث قبل نهاية الشهر،في هذا القرار .

ويلي الاثرالسابق حاملتا تماثيل من الحجرالكلسي (الرقم ٢١و٢٢) ترقيان لسنة (١١٦ - ١١٧) تحمل كل منهما اسم لوقيوس يوليوس اغريبا الاول مقدمة من كايوس يوليوس ثيوبومبوس والثانية مقدمة من لوقيوس يوليوس تروفيموس .

وبعدالحاملتين الانفتي الذكرقمنا بعرض قاعدتي تمثالين من الحجر الكلسي الرقم (٢٣-٢٤) عثرعليهافي منصة المسرح الروماني ويمكن تأريخها لسنتي (٣٦٢-٣٦٣)م نقش على الاولى كلمة (المعظم) باللغة اللاتينية اما الثانية فتحمل النص التالي (المعظم ،السيد الابدي ،الخالدالمدعو بالافامي .

ويلي القاعدة رقم (٢٤) تمثال امرأة من الرخام (الرقم٢٥) يمثل امرأة واقفة ترتدي ، ثياً باشفافة تنم عن بعض تفاصيل الجسم التشريحية ولهذه الثياب طيات وثنيات ابدع الفنان في نحتها .

رأس هذا التمثال مفقود ،وكذا ذراعه اليمنى وجزء من الذراع اليسرى. واذا قارناهذا التمثال باشباهه ،فاننانرى ان الفنان قداتبع اسلوبا رائعا ونادرا في طريقة تركيب وتثبيت الرأس والذراعين على الجسم .

تم العثور على هذا التمثال خلف سبيل الماء الواقع وسط الشارع الرئيسي ، ولعله يمثل الهة الصحة ويمكن ارجاعه الى القرن الثاني اوالثالث الميلادي .

ومن الجدير بالذكران جذع تمثال آخر يمثل اسكلاب اله الطب كان وجد في رواق الشارع الرئيسي مقابل سبيل الماء .

وبعدتمثال ربة الصحة تم عرض طاولة من الرخام الابيض (رقم٢٦) ،

تم العثورعليهافي البيت البيزنطي المعروف بيت الوعل ،كماعثرفي هذا البيت على طاولة اخرى من الرخام الاخضرتم عرضهافي مكانهامن الجناح تحت رقم (٣٦) ومن الجديربالذكران هذه الطاولة تعرضت لحريق شديد فتحطمت الى مايزيدعن مائة كسرة فتم ترميمهاو اعادتهاالى ماكانت عليه .

يلي الطاولة البيضاء مجموعة تيجان يبلغ عددها احدعشرتاجامنوعة تم عرضهاطبقالطرزهاوتسلسلهاالتاريخي ، منهاتاجان ايونيان احدهما لم ينجزصنعه بعد ،وتم عرضهمابجانب بعضهماليتسنى للزائرمقارنة الكامل بغيرالكامل ،يليهاتاجان مزخرفان بأوراق نباتية عثرعليها في احدالبيوت البيزنطية (رقم ٢٩-٣٠) ثم تاج كورنثي يرقى للقرن الخامس اوالسادس رقم (٣١) عثرعليه في البيت الانف الذكرويعدمن أجمل التيجان التي عثرعليهافي افامية ،يليه تاج كورنثي آخررقم (٣٢) يشبه السابق من حيث الشكل والطرازوالتاريخ لكنه اصغرمنه حجمافضلا عن وجودصلبان في زواياه الاربع ، يليه تاج على شكل السلة الرقم (٣٣) ، ثم تاج كورنثي كبيرالرقم (٣٤) ، عثرعليه في الكاتدرائية عليه دائرة تضم كتابة يونانية تحمل اسم الاسقف بولس ،نصها :

(مقدم) من بولس المقدس جدا ، رئيس اساقفة افامية .

يلي هذا التاج تاج آخرله شكل السلة يشبه التاج رقم (٣٣) لكنه اكبرمنه حجما ، يلي التاج الاخيرتاجان كورنثيان يرقيان للقرن السادس احدهما الرقم (٣٧) تاج عمود والاخررقم (٣٨) يوضع في اعلى دعامة الباب .

وتم عرض ارضيات هذا الجناح بمجموعات رائعة من الفسيفساء رتبت طبقا لتسلسلها التاريخي هي :

* فسيفساء الحوريات :

وهي من روائع الفسيفساء التي عثرعليهافي افامية وجدت في المبنى الروماني الذي انشئت فوقه الكاتدرائية الكبرى ، اي في الطبقات السفلى للكاتدرائية ،وتؤرخ هذه الفسيفساء بعام (٣٦٢-٣٦٣م) .

وتمثل مجموعة من الحوريات والفاتنات في مباراة للجمال ،ومن الملاحظ وجودكتابات تعرف باسماء شخصيات هذه الفسيفساء كتبت الى جانب كل حورية اوفاتنة من هاتيك الحوريات والفاتنات ،وهن من اليسار الى

اليميـــن :

اغليز احدى الفاتنات الثلاث ، آفروس (جرذون الماء الشاب الذي يحمل على ظهره شيتس أهم الحوريات واكثرهن جمالا ،وقدبدت عارية بجسمها الممتلىء انوثة ،تقابل الشخصية الرابعة في هذه الفسيفساء وهي الحورية (دوريس) تليها افروديت ،وهذه الصورة لحق بها تخريب كبيرفلم تعد تظهرمعالمها بشكل واضح حتى ولا اسمها المكتوب الى جانبها ، تليها بايثو والى جانبها بيثوس شيخ البحرالهرم تليه كرايسيس رمزالمباراة ، والى جانبها جلست حورية البحر آميمونة ، التي اغواها بوزيدون في احد الايام وتزوجها بعد أن انقذها من العفريت الذي حاول اغتصابها ، ونرى بجانبها اله البحر بوزيدون نفسه سيدالحفل اوالمباراة يحمل بيده حربته ذات الشعب الثلاث ، ويجلس خلف طاولة عليها تاج مرصع بالجواهرهوتاج المباراة ، والى جانب بوزيدون وقفت احدى الوصيفات تساعدكاسيوبة على خلع ثيابها .

اماكاسيوبة نفسها فتبدو عارية تماما بجسمها الجميل وشبابها الغض وفي نهاية هذه الفسيفساء نرى صورة الفاتنة المنتصرة تحمل بيدها اليمنى اكليلا ،وبيدها اليسرى غصن نخيل وقدفازت في مسابقة الجمال هذه .

* **فسيفســاء الوعــل :**

عثرعليها في الغرفة (٢) الواقعة في البيت البيزنطي المعروف ببيت الوعل نسبة لهذه الفسيفساء المميزة فيه .

وتمثل هذه الفسيفساء وعلاجميلافي الوسط فوق ارضية مليئة بعنصر نباتي مكرر ،يحيط به اطارذوزخارف هندسية غاية في الجمال .

* **فسيفساء الكاتدرائية (الاسقف بولس) :**

والى جانب فسيفساء الوعل تم عرض فسيفساء اخرى رائعة الجمال عثرعليها في الكاتدرائية بافامية تمثل في الوسط مجموعة من الحيوانات يحيط بها اطارفي زواياه الاربع مزهريات جميلة مختلفة الاشكال تحصر بينها صورحيوانات اهمها صورة العنقاء على شكل حيوان مجنح له رأس طائر فضلاعن صورة غزال يعض ثعبانامع صورحيوانات اخرى .

وفي مركزالفسيفساء توجدد ائرة تضم كتابة يونانية نصها :

هذه الفسيفساء الغنية بالالوان مقدمة من بولس ذي" الروح الغنية والعقيدة السامية) .

ويمكن ارجاع هذه الفسيفساء للربع الثاني من القرن السادس الميلادي

* فسيفساء الافرونات :

عثر عليها في الغرفة (آ) في المبنى المسمى تريكلينوس والذي يظن بأنه كان قصر الحاكم ،وتمثل هذه الفسيفساء فارستين في الوسط تمتطيان صهوتي جواديهما تصطادان بعض الوحوش وقد تخرب القسم الاكبر من احدى هاتين الفارستين تخريبا كاملا ، ولم يبق الاجزء من جوادهما ، ويحيط بهذا المنظر الاوسط اطاران من الزخارف الهندسية والنباتية المحورة عن الواقع ويمكن ارجاع هذه الفسيفساء الى النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي و الامزونات في الاساطير اليونانية فريق من النساء المحاربات كن يعشن في القوقاز باسيا الصغرى ،وكانت لهن ملكتهن ،وكن يكوين الثدي الايمن كي لايعيق شد السهم ،ومن هنا جاءت تسميتهن (آلامازون – بلاثدي) وكن لايقربن الرجال الامرة واحدة في العام كي يحافظن على استمرار جنسهن ، وكن يقتلن اولادهن الذكور ؛

ب – الجناح الغربي :

تم عرض هذا الجناح بمجموعة رائعة من الفسيفساء المكتشفة في حورتة (١) ،وصوران ومورك .

، من الجدير بالذكر انه تم الكشف في موقع حورته عن كنيستين متجاورتين ترقيان لاواخر القرن الخامس الميلادي احداهما اكبر من الاخرى وقد تم العثور في الكنيسة الكبرى على ثلاث طبقات من الفسيفساء ،تم عرض فسيفساء الطبقتين العليا والوسطى في متحف افامية ،كما تم العثور على طبقة واحدة من الفسيفساء في الكنيسة الصغرى ،تم عرضها في المتحف المذكور ايضا .

وقبل ان يدخل الزائر الى الجناح الغربي من بابه الشمالي يجد على يساره عمود مسافات عثرنا عليه قرب تل د اديس جنوب افامية ،ويشير هذا العمود الى الميل (٢١) للطريق الرومانية بين افامية والرفنية القريبة من مصياف (الصورة رقم (١٠) .

---

(١) – حورته موقع اثري يبعد (١٥) كم الى الشمال من افامية .

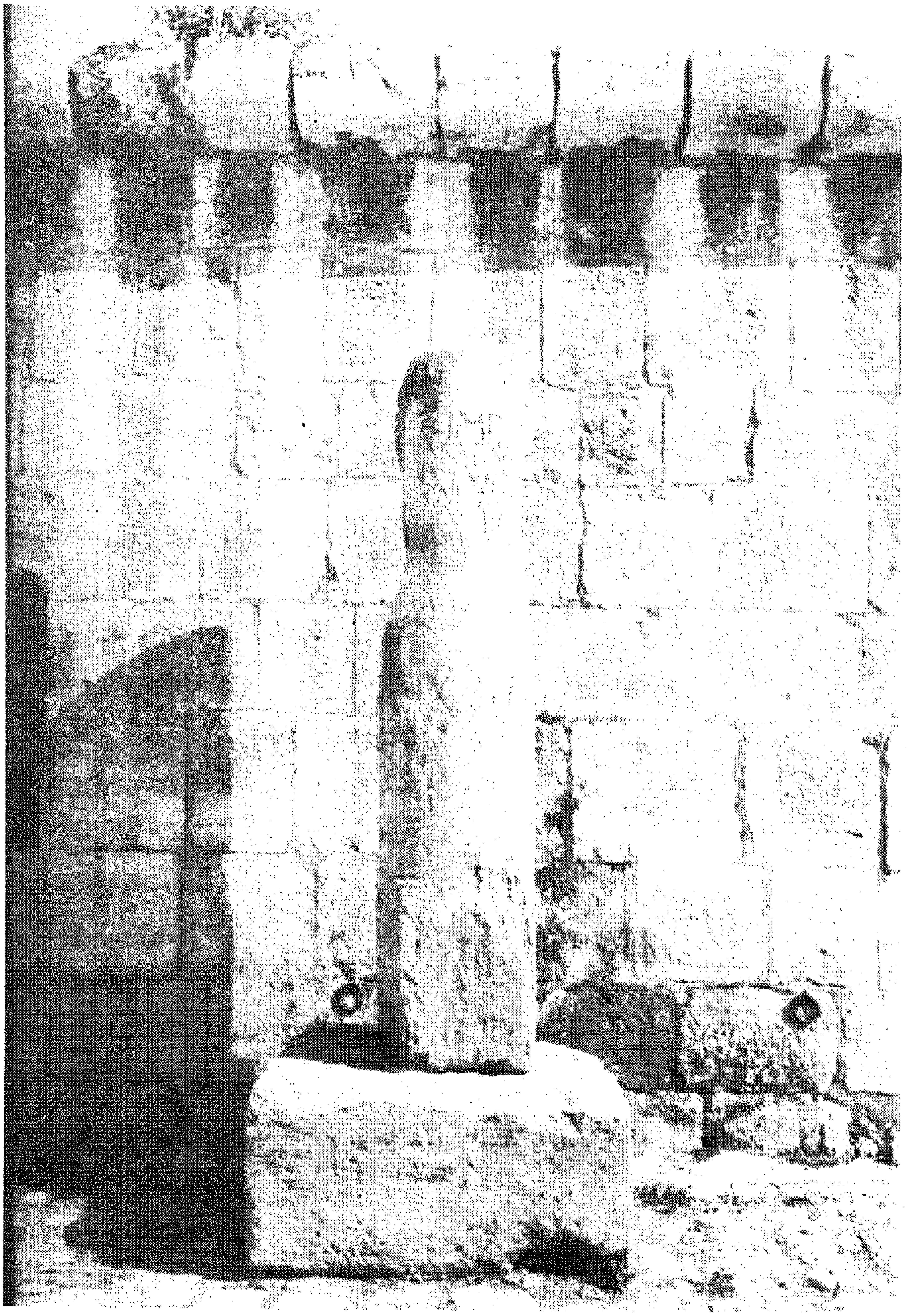

(الصورة رقم ١٠)

عمود مسافات للطريق الرومانية بين افامية والرفنية

وقدحفرت على سطحه كتابة لاتينية بها بعض النقص نصها :

الامبراطور - قيصرمسباسيان(٢) المعظم ،الحبر الاعظم ،تقلدرشاسة القضاء اربع مرات ، انتخب امبراطوراتسع مرات ،ابو الامة ،وقنصلا ابع مرات ، مبعوث اغسطس ، صاحب الملك ،الميل (٢١) (من افامية) .

واذا مادخل الزائرالى الجناح الغربي تواجهه فسيفساء واسعة هي فسيفساء الطبقة الاولى من الكنيسة الكبرى بحورته تليها ارضيات فسيفسائية اخرى تعدمن آجمل ماتم العثورعليه من الفسيفساء في محافظة حماة .

* فسيفساء الكنيسة الكبرى بحورتة :

تبلغ مساحة هذه الكنيسة التي تتكون من كنيستين فوق بعضهما (٥ر٣٦ - ٦٠ر١٥م) وقدعثرفيها على ثلاث طبقات فسيفسائية رائعة وقمنا هنا بعرض فسيفساء الطبقة السطحية وهي فسيفساء المجاز الاوسط مع الحنية في الكنيسة .

وتمثل زخارف الحنية بعض الحيوانات والطيورالمختلفة ضمن دوائر من اشجارالكرمة باسلوب زخرفي جميل وآلوان زاهية .

أمازخارف المجاز الاوسط فتمثل مجموعة من الحيوانات المفترسة ، كالنمروالفهد والخنزيرالبري تطارد اوتفترس مجموعة اخرى من الحيوانات البرية كالغزال ،والماعز وغيرها .

ويحيط بهذه المناظراطاران ،الخارجي منهاذوزخارف هندسية والداخلي ذوزخارف نباتية من آوراق الاكانت على شكل دوائرتضم بداخلها مجموعة مختلفة من الطيور .

وقدعثرعلى الطبقة السطحية هذه على ثلاث كتابات يونانية ، احداها وهي الكتابة الرئيسية تواجه المدخل الغربي للكنيسة وهوالمدخل الرئيسي وتؤرخ بناء هذه الكنيسة (كنيسة الرب المطهرة في ٢٠ نيسان عام٤٨٣) م وتذكراسم فوتيوس رئيس اساقفة افامية والمطران دوروته والقسيس ستيفانوس ،واسم الشماسين جاكوسيمون ، اما الكتابة الثانية التي عثر عليهافي الغرفة الواقعة شمال الحنية (المسماة غرفة المذبح) ،فمؤرخة في آيارعام ٤٨٤م) وتعيدذكرالمطران والقسيس اللذين لازالاموجودين في الكنيسة حتى ذلك التاريخ .

اما الكتابة الثالثة الموجودة في الطرف الشرقي من الرواق الجنوبي فمؤرخة بعام (٤٨٥م) وتذكر اسم المطران فقط ، وقد لحق بها تخريب قديم اضاع اسماء أخرى .

* **فسيفساء الرواق الشمالي بالكنيسة الكبرى بحورتة :**

ولهذه الفسيفساء صلة بالفسيفساء الانفة الذكر فهي نفس الكنيسة الكبرى بحورتة وكانت تزين الرواق الشمالي في هذه الكنيسة ، ومن الجدير بالذكر ان جزءا بسيطا من الرواق الجنوبي موجود في المتحف ولم نتمكن من عرضه لضيق المكان ، وأما الجزء الاكبر منه فلا زال موجوداً في مكانه تحت بيت احد سكان القرية هناك .

وتمثل هذه الفسيفساء مجموعة من الوحوش المفترسة ، تصطاد حيوانات برية مختلفة كما هو الحال في الفسيفساء الانفة الذكر ، فضلا عن بعض الاشجار الكبيرة بعضها يحمل ثمر الرمان ، وقد نفذت هذه الزخارف جميعها فوق ارضية بيضاء تتكرر عليها زهرة محورة عن الواقع تحويرا جميلا .

ترقى هذه الفسيفساء لنفس تاريخ الفسيفساء الانفة الذكر (٤٨٣م) .

* **فسيفساء المعمودية :**

كانت تزين هذه الفسيفساء ارض رواق صغير لا يتجاوز طوله (٦٠ر٥م) يقع بين الكنيسة الكبرى بحورتة والسلم الحجري المؤدي الى المعمودية والى الكنيسة الصغرى بكنيسة ميخائيل .

تتكون هذه الفسيفساء من اطار ذي زخارف نباتية محورة عن الواقع ممثلة بعنصر مكون من ورقتين نباتيتين متقابلتين ، تشكلان فيما بينهما شبه دائرة ، ومن الملاحظ ان هذا العنصر يتكرر على طول الاطار بأوضاع متعاكسة .

يحيط هذا الاطار بمنظر في الوسط تمثل طيوراً واشجاراً وحيوانات فوق ارضية بيضاء ، وتشكل الحيوانات العنصر الرئيسي وهي ثلاثة ، اسد في الوسط وغزال وخروف على الجانبين ، وقد تعرض ، للاسف ، جزء من اطار هذه اللوحة الرائعة ، ووسطها لتخريب قديم .

ترقى هذه الفسيفساء الى منتصف القرن الخامس الميلادي .

* فسيفساء خربة الشيخ مسعود في صوران : (الصورة رقم ١١) :

ترقى هذه اللوحة لاواخر القرن الرابع اوبداية القرن الخامس الميلادي ، تتوسطها زخارف هندسية قوامها ضفائر متقاطعة ، تشكل معينات تحصر فيما بينها ثلاثة عشر طائرا ، ويحيط بالمنظر الاوسط هذا اطار يتكون من زخارف هندسية منوعة غاية في الدقة والابداع .

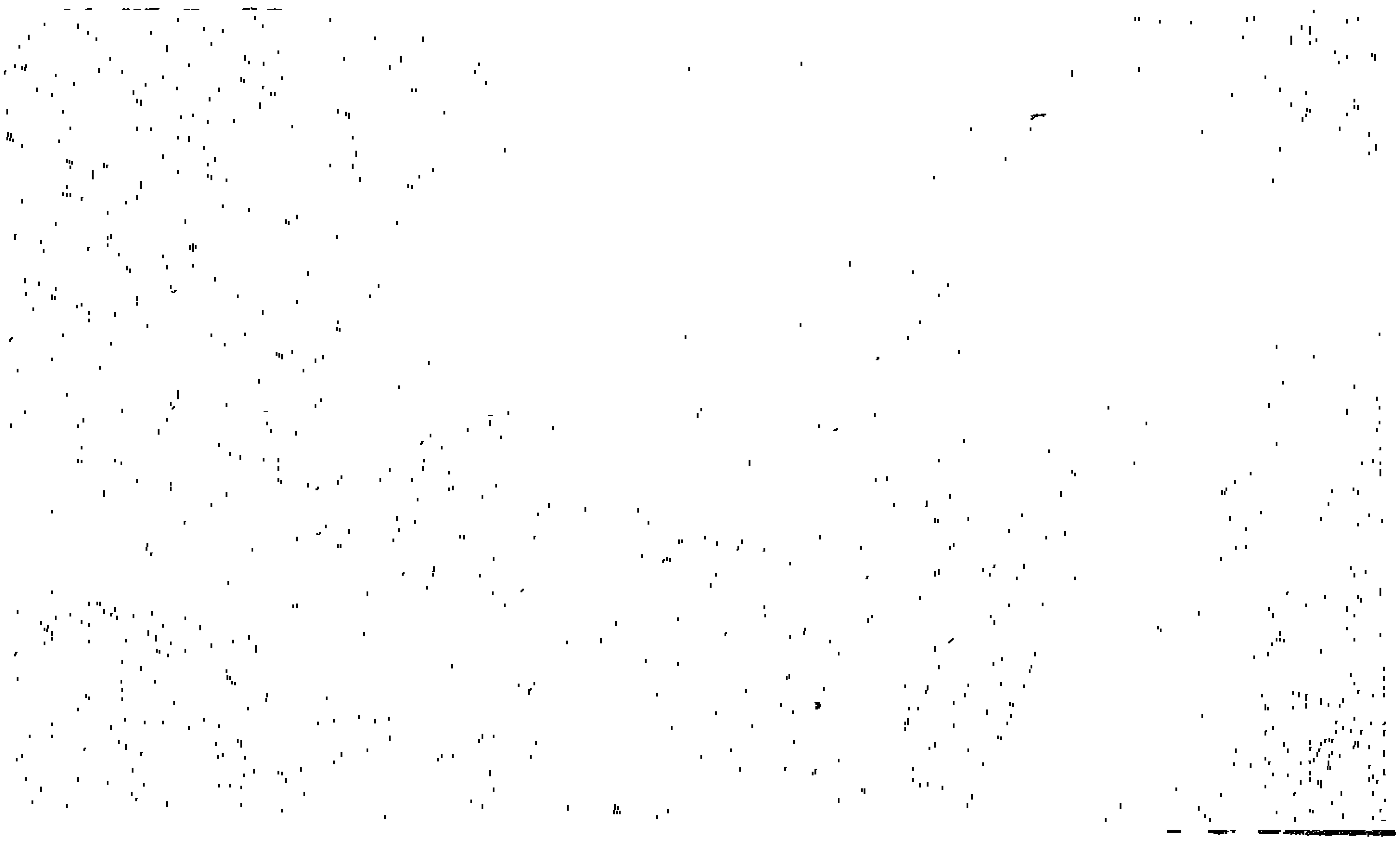

(الصورة رقم/١١/ فسيفساء صوران)

* فسيفساء خربة المجدلية في مورك (الصورة رقم ١٢) :

هي من روائع فن الفسيفساء في العهد البيزنطي ، يحار الناظر في جمالها ، تضم عددا من الطيور المختلفة اهمها الطاووس ، فضلا عن زخارف هندسية وضفائر ابدع الصانع في اتقانها ، كما نميز فيها ثلاث حيوانات مختلفة قرب الزوايا (الرابع مخرب) هي ، ثور وخروف وغزال

كما يوجد في الزوايا الاربع اربع مزهريات تنبثق منها بعض الاغصان والازهار ، ويتوسط هذه اللوحة طاووس فخور بريشه المتعدد الالوان وعلى جانبيه طاووسان آخران .

ترقى هذه اللوحة لاواخر القرن الخامس اوبداية القرن السادس الميلاديين .

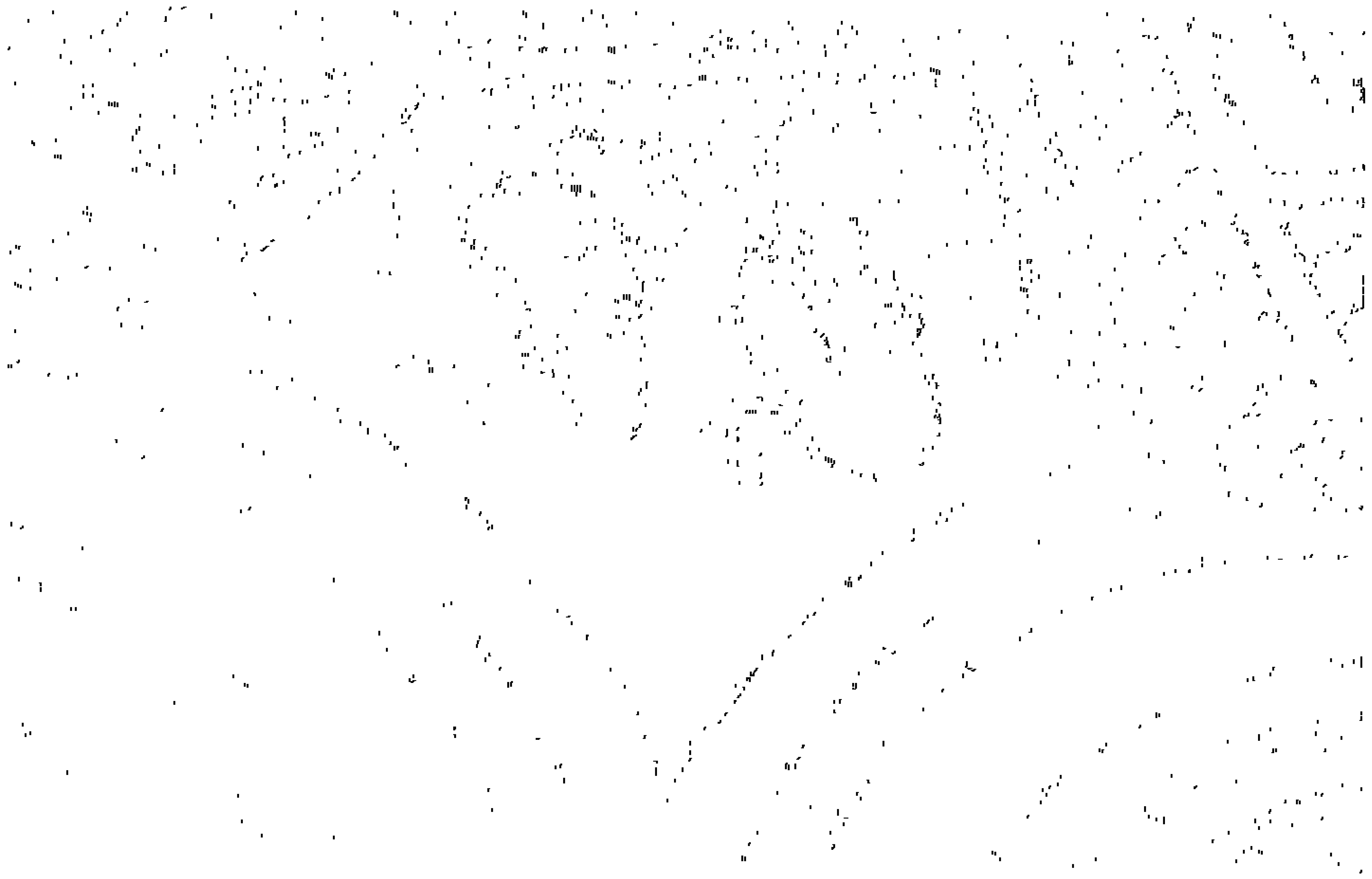

الصورة رقم (١٢) بعض صور فسيفساء موزاييك

*** فسيفساء المجاز والحنية في كنيسة ميخائيل بحورته (الكنيسة الصغرى)**

تبلغ مساحة هذه الكنيسة (٤٠ر٢٠×٢٠ر١٣م) وتقع على بعد خمسة امتار شمال الكنيسة الكبرى (كنيسة ففتيوس) .

ويشبه تخطيط هذه الكنيسة تخطيط الكنيسة الكبرى اي انها تتكون من ثلاثة أروقة اوسعها اوسطها وهي ماندعوه بالمجاز ويقابل هذا المجاز الحنية التي تقع شرق الكنيسة عادة .

تغطي ارض هذه الكنيسة فسيفساء منوعة ترقى لاواخر القرن الخامس الميلادي (٤٨٧م) وقد تم عرض فسيفساء المجاز والحنية ، والرواق الشمالي في متحف افامية ، امافسيفساء الرواق الجنوبي فمعروضة في حديقة المتحف الوطني بدمشق .

وتمثل فسيفساء الحنية مجموعة من الزخارف النباتية المكونة من فروع شجرة العنب على شكل دوائر تضم بداخلها مجموعة من الحيوانات والطيور .

امازخارف المجاز فأهم مايميزها صورة السيد المسيح يجلس على كرسي وتحيط به مجموعة من الحيوانات والطيور والوحوش والافاعي وتوجد في هذه الفسيفساء كتابة يونانية ، كانت تواجه الباب الرئيسي لهذه

الكنيسة (أي الباب الغربي) وقدلحق بهاتخريب بسيط ازال بعض كلماتهانصهامايلي :

(تخليداً لذكرى .... وسيمون بن دوروته ،وجميع اقربائه تم صنع فسيفساءميخائيل ، بفضل اهتمام ابنه د .... في زمن قسيسنا الشديد الورع .

في شهرآذارمن سنة ..... ،ستفانوس وليونتيوس الشماسان .

*** فسيفساء الكنيسة الكبرى بحورته :**

وهي فسيفساء الطبقة الثانية في (كنيسة فوتيوس) وترقى لمنتصف القرن الخامس الميلادي وتمثل في الوسط مجموعة من الحيوانات المفترسة تنقض اوتطارد بعض الحيوانات الاخرى ، ويحيط بهذ المنظر اطارذوزخارف نباتية رائعة .

*** فسيفساء الرواق الشمالي في كنيسة مخائيل بحورته :**

(الصورة رقم (١٣) وهي من روائع الفسيفساءالمكتشفة ،كانت تغطى ارض الرواق الشمالي في الكنيسة الصغرى (كنيسة ميخائيل)بحورتة وتمثل هذه الفسيفساءمجموعة من الحيوانات المفترسة تطاردحيوانات برية أخرى ،واهم مافيهامنظرقافلة مكونة من هودج يحمله بغلان شديدان يقود احدهماشخص يحمل بيده سوطا ،تعلوه كتابة يونانية باسم جورجيوس كلوديوس ، وتحيط بهذه القافلة بعض الطيوروكلاب الصيد ، وفي مقدمة هذه الفسيفساء كتابة يونانية مؤلفة من خمسة اسطرنصهامايلي :

في عهد الاقدمين ، اليوثر ،سيرج ،توماس دوروته ، وفي عهد الكهنة الخمسة دوروته ، حنا ،توماس ، جورج ، وتوماس الاخر قد رصفت كنيسة مخائيل بالفسيفساء .

ان زائرمتحف افامية لن ينسى ماعاش زيارته لهذا الصرح الحضاري الهام الذي يعد فريدا من نوعه في الشرق الاوسط ،ستحدثه معروضاته عن عظمة اجدادنا الاقدميين الذين خلفوا لنا تلك الحضارة الرائعة على مرالعصور .

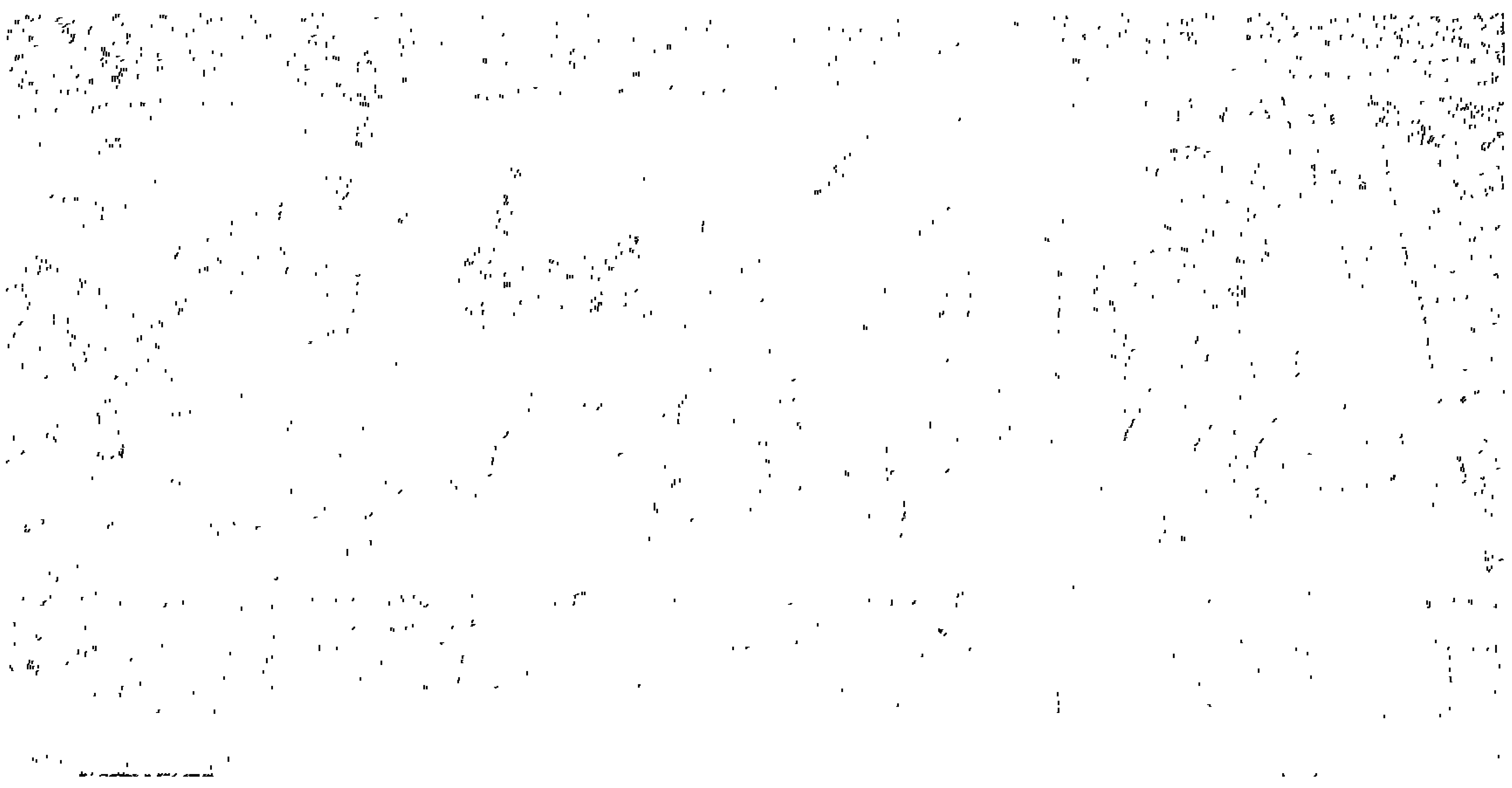

((الصورة رقم (١٣)))

(فسيفساء الرواق الشمالي في كنيسة ميخائيل بحورته)

مجلة

البحث التاريخي

صدر عن الجمعية التاريخية

١ ـ العدد الأول من مجلة البحث التاريخي

٢ ـ العدد الثاني من مجلة البحث التاريخي

٣ ـ العدد الثالث من مجلة البحث التاريخي

٤ ـ ندوة حمص الأثرية التاريخية الأولى

٥ ـ العدد الرابع من مجلة البحث التاريخي

مجلة البحث التاريخي
تصدرها الجمعية التاريخية بحمص

العدد الرابع - شعبان ١٤٠٧هـ - نيسان ١٩٨٧م

المدير المسؤول الأستاذ
محمد عبد الصمد الشاطر

رئيسة التحرير الدكتورة
تغريد الهاشمي

هيئة التحرير: السادة الأساتذة

محمود عمر السباعي — جرجس مخول
سمير عبد الصمد — عبد الإله نبهان
منذر حمودي — عبد الحفيظ شما

راجعه لغوياً الأستاذ جميل منصور

الغلاف: تصميم الفنان الدكتور عبد المنان شما

عنوان الجمعية
حمص - الجمعية التاريخية - شارع عبد الحميد الدروبي - ص.ب ٨٤٨
هاتف ٢٦٣٨٠

ملاحظات :

- البحوث والمقالات التي ينشرها الكتّاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .

- ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنية فقط .

- المراسلات باسم المدير المسؤول - حمص - الجمعية التاريخية .

* الفهـــــــــرس *

الموضـــــوع	رقم الصفحـــة
* الفهـــــرس .	
* المقدمـــــة .	
* المقـــــــالات :	
– امارة بني عمار في طرابلـــس	٧ – ٥٥
الدكتورة امينـة بيطـــار .	
– اولترا اعظم اسرار الحرب العالمية الثانية	٥٧ – ٦٩
ترجمة وتقديم الاستاذ محمودعمرالسباعي.	
– أبو لودور الدمشقي اعظم معمار في التاريخ .	٧١ – ٧٩
الدكتور عدنان البنـــي .	
– حول اعادة كتابة التاريخ العربي	٨١ – ٩٧
الاستاذ عبدالرحمن بدر الديـــن .	
– دراسة مقارنة لروايات فتح الشام	٩٩ – ١١١
الاستاذ محمد عبدالصمد الشاطـــر .	
– كفر البارة ومدنها الست .	١١٣– ١٢٥
الاستاذ كامل شحـــادة .	
– رومانسية الشرق من خلال النقود .	١٢٧– ١٤٠
الاستاذ محمد الخولـــي .	

- علم المتاحف ١٤١ – ١٤٤

الاستاذ بشير زهدي .

- السفارات العربية عند العرب المسلمين ١٤٥ – ١٥٣

الاستاذ جرجس مخول .

- اسرائيل وليدة سياسة الامبريالية العالمية ١٥٥ – ١٨٥

الاستاذ منذر حموي .

- تاريخ التنقيب عن الاثار ١٨٧ – ١٩٧

الاستاذ ماجد الموصلي .

- الانطلاقة العربية في الحقل التجاري ١٩٩ – ٢١٣

الاستاذ عبدالرحمن أيوب .

* افتتاحية العـــدد *

بين يدي القراء العدد الرابع من مجلة البحث التاريخي وبصدوره نؤكد التزامنا بالخط الذي رسمته المجلة لنفسها وهو البدء بكتابة التاريخ العربي على أسس علمية نقدية معترفين مسبقا بأن الالتزام بهذا الخط دونه عقبات كثيرة ،لم يكن بوسعنا تجاوز الكثير منها لولا نخبة خيرة من الزملاء المعنيين بآلام أمتهم وتراثها المجيد .

كتب الكثير في التاريخ العربي وقيل به أكثر وتزاحمت في تدوينه الاراء والافكار بعضهم أنصف غيرة وموضوعية وحبا في الحقيقة مرضين بذلك ضمائرهم محافظين على شرف الكلمة والفكرة ، وبعضهم كتب ليحقق أهواء ورغبات خاصة ،من هذا وذاك كان تاريخ أمتنا العربية المجيدة لم يوجد حادثة أو مناسبة الا وأغرقتها الاقلام بمدادها السيال ،بعضها كان مدمرا كالطوفان والبعض الاخر كان خصبا ونضارة .

ماكتب شيء ولن يكتب الا لهدف أو أهداف محددة والموضوعية نسبية وغالبا ماتجد الاهواء طافية على السطح بحده أو مستترة مقنعة بأقنعة شتى وبما أن الانسان هو العنصر الفاعل ،والانسان لايكون بلا أهواء وقلائل جدا من ينسبون الهنات لانفسهم ممن يلتقون معهم في المقاصد .

الهوى آفة ،والنسيان آفة ،وثالثة الاثافي التملق والمداهنة والعناصر الفاعلة والصانعة للتاريخ تلك التي لاتلين ولاتنحني أمام عواصف التعطيل والاعاقة ،فالاعواد الطرية تنحني وتخدش بسهولة .

هناك فترات من تاريخنا المجيد دونها الخصوم والمخالفون فهل تراهم أنصفوا الاموات أو سمحوا بانصافهم في وقت كانت موضوعيتهم مع الاحياء مفقودة ؟ .

كما أن هناك كتبا تاريخية كاملة من أجل تغطية فترة محددة لحكام وسلاطين محددين فماذا نتوقع من أمثال هذه الاعمال ؟ . أما ماكتبه الاجانب والمستشرقون فغالبا ماكان مشوها مغرضا ناجما عن

سوء فهم لاتجاهات التاريخ العربي ومراميه وطبيعة هذه الامة أو أن كتابتهم موجهة يراد بها خدمة غرض معين • مهمة من سيكتب في التاريخ العربي المسير في هذه الحقول الوعرة وعليه أن يتحرى دائما دائما ماذا لدى الطرف الاخر وملاحظة هذه الزوايا • من هنا كانت مسيرتنا الوئيدة متأنية وصعبة المرام وبامكانات مادية تكناد لاتذكر • فان قصرنا عن الهدف فهذا واقعنا وان أصبنا وحققنا نجاحا يذكر فالفضل لذوي الشأن •

نسأل الله العون وهو ولي التوفيق •

محمد عبد الصمد الشاطر •

إمارة بني عمار في طرابلس

الدكتورة أمينة بيطار

منذ أن ألفت كتابي موقف امراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، كنت أرى أن أضيف اليه موقف بني عمار منهم ، حتى أتيحت لي الفرصة الآن لاكتب في هذا الموضوع ، وأحببت أن لاأقتصر على الحديث عن موقفهم من الفاطميين ، بل أتحدث عن هذه الاسرة سياسيا وعسكريا لابراز صمودهم ضد الاستعمار الصليبي ، والكفاح المستميت الذي بذلوه لدفعهم عن طرابلس من جهة ، اضافة للحديث عن اسهاماتهم الحضارية وعلى رأسها مكتبتهم الشهيرة التي أنشؤوها ، والخدمات الجلى الاخرى التي اسهموا فيها في المجالات العلمية .

وما قدمته هذه الاسرة في المجالات المختلفة أشعرني أنها تستحق منا أن نعطيها اهتماما كافيا لابراز ماقدمته الى العالم العربي الاسلامي . وقبل الحديث عن أصل هذه الاسرة ، وأشهر رجالاتها لابد لي من اعطاء فكرة عن المدينة التي أقامت فيها دولتها ، وجعلتها مركزا للاشعاع الحضاري في تلك الازمنة .

* لمحة عن تاريخ طرابلس الشام :

كانت طرابلس تتبع من الناحية الادارية لكور دمشق ، وكانت من مدنه الشهيرة (١)، وتشكل احدى مدن اقليم الغرب الذي يضم عداها المدن الساحلية التالية ، عرقة ،وجبيل ،وصيدا ،وبيروت(٢).

---

(١) : المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ،مطبعة بريل سنة (١٩٠٩) ،الطبعة الثانية ص (١٥٤) .

(٢) : ابن شداد : الإعلان الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة قسم دمشق ، تحقيق سامي الدهان طبعة المعهد الفرنسي ، ص ٩٤ - ٩٦ - ٩٨ - ١٠١ - ١٠٦ .

وحين قرر الفاطميين فتح بلاد الشام بعد فتحهم لمصر[1] لضرورات سياسية وحربية ، على رأسها تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي للوقوف في وجه البيزنطيين والقرامطة[2]، عينوا على رأس جيوشهم المتوجهة اليها القائد الفاطمي المشهور جعفر بن فلاح الكتابي وقد تمكن هذا القائد من دخول دمشق في محرم سنة (٣٥٩ هـ) تشرين الثاني نوفمبر (٩٦٩م)[3] .

ثم مالبث أن اتبعها بطرابلس سنة (٦٣٠/هـ -٩٧٠- ٩٧١م) التي بقيت من الناحية الادارية على ماكانت عليه في العصور السابقة تابعة لكورة دمشق ، وهي جزء من اقاليم الغرب وعين عليها الامير عز الدولة تميم بن النعمان بن عامر بن هانىء التنوخي[4]. لكن الامر لم يستمر طويلا ،اذ مالبث الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣- ٩٧٤م) أن فصل طرابلس عن اقليم الغرب ، ولم تعد تابعة لكورة دمشق ،بل غدت ولاية قائمة بذاتها[5] وعهد بحكمها

---

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام ،مخطوط بدار الكتب ،رقم (٤٢) تاريخ ج٢١ ،ص ٢٨٧ .

(٢) صلاح الدين المنجد : امراء دمشق في الاسلام ،طبعة دمشق ١٩٥٥ تحقيق المنجد ص ٢٤ .
حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ،الطبعة الثالثة (١٩٦٤- ص ١٥١) .

(٣) ابو المحاسن ابن تغري بردى الاتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،دار الكتب المصرية ،القاهرة ج ٤ ، ص ٣٣ .

(٤) محمد محمد مرسي الشيخ : الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ط (١٩٨٠، ص ١٩٣) .

(٥) ابن الفرات : تاريخه ،تحقيق زريق ونجلاء عز الدين ج ٨ ،ص ٧٧ .

الى ريان الخادم ،الذي اتخذها قاعدة له ،وأصبحت منذ ذلك الحين من أهم قواعد الخلافة الفاطمية في الشام(١). لانها قاعدة متقدمة تتجمع فيها القوات البرية ، وفي مينائها الاسطول الحربي ، وهي همزة الوصل بين مصر والشام . وأصبحت لذلك هدفا للحملات والغزوات البيزنطية .

وقد تتابع في حكم طرابلس بعد ريان الخادم عدد من الولاة حكموها باسم الفاطميين ، وكانوا على التوالي (نزال الكتامي ـ وجيش بن محمد بن الصمصامة ـ وعلي بن جعفر بن فلاح وعز الدين تميم التنوخي ـ وميسور الخادم الصقلي ـ والقاضي آبو الحسن علي بن عبدالواحد(٢) بن حيدره الكتامي ـ والقائد ابو سعادة ، ثم مختار الدولة محمد بن نزال الكتامي .) وهناك خلاف بين المؤرخين على مدد حكمهم وتسلسلهم .

تبنى أهل طرابلس مذهب الخلافة الفاطمية ومالوا اليها ، مما أدى الى صعوبة نجاح الثائرين الذين يحاولون الاستقلال عن الفاطميين قبل عهد القاضي أمين الدولة بن عمار ، كما أن حصانة طرابلس ومناعة موقعها وشدة حراس أهلها وتكاتفهم مع الجند الفاطمي حفظتها من السقوط اكثر من مرة في أيدي البيزنطيين الذين حاولوا منذ منتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي أن يجعلوها تابعة لهم . فقد هاجمها في العصر الفاطمي الامبراطور البيزنطي

---

(١) محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ،ص ١٩٣ .

(٢) هكذا ورد اسمه عند محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ص ١٩٤
أما عبدالسلام التدمري : في كتابه تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ، مطابع دار البلاد طرابلس ،ط ١ ،ج ١ ،ص ٢٢١ فقد أورد اسمه علي بن عبدالرحمن .

يوحنا تزيمكس ، ابان حملته على بلاد الشام سنة (٣٦٥هـ/ ٩٧٥- ٩٧٦م) في غياب اميرها ريان الخادم الذي أرسله الخليفة الفاطمي الى دمشق[1] فاستعصت عليه بفضل الامدادات العديدة التي أرسلها الفاطميون اليها عن طريق مدن الساحل الشامي بقيادة نصر الخادم الصليبي[2]. فما كان من يوحنا تزيمكس الا أن أتلف الضياع المحيطة بها ودمر بساتين الكروم والزيتون ٠

وقد علم ريان الخادم بما جرى لطرابلس فسار من دمشق بعسكر الفاطميين الذين كانوا معه لنجدتها ، ورأى تزيمكس أن الخطر بات يهدد مؤخرة جيشه وطريق مواصلاته ، فتوجه الى الشمال عن طريق الساحل[3].

كما صمدت طرابلس في وجه البيزنطيين حين تعرضت لهجوم جيوش الامبراطور باسيل الثاني في السنوات (٣٨٥هـ/٩٩٥م و ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م و ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠م)[4] ٠

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،دار صادر بيروت (١٩٦٦) م ج ٨ ، ص ٦٤٣ ٠

(٢) الدواداري : الدرة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية (وهو الجزء السادس من كنز الدرر تحقيق المنجد) القاهرة (١٩٦١) ص ١٧٠ - التدمري : المرجع السابق ص ١٩١ - ١٩٢ ٠

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق سهيل زكار ، دار حسان للطباعة والنشر (١٩٨٣ - ص ٢٦ ،٢٧) ٠

- الدودازي: المصدر السابق ص ١٧١ - التدمري : المرجع السابق ص ١٩١ ٠

(٤) الانطاكي : تاريخه ،طبعة بيروت ١٩٠٩م ،ص ١٧٨ و ص ١٨٢ و ص ١٨٤ - ١٩٨٥ ٠

ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٧٣ و ٨٣ ٠

وقد استطاعت حاميتها الفاطمية الدفاع عنها في المرتين الاولى والثانية بقيادة قاضي المدينة علي بن حيدرة ، وساعده في الدفاع عنها في الثالثة واليها ميسور المقلبي . واذا كانت طرابلس قد نجت من الهجات البيزنطية ، الا أنها لم تنج من مؤامراتهم واثارتهم للقلاقل ، وتحريض بعض اعوانها أو المتخاذلين على خلع طاعة الفاطميين . وكان هذا الامر ينتهي لصالح الخلافة الفاطمية .

وبعد هذه الفترة ساعدت الاحداث العامة التي مرت بها طرابلس الى ظهور أسرة آل عمار القضاة . وقبل الدخول في تفاصيل ظهور هذه الاسرة على مسرح الاحداث لابد لي من التحدث عن اصلهم والاقوال التي قيلت في ذلك .

تختلف المصادر حول أصل بني عمار في طرابلس ، ويرجعهم كثيرون الى قبيلة كتامة المغربية الافريقية ، تلك القبيلة التي اعتنقت المذهب الفاطمي ، وناصرت الخلافة الفاطمية ، وكانت ساعد خلفائها الايمن في المغرب . على حين تشير مصادر أخرى الى أنهم ينتسبون الى بعض البطون النازحة من نجد أو من بلاد اليمن الجنوبية والتي استقرت في سورية في وقت غير معروف . فاذا سلمنا أنهم نزحوا من الجزيرة الى الشام فلا بد أنهم هاجروا قبل ظهورهم على مسرح الاحداث السياسية في المنطقة بفترة ليست قصيرة ،حتى اصبحوا أسرة حضرية تخلصت من العصبية والتشبث بالانساب ، واذا كانوا قد جاؤوا من المغرب وهو الاغلب ، فان هذا يعني أنهم أسرة غدت متحضرة ، واستجابت لعوامل التغير في الحياة العربية قبل نزوحها وغدا أفرادها قضاة ، أبدوا همة ونشاطا . ويمكن القول رغم تعدد الاراء أن آل عمار أسرة مغربية عربية أصيلة ظلوا فرسانا ، ومقاتلين لاتلين لهم قناة ، وعربا تواقين لمجالس الشعر والادب يحترمون الكلمة ، ويحافظون على العهد ويتمسكون بأبرز سمات الخلق العربي ، اضافة الى تميزهم بقسط وافر من الرقي المادي والفكري

أما عن وصول بني عمار هؤلاء من المغرب الى الشام فلا نستطيع تحديد هذا التاريخ بالشهر والسنة ولكن يمكن القول بأنه حين انتقل مركز الحكم الفاطمي الى مصر ،وامتدت الاراضي التابعة لهم الى بلاد الشام استقر بها عدد كبير من الكتابين المغاربة الذين جاؤوا في البداية مع جيش القائد جعفر بن فلاح الكتامي ، وتسلموا مراكز كبيرة في الجيش والادارة ، ومن هؤلاء عدا جعفر بن فلاح أبناؤه الذين تسلموا مراكز هامة في بلاد الشام ،ومنهم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي ابو تميم الذي تولى دمشق ، وهو الذي جعل أخاه علي بن جعفر واليا على طرابلس سنة (٣٨٦ هـ/٩٩٦م) (١).

وقد كان وصول أبناء جعفر بن فلاح الى مراكز ادارية وقيادية في الشام بفضل ابي محمد الحسن بن عمار الكتامي الذي مالبث أن قتل في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله سنة (٣٩٠هـ / ١٠٠٠م) (٢). وكان للحسن بن عمار وهو كبير كتامة وشيخها وسيدها دور كبير في الخلافة الفاطمية . فقد تولى النظر في الظلامات وحوائج الناس وتدبير الاموال ، ومحاسبة ارباب الدواوين (٣). وازدادت مكانته بعد وفاة الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، وتلقب بأمين الدولة فغلب على الملك . كما غلبت كتامة على الامور وبسط يده في العطاء والصلات بالاموال والثياب والحباء وتفرقه الكراع ، ووهب من الجواري لمن أحب وآثر . كما باع من باع وأعتق من أعتق (٤) .

---

(١) انظر ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٨٢ و ٩٣ .

(٢) ابن منجب الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ،
المقريزي : ايقاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ص ٢٧ تحقيق الشيال جـ٢ ، ص ٣٦ .

(٣) المقريزي : المصدر السابق ،جـ١ ، ص ٢٧٧ .

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٧٥ .

لم يكن ظهور الحسن بن عمار مفاجئا في مصر ، فقد كان له دور قبل ذلك حين تسلم قيادة الجيوش التي حاصرت رمطة في جزيرة صقلية (١).

وبعد مقتل ابي محمد الحسن بن عمار انقطعت المعلومات عن اسـرة بني عمار على الرغم من وجود قطعة نقود سكت في طرابلس باسـم الامام محمد بن عمار ، ولاتذكر المصادر الا قتل الوزير رئيس الرؤساء خطير الملك ابي الحسن عمار بن محمد (٢). والذي كان يتولى ديـوان الانشاء في مصر . وتعود المصادر لذكر اسماء رجال من آل عمـار منذ النصف الاول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فنقرأ عن رجلين من بني عمار في طرابلس بالذات وهما أحمد بن محمـد بن عمار المعروف بأبي الكتائب ، وعبد الله بن محمد بن عمـار المعروف بالقاضي الجليل ابي طالب . وقد صنف أبو الفتح الكراجكي المتوفى سنة (٤٤٩هـ) لابي الكتائب كتابين هما نهج البنيان ، وعـدة البصير في حج يوم الغدير ، ولابي طالب كتاب البستان في الفقـه (٣) ولما كان الكراجكي موجودا في طرابلس سنة (٤٣٦ هـ/ ١٠٤٤م) كمـا يذكر في احدى مصنفاته . فهذا يعني أنه وضع المصنفات لبني عمار في العقد الرابع من القرن الخامس . ويشير لقب القاضي الذي تلقب بـه عبد الله بن محمد بن عمار الى أنه تولى القضاء في طرابلس ومتولي القضاء للفاطميين داعية لهم في نفس الوقت ، وبالتالي فان مكانتـه أسمى من مكانة الوالي أو قائد الجيش .

وبناء على ذلك فان الدكتور التدمري (٤) يرى بأن ظهور بني عمـار

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان وابناء ابناء الزمان ، تحقيـق احسان عباس ،دار صادر بيروت (١٩٧٧) ج ٥ ،ص ٣٧٤.

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ،ص ١٦٠ .

(٣) عمر عبدالسلام التدمري : المرجع السابق ،ج١ ،ص ٢٤١ .

(٤) التدمري : المرجع السابق ،ص ٢٢٦ .

في طرابلس كان في مطالع القرن الخامس الهجري ، على عكس من سبقه من المؤرخين الذين يرون أن ذلك حدث في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري • وفي رأيي وبناء على مجريات الاحداث أن ظهور الاسرة كان في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ،ثم مالبث أثرهم في الاحداث السياسية والعسكرية أن اتضح في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري •

ويمكن القول بأن ظهورهم بدأ بأبي طالب محمد بن أحمد في طرابلس منذ سنة (٤٢٠ هـ / ١٠٢٨م) وهو غير أبي طالب المعروف بأمين الدولة وأبو طالب هذا هو علي ابن عمار الذي ضربت قطعة النقود في طرابلس باسمه ، وقطعة النقود هذه تحمل على أحد وجهيها اسم الامام محمد بن عمار ، وان اشار هذا الى شئ فانما يشير الى تمكن بني عمار من ضرب النقود ، وذكر أسمائهم عليها في تلك الفترة المبكرة من القرن الخامس الهجري •

وقد حدثت بعض الاحداث في طرابلس أدت الى ظهور اسم أبي طالب أمين الدولة ، حتى أصبح من رجالات طرابلس البارزين في سنة (٤٥٧ هـ / ١٠٦٥م) وذلك اثر مساعدته للفاطميين في القضاء على أسرة ابي الفتح القضاة في طرابلس والذين أثاروا فتنة فيها في السنة المذكورة ، واستحوذوا على السلطة ، وخلعوا طاعة الفاطميين وأعلنوا الاستقلال • وهم ينتسبون الى عبدالحاكم بن سعيد الغارقي فقد ساعد ابو طالب بن عمار قائد الفاطميين ابن منزو الكتامي والذي كان برفقته والي الرملة ، وتمكنوا جميعا من القبض على بني أبي الفتح الذين ارسلوا الى مدينة صور[1]• وقد لعب ابو طالب بن عمار دورا كبيرا في القضاء على هذه الفتنة ، فقد حبب لابي الفتح الخروج معه لمقابلة ابن منزو والمفاوضة في امر الصلح • وقد يكون سبب مساعدة ابن عمار لقائد الفاطميين ، عداء بين الاسرتين اللتين امتهنتا نفس المهنة ،ولم يتضح هذا العداء بشكل على

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ،ج ٩ ،ص ٢٩٣ مطبوع •

الا بعد منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .
ويرى الدكتور محمد مرسي بأن اشتراك أمين الدولة بن عمار في هذه الفتنة الى جانب الفاطميين له أهمية كبيرة ، فقد ظهر بعمله هذا بمظهر المؤيد للفاطميين ، حين احتال على أبي الفتح للخروج معه لمقابلة ابن منزو والمفاوضة في أمر الصلح ، بينما كان يعمل سرا على التخلص منه ومن أسرته ، واستطاع أن ينتزع منهم انصارهم من الاحداث حين جعلهم يستأمنون اليه ، وكان منهم ثمانية وعشرون رجلا من قادة المقاتلة [1] .
أدى هذا التصرف السياسي الذكي من قبل أمين الدولة بن عمار الى ارتفاع مكانته عند الفاطميين ،حتى انه توصل الى أن يصبح وسيطا بينهم وبين الامير المرداسي محمود بن نصر المعروف بابن الروقلية وكان قد وصل محمود هذا مع ابن خان التركماني[2] سنة (٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) فسوى له ابن عمار أموره مع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وأخذ منه مبلغا من المال ليؤمن به طريق التجارة من شمالي الشام الى ميناء طرابلس ، وذلك ضمانا لعدم تهديد التركمان للتجارة وخاصة وأنهم كانوا قد استقروا في جنوبي حلب[3] .
ويمكن القول بأن أمين الدولة بن عمار أصبح يتمتع منذ سنة (٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤م) بمكانة بارزة عند الخليفة الفاطمي . وكان رأيه

---

(١) سبط بن الجوزي : المصدر السابق جـ١٢،ق١ ،ص ١٠٢ – ١٠٣ مخطوط .
(٢) هو من الغز التركمان ،ويقال بأنه ابن لاحد ملوك الترك كان أول من دخل الى بلاد الشام من الغز (ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان جـ٢،ص ٣٧٣ و ١٣١ .
– زكار – مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية .
(٣) شاكر مصطفى : دخول الغز الى الشام ،المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الاول عمان (١٩٧٥ – ص ٢٤٣) .

مسموعا وكلمته نافذة في طرابلس ،ولولا ذلك لما استطاع أن ينجح في وساطته . وقد أورد أبو المحاسن عبارة تشير الى هذه الوساطة فقال(فدخل القاضي ابن عمار المقيم بطرابلس بينهم ، واصلح الحال) (١) . وما لبث أمين الدولة بن عمار في سنة (٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م) أن استغل مكانته وما أصاب الخلافة الفاطمية من كوارث وفوضى في هذه السنة (٢) ، اضافة الى أن والي مدينة طرابلس من قبل الفاطميين وهو ابن نزال قد توفي ، فسارع الى اعلان استقلاله بها وتلقب بأمين الدولة ، وأخذ يباشر السلطة كحاكم مستقل (٣) . وهكذا جمع ابن عمار بين القاضي والوالي ، وأخذ يحكم طرابلس بشيء من الاستقلال الذاتي . وقد أحسن السياسة لانه كان رجلا عاقلا ذكيا ، بعيد النظر ، اضافة الى أنه كان على جانب كبير من الدهاء والفطنة فضلا عن أنه كان فقيها شيعيا محبوبا (٤) ، وقد وصفه ابو المحاسن بقوله (كان كريما ، كثير الصدقة ، عظيم المراعاة للعلويين) (٥) . كما وصفه سبط بن الجوزي بأنه كان عظيم الصدقة ، كثير المراعاة للعلويين (٦) .

تعرضت طرابلس في عهد أمين الدولة بن عمار الى هجوم محمود بن نصر المرداسي الذي أراد أن يوسع امارته على الرغم من أن أمين الدولة حاكمها كان له الفضل الاكبر في التوسط بينه وبين الخلفة الفاطمي المستنصر بالله ،ولما لم يستطع دخول طرابلس اكتفى

---

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق ،ج ٥ ،ص ٧٩ .
(٢) أبو المحاسن : المصدر السابق ،ج ٥ ،ص ٨٣ و ٨٤ .
(٣) محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ،ص ٢٠٠ .
(٤) ابن الفرات : المصدر السابق ،ج ٨ ،ص ٧٧ .
(٥) أبو المحاسن : المصدر السابق ،ج ٥ ،ص ٨٩ .
(٦) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ،ج٩ ،ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

بأخذ الاموال منها وعاد الى حلب [1]. وقد يكون سبب ذلك احتواء آمين الدولة بن عمار لسديد الملك علي ابن المقلد بن منقذ ورفضه لتسليمه الى محمود بن نصر الذي ألح في طلبه [2].

ويبدو أن نفوذ الفاطميين في ذلك الحين آخذ في الانحسار لا عن طرابلس وحدها بل عن مناطق متعددة في بلاد الشام كدمشق وصور والرملة وغيرها .، ولم يكتف أمين الدولة بالاستقلال في طرابلس بل تغلب على مدينة جبيل وضمها الى نفوذه ، وخلع طاعة أمير الجيوش بدر الجمالي ، وبذلك وضع النواة الاولى لقيام امارة بني عمار المستقلة ، لكنه مع ذلك لم يستقل نهائيا عن الفاطميين بل استمر يسك النقود باسمهم ، ويؤكد ذلك ماسكه في سنتي (٤٦١ هـ / ١٠٦٩م و ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) فالوجه الاول لنقد سنة (٤٦٣ هـ)نقش في وسطه :

معد

عبد الله وولده

الامام أبو تميم

المستنصر بالله

أمير المؤمنين

ويحيط به : بسم الله الرحمن الرحيم (ضرب هذا الدينار بطرابلس سنة (١١١) وستين وأربعمائة .

أما وسط الوجه الثاني فنقش فيه :

علي

لا اله الا الله

وحده لاشريك له

---

(١) : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،طبعة دار صادر بيروت (١٩٦٦) ،جـ٩ ،ص ٢٣٤ .

(٢) : ابن العديم : المصدر السابق ،جـ٢ ،ص ٣٥ .

محمد رسول الله

وولي الله

ويحيط به : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

ومع ذلك يمكن القول بأن سياسته العامة غلب عليها الحياد بين القوى المتصارعة ، وكان هدفها الحفاظ على امارته وسط تطلعات القوى المحيطة به . فتقرب من السلاجقة الاتراك ليدعم موقفه في طرابلس . وسمح لقسم من التركمان الناوكية بالاقامة عند طرابلس (١) .

توفي أمين الدولة بن عمار في رجب سنة (٤٦٤ هـ / نيسان ابريل ١٠٧٢م) (٢) . ورثاه ابن حيوس في ديوانه بقصيدة مطلعها :

رد بالعراء اليهم عن طلابه

لاسخطن الله في مرضاته (٣)

أما الاسباب التي شجعت أمين الدولة على الاستقلال الداخلي عن الفاطميين ،فيمكن تلخيصها بما يلي :

١- ضعف الخلافة الفاطمية في تلك الفترة ، والذي كان سببه :

آ- تعدد الاجناس المكونة للجيش الفاطمي ، فقد تألف من المغاربة والاتراك والسودانيين ولم

---

(١) شاكر مصطفى : المرجع السابق ،ص ٣٥٩ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ،جـ ١٠ ،ص ٧١ .

ابو المحاسن : المصدر السابق ،جـ ٥ ،ص ٨٩ .

(٣) ابن حيوس : ديوانه : تحقيق خليل مردم بك ، طبعة المجمع العلمي دمشق (١٩٥١) .

التدمري : المرجع السابق ،جـ١ ،ص ٢٥٠ .

يكن التفاهم سائدا بين هذه العناصر ، فكثيرا ما كان الصراع يدب بين بعضها البعض ، وخاصة ماجرى بين الاتراك والسودان في سنتي (٤٥٩ - ٤٦٠ هـ /١٠٦٧ - ١٠٦٨م) .

ب - تولي خلفاء الفاطميين في الفترة الثانية من حكمهم وهم صغار في السن ، وليست لديهم الخبرة والمقدرة على تسيير أمور الدولة ، فاستبد الوزراء بالحكم من دونهم حتى عرف العصر الفاطمي الثاني بعصر الوزراء العظام ، وأصبح منصب الوزارة في هذه الفترة محط اطماع كبار رجال الدولة وقادة الجيوش ،فنشبت صراعات دامية أدت الى ضعف الدولة (١). ويضاف الى ذلك ضعف الخليفة المستنصر وطول مدة حكمه .

جـ - تعرض الاقتصاد في مصر الى هزات عنيفة نتيجة انخفاض النيل مرات عديدة ، وصحب ذلك حدوث مجاعات وأوبئة أدت الى ضعف الاوضاع العامة (٢).

٢- عدم استقرار امور الخلافة الفاطمية الداخلية بسبب :

آ- تسلط الامراء والوزراء على الخلفاء .

ب - اتصال الفتن بين العربان .

جـ - قيام الفتن والثورات والحروب في بلاد الشام أيضا بين بدر الجمالي والي دمشق حينئذ ، وبين جند

---

(١) الشيال : مصر الاسلامية ، دار المعارف (١٩٦٧) ،جـ٢ ،ص ١٣ .

(٢) المقريزي : المصدر السابق ،جـ٢ ،ص ٣٣٢

- اغاثة الامة بكشف الغمة ،نشر زيادة والشيال ، ط٢ سنة (١٩٥٧) م ،ص ٤ وما بعدها و ص ٢٨ .

- راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين ط ١ ، قاهرة (٩٤٨ م) ص ٨٥ وما بعدها.

دمشق وأهلها ،فصارت الحرب عامة في الشام ومصر (١).
ويتضح مما أورده المقريزي ،أن هذه الاوضاع كانت من نتائج الشدة العظمى التي تعرضت لها مصر في سنة (٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥م) في أيام الخليفة المستنصر بالله ،والتي أدت الى حدوث مجاعة وقحط استمرت سبع سنين متوالية ، عم فيها الغلاء والاوبئة . ومما جاء في قول المقريزي :

((ضعف السلطنة ،واختلال اموال المملكة ، واستيلاء الامراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان ، وقصور النيل ، وعدم من يزرع ماشمله الري)) (٢) .

وقد شبه ابن ميسر هذه الشدة بما حدث في مصر في عهد النبي يوسف بن يعقوب عليه السلام فقال :

(يمد فيها النيل ويطلع وينزل ، فلا يجد من يزرع أراضي مصر من اختلاف العسكر وانقطاع الطرقات في البحر والبر) (٣).

٣- نشاط السلاجقة وتقدمهم في املاك الفاطميين ،وكانوا قد ظهروا كقوة جددت شباب الخلافة العباسية في الوقت الذي دخلت فيه الخلافة الفاطمية عصرها الثاني عصر الضعف .

٤- ظهور دويلات وقوى متعددة في الشام في هذه الفترة وقبلها وتعرضها للاكتساح من قبل التركمان من امثال ابن خان واخشين (٤). ولذلك فان مدن ومناطق الشام أخذت تستقل عن الفاطميين ،أو تصبح تابعة للقوى الجديدة التي دخلت الشام .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ،جزءان تصحيح هنري ماسة ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي القاهرة (١٩١٩) ص١٨-١٩-٢٠.

(٢) ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٣) العظيمي : تاريخه ،دمشق ١٩٨٥،ص ٣٢٦ - ابن العديم : المصدر السابق ج٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٨ و ٣٧٤- ٣٧٥ - ٣٨٠ .
- شاكر مصطفى : المرجع السابق ،ص ٣٤٣ - ٣٤٨ .

فقد قطعت الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في حلب ، كمـــا استولى التركمان على بيت المقدس والرملة ، واستقلت صور تحـــت حكم قاضيها ابن أبي عقيل واستقلت طرابلس تحت حكم ابن عمار . وقد أدت هذه الكوارث الاقتصادية والطبيعية والادارية والسياسيـــة الى فقد الخلافة الفاطمية لمقدرتها على السيطرة على مراكز حكمهـــا وبالتالي فقدها للسيطرة على الولايات التابعة لها .

ـ حكم جلال الملك أبي الحســـن :

ما أن توفي أمين الدولة بن عمار حتى دب النزاع بين أفـــراد أسرته طمعا في الحكم ، واختلف المؤرخون حول هذا النزاع . وممـــا ذكر حوله هو أنه لما كان ابن أمين الدولة بن عمار الملقـــب بأبي المناقب شمس الملك محمد لم يبلغ سن الرشد ، فان نزاعـــا دب بين أقاربه . فيرى التدمري أن هذا النزاع دب أثر وفاة أميـــن الدولة بين ولدي أخيه محمد ، وهما جلال الملك أبو الحسن وفخـــر الملك أبو علي[1] على حين أن محمد مرسي[2] يرى أن النزاع لم يقـــع بين ولدي محمد المذكورين ، ويؤكد رأيه بأنه في عهد جلال الملـــك الذي حكم قرابة ثلاثين عاما لم نسمع عن مصاعب لقيها حكمه مـــن جانب أخيه فخر الملك ، بل تشير الدلائل الى سيادة روح الاخاء والـود بينهما ، هذا فضلا عن أن جلال الملك وفخر الملك لم يكونا الولديـــن الوحيدين لمحمد ، فقد كان لهما أخ ثالث يدعى حمال الدولـــــة الذي يرجح أنه مولى بدر الجمالي الذي نسب اليه . كما أن النـــزاع لم يقع بين جلال الملك ووالده محمد ، لاننا لانجد الا نصا واحـــدا يشير اليه ،اضافة الى أن محمدا توفي في حياة أخيه أمين الدولـــة أي قبل قيام هذا النزاع بوقت ليس بالقصير ، كل هذا يجعلنـــا

---

(١) التدمري : المصدر السابق ،ص ٢٥٦ .

(٢) محمد مرسي ... المرجع السابق ،ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

نعتقد أنه كان هناك أخ آخر لامين الدولة غير محمد أسمه أبو الفتح ، لابد وأنه طمع بالامارة بعد وفاة أخيه من دون أبناء أخيه محمد . وما يؤكد هذا ما أشار به سبط بن الجوزي حين ذكر احداث سنة (٤٦٤ هـ / ١٠٧٢م) حيث ذكر أن جلال الملك قام بعد أن نجح بالحصول على الامارة بنفي عمه أبي الفتح ، ونكل بمعاونيه وعلى رأسهم ابن الماسكي (١) ، ويعود التدمري (٢) ليذكر أن هذا الصراع المذكور بين جلال الملك وأبي الفتح هو صراع بين أبناء عمومة لابين العم وابن أخيه ،أي يجعل أبا الفتح ابن أخ ثالث لامين الدولة بن عمار . ومهما كانت درجة القرابة بين الرجلين المتصارعين ، فان مايهمنا هو أن جلال الملك نجح بالاستئثار بحكم طرابلس .

كان الفضل في نجاح جلال الملك في عرش طرابلس يعود الى مساعدة سديد الملك ابن منقذ له ، والذي كان قد لجأ الى طرابلس ،وألقى بكل ثقله ، وعاضده بمماليكه ومن كان معه من أصحابه (٣). وبعد نجاحه أصبح ابن منقذ من خواص جلسائه ، حتى أنه كان كالشريك له في حكم طرابلس (٤). وبقي ابن منقذ مع جلال الملك في طرابلس حتى تملك قلعة شيرز في رجب سنة (٤٧٤ هـ / كانون الاول ديسمبر

---

(١) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ،جـ٩ ورقة ٤٠٣ – ٤٠٤ .

محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق : ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

(٢) التدمري : المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٢ ،ص ٣٥ .

– ابن الفرات : المصدر السابق ،جـ ٨ ،ص ٧٧ .

– التدمري : المرجع السابق ،ص ٢٥٦ – محمد مرسي الشيخ المرجع السابق ص ٢٠٢ .

– عبدالعزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ ،ط الاسكندرية (١٩٦٧) ،ص ٦٨ – ٦٩ .

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ،جـ٣ ،ص ٣٥ .

١٠٨١م) ،وكان خصمه محمود بن نصر المرداسي قد توفي منذ سنـــة (٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م) (١) .

تمتع جلال الملك بصفات الامير من دهاء وحكمة ومرونة سياسية ، وقـوة شخصية وقد ساعده ذلك على ضبط البلد أحسن ضبط ، فلم يظهر لفقـد عمه أثر لكفايته (٢). فقد نجح في الحفاظ على استقلال الامارة نحو ثلاثين عاما ،كما حافظ على الحياد بين الفاطميين والسلاجقة علـى الرغم من قوة السلاجقة في تلك الفترة ، وسيطرتهم على اجزاء واسعـة من بلاد الشام (٣) .

اهتم جلال الملك بتنظيم شؤون طرابلس وسيادة الامن فيها ، فعيـن لها قاضيا للشيعة هو عبدالعزيز بن البراج ، وقام بتصفية العناصـر ذات الميول المشبوهة في امارته مثل الشاعر ابن حيوس ، كما قضـى على مؤامرة كبيرة اكتشفها مصادفة، قام بها عدد من وجوه طرابلـس المدعمين من بدر الجمالي في سنة (٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م) بعدأن وقـع بيده كتاب من بدر الجمالي الى المتآمرين معه يعلمهم فيه عـن موافقته على القبض على جلال الملك ، فنهض جلال الملك للقضاء عليهـا فقبض على عناصرها وقضى بذلك على هذه المؤامرة (٤).

وقد دفعته هذه المؤامرة الى جانب أسباب أخرى تتعلق بسياسة الدولة العامة الى العمل على كسب رجالات عصره . فقد اتخذ سياسة أقرب الـى اللين مع الفاطميين وذلك كي يتجنب الصدام معهم ، ويضمن عدم اثـارة القلاقل في طرابلس من قبل انصارهم ، وليظهر بمظهر التابع المطيـع ومن مظاهر طاعته للفاطميين تسليم الامير معلى بن حيدرة بن منـزو

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ١٧٣ ،ص ١٨٤ .
- ابو المحاسن : المصدر السابق ،ج ٥ - ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٧١ .

(٣) العاملي : الكشكول ، مصر (١٣١٦ هـ) ص ١٠٠ .

(٤) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ،جـ ١٢ ،ق ٢ ،ص ١٦٥ ب و ١٦١م

والي دمشق الفار منها للسلطات الفاطمية حين لجأ اليه ، على الرغم من أنه أخ لزوجته [1]. ومع ذلك فقد تعرض لهجمة فاطمية قادها نصر الدولة الجيوشي الذي خرج لاعادة بلاد الشام الى طاعة الفاطميين. كما تعرض لهجمات اتز ابن أوق التركماني الذي استطاع أن يستولي على دمشق وغيرها ولكن جلال الملك صده عنها [2]. كما سمح للغز بالتجارة في طرابلس ، ووطد علاقته بتاج الدولة تتش ، حتى أنه طلب منه عدم تزويج ابنته لبدر الجمالي ففعل ، كما تزوج من ابنة الامير حيدرة بن منزو الكتامي [3].

تعرضت طرابلس لخطر السلاجقة ثانية في سنة (٤٧١ هـ/ ١٠٧٩م) على يد تاج الدولة تتش. وكانت أولى بوادر ذلك حين تعرض لقافلة تجارية كانت متوجهة الى طرابلس من رفنية فقتل منهم جماعة ،ولكن جلال الملك صانعة وهادنه ولاطفه [4]، وبهذه السياسة استطاع جلال الملك أن يجعل السلاجقة في صفه دون أن يكون لهم نفوذ في طرابلس وكل ماكان يقوم به تجاههم هو تقديم بعض مايطلب منه من مساعدات ، مثل الطلب الذي جاءه من ابن قتلمش والذي يتلخص في أن يرسل له قاضيا وخطيبا الى طرطوس بعد أن فتحها ،فلبى ذلك [5]. ووصل الامر بحسن العلاقات الى أن تتش استولى في سنة (٤٧٧هـ/١٠٨٥م) على طرطوس فسلمها لجلال الملك بن عمار نظير مبلغ من المال [6].

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ١٦٢ - عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦٨ - ٧٠ .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ١٧٦ ومابعدها .

(٣) سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ،ج١٢ ،ق٢ ،ص ١٨٠م .
- ابو المحاسن : المصدر السابق ج٥ ،ص ١١٦ .

(٤) ابن القلانسي : المصدلا السابق ،ص ١٨٢ ومابعدها ،وحاشية ٢ نفس الصفحة .

(٥) ابو المحاسن : المصدر السابق ،ج٥ ،ص ١١٣و١١٥ .

(٦) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ،ج ١٠ ورقة ٦٨
- محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ،ص ٢٠٩ .

وقد وضح ابن خياط فيما أنشده من شعر ،سياسة جلال الملك الحياديـة بين القوى ، والعادلة في حكم الناس فقال :

ليعلم من بأرض النيل أضحى ومن حل الفرات الى الصراة
سالك منهم للعدل أشهـــــى وأرغب في التقى والصالحات
وأعضبهم لدين الله سيفـــا وأقتلهم للجبابرة العتاة (١)

كما تمكن من أن يجعل من طرابلس قبلة للخائفين والعلماء، فقـــد لجأ اليه الفارون من دمشق اثر المجاعة والغلاء الذي حدث في سنـــة (٤٦٧– ٤٦٨ هـ/١٠٧٥– ١٠٧٦م) ومن كبار اللاجئين اليه الشاعر أحمـــد بن الحسين النقار الحميري ، وأخوه القاضي محمد بن الحسين والشاعـــر ابن الخياط . واخوه يحيى بن محمد (٢) كما لجأ اليه قاضي صور ابـــن أبي عقيل الثائر على الخلافة الفاطمية ، فسلمه ابن عمار للفاطميين حيث لقي حتفه (٣).

قام جلال الملك بن عمار بتشجيع العلم ، فعمل على تجديـــد دار العلم في سنة (٤٧٢هـ /١٠٨٠م) كما كان ينفق على طلاب العلـــم جرايات من النقود الذهبية ، وضرب النقود باسمه كما سمح بتـــداول النقود المضروبة في طرابلس والتي كانت تحمل اسم الخليفة الفاطمي والتي توقف سكها منذ سنة (٤٧٥هـ/١٠٧٣م) (٤).

نهض جلال الملك بن عمار بتوسيع حدود امارته التي وصلت حتى جبلة شمالا والى جونيه جنوبا والى حصن المنيطره في الجنوب الشرقي (٥) وكان هذا أقصى اتساع لدولة آل عمار التي شملت شريطا ساحليـــا

---

(١) ابن الخياط : ديوانه ،ص ٤٣ – التدمري : المرجع السابق ص ٢٦٤.

(٢) التدمري : المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٣) محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ،مكتبة النهضـــة المصرية (١٩٦٤ –

(٥) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ،ج ١٢ ق ، ورقة ١٧٠ م و ب . ابن الاثيـــر : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٣١٠ .

امتد من جبلة شمالا الى مشارف بيروت جنوبا ، وضم جبلة وطرطوس وعرقة وجبيل .

لم تبق دولة بني عمار على هذا الاتساع ،بل تعرضت منذ مطلع العقد التاسع من القرن الخامس الى اخطار متعددة ،جاء الاول منها من قبل جيوش بدر الجمالي التي توجهت الى الشام في سنة (٤٨٢هـ/١٠٩٠م) وتمكنت هذه الحملة من اقتحام المدن الساحلية مثل عكا وصيدا وصور وانتزعت كذلك جبيل من يد ابن عمار[(١)].

أما الثاني فقد جاء من قبل تتش الذي حصل على تصريح من السلطان السلجوقي ملك شاه بالتوسع على حساب الامارات المستقلة في بلاد الشام ، والتي لاتدين للسلاجقة ، وطلب من اتباعه آق سنقر وبوزان بمساعدته بهذا العمل[(٢)]. وقد تمكن هذا الجيش المجتمع من الاستيلاء على حصن عرقة [(٣)]. ثم قصد طرابلس ذاتها فألقى الحصار عليها ورأى جلال الملك بن عمار أن هذا الجيش السلجوقي المجتمع لايدفع بالقوة لكثرة عدده بل بالحيلة فاستمال آق سنقر ومن معه بالاموال كما ادعى بأن ملك شاه اعطاه منشورا بحكم طرابلس ، فأصبح قسيم الدولة لدى تتش ، بأنه لايقاتل من كانت هذه المناشير بيده ، وقد أدى هذا الخلاف الى انسحاب قسيم الدولة ، فاضطر تاج الدولة تتش

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ١٧٦ .
- ابو المحاسن : المصدر السابق ،ج٥ ،ص ١٢٨ .

(٢) عماد الدين الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ،مصر (١٩٠٠) ص ٦٥ – ٦٦ .
- ابن القلانسي : المصدر السابق ص ١٩٥ .
- ابن الاثير : المصدر السابق ، ج١٠ ص ٢٠٣ .
- ابن العديم : المصدر السابق ،ج ٢ ص ١٩٧ .
- ابو المحاسن : المصدر السابق ،ج٥ ص ١٢٥و ١٢٨ .

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج١٠ ص ٢٠٣ .

الى الرحيل والعودة الى دمشق[1].

أما الخطر الثالث فقد جاء من ابن ملاعب الذي شن غارات على الحصون القريبة وامتدت غاراته الى عرقة فاستولى عليها من جلال الملك بن عمار ، ولكن ابن عمار تمكن من استعادة الحصن منه[2].

كما خرجت جبلة عن طاعة آل عمار والتي كانت بيدهم منذ سنة (٤٦٩ هـ/١٠٧٧م) وتبعت ابن صليحة[3] بعد أن أعلن العصيان على ابن عمار ، مستندا الى مساعدة السلاجقة[4] وقد استطاع فخر الملك بن عمار بعد وفاة اخيه جلال الملك في شعبان سنة (٤٩٢ هـ/ تموز يوليو ١٠٩٩م) من أن يستعيد هذه المدينة وبذلك بقيت دولة بني عمار محافظة الى حد ما على اتساعها حتى وصول الصليبيين[5].

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ١٠ ص ٢٠٢ .
- ابو المحاسن : المصدر السابق ، جـ٥ ص ١٢٥ .

(٢) زكار : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، مؤسسة الرسالة ط ١(١٩٧٢) ص ٣٨٠ .

(٣) هو أبو محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صليحة انظر ابن الاثير : المصدر السابق جـ١٠ ص ٣١٠ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٣١٠ .

(٥) ابن الاثير : المصدر السابق ج١٠ ص ٣٢٥ .
- ابو المحاسن : المصدر السابق جـ٥ ص ١٦٧ .

* آل عمار والمواجهة الصليبية :

آ- جلال الملك بن عمار والحملة الصليبية الاولى :

وصلت الحملة الصليبية الاولى لبلاد الشام في سنة (٤٩١ هـ / ١٠٩٨م) (١) في الفترة التي كانت فيها القوى المتعددة الحاكمة في ارجاء الشام متصارعة . وكانت كل واحدة منها تهتم بأوضاعها الخاصة دون النظر الى مصلحة البلاد العربية الاسلامية . وقداستطاعت هذه الحملة أن تؤسس أربع امارات ، كانت أولاها امارة الرها التي آسست سنة (٤٩١هـ/١٠٩٨م) (٢) . ثم تلتها في التأسيس امارة

---

(١) عن اسباب هذه الحملة ومجريات احداثها ،راجع ابن الاثير الكامل في التاريخ جزء ١٠ ص ٦٥ ومابعدها .
- ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة وزارة الثقافة ١٩٧٨م تحقيق عبارة ج٣ ق١ ص ٤٠٢ومابعدها.
- الراوندي : راحة الصدور وآية السرور نشر وتصحيح محمد اقبال طبع ليدن (١٩٢١م) ص ١١٨ ومابعدها .
- عاشور : اوربا في العصور الوسطى ،التاريخ السياسي ،مكتبة الانجلو المصرية ط ٦(١٩٧٥م)ج١ ص ٣٤٦ ومابعدها .
الحركة الصليبية : مكتبة الانجلو المصرية ط٢(١٩٧١)ج١ ص ٩٦ ومابعدها .
- أسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ،دار المكشوف ،بيروت (١٩٥٦م) ج٢ ص ١١٠ - ١١١ .
- عبدالنعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ،مكتبة النهضة المصرية (١٩٥٩)م ص ٩٠ .

(٢) حول تأسيس هذه الامارة انظر :
- رنسيمان : المرجع السابق ص ٢٧٧ - ٢٩٥ .
- اسد رستم : المرجع السابق ،ج٢ ص ١٢٩ .
- عاشور : المرجع السابق ج١ ص ١٧٧ - ٨٨٠ .

امارة انطاكية (1) وكانت امارة بيت المقدس والتي ستصبح مملكة في الدرجة الثالثة من حيث الفترة الزمنية ، وكان تأسيسها في سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م) (2) . وقد قاموا في اثناء احتلالهم لهذه المناطق وتأسيسهم لهذه الامارات بأعمال تقشعر لها الابدان ذكرتها المصادر التاريخية باشمئزاز ، ولم تكن المصادر العربية وحدها هي التي ذكرت مثل هذه الاعمال ، بل أيدها في ذلك شهود عيان من رجالات الصليبيين أنفسهم ، ومن هؤلاء صاحب كتاب اعمال الفرنجة ، الذي رأى بأم عينه كثرة القتلى من المسلمين اثناء احتلال مدينة بيت المقدس من قبلهم ، فصور ذلك تصويرا بارعا فقال (وصدر الامر أيضا بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ، ولان المدينة كادت تكون بأجمعها

---

(١) انظر ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢١٨ ومابعدها .
- ابن الاثير : المصدر السابق ،جـ١٠ ص ١٣٨ .
- ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت جـ٢ ص ٢١٠ .
- رنسيمان : المرجع السابق ص ٣٠٥ ومابعدها .
- حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ، دار الفكر العربي ط ٢ (١٩٥٨م) ص ١١١ ومابعدها .

(٢) حول تأسيسها انظر :
- مؤلف مجهول : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة وتقديم حسن حبشي دار الفكر العربي (١٩٥٨م) ص ١٠١ ومابعدها .
- ابن الاثير : المصدر السابق جـ١٠ ص ٢٨٣ ومابعدها .
- حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٧٨ ومابعدها .
- عاشور : المرجع السابق جـ١ ص ٢٣٨ ومابعدها .
- رنسيمان : المرجع السابق ص ٤٠٢ ومابعدها .

مملوءة بجثثهم . فقام الشرقيون الذي قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم أمام الابواب ، وتعالت اكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا ، وما تأتي لاحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب الوثني – يقصد المسلمين – وجمعت أكوام من الحطب كأنها الاعلام ، ولا يعلم أحد غير الله كم عددها (١)

بعد أن أتم الصليبيون تأسيس الامارات الثلاثة ، بدأوا بتأسيس امارة رابعة ،وهي امارة طرابلس ،والتي يحكمها في تلك الاونة جلال الملك بن عمار ووقعت أولى الهجمات الصليبية على مدينة جبلة وكان ذلك اثناء مسير هذه الحملة لاحتلال بيت المقدس وتأسيس امارتهم هناك . وكانت هذه المدينة ماتزال في يد ابن صليحة وقد استطاع ابن صليحة أن يقف موقفا حازما من الصليبيين حتى وصول المدد العربي الاسلامي الى قرب مرقية ، فاضطر الصليبيون الى فك الحصار عنها . وقد تكرر حصار الصليبيين لجبلة في هذه الجولة وكان ابن صليحة يستخدم الحيلة واسلوب الاثارة ، والتخويف من وصول نجدات عربية اسلامية ، سواء أكانت فاطمية أم سلجوقية كما أنه كان يعمل على خديعتهم ويتظاهر بالاستسلام ليعرضهم للخطر والقتل(٢) . وبعد أن نجح في صرف الصليبيين عنها بفضل ثباته وخططه سلم المدينة الى طغتكين اتابك دمشق ، خوفا من تعرضها ثانية لهجمات صليبيي الحملة الاولى دون أن يتمكن من الدفاع عنها (٣) . وبقيت كذلك حتى استعادها فخر الملك أبو علي بن عمار

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص ١١٩ – ١٢٠ .

– امينة بيطار : تاريخ العصر الايوبي ،دار الطباعة الحديثة دمشق (١٩٨١ – ١٩٨٢) ص ٢٩ – ٣٠ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٣١٠ – ٣١١ .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٢٦ .

– سبط بن الجوزي : المصدر السابق ،ج ١٢ ،ق ٣ ورقة ٢٣٤ م .

– ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٣١١ .

صاحب طرابلس الذي خلف أخاه جلال الملك (١).

وبعد أن حقق الصليبيون نجاحا ملموسا في طريقهم لبيت المقدس استولوا على حصن الاكراد بعد أن حاصروه حصارا محكما حتى سقط في أيديهم في صفر سنة (٤٩٢ هـ / ٢٩ كانون الثاني يناير ١٠٩٩)م (٢).

بعد أن استولى الصليبيون على حصن الاكراد خشيهم جلال الملك بن عمار ،فأرسل رسله لمفاوضتهم راجيا من ذلك أن يخلص امارته من شرهم • وقد سمح لهم بعبور أراضي امارته ، وأعطى صلاحيات لرسله بالتشاور مع الصليبين لاتخاذ التدابير اللازمة لمرور الحملة عبرها ، موافقا على رفع اعلام تولوز على اسوار المدينة (٣).

سر القائد الصليبي ريموند من ذلك ، وأرسل رسله الى طرابلس لمناقشة المسائل المعروضة فشاهد هؤلاء عظمة طرابلس وثروتها وخصبها ، فعادوا وأخبروا أميرهم بذلك وأشاروا عليه بمهاجمة احدى القلاع التابعة لجلال الملك بن عمار لاجباره على دفع المزيد من الاموال والتنازلات • وقد دفع هذا الامر بريموند الى القيام بمهاجمة قلعة عرقة • كما أرسل فئة من رجاله لحصار طرطوس وجبلة • وما لبثت طرطوس أن سقطت بأيديهم في ربيع الاول سنة

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٣١٢ •
من أجل تولي فخر الملك لعرش الامارة انظر : زامبارو : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ،ترجمة زكي محمد حسن ، وحسن محمود وآخرون ، القاهرة (١٩٥١- ١٩٥٢) ص ١٦٠ •

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ،ج ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ - حسن حبشي المرجع السابق ص ١٦٤ - رنسيمان : المرجع السابق ،ص ٣٧٩ -٣٨١ بيطار - المرجع السابق ص ٢٧ •

(٣) مؤلف مجهول : اعمال الفرنجة ، ص ١١١ - ١١٣ •
- رانسيمان : المرجع السابق ، ج١ ،ص ٣٨٠ •

(٤٩٢ هـ/ شباط ١٠٩٩م) فشكل ذلك خطرا كبيرا على طرابلس نفسها [١].
على حين أن الحصار فشل في الاستيلاء على قلعة عرقة بعد حصار دام أربعة أشهر وتكبد الصليبيون للكثير من الخسائر في المال والعتاد ، وذلك في جمادي الثانية سنة (٤٩٢ هـ/ ١٣ مايو آيار سنة ١٠٩٩)م [٢]. وما لبث جلال الملك أن توفي في هذه الفترة الحرجة .

- فخر الملك بن عمار(٤٩٢ ت ٥٥١ هـ / ١٠٩٩- ١١٠٨م) :

توفي جلال الملك في آخر شعبان سنة (٤٩٢ هـ/ تموز يوليو ١٠٩٩)م [٣]، فتولى حكم دولة بني عمار آخوه فخر الملك آبو علي عمار بن محمد بن عمار ، وكان رجل سياسة وعلم ورجل دولة وحرب تمتع بالكياسة واللياقة ، ولكنه كان سيء الحظ ، اذ تسلم الامارة في وقت كانت فيه الاحداث تتطور بشكل خطير في بلاد الشام . وقد وضح الذهبي صفاته وأوضاع امارته في عهده فيما كتبه لنا فقال :
(كان من دهاة الرجال ، وأفراد الزمان شجاعة واقداما ورأيا وحزما . ابتلي بلده بحصار الفرنج خمسة أعوام وهو يقاومهم وينكي في العدو ، ويستظهر عليهم ، ويراسل ملوك الاطراف ويتحفهم بالهدايا وهم حائرون على انفسهم ، ولم ينجده أحد وقد راسل صاحب الروم مرات . وكان حسن التدبير في الحصار ، جيد المكيدة والمخادعة برا وبحرا ،شتاء وصيفا ،حتى تفانت رجاله وكل ابطاله [٤].

---

(١) محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ،ص ٢١٩ .
(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ،ص ١١٢ .
- عاشور : الحركة الصليبية ،ج ١ ،ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .
(٣) ابن شداد : المصدر السابق ،ج ٢ ،ص ١٠٨ .
- ابن الفرات : المصدر السابق ،ج ٨ ،ص ٧٧ .
(٤) التدمري : المرجع السابق ج١ ،ص ٢٧٠ نقلا عن الذهبي سير اعلام النبلاء .

وأهم ماواجهه فخر الملك في ولايته الدفاع عنها تجاه الصليبيين •

ـ موقف فخر الملك من الصليبيين :

وصل فخر الملك الى حكم الامارة في فترة عصيبة ، فكان عليــــه أن يتبع سياسة متوازنة ، يعمل من خلالها على الحفاظ على استقــلال امارته • وهذه السياسة كانت سياسة اسلافه من قبله ، الذين عملــوا على الاحتفاظ باستقلالهم وسط النزاع بين الفاطميين من جهة ، وسلاجقــة الشام من جهة آخرى • ولما أصبح الوضع اكثر خطورة في عهده ، ولذلك فانه عمل على أن يمسك العصا من الوسط بين الفاطميين وحكام دمشــق من ناحية الصليبيين من ناحية آخرى (١).

ويمكن القول أن امارة بني عمار حين تولاها فخر الملك ، كانـت امورها سيئة للغاية فقد كثر الطامعون حولها ، وأصبح السلام فيهـــا معرضا للخطر مما جعلها محط أنظار ريموند الصنجلي الذي رأى ان امـارة بيت المقدس ذهبت من يده وتزعمها جود فرى بوايون ومن ثم اخيــــه بلدوين ، كما ذهبت انطاكية قبلها لبوهيموند (بيمنت بيمند) ولمـــا كان يريد أن يؤسس امارة كغيره ، رأى أن يوجه اهتمامه الــــــى طرابلس(٢).

عمل فخر الملك باصرار على الحفاظ على استقلال امارته مـــــدة حكمه وابعاد خطر الصليبيين عنها • ويمكن تقسيم عهده الى ثلاثــــة مراحل :

---

(١) وانظر عن سياستــــــــه :

ـ ابن الاثير ـ المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٣١٢ •

ـ عاشور : الحركة الصليبية ،ج ١ ،ص ٣٥٥ •

(٢) أمينة بيطار : المرجع السابق ، ص ٣٣ •

١ـ المرحلة الاولى :

مرحلة استعادة المدن المفقودة وارساء قواعد الحكم ، واعادة الهدوء والسلام الى الامارة وتمتد ثلاث سنوات من سنة (٤٩٢ ـ ٤٩٥ هـ / ١٠٩٩ ـ ١١٠٢ م) .

٢ـ المرحلة الثانية :

مرحلة الكفاح ضد ريموند الصنجلي والذي دام سنتين من ٤٩٥ـ٤٩٧هـ ١١٠٢ ـ ١١٠٥م) .

٣ـ المرحلة الثالثة :

مرحلة الكفاح ضد وليم جوردان من سنة (٤٩٨ـ ٥٠١ هـ/ ١١٠٥ـ١١٠٨م وتنتهي بسقوط طرابلس في يد الصليبيين في سنة (٥٠٢ هـ/ ١١٠٩م) (١).

* المرحلة الاولى :

بعد وفاة جلال الملك مباشرة تعرضت طرابلس الى الحصار الاول ضدها . فقد توجه اليها الجيش الصليبي الذي فك الحصار عن عرقة ،وأراد فخر الملك تجنب ويلات الحرب بعد أن رأى تعطش الصليبيين لسفك الدماء ـ وذلك حين اعملوا السيف في جماعة من الآمنين خارج المدينة فتعهد لهم بدفع الجزية واطلاق سراح ثلاثمئة أسير ، ودفع خمسة عشر ألف دينار كغرامة حربية ، مع تقديم عدد من الخيول لهم وأضاف بأن تعهد بتسليمهم طرابلس ان استطاعوا احتلال مدينة القدس (٢) كما تعهد باعتناق الديانة المسيحية (٣).

وهذه الرواية تحتاج الى كثير من التأمل ، ولايمكن التسليم بها

---

(١) محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ،ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ،ص ١١٣ .

ـ عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية الاسكندرية ١٩٥٨، ص ٦) .

(٣) مؤلف مجهول : المصدر السابق ،ص ١١٣ .

لان الذي ذكرها هو صاحب كتاب أعمال الفرنجة ، على حين أن المؤرخين العرب كانوا يشيدون بفخر الملك وموقفه من الصليبيين وجهاده ضدهم لمدة طويلة وبشكل متواصل . وهذا الكفاح لايتفق مع رغبته في النصر . وان كان هذا الوعد بالنصر قد صدر عن فخر الملك ، فهو من قبيل الخدعة ليصرف عنه الصليبيين ، وليتمكن من تهيئة نفسه للدفاع عن امارته في تلك الظروف الحرجة من التاريخ وتهاون الامراء به مع الصليبيين (١) .

- محاولة استعادة جبلة وطرطوس :

كان ابن صليحة قد رأى تكالب الصليبيين على احتلال جبلة ورأى عدم استطاعته الوقوف طويلا في وجههم بمفرده بعد أن تخلت عنه القوى المحيطة ، وخشي أن تسقط المدينة في أيديهم فرأى أن يسلمها الى سلاجقة دمشق مقابل اعطائه الامان على نفسه وماله (٢) ، فتسلمها بوري بن طغتكين منه . ولما لم يحسن معاملة السكان فانهم راسلوا القاضي فخر الملك أبا علي بن عمار وطلبوا منه أن يرسل اليهم بعض اصحابه . وأرسل قسما من جيشه دخل المدينة فأسروا بوري وحملوه الى طرابلس فافرج عنه ابن عمار واحسن اليه وسيره معززا الى والده بدمشق ، وكتب طغتكين يعتذر له عما حدث ويبرر فتحه لجبلة بخوفه من خضوعها للصليبيين (٣) .

كما استغل فخر الملك بن عمار انشغال ريموند بمشاكله فأرسل قواته الى طرطوس حيث استعادها . وبذلك استعادت امارة طرابلس المدن التي كانت قد فقدتها ، وعادت حدودها الى ماكانت عليه من قبل ، وغدت من جديد تسيطر على الساحل الممتد من اللاذقية شمالا

---

(١) التدمري : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٨٢ .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

- ابو الفداء : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

حتى حدود بيروت جنوبا (١).

أرسى فخر الملك في هذه الفترة قواعد حكمه ،لكي يأمن خطر الصليبيين ،ورأى أن يتبع سياسة معتدلة تجاههم ولذلك فانه احتفى ببلدوين أمير الرها الذي اجتاز طرابلس في ذي القعدة سنة ٤٩٣هـ/في ٢١ تشرين اول اكتوبر سنة ١١٠٠م ،وهو في طريقه الى بيت المقدس ليتولى عرشها بعد وفاة آخيه جودفري ،فأمده بما كان بحاجة اليه من الميرة والغذاء وتعهد بأن يحيطه علما بتحركات دقاق ملك دمشق السلجوقي (٢).

ولكنه سرعان ما اضطر الى تغيير هذه السياسة المعتدلة حين تعرض للخطر الصليبي تحت قيادة ريموند الصنجيلي ،وبادر للاستعانة بالقوى الاسلامية المجاورة وطلب حمايتها ونجدتها .

* المرحلة الثانية :

الكفاح ضد ريموند الصنجيلي :

بعد فشل ريموند بتأسيس امارة خاصة به رغم محاولاته المتكررة رأى أن يستعين بالامبراطور البيزنطي في ذلك ،وحين كان بالقسطنطينية ،وصلت اليها مجموعة كبيرة من الصليبيين جعلهم الامبراطور البيزنطي تحت رئاسة حليفه ريموند (٣). وتعرض هؤلاء للخطر في آسية الصغرى ففر ريموند ناجيا بنفسه ،عائدا الى القسطنطينية (٤)،حيث جمع فلول الفارين وأبحر بهم الى انطاكية فوقع

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ج١ ،ص ٤٣٩

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ،ج١ ،ص ٢٨٤

– محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ،ص ٢٣٠

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ،جزء ١ ص ٣٤٤ ومابعدها .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج١٠ ،ص ٣٤٣ – ٣٤٤ .

في يد أميرها الذي اعتقله بحجة خيانة الصليبيين ،ولم يطلق سراحه الا بعد أن تنازل عن مطالبه في انطاكية واللاذقية [1]. وقد اتــــاح هذا الاتفاق لريموند العمل في بلاد الشام لحسابه الخاص ،وبــــــدأت طرابلس منذ ذلك الوقت تعاني من هجماته عليها .

بدأ ريموند جهوده الجديدة في سواحل الشام منذ سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م فألقى الحصار على مدينة طرطوس مستعينا بفلول اللومبارديـــــــن واسطول جنوة الذي كان مارا بسواحل الشام ،فاستولى عليها في ســنة ٤٩٥ هـ / شباط فبراير سنة ١١٠٢م [2].

اعلن ريموند عزمه على السير الى طرابلس لتكون قاعدة امارتـــــه فوصل اليها في جمع قليل لايزيد عن ٣٠٠ رحل [3] وعندما علم فخر الملك بقلة عدد رجاله قرر التصدي له مستعينا بالقوى الاسلامية المحيطة ، طالبا النجدات من أمير حمص وأمير دمشق ،فوصله عدد منهم واتحـــد هؤلاء مع قوات طرابلس ،والتقى الطرفان بقربها في سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م فانهزمت قوات العرب المسلمين ،وعاد المساعدون الى دمشق وحمص [4].
ويبالغ ابن الاثير في عدد القتلى من اهالي طرابلس ويجعلهم حوالي سبعة آلاف ،وهذا يعادل $\frac{1}{7}$ سكانها المعروفين في ذلك الحيــــــن تقريبـــــا [5] .

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٣٤٥
- عاشور : المرجع السابق ،ج١ ص ٣٥٣ - ٣٥٤
(٢) عاشور : المرجع السابق ،ج١ ،ص ٣٥٥
(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٣٤٤
- ابو الفداء : المصدر السابق ،ج٢ ص ٢١٦ ويشك في هذا العدد ولابد أن يكون أكثر من ذلك بكثير حتى تمكن ريموند بفضله مـــــن الانتصار على القوى المتحالفة .
(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٢٨ .
- ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ - ص ٣٤٤ .

شجع هذا الانتصار ريموند على حصار طرابلس ، وخاصة بعد أن وصلته نجدات من نصارى الجبل والمواد من الموارنة الذين كانوا يسكنون جبال طرابلس وما حولها ، والذين اشتهروا بالرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارق (١) ، والذين مالوا منذ البداية الى الصليبين ، وساعدوهم وأرشدوهم الى طرق ومسالك الشام ومعابرها وأمدوهم بالميرة والموّن (٢) ، ومع ذلك فقد واجه ريموند صعوبة في اخضاع طرابلس لقوة تحصينها ، فهادن فخر الملك على مال وخيل وانصرف عنها الى طرطوس التي اتخذها قاعدة للهجوم على الجهات المجاورة ، منتظرا الفرصة للهجوم ثانية والقاء الحصار .

وفي شتاء سنة (٤٩٧ هـ/ ١١٠٣م) وصل اسطول جنوى الى اللاذقية مكونا من أربعين سفينة (٣) ، فطلب ريموند مساعدته للهجوم على طرابلس ، ولكن هذا الحصار لم يؤدّ الى نتيجة ، بسبب صمود طرابلس ومناعتها ، ووصول الامدادات اليها عن طريق مينائها المفتوح ،وقيام فخر الملك بارسال رجاله في المراكب للاغارة على بلاد الصليبيين وقتل من يجدونه (٤) ، فانسحب الاسطول الجنوي ، وابحر ناحية الجنوب حيث ألقى الحصار على جبيل (٥) وكانت قلعة صغيرة تابعة لبني عمار فلم تستطع المقاومة طويلا ، واستسلمت أواخر سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤ م) .

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج١٠ ،ص ٣٤٤ .
ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، نشر يوسف سركيس ،بيروت (١٩٠٩) ص ٢٦٤ .

(٢) حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، دار الثقافة بيروت (١٩٥٩) ج٢ ،ص ٢٢٨ .
لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخية ترجمة فريحة ، دار الثقافة بيروت ص ٣٩٢ .

(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ،ج٢ ،ص ٩٩ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ - ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٥) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج١٠ - ص ٣٧٢ .

وتعرض أهلها للتنكيل والعذاب [1]،فمنح ريموند ثلثها للجنويـــة مكافأة لهم على مساعدته [2].

وباحتلال جبيل من قبل الصليبيين أصبحت طرابلس مطوقة مـــن الشمال والجنوب وأخذ ريموند يعمل على ترتيب حصار دائم من الجهـة الشرقيـة ،ليمنع عنها الاتصال مع البلاد العربية الاسلامية في الشـام والعراق ، وقد تمثل هذا الحصار في بناء حصن يشرف على المدينـة فشرع أولا في اقامة معسكر كبير في الضياع القريبة من طرابلـس ثم أقام الحصن المعروف باسمه على الضفة اليسرى من نهر قاديشـا على تلة أبي سمرة الحالية ، وكانت تعرف باسم تلة الحجاج . وقـد اطلق على هذه القلعة اسم حصن سان جيل نسبة الى ريموند دي سانـت جيل ،وسماه العرب صنجيل . وقد أعانه على بناء الحصن الامبراطـور البيزنطي ، الذي أرسل له الميرة والاخشاب والمعدات اللازمة من جزيـرة قبرص[3]، مقابل طرده لتنكرد من اللاذقية .

اهتم ريموند ببناء الحصن ،وشحنه بالاموال والرجال والسـلاح[4] وأخذ يترقب منه الفرصة السانحة ،بعد أن أحكم الحصار على طرابلـس وكان الانتهاء من بنائه في ربيع سنة (٤٩٨ هـ/ ١١٠٤م) ومن المحتمـل أن يكون هذا الحصن قد بني في نفس المكان الذي كانت عليه القلعـة التي بناها القائد العربي سفيان بن مجيب الازدي عند حصاره لطرابلـس في العهد الراشدي وفي ولاية معاوية بن أبي سفيان[5] .

---

(١) ابو الفداء : المصدر السابق ،ج٢ ـ ص ٢١٧ .

(٢) عاشور : المرجع السابق ،ج١ ـ ص ٣٥٩ .

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ،ج٢ ـ ص ٩٩ ـ عاشور الحركة الصليبية ج١ ـ ص ٣٦٠ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج١٠ ـ ص ٤١١ ـ ٤١٢ .

(٥) عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ص ٩٥ـ ٩٦ .

أحدث بناء القلعة اضطرابا في طرابلس لخطورتها وتهديدها للمدينة ولذلك فان فخر الملك بن عمار خرج بنفسه من طرابلس ، على رأس قواته وهاجمها ، فقتل من بها ونهب وأحرق وأخذ من السلاح والمال الكثير وعاد الى طرابلس [١]. وكان ذلك في (١٩ ذي الحجة ٤٩٧ هـ/ ١٤ ايلول سبتمبر ١١٠٤م) [٢]. ويبدو أن فخر الملك لم يوفق كلية في هدم الحصن ، وبقي سقفه متصدعا ،حيث انخسف على ريموند وأصابه بجروح . ويقال أن ذلك أدى الى مرض ريموند وموته في (٤ جمادي الاول سنة ٤٩٨ هـ/ ٢٨ فبراير سنة ١١٠٥م) .

كان من نتيجة هذا الهجوم أن قام ريموند قبل وفاته بعقد هدنة مع فخر الملك تنص على أن يكون لريموند ظاهر طرابلس ،مقابل أن لايقطع الميرة . ولا يمنع المسافرين من المدينة واليها [٣].وهكذا توفي ريموند دي سانت جيل قبل أن يحقق امنيته بالاستيلاء على طرابلس ،فحمل الى القدس ودفن هناك [٤].

- المرحلة الثالثة :

- الكفاح ضد وليم جوردان :

بعد وفاة ريموند تولى ابن خالته وليم جوردان المعروف بالسرادني آمرة الصليبيين في طرطوس وجبيل وصنجيل [٥] والذي تابع

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٣٦ .

(٢) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ج٨ ،ق ١ - ص ٩ .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٣٨ .
سبط بن الجوزي : المصدر السابق ،ج ٨ ،ق ١ ،ص ١٢ .
ابو المحاسن : المصدر السابق ،ج ٥ ،ص ١٧٨ .

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٣٨ .

(٥) عاشور : المرجع السابق ،جزء ١ ،ص ٣٦٢ -
رنسيمان : المرجع السابق ج٢ ص ١٠١ .

سياسة سلفة في حصار طرابلس [1] لاضعافها والاستيلاء عليها،وقد بدأ باعادة بناء قلعة صنجيل وترميم ماتهدم منها ، كما حصل على مساعدة الامبراطور البيزنطي بالموّن من قبرص . وعندما علم فخر الملك بن عمار بذلك ، خرج باسطوله ، فواجه السفن البيزنطية وجرى بينه وبينهم قتال شديد اسفر عن هزيمة سفن البيزنطيين وظفر فخر الملك باحدى هذه السفن فأسر من فيها [2]، على الرغم من ذلك فان الامدادات البيزنطية عن طريق قبرص كانت متواصلة وكذلك فان البيزنطيين قاموا بحصار المدينة بحرا بين الحين والاخر .

احكم وليم جوردان حصار طرابلس بواسطة قلعة صنجيل المتحكمة بالطرق الرئيسية الى طرابلس ومنع تسرب الامدادات اليها ،فعانت طرابلس من الحصار وارتفعت فيها الاسعار بشكل فاحش على الرغم من تسرب بعض الامدادات عن طريق البحر سواء من ساحل الشام أو من مصر لكن ذلك لم يكن كافيا لطول مدة الحصار حتى بلغ ثمن كيلو التمر دينارا من الذهب ، وحدثت المجاعة وأكل الناس الجيف[3]. وقد وصف ابن الاثير الوضع في المدينة بشكل مؤثر ،ومدح صلابة ابن عمار وقوة موقفه من الصليبيين فقال :(وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد[4] .

فكر فخر الملك بن عمار بالاستنجاد بحكام العرب المسلمين القريبين منه ، فلم يجد أفضل من سقمان بن أرتق التركماني أمير ماردين وحصن كيفا في ديار بكر [5]،فطلب معونته مقابل مبلغ من المال[6] .

---

(1) عاشور : المرجع السابق ،ج1 – ص ٣٦٧ .

(2) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج10 – ص ٤١٢ .

(3) الدمري : المرجع السابق ،ج1 – ص ٢٩٧ .

(4) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج 10 – ص ٤١٢ .

(5) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(6) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

كان استنجاد فخر الملك بن عمار بسقمان أمر أملته ضرورة ملحة وتفهم كامل لطبيعة القوى الاسلامية المجاورة من ناحية وقوة وشهامة التركمان في أقصى شمال العراق ،وما أبداه سقمان من مهارة أمام الصليبيين من ناحية أخرى(١)ولكنه مالبث أن توفي قبل الوصول الى طرابلس في صفر سنة (٤٩٨ هـ/ ١١٠٥م) وعاد رجاله الى حصن كيفا يحملون جثمانه ، وبذلك فقد ابن عمار مساعدته وفقد الامل في أي معونة ٠

عانت مدينة طرابلس من ضائقة اقتصادية على الرغم من غناها فقام فخر الملك بن عمار ببعض الاجراءات الاقتصادية ، ومن ذلك أنه صادر اموال الاغنياء ، واخذ في توزيعها على الفقراء ،كما أجرى الجرايات على الجند والضعفاء ، ثم فرض على الناس اقساطا يؤدونها من أجل الجهاد (٢)٠ ثم أن شراء المدينة أدى الى وصول المؤن من مناطق متعددة كقبرص وانطاكية وعرقة ٠

لم ترق هذه السياسة للبعض ، فالتجأ رجلان منهم الى الفرنج الصليبيين ،ونبهاهم الى الامكنة التي تصل منها المؤن والاقوات الى طرابلس ، فأفاد الفرنج فائدة كبيرة وأرسلا قوات تمنع وصول هذه الامدادات (٣)٠ وعلى الرغم من ذلك فان طرابلس وقفت وحيدة صامدة للحصار على يد جوردان من سنة (٤٩٨ – ٥٠١ هـ/ ١١٠٥– ١١٠٨م)٠

نهض فخر الملك بن عمار بمراسلة القوى الاسلامية المحيطة به فراسل محمد بن ملك شاه السلجوقي سلطان بغداد ، كما ارسل ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق واستصرخهم وحضهم على مد يد المعونة

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٣٦ – محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ص ٢٤٦ ٠

(٢) ابن الاثير : المرجع السابق ،ج١٠ – ص ٤١٢ ٠

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ،ج١٠ – ص ٤١٢ ٠
ابو الفداء : المصدر السابق ،ج٢ – ص ٢٢١ ٠

فانتدب السلطان محمد بن ملك شاه عسكرا كثيفا لنجدته، وراسل امراء العراق لتقديم يد المساعدة [1]. ولما تأخرت هذه القوات بالوصول ، فان فخر الملك قرر أن يسافر بنفسه الى بغداد ،ليحث القائمين بالامر على ارسال المعونات فوصلها في رمضان (٥٠١ هـ / ايار مايو ١١٠٨م) بعد أن أناب عنه في طرابلس ابن عمه أبا المناقب يعاونه لفيف من اصحابه ، ورتب معه الاجناد برا وبحرا واعطاهم راتب ستة أشهر سلفا ، ونظم امور كل موضع ، وكلف فرقة بحمايته [2].

لكنه ما أن وصل الى دمشق حتى علم أن ابن عمه أبا المناقب نادى بشعار الافضل بن أمير الجيوش بمصر ، وأعلن خروجه على ابن عمه فخر الملك . فطلب من اصحابه يأمرهم بالقبض عليه ،وسجنه في حصن الخوابي [3].

تابع فخر الملك بن عمار وبرفقته تاج الملوك بوري رحيلهما الى بغداد ، واستقبل ابن عمار بالكثير من الحفاوة والتكريم لمواقفه المشرفة ضد الصليبيين .

فقد أنفذ السلطان لاستقباله الامراء ورجال الدولة ومركبته الخاصة ، كذلك فعل الخليفة ، وكان هذا يتناسب مع دوره في جهاد الصليبيين [4].

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٥٧ .
ابن الاثير : المصدر السابق ج١٠ – ص ٤٥٢ .
المقريزي : اتعاظا لحنفا ،٣ ص ٣٨ .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .
ابن الاثير : المصدر السابق ج١٠ – ص ٤٥٢ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٤٥٢ .

شرح فخر الملك للخليفة والسلطان ظروف الامارة ، وما تتعرض له من مصاعب بسبب قوة الاعداء وشدة حصارهم ، وطلب انقاذ جيش ينفق عليه بنفسه ، فوافق السلطان على أن يسير الجيش أولا لتأديب والي الموصل جاولي سقاوة الخارج على السلطان ، ففضل فخر الملك بن عمار أن ينتظره في بغداد [1] ولما طال انتظاره ترك بغداد وعاد الى الشام دون أن يحصل على بغيته أو يحقق رجاءه . فوصل الى دمشق في منتصف المحرم سنة (٥٠٢ هـ/ آب اغسطس ١١٠٨م) أي بعد رحيله بنحو شهر .

وفي هذه الاثناء حدث انقلاب في طرابلس أدى الى دخولها في حوزة الفاطميين ، فسار فخر الملك الى عرقة ، فرأى أنها قريبة من الصليبيين الفرنجة ، فتحول عنها الى حصن الخوابي ثم استقر أخيرا في جبلة فدخلها واطاعه أهلها [2]، وهكذا انتهى دور فخر الملك في قتال الصليبيين :

– الانقلاب والتناقض حوله :

تحدث حول هذا الانقلاب عدد كبير من المؤرخين ، منهم من كان عهده قريبا من الاحداث ، ومنهم من بعد العهد به . ومن هؤلاء ابن القلانسي ، وسبط بن الجوزي ، وابن الاثير ، وابن ميسر ، ثم ابن شداد ، وابن الفرات ، والتفاصيل التي وردت في روايات هؤلاء المؤرخين متفاوته من حيث الدقة وذكر التفاصيل ، والطريقة التي جرى فيها الخضوع لحكم الفاطميين [3].

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .
– ابن الاثير : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٤٥٣ .
– سبط بن الحوزي ، مرآة الزمان ، ج١٢ ، ق ٣ ، ص ٢٦٠ ب .

(٢) التدمري : المرجع السابق ، ج١ – ص ٣٥٧ .

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .
– سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج١٢ ، ق ٤ ، ورقة ٢٦٠ ب .
– ابن الاثير – المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٤٥٢ – ٤٥٤ .
– المقريزي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤٢ – ٤٣ .
– ابن الفرات : المصدر السابق ، ج٨ – ص ٧٨ .

ويرجح أن الامر تم على الشكل الاتي ،خالف أبو المناقب ابن عمه فخر الملك بتأييد من أهالي طرابلس الذين كانت غالبيتهم لايرغبون في التعاون مع الخلافة العباسية وسلاطين السلاجقة ،واتصل بالافضل ابن بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي ،وتخلص من سعد الدولة المؤيد لابن عمه فخر الملك ،فقام أصحاب فخر الملك بالقبض على أبي المناقب بأمر من فخر الملك حين كان مايزال في دمشق في طريقه الى بغداد . حينذاك نهض أهل طرابلس المؤيدون لابي المناقب مستنجدين بالفاطميين لاتمام الحركة الانقلابية ،عسى أن يحصلوا منهم على المعونة اللازمة ، وخاصة البحرية التي كان وصولها ممكنا .

ورحبت الخلافة الفاطمية بهذه الخطوة ،ووجدت فيها الفرصة السانحة لاعادة نفوذها فأرسلت من قبلها الى طرابلس والباهوتاج العجم ،ثم أتبعته بشرف الدولة بن أبي الذيب ،وأخرج بنو عمار مؤيديهم منها . كما وقبضت على اعوان فخر الملك بن عمار واهله ،وصودرت أموالهم واثاثهم وذخائرهم ،وحمل الجميع الى مصر ،وبذلك انقطع الطريق على فخر الملك ولم يعد قادرا على العودة الى عاصمة ملكه ،وتنقل بين مناطق امارته ثم ذهب الى جبلة (١) فخسرت بذلك مدينة طرابلس جزءا كبيرا من ثروتها ،وعددا من رجالها الاشداء الذين كانوا يدافعون عنها (٢) .

ويبدو أن ماقام به أهل طرابلس كان بسبب تأخر فخر الملك ابن عمار في بغداد ،وعدم استطاعته تقديم أي معونة لفك الحصار عن طرابلس . وقد يكونون قدروا أن القوات العباسية فيما لو جاءت من المشرق ،فانها ستصطدم مع الصليبيين في مواقع متعددة قبل وصولها

---

(١) ابن القلانسي . المصدر السابق ،ص ٢٥٨

(٢) ابن الفرات : المصدر السابق ج٨ ص ٧٨

الى طرابلس ،وقد لاتنجح في الوصول ،ولذلك فان أعصابهم كانت متوترة وترتيبهم طال ،وقد أخذ حزب ابن عمار بالضعف في المدينة ، في الوقت الذي رغب فيه السكان بالحصول على النجدة والميرة والذخائر ، والقوات الصليبية تشدد قبضتها وحصارها على المدينة .

وقد تبع خروج طرابلس عن يد فخر الملك بن عمار ،خروج حصن عرقة على يد غلام لفخر الملك ،الذي استقل بها في شهر رمضان سنة ٥٠٢ هـ/ نيسان ابريل ١١٠٨م . ولكنه كاد يفشل في الحفاظ عليه أمام الفاطميين ،فسلمه الى طغتكين الذي لم يستطع الحفاظ عليه ،ومالبث أن سقط بيد جوردان بعد حصار دام ثلاثة أسابيع [١].

كان سقوط عرقة نذيرا بسقوط طرابلس ،فقد أصبحت محاصرة بالقوات البرية من كافة جهاتها . وازداد الامر سوءا حين وصل برتراند الابن الاكبر لريموند الصنجيلي مع أربعة آلاف فارس على متن اسطول مؤلف من أربعين سفينة للمطالبة بارثه في املاك أبيه . واستطاع في طريقه أن يضم اليه سفينة من اسطول جنوة مشحونة بالمقاتلة ،مقابل امتيازات يمنحها لهم [٢]. وقد نزل برتراد بهؤلاء المقاتلة في طرطوس ،حيث اخذ يعمل على ايجاد حلفاء من الفرنجة الصليبيين ،وكذلك فعل جوردان . وانتهى الامر على أن يكون لجوردان عرقة وطرطوس لانه فتحهما بنفسه ،وأن يكون لبرتراند جبيل وقلعة صنجيل . وتعاهد الجميع على التعاون من أجل فتح

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٦٠
- ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٤٦٨
- عاشور : المرجع السابق ،ج ١ ،ص ٣٦٦
- رنسيمان : المرجع السابق ،ج٢ ص ١١٠

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٦١ - ٢٦٢
- عاشور : المرجع السابق ،ج١ ،ص ٣٦٧ - ٣٦٨

طرابلس . ومالبث جوردان أن قتل في عرقة ،فصفي الجو لبرتراند[1]

ـ سقوط طرابلس :

جاءت المصالحة بين القوات الصليبية على حساب امارة طرابلس اذ تعاون جميع الزعماء ،وتكاتفت قواتهم لحصارها . وقد ضمت هذه القوى أربعة آلاف فارس بروفنسي ،قدموا مع برتراند ومثلهم أو أقل منهم من الحنوية الذين أتوا معه في عشرين سفينة و(٥٠٠ فارس) اتى بهم بلدوين ملك بيت المقدس مع عدد كبير من الرحالة[2]،و(٧٠٠) فارس من انطاكية بقيادة تنكرد،بالاضافة الى عدد غير معروف وصل من امارة الرها ،وعاضدهم جموع المردة ونصارى جبل لبنان[3].

تحرك الاسطول البروفنسي والجنوي ليحاصرا المدينة بحرا ،بينما أخذت الفرق البرية المجتمعة من الامارات الصليبية جميعا لحصارها برا في رمضان سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٩م . وليستطيعوا الوصول الى الاسوار فانهم صنعوا ابراجا من الخشب والحديد على عجلات ،تمكنوا بها من الاقتراب من سور المدينة واسندوها عليه ،وأظهر اهاليها براعة في افشال ابراج الصليبيين ومع ذلك فانه ضاقوا بهذا الحصار[4]، وكان عليهم التحرك بسرعة لانهائه .

فكر والي المدينة الفاطمي شرف الدولة بالاستنجاد بالخلافة الفاطمية ،فارسل ملحا بطلب النجدة وارسال الميرة والذخيرة والموّن

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٦١
ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ،ص ٤٧٥

(٢) رنسيمان : المرجع السابق ج ٢ ،ص ١١١

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ج ٢ ،ص ١١١

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٦٢
ـ ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٠ ،ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩
ـ ابو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ،ص ١٨١

عن طريق البحر ،وجهز اسطولا من أجل هذه المهمة .

لكن خلافا نشب بين قادة ذلك الاسطول وهو لايزال في موانئ الدلتا . ومرت الشهور والامير الافضل بن بدر الجمالي عاجز عن حسم تلك الخلافات وتسيير الاسطول الى طرابلس . وبعد تردد خرج الاسطول الفاطمي قاصدا اياها ،فتعرض للعواصف التي ردته المرة بعد المرة عن الوصول الى المدينة ،عندئذ ايقن أهل المدينة بالهلاك وانقطع رجاؤهم (١).

أثر هذا الفشل في الحصول على معونة من الخلافة الفاطمية ، انقسم أهل المدينة الى قسمين غير متكافئين ،مثل احدهما امير المدينة الفاطمي شرف الدولة ،والذي رأى طلب الامان والاستسلام ،على حين رأت الفئة الاخرى الاستمرار في مقاومة الصليبيين ؟ . ولما كانت الفئة الاولى أقل عدداً فانها خرجت من المدينة مستأمنة ،وبقي الفريق المدافع في داخلها (٢).

عمل رجال الفئة الثانية الذين أقروا الكفاح على الاستبسال،ولكن الظروف كانت تسير لغير صالحهم . فقد تمكن الصليبيون من إلصاق ابراجهم بسور المدينة ،ثم عَلَوا الاسوار ،ومالبثوا أن هاجموها من الابراج ،وتمكنوا من دخول المدينة ،فملكوها بالسيف في يوم الاثنين ١١ ذي الحجة من سنة ٥٠٢ هـ ،ونهبوا مافيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ،وحصل في ايديهم من امتعتها وذخائرها

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٦٢

- ابن الاثير : المصدر السابق ج ١٠ ،ص ٤٧٥

- أبو الفداء : المصدر السابق ،ج٢ ،ص ٢٢٤

- التدمري : المرجع السابق ،ج١ ،ص ٣١٦

ودفاتر دار علمها ،وكان موجودا في خزائن اربابها مالايحد عدده ولايحصر • ونزلت العقوبة في أهلها وأخذت أموالهم ،وقتلوا ،ومن نجا منهم مات جوعا • ونهبت الكتب من دور العلم ،كما أحرقت مكتبة ابن عمار[1].

وهكذا قاتلت مدينة طرابلس بشرف ،وكافحت حتى النهاية حتى سقطت مرغمة في أيدي الصليبيين ،وأصاب المدينة الخراب والدمار والسلب والنهب والقتل واشعال الحرائق ،حتى دمرت مكتبة آل عمار فيها وكتب دور العلم الموقوفة على يد الغزاة كنتيجة لاقتحام المدينة عنوة ،ودخولها بحد السيف[2].

وبذلك يمكن القول أن أهالي طرابلس قاموا بشرف الدفاع عن مدينتهم حتى آخر لحظة دون أن يحصلوا على معونات من القوى المجاورة •

* <u>نهاية فخر الملك بن عمار :</u>

ما ان سيطر الصليبيون على آخر معقل لامارة بني عمار حتى ادرك فخر الملك أن وجوده فيها أصبح مخاطرة كبيرة ،فخرج منها الى شيزر ثم الى دمشق حيث اقطعه طغتكين الزبداني وأعمالها[3]. وتنقل بعد ذلك بين يدي السلطان السلجوقي مسعود بن محمد والخليفة العباسي

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٦٢
- ابن الاثير : المصدر السابق ،ج١٠ ،ص ٤٧٦
- المقريزي : المصدر السابق ،ج٣ ،ص ٤٤
- رنسيمان : المصدر السابق ،ج٢ ،ص ١١٣- ١١٤

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٦٢
- ابن الاثير : المصدر السابق ،ج١٠ ،ص ٤٧٥- ٤٧٦
- محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٦٤
- ابن الاثير : المصدر السابق ،ص ١٠ - ص ٤٧٧

المسترشد بالله ونجم الدين ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين ،ثم ذهب الى مصر الى الخليفة الفاطمي الامر بالله حيث توفي فيها (١).

وهكذا تكاتفت عدة عوامل آدت الى سقوط اسرة بني عمار وتبعية امارتهم للصليبيين • وكان على رأس هذه العوامل :

- سقوط المدن الساحلية القريبة من مناطقهم أمام الصليبيين •
- تهاون الفاطميين في ارسال النجدات والدفاع عن هذه المنطقة الهامة ،وخاصة بعد آن أصبحت طرابلس تابعة لهم •
- اضافة الى تهاون الخلافة العباسية وسلاطين السلاجقة في ارسال النجدات في نفس الوقت الذي تكاتف فيه الصليبيون لفتحها ، وتمكنوا من الحصول على معونات خارجية من جنوة وبيزنطة والمردة وغيرهم •
- وآهم من كل ذلك الانقسام الداخلي الذي حدث في طرابلس بين القوى المدافعة عنها في الفترة الاخيرة •

* الحضارة في دولة بني عمار :

تقدمت الحضارة في دولة بني عمار حتى بلغت شأوا بعيدا.. وفاق بنو عمار في مناحي الحضارة اقرانهم من المعاصرين في بلاد الشام كبني مرداس • وقد يكون للتيارات السياسية المختلفة ،والنزعات الدينية اثرها على النواحي العلمية والفكرية • وكان آبرز مناحي الحضارة ،التقدم العلمي الذي ظهر بشكل واضح• ولم يكن ذلك الا بفضل اهتمام بني عمار بالعلم والعلماء • وكان من آبرز المظاهر العلمية عندهم مكتبة دار الحكمة التي كانت في مدينة طرابلس ،والتي اهتم بها آمين الدولة بن عمار اهتماما كبيرا وذلك انه كان هو نفسه كاتبا قديرا ومصنفا بارا ،كما كان قاضيا شيعيا متفقها على

---

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق ،ص ٢٦٥ ومابعدها •
- المقريزي : المصدر السابق ،ج٣ ،ص ٧٩ - ٨٠

المذهب الشيعي ، ألف كثيرا من الكتب النفيسة ،منها :(ترويح الارواح ومصباح السرور والافراح) وقد سبقه كتاب آخر بنفس الاسم لجـراب الدولة وهو أحد بن محمد بن علوية السجزي ،وسماه أيضا النـوادر والمضاحك في سائر الفنون والنوادر(١). ولم يقتصر على ذلك بل شجع العلماء وطلاب العلم على الوفود الى طرابلس في طلب العلم ،فغـدت المدينة مركز اشعاع فكري وعلمي هام ومحط رجال العلم والباحثين (٢).

أما مكتبة دار الحكمة فقد أصبحت في عهدهم من أغنى مكتبـات العالم ،ومن أشهر المؤسسات العلمية في بلاد الشام بأسرها وفي العالم المحيط بها (٣). وقد وقف عليها أمين الدولة بن عمار مايزيد علـى مائة ألف كتاب ،وذهب البعض الى أنها حوت نحو مليون مجلد ،ويـرى ابن أبي طيء أنها كانت تحوي ثلاثة ملايين مجلداً وكانت المؤلفـات الموجودة فيها تتألف من كتب عربية ، اضافة الى كتب العجم واليونان . وكانت شاملة للعلوم المختلفة ،كما أنه كان لكل كتاب عدد من النسخ بفضل النساخ الموجودين فيها . وقد استطاع أمين الدولة بن عمـار أن يجمع هذه الكتب بفضل ماكان يقوم به من مراسلات الى الاقطـار المختلفة ،باذلا الاثمان الباهظة ليجلب اليها الكتب النادرة (٤).

ويرى البعض أن هذه المكتبة كانت قبل عهد بني عمار ، اذ زارها أبو العلاء المعري الشاعر المعروف ،وكان على علم دقيق بكافـة محتوياتها . ويتضح ذلك مما ذكر حول رحيله الى بغداد طلبا للعلـم حيث زار مكتبة دار العلم فيها والتي يتولى النظر في كتبها عبـد السلام البصري ،وطلب أبو العلاء منه قراءة اسماء ماتحتويه مـن

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ،ج٨ ،ص ٧

(٢) محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ،ص ٢٠١

(٣) محمد كرد علي : خطط الشام ،ج٦ ،ص ١٩٠ - ١٩١

(٤) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ،ص ٢١٥

مصنفات ،فوجد ان جميعها موجودة في مكتبات طرابلس سوى كتاب واحد هو ديوان تيم اللات ،فاستعاره منه [1].

ومن الثابت أن بني عمار أوقفوا عليها الاوقاف ،واشتروا لها الكتب من شتى البقاع ،وعينوا لها النساخ والموظفون ،وحولوها الى جامعة دينية لدراسة المذهب الشيعي بصفة خاصة ،واهتموا بتشجيع طلاب العلم على ارتيادها حتى غدت طرابلس محط رجال العلم والدارسين ومصدر اشعاع فكري وثقافي ،ومركز أول جامعة دينية اسلامية في بلاد الشام قبل استيلاء الصليبيين عليها [2].

ولم يقتصر الاهتمام بالمكتبة على أمين الدولة ،بل سار سيره جلال الملك الذي قام بتجديدها في سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م لاهميتها في نشر الدعوة [3]،ووفر لها الكتب فصارت طرابلس في ذلك الوقت دار علم . ومايميز هذه المكتبة تنظيم رفوفها وفهرسة كتبها ،ووجود عدد كبير من النساخ فيها ،وكانوا من الموظفين الرسميين الذين كانت لهم جراية وجامكية . وقد بلغ عدد هؤلاء النساخ مئة وثمانين ناسخا هذا فضلا عن الموظفين والاداريين الاخرين كمتولي النظر في المكتبة وغيرهم .

وقد استقبلت هذه المكتبة الكثير من العلماء والفقهاء والشعراء وعلى رأسهم أبو العلاء المعري وابن الخياط الدمشقي وشيخ المعتزلة عبد السلام بن يوسف وغيرهم من العلماء لاسيما من الشيعة باعتبار طرابلس كانت مركزا شيعيا في عهدهم ،فضلا عن غيرهم من المبرزين في شتى

---

(١) القطفي : انباه الرواة على انباء النحاة ،ج١ ،ص ٥٠

ـ التدمري : المرجع السابق ،ج١ ،ص ١٩٨ ـ ١٩٩

(٢) كرد علي : المرجع السابق ،ج٤ ،ص ٣٨

(٣) التدمري : الحياة الثقافية في طرابلس .

العلوم في اللغة والفقه والشعر والادب [1].

وقد مدح ابن خياط الدمشقي آل عمار بقصائد نال من آجلها الهبات والجوائز ،وعقدت ندوات الشعر ومجالسه في قصور الامراء في المدينة ،وغيرها من البيوت والدور ،بل وفي الحدائق وعلى ضفاف الانهار . ولكن يبدو أن يد بني عمار لم تكن في سخاء بني مرداس ولذلك فانهم تعرضوا احيانا للهجاء من قبل بعض الشعراء [2].

وقد قلد بنو عمار بالاهتمام بالعلم اثرياء دولتهم وقضاتها الذين عملوا على وقف مكتبات غنية بالمصنفات عامة والمصنفات الدينية والفكرية خاصة ، اشار اليها المؤرخون فقالوا :(وكان بها خزائن كتب موقوفة قد وقفها ذوو اليسار من أهلها [3]) .

وقد ساعد على كثرة الكتب وانتشار المكتبات اضافة الى نضوج الحياة الفكرية ،تقدم صناعة الورق في طرابلس وكثرة انتاجها ،مما أمن للمكتبات ماتحتاج اليه . وكان لذلك آثره على حركة التأليف والكتابة والترجمة والنسخ . فكثر فيها الوراقون والنساخ والكتاب والمؤلفون والمجلدون . وقد جاءت هذه النهضة العلمية والفكرية عند آل عمار في سواحل الشام في وقت انفصمت فيه عرى الوحدة السياسية في بلاد الشام ،وسيطرت على أهله نزعات انفصالية واتجاهات انعزالية داخل حواضره ومدنه ومراكزه .

وهذه المكتبة الهامة ضاعت واندثرت بما فيها من نفائس اثر احتلال الصليبيين لطرابلس الذين قاموا باحراقها جورا وجهلا بأهميتها ،ظانين أنهم بعملهم هذا يفقدون العرب المسلمين حضارتهم ومجدهم التليد . وقد ذكروا انهم حين دخلوا قاعاتها وجدوا فيها

---

(١) محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ،ص ٤٣٧

(٢) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ،ج١٠ ،ص ٢٥/

(٣) التدمري المرجع السابق ،ج ١ ،ص ١٩٨

كتبا دينية ،فظنوا أن كل ما فيها من هذا القبيل .

ولم تثر هذه الهمجية لهؤلاء الفرنجة ــ الذين يدعون أنهم ممثلين للحضارة وأصلا لها ،علما بأن هذا الحريق ثابت عليهم بالادلة القاطعة ــ على حين أن قضية حرق مكتبة الاسكندرية التي اتهم بها العرب زورا وبهتانا ،والتي لم يجد أصحابها الادلة الدامغة لاثباته ، استغلها الحاقدون والناقمون واصحاب الاغراض وأثاروها ممثلين باسرائيل التي أثارت الموضوع في هيئة الامم المتحدة لاظهار أن العرب عنصر هدام ،ليسوا أهلا للحضارة ،ونسوا أن يذكروا حريق مكتبة طرابلس الذي يعد من أكبر الدلائل على همجية هؤلاء الغزاة .

أما من الناحية السياسية ،فقد حرص بنو عمار على ضمان استقلالهم أولا ،وعملوا على ملائمة سياستهم وموائمتها مع القوى الاخرى كلما احتاج الامر الى ذلك .

فعلى الرغم من أنهم استقلوا بطرابلس والمدن المحيطة بها واقتطعوها من أملاك الخلافة الفاطمية ،الا انهم حرصوا على عدم اثارتها واعلان العداء لها أو معارضة سياستها ،والتزموا خطا حياديا بينها وبين السلاجقة ،بل أنهم اعرضوا عن محمود المرداسي الذي انحاز الى الخلافة العباسية والسلاجقة منذ سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠م ــ واثبتوا بذلك أن هدفهم الاساسي حفظ استقلال امارتهم ،والوقوف بحياد بين المعسكرات المتنازعة .

وقد ظل بنو عمار في حيادهم يرفضون الارتماء في احضان القوى الاسلامية الكبرى ،على الرغم من تعرضهم للخطر الصليبي المتزايد ، الى أن غدا دفع الفرنج عن طرابلس أمرا خارجا عن قدرتهم ،فمالوا حينئذ للاستنجاد بالقوى الاسلامية الكبرى ،فطلب فخر الملك العون من السلطنة السلجوقية سنة ٥٠١هـ / ١١٠٨م ،طالبا النجدة على أن يمول الجيش بنفسه اشارة الى استقلاله الذاتي في الامارة .

كما اهتم بنو عمار بالناحية الاقتصادية اهتماما بالغا حتى

بلغت طرابلس الذروة في الازدهار الاقتصادي . وقد أطمع هذا الازدهار الاقتصادي الصليبيين بها ،حين وفدوا اليها للمفاوضة في أمر الصلح (١).

وقد ساهم في ازدهار امارة بني عمار الاقتصادي ملاءمة الظروف الطبيعية ،من جريان النهر الكبير وخصب التربة في طرابلس وضواحيها فضلا عن توفير الحماية والامن ورعاية السكان ،فكثرت بساتينها وحدائقها مما جعل انتاجها متنوعا . وقد ادى هذا التنوع الزراعي الى قيام كثير من الصناعات الزراعية والحيوانية ،لاسيما تلك التي تعتمد على الحرير والصوف والورق وقصب السكر والزيتون والكروم . وقد كانت طرابلس تحوي حين هاجمها الصليبيون في مطلع القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي نحو أربعة آلاف من مصانع الحرير والصوف (٢)فضلا عن مصانع الورق التي كانت احدى الصناعات الهامة في ذلك الوقت .

وكانت طرابلس سوقا تجارية هامة ، اقيمت فيها الاسواق المحلية وفرضت المكوس على السفن القادمة من اتجاهات مختلفة ،وكانت مركز حركة تجارية ساهمت في زيادة الرخاء في المدينة ،واستفاد السكان دون شك من ذلك وأثروا . وقد مكنها هذا الثراء من شراء المؤن بأثمان باهظة من جهات متعددة اثناء الحصار الصليبي ،من جزيرة قبرص وجزائر البنادقة ،بل ومن انطاكية الصليبية ذاتها (٣).

وهذا يمكن القول أن بني عمار كان لهم دور مشرف في الدفاع عن امارتهم امام الصليبيين ،كما انهم نهضوا بهمة واقتدار لجعل امارتهم من أكثر الامارات تقدما في كافة مناحي الحضارة سواء في الناحية العلمية أو العمرانية أو الاقتصادية .

---

(١) انظر فيما سبق ،وانظر ابن الفرات : المصدر السابق ،تاريخه ،ج٨ ص ٧٧ — حتي : لبنان في التاريخ ،ص ٣٥٣

(٢) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ،ج٢ ص ٢١٤

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ،ج١ ،ص ٣٦٣

اولترا أعظم أسرار الحرب العالمية الثانية

ترجمة وتقديم الأستاذ محمود عمر السباعي

لم يكن أحد من المؤرخين ،يعطي دورا رئيسا لاعمال الجاسوسية في تقرير مصير الحروب ،فاحراز النصر النهائي على العدو ،كانت تقرره القوات المسلحة في ساحات المعارك الطاحنة ، أما الجاسوسية أو المخابرات كما أصبحت تدعى الان ،فلم يكن لها الا دور ثانوي هو تقديم المعلومات الى القيادات العليا ،لتستفيد في اعداد المعارك وتوجيهها ، الا أن المعلومات التي بدأت تنشر منذ عشر سنوات عن اسرار الحرب العالمية الثانية وأثر انظمة المخابرات في تقرير النتيجة النهائية للحرب ، اخذت تغير نظرة المؤرخين الى المخابرات وتحملهم على اعطائها دورا اكثر أهمية مما كانوا يولونها اياه ومن أهم الكتب التي صدرت حتى الان كتاب (Body guard of lies — (معقل الاكاذيب) لمؤلفه انتوني كيف براون Anthony cave brown الذي صدر عام ١٩٧٥) وصدر بالافرنسية بعنوان La guère secrète سنة (١٩٨١) عن دار بجماليون PYgmalion في باريس • وفي هذا المقال نقدم الفصل الاول منه المعنون ب :(اولترا) منقولا عن الترجمة الفرنسية بتصرف •

بعد نهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) خرجت انكلترا منتصرة مع حلفائها على المانية وحليفاتها ،ولم يكن أحد من المسئولين البريطانيين يهتم بما يحدث في المانية حتى وصول هتلر الى الحكم في مطلع الثلاثينيات وعمل على تمزيق معاهدة فرساي فأعاد تشكيل الجيش الالماني وفرض التجنيد الاجباري ورفع من عدد وعدة القوات المسلحة • وعندئذ بدأت المخابرات البريطانية بالاهتمام بتلك

المظاهر ذات الدلالة الخطرة .

كان القسم المسؤول عن تلقي الاخبار وجمعها في المخابرات البريطانية هو : مصلحة الاستعلامات السرية ويرمز اليها بالرمز: Mi- 6 "م.ي - ٦" .

كان رئيس هذه المصلحة في العام ١٩٣٨ الاميرال السير هيوغ سانكلير واخذ يشعر نتيجة لتطور الاحداث في المانية ،بالحاجة الملحة للحصول على معلومات نابعة من قلب المانية ،تعطيه القيمة الحقيقية للقوات المسلحة الالمانية وتكشف نيات القادة الالمان ،ولاسيما هتلر ،وكانت الوسيلة الوحيدة في نظره التي تحتاج اليها انكلتره ،هي آلة تستطيع فك رموز الرسائل والتعليمات السلكية واللاسلكية التي تصدر عن القيادة الالمانية مباشرة .

كان هتلر يعلم بأهمية السرية التامة في العمل ،ولذلك بدأت الحكومة الالمانية منذ العام ١٩٣٤ بوضع نظام جديد للشيفرة الالمانية وهذا ماكانت مصلحة الاستعلامات السرية البريطانية / Mi -6 / تبحث عنه على نطاق واسع ،وكان على مانزيس أن يستمر في جهوده أربع سنوات ليصل الى غايته من البحث والتحري ،هذا التحري المستمر بدأ في اللحظة التي علم بها الميجر فرنسيس فولي F.Foley عميل Mi- 6 في برلين والمعروف في دائرته بالرقم (١٢٠٠) بأن الجيش الالماني يجري التجارب على آلة للشيفرة تدعى / ENIGMA / .

وعندما نقل هذه المعلومات الى رئيس دائرته كلف هذا معاونه (منزيس) بالامر وأوعز لرجاله بالتحقق من الخبر ، اكتشف رجال منزيس أن (ENIGMA) من اختراع احد الهولانديين المدعو(هوغو كوخ دوديلفت H.K.de delft) الذي كان قد حصل على براءة اختراع آلة كاتبة سرية منذ تشرين الاول ١٩١٩ في لاهاي وقد شكل الرجل شركة لتطوير واستثمار اختراعه ،وعندما عجز عن ذلك

تنازل عن براءة اختراعه لاحد الالمان المدعو : آرثر شربيوس – وهو مهندس – مخترع كان يقيم في برلين ،وقد نجح في صنع آلة استنادا الى مخططات /كوخ/ دعاها : انيغما - ENIGMA ،وكانت في الاصل مخصصة لحفظ اسرار التجار واصحاب الاعمال وليست للاغراض العسكرية وفشل شربيوس في تسويقها فباع امتيازها الى شركة آخرى .
في هذه الاثناء ،وصل هتلر الى الحكم وبدأ باعادة تسليح الجيش الالماني وتنظيمه ،وبذل الجنرالات كل جهودهم ليحصلوا على مخبر أو مصنع قادر على صنع آلة جديدة للشيفرة قادرة على حماية اسرارهم .

كان أول من اهتم ب - ENIGMA الكولونيل : اريك فليجيبل الذي أصبح فيما بعد رئيس سلاح الاشارة للجيش الالماني وعضو القيادة العليا الالمانية . واصبح انشط العناصر في جهاز مكافحة الجاسوسية الالماني ،ومنذ أن بدأ / فليجيبل / باجراء التجارب والاختبارات على ENIGMA اختفت هذه الالة من الاسواق نهائيا ،وكانت تلك الالة ثقيلة الى حد ما ،ومتينة ،وقابلة للحمل / Portative / وسهلة التشغيل ، قادرة على تقديم الرموز بغزارة ،وعلاوة على ذلك جعلوها لايمكن فك رموزها وبالتالي عديمة الجدوى ، اذا وقعت في يد عدو لايعرف مفاتيح شيفراتها ،وبهذه الصفات كانت تستجيب ،بكل دقة ،لحاجات الجيش الالماني .
كانت مصلحة الاستعلامات السرية البريطانية /MI- 6/ ملمة بميزات /انيكما ENIGMA / ولكنها لاتعرف اكثر من ذلك .

في حزيران ١٩٣٨ تلقى / مانزيس / رسالة كانت أهم رسالة في تاريخ الجاسوسية خلال الحرب العالمية الثانية ،وكانت صادرة عن عميله في /براغ / المدعو جبسون يقول فيها : (انه وجد في فارسوفية ،عاصمة بولونية ،يهوديا عرض عليه أن يبيعه كل مايعلمه عن / ENIGMA/ وهذا اليهودي البولوني كان اسمه المستعار

(ريتشارد لوينسكي) وكان يعمل كخبير في الرياضيات ومهندس في المعمل الذي صنعت فيه (انيكما) في برلين ثم طرد من المانية بسبب ديانته ،وقد طلب الرجل ثمنا لمعلوماته (١٠٠٠٠ر١٠ليرة) وجواز سفر بريطاني والسماح له ولزوجته بالاقامة في فرانسة لعدم وجود أقارب أو معارف له في انكلترة ،وادعى لوينسكي أن لديه معلومات كافية لصنع نموذج عن ENIGMA ورسم للاقسام الدقيقة والداخلية فيها .

عندما وصلت الرسالة الى (مانزيس) عرضها على خبرائه فأقروا بصحتها ؛فقرر ارسال رجلين من رجاله الفنيين الى وارسو ليقابلا لوينسكي شخصيا . وكانت تعليماته لهما أن يذهبا الى وارسو وان يقابلا لوينسكي ويسبرا معلوماته ،فاذا وجداها صادقة ،فعليهما أن يرتبا مع جبسون نقل البولوني وامرأته الى باريس وأن يعهدا بهما الى المقدم (ويلفريد دوتديرعنال) العميل المحلي لـ(Mi- 6) في باريس والمعروف لديها بالرقم (٢٤٠٠) . وعلى لوينسكي ،عندئذ أن يركب الآلة تحت مراقبتهم . وبعد ثمانية واربعين ساعة كان الرجلان في وارسو عاصمة بولونية ،فمن هما هذان الرجلان وما امكانياتهما ؟؟؟ .

الاول يدعى (الفريد نوكس) وهو الاكبر سنا ،كان ابن اسقف (مانشستر) ودخل ،مثل ابناء طبقته مدرسة ايتون/ ETON / على نفقة الملك . ثم دخل كلية الملك في / كامبردج / حيث تجلت مواهبه وعبقريته في الرياضيات مما سمح له أن يصبح بسرعة فائقة استاذا محاضرا في الكلية . وعلاوة على القابه الجامعية ،كانت الصفة المهمة فيه : انه خير اختصاصي انكليزي في حل الشيفرات والرموز السرية .

أما الثاني فيدعى ألان تورنج / A- Turing/ وكان أيضا لامعا جدا في الرياضيات فاستقبلته كلية الملك ـ ثم جامعة برنستون

في الولايات المتحدة ،حيث كان تلميذا لانيشتاين ،وكان يراسل اصدقاءه باشرطة مثقبة كالشيفرة ،بحيث لم يكن احد يتمكن من حل رموزها أو يعلم مصدرها ،وعند عودته الى انكلترا اصبح معاونا لـ نوكس Knox ،في شعبة / فك الرموز / التابعة لوزارة الخارجية وكان المع الرياضيين في جيله •

عندما وصل هذان العالمان الى وارسو انصرفا الى اتمام اكثر المهمات سرية واعظمها اهمية خلال الحرب العالمية الثانية وهي تهريب - ENIGMA الى انكلترة •

وفي العاصمة البولونية اجتمعا بـ لوينسكي ودار بينهم حديث طويل ابتدأوه في متحف (كوري) وتابعوه في منزل لوينسكي الواقع في الحي اليهودي /الغيتو GHETTO•

لايمكن الاستغناء عن نظام الشيفرة في كل دولة حديثة ،ولكن هذا النظام يجب أن يبقى في سرية مطلقة ،وعلى ذلك فلم تكن الشيفرة في ذلك الوقت ،لايستطيع رياضي متوفق أن يحلها بملاحظة نظامها الذي تعمل بموجبه •

اجتازت ENIGMA هذه العقبة بفضل مجموعة من المفاتيح المتعددة التي تجعلها تغير شيفرتها عند كل رسالة ترسلها ،مما يجعل رموزها تستعصي على الحل بدون معرفة مفاتيحها • ومنذ أن أدرك - نوكس KNOX - وتورينج Turing أهمية الالة المعروضة ،عملا فورا على نقل لوينسكي وامرأته وكل مايتعلق بالالة الى باريس مانحين اياه وامرأته جواز سفر بريطاني ،ومارين بالسويد ليتجنبوا المانية ،ومن السويد الى باريس حيث عهدا به الى المقدم دوندردال ،وقد حصل المقدم للرجل وامرأته على اذن بالاقامة ، بفضل صلاته مع المخابرات الفرنسية ،مما جعل لوينسكي وامرأته بمنأى عن كل تطفل •

كان لوينسكي يعمل في شقة على الضفة اليسرى من السين ،والالة التي صنعها اثبتت انها تقليد رائع للاصل ،فقاعدتها يبلغ طولها (٦١) سم ،وارتفاعها (٤٦) سم ووضعت في علبة خشبية وربطت بآلتي كتابة كهربائيتين ولكي تحول رسالة مقروءة الى شيفرة يكفى للعامل عليها أن يطلع على دليل المفاتيح فيختار المفتاح المناسب لساعة الارسال في اليوم ،واليوم من الشهر والشهر من ربع السنة ،فيصل المفاتيح المطلوبة حسب النظام المذكور ويطبع الرسالة المقروءة على آلة الكتابة الواقعة على يساره وعندئذ تعمل مجموعة اهتزازات كهربائية لايصالها بوساطة نظام معقد من الاسلاك الى كل الاجزاء المتحركة داخل الالة ،وعندئذ تصبح الرسالة شيفرة ثم تنتقل الى الالة الكاتبة اليمنى التي تبثها بالرموز ،وعندما يصل نص بالشيفرة يقوم الرجل المختص باختيار المفاتيح المطابقة للنظام المذكور سابقا من حيث تحديد الساعة واليوم والشهر وربع السنة وعندما يطبع محتوى الشيفرة على الالة اليسرى يظهر النص المقروء على الآلة الكاتبة اليمنى باللغة الانكليزية ،واكتشف (نوكس وتورنج) ان باستطاعة هذه الالة تقديم عدد لاحصر له تقريبا من الحروف الرمزية وذلك بتعديل نظام المفاتيح فيها .

لقد وثق هتلر بهذه الالة (ENIGMA) وعمم استعمالها على كل القيادات العليا في الجيش والاسطول والطيران ،كما أنه سمح ببيع بعضها الى اليابان ورومانية وبلغارية ،ولكن أهم من ذلك كله ان الاميرال (ويلهلم كاناريس) رئيس دائرة الاستعلامات ومكافحة التجسس في القيادة العليا العامة الالمانية ،كان يستعملها في اتصالاته الهامة ،وبصورة خاصة بين برلين ومدريد ،وبذلك أصبح كاناريس العدو رقم (١) في حالة الحرب بين انكلترة وبين المانية .

ويمكن أن نتوقع أن الالمان كانوا يحمون مخططهم بكل عناية فائقة وعلى ذلك فان الطريقة الوحيدة للوصول الى اسرار - ENIGMA

هي تصور آلة اخرى قادرة على تقليد وشرح كل الشيفرات التي يرسلها كل نموذج من آلاف النماذج الموجودة لدى الجيش الالماني من(الانيكما) -ENIGMA . وان تكون هذه الالة قادرة ايضا على حساب التغيرات المستمرة على انظمة المفاتيح ويمكنها أيضا ان تقوم بعدد لايحصى من العمليات الرياضية وبسرعات تتجاوز كثيرا من القدرات البشرية ، ومثل هذه الالة لم تكن موجودة الا نظريا وهي النظرية التي تصورها تورينج Turing لصنع الالة العالمية ،ولكن هل يستطيع تورينج والخبراء في حل الرموز ،صنعها فعلا ؟؟ .

أوليس ذلك يفوق القدرات التكنولوجية المتوافرة في ذلك الوقت ؟؟ . ومع ذلك استطاع الخبراء الانكليز ،بسرية تامة أن يصنعوا تلك الالة وكانت قطعة من الاثاث يبلغ ارتفاعها (٦٠ر٢م) وعرضها مثل ذلك عند قاعدتها . وفي داخلها انجاز تكتيكي يعجز عنه الوصف وليس هناك آلة شبيهة لها . فقد كانت فريدة من نوعها وصنعت لهدف معين : هو أن تكون جوابا عن – ENIGMA – ،ويكمن سرها في الدارات الكهربائية لقسمها الداخلي التي كان عليها أن تتجاوب مع دارات الانيكما . واطلق عليها اسم (القنبلة) .

ووضعت الالة في الكوخ رقم (٣) تحت اشجار حديقة (بلتشلي) حيث كان كل ماتبثه (الانيكما) الالمانية ،يتلقى بوساطة مجموعة من اجهزة الاستقبال المقوية منتشرة على الارض فتتلقفه (القنبلة)،واذا نجحت (القنبلة)في ايجاد المفاتيح التي استخدمت في ارسال الشيفرات فان الفنيين في (بلتشلي) سيتمكنون من حل رموزها .

استمرت التجارب على (القنبلة) وكانت النتائج في البداية غير كافية ،فالالة تصدر ضجيجا غريبا كالضجة التي تصدر عن عدة انوال ميكانيكية تعمل في وقت واحد . وبفضل الاصلاحات المتعددة ،زال – الضجيج . واصبحت الالة عملية في الوقت نفسه الذي كان الالمان يهاجمون (بولونية) ،وكانت توحي بانها ستقدم اثمن – مواد

التجسس ـ خلال الحرب كلها •

أول عمل للقنبلة كان في أحد ايام نيسان ١٩٤٠ عندما كان هتلر يعد العدة لغزو هولندة ،وبلجيكة ،وفرانسة ،اذ تلقت برقيات صادرة عن قيادة الطيران الالماني ففكت رموزها وطبعتها باللغة الانكليزية • لقد حصلت المعجزة واستبدل باسم القنبلة الاسم الجديد (اولترا ـ ULTRA) تخليدا للاسم الذي كان يطلقه الاميرال نلسون على شيفرته ـ اثناء معركة الطرف الاغر ـ ١٨٠٥ وبدا آن هذه الالة ستكون سلاحا أثمن من عشرات الجيوش المسلحة ،ومنذ ذلك الوقت وبفضل دائرة الاستعلامات البريطانية (Mi-6) وصبر نوكس وتورينج كانت الحكومة الانكليزية تتلقى يوميا أكثر المعلومات سرية والتي كانت تتبادلها المراكز الحساسة في آلة الحرب الالمانية •

أول خدمة قدمتها (اولترا) للحلفاء كانت انذارهم بالهجوم الالماني ،منذ نيسان ١٩٤٠ على اوروبة الغربية • الا آن سوء فهم المعلومات والشك بها وتضارب الاراء حولها ،جعل رئاسات الاركان لاتحسن التصرف مما عجل بنصر الالمان وجلب للحلفاء كارثة حزيران ـ ١٩٤٠ـ ،اذ اجتيحت اوروبة الغربية والقت فرانسة السلاح ووجدت انكلترا نفسها وحيدة امام قوات هتلر المتمركزة على سواحل بحر المانش واصبح مصير المملكة المتحدة متعلقا بما بقي لها من اسلحة وهي : الاسطول ،وسلاح الطيران ،وجهاز اولترا •

كانت مصلحة الاستعلامات البريطانية تحسب لهذه الحالة حسابها ـ ولذلك ،عمدت منذ وقوع الهجوم الالماني ،الى نقل (لوينسبكي وزوجته) وكل مايتعلق بآلته الى انكلترا ،حيث وضعته تحت حماية المخابرات البريطانية ،ثم اختفى الرجل من الوجود ولم يعلم كيف كان مصيره •

بعد استسلام فرانسة عرض هتلر على انكلترا اجراء محادثات

للصلح فلم يرد تشرتشل على عرض الالمان ولم يعد مواطنيه (الا بالدم والعرق والدموع) وتنبأ لبلده بقتال دون رحمة ضد اعظم خطر تعرضت له انكلترا منذ الحروب النابوليونية في مطلع القرن التاسع عشر، وعندئذ اصدر هتلر أوامره الاولى لتنفيذ عملية (اسد البحر) أي : غزو انكلترا في عقر دارها ٠

وفي الوقت نفسه القى المارشال (غورنغ) بسلاح الطيران الالماني ضد سلاح الطيران الانكليزي ،ومنذ الغارات الالمانية الاولى ،ظهرت قيمة جهاز اولترا بالتعاون مع اجهزة الرادار الذي كانت انكلترا تحتكره في ذلك الحين ٠

كان تشرتشل وهيئة اركان الطيران الملكي ،ينذران ،في اغلب الاحيان ،بطلعات واهداف سلاح الجو الالماني ،فتمكنوا بذلك من تركيز اسرابهم الجوية على أخطر الغارات الالمانية ،بدلا من انهاك احتياطي الطيران الملكي في عمليات المراقبة ،وتوزيعه على انحاء البلاد المتفرقة ،وهذا مامكنهم من التوفير في الرجال والطائرات وسمح للدفاع الانكليزي أن يقاوم مدة أطول بكثير مما توقعها (هتلر وغورنغ) ٠

الخدمة التي قدمتها (اولترا) بانذاراتها المبكرة ومعلوماتها الدقيقة جعلت الستراتيجيين يتساءلون هل يغامر هتلر بعملية انزال بحري في انكلترا قبل القضاء على سلاح الجو البريطاني وتأمين السيادة الجوية ؟ وهل يقوم بهذه المغامرة بسرعة ،معتمدا على حظه كما حصل في غرب اوروبة وبالهجوم على فرانسة ؟؟ ٠

منذ منتصف صيف ١٩٤٠ كان تشرتشل يخشى مثل هذا الهجوم ولذلك كان عليه أن يركز كل قوى الامبراطورية للدفاع عن انكلترا ولذلك خفف الى الحد الادنى نشاط القوات البريطانية في ماوراء البحار للدفاع عن مستعمراتها هناك ،وجاءت اولترا بالنجدة وفكت رموز

الشيفرات الالمانية وأوضحت بجلاء أن أية محاولة للانزال لن تتم طالما بقيت مقاومة سلاح الجو الملكي ٠

استمرت المعارك الجوية حتى أول أيلول ١٩٤٠ اذ نقلت اولترا الخبر القاطع : أن غورنغ سيأمر سلاح الجو الالماني بشن هجوم على انكلترا في (١٥) ايلول ،فان اخفق هذا الهجوم الجوي على انكلترا فان مشروع غزوها سيلغى نهائيا ٠

في اليوم المحدد كان تشرتشل في غرفة عمليات سلاح الطيران الملكي وامام خرائط العمليات كان ينظر الى الضباط وهم ينقلون اسراب الطائرات كما تنقل احجار الشطرنج على رقعته ٠

وعلى بعد بضع عشرات من الكيلو مترات كان المارشال غورنج في لباسه الرسمي ،يتطلع من (وكر النسر) الى التشكيلات الالمانية التي تحمل شعار الصليب المعكوف وهي تغطي سماء بحر المانش ٠

وفي السابع عشر من ايلول فكت اولترا رموز تعليمات المانية افعمت قلوب رجال هيئة الاركان العامة لسلاح الطيران الملكي بالسرور وادخلت الى نفوسهم الشعور بالراحة وازالت عن كواهلهم الحمل الثقيل الذي كانت تنوء به ،لقد كانت التعليمات صادرة عن هتلر وهي تقضي بازالة كل المنشآت الارضية التي كانت ستستخدم في نقل القوات المحمولة جوا من هولندة وبلجيكة وفرانسة في حالة غزو انكلترا وفشل مشروع (اسد البحر) ٠

ان فشل غزو انكلترا سمح لتشرتشل بارسال القوات البريطانية من دبابات ومدافع وسفن للدفاع عن قناة السويس أو لمساعدة الجنرال ديغول في حمل القوات الفرنسية في (داكار) على الانضمام الى حكومة فرنسة الحرة التي كان برأسها ،بينما كانت انظار العالم مثبتة على ذراع البحر الذي يفصل انكلترا عن القارة الاوروبية ،وانصرف تشرتشل لتوجيه اهتمامه على جبهات آخرى ٠

لقد ظهرت الاهمية الاستراتيجية لـ (اولترا) بشكل رائع ، واصبحت وزارة الحرب منذ فشل مشروع الغزو الالماني ، أكثر استعدادا لبذل كل التضحيات ، مهما بلغت في سبيل المحافظة على استمرار اولترا وعلى سريتها التامة اذ أصبح وجود تلك الالة شرطا أساسيا لربح الحرب ، لذلك يجب المحافظة على سريتها مهما بلغت التكاليف والتضحيات فعندما يشعر الالمان بأن آلتهم (ENIGMA) انكشفت رموزها ، فسيغيرون انظمة شيفراتهم وقد تمر سنوات طويلة قبل أن تتاح لانكلترا فرصة كالتي أتاحها لها لوينسكي . وفي سبيل ذلك كله تعرضت اعصاب ووجدان المسؤولين البريطانيين ، لاسيما الكبار منهم الى اختبار رهيب في الحادثة التالية :

* تدمير كوفنتري Coventry :

في الثاني عشر من تشرين الثاني ١٩٤٠ اعلمت اولترا المسؤولين بأن الطيران الالماني مصمم على انزال ضربة كبرى تهدف الى تثبيط عزيمة الشعب البريطاني واضعاف مقاومته من جهة ، ومن جهة أخرى تهدف الى محو اثار فشل الهجوم الجوي الصيفي السابق ، وكان يدور في ادمغة الستراتيجيين الالمان مشروع رهيب أطلقوا عليه اسما شاعريا هو : (سوناتا [1] في ضوء القمر) وتهدف هذه العملية الى قصف مدينة كوفنتري ليلا . وهي مدينة صناعية كبرى في قلب انكلترا تضم كل أنواع الصناعات الكهربائية والميكانيكية اللازمة للمجهود الحربي البريطاني ويبلغ عدد سكانها (٢٥٠) الف نسمة وفيها اثار تاريخية عزيزة على قلوب الانكليز مثل كنيسة (كوفنتري) نفسها وكان مصيرها كمصير ميناء (روتردام) الهولندي الذي دمرته سبع وخمسون طائرة من طراز (هنكل) وجعلته قاعا صفصفا ، وبينت (اولترا) أن عدد الطائرات التي ستهاجم كوفنتري يبلغ (٥٠٩) طائرات قاذفة من

---

(١) معزوفة موسيقية تعزفها آلة واحدة كالكمان والبيانو أو الاثنتين معا .

طراز هنكل .

فماذا يفعل (تشرتشل) هل يتخذ الاجراءات الكفيلة بافشال الهجوم ويدافع عن المدينة وينقذها ؟ وعندئذ سيشعر الالمان بأن شيفرتهم قد حلت فيعمدون الى تغييرها ،وتفقد انكلترا سلاحها الاساسي في الحرب ضد المانية ،وعرض عليه أن تهاجم المطارات الالمانية في فرنسة وهولندة وبلجيكة أو يتصدى الطيران الملكي للطائرات الالمانية المغيرة ،كما عرض عليه ترحيل السكان من النساء والاطفال والعجز ، وتفريغ المستشفيات من المرضى ولكنه رفض ذلك كله لانه سيهتك سر اولترا ولذلك ترك المدينة لمصيرها دون أن ينذر حتى المسؤولين فيها ليظهر الهجوم وكان الانكليز قد فوجئوا به تماما .

فما المصير الذي أعده الالمان لتلك المدينة الشهيدة كما عدها الانكليز فيما بعد ؟؟؟ .

في ليلة (١٤- ١٥) تشرين الثاني ١٩٤٠ كان القمر ساطعا ،وقليل من دخان المعامل يتصاعد الى الجو ،وكانت مدينة (كوفنتري)تستريح مستحمة في ضوء القمر الفضي وفي الساعة (١٩و٥) دقائق بدأت صفارات الانذار تدوي ،وبعد خمس دقائق حلقت طائرات (هنكل) فوق المدينة وعندئذ فقط علمت سلطات المدينة (الشرطة والاطفاء ،والدفاع المدني) بأن مدينتهم تهاجم . وبدأت السماء تمطر المدينة بقنابل حارقة ثم بقنابل متفجرة كانت أصواتها تصم الاذان وبدأت الحرائق مع الانفجارات تعمل حرقا وتدميرا في انحاء المدينة . وكانت المقاتلات الليلية عاجزة عن تشتيت امواج القاذفات الالمانية ،ولم تكن نيران المدفعية المضادة للطائرات كافية نظرا لتحليق القاذفات الالمانية على ارتفاعات عالية واحياء كاملة سويت منازلها بالارض تماما .

استمرت الغارة عشر ساعات كاملة خربت فيها المعامل والمشافي والكنائس ،وبلغ عدد المنازل المهدمة (٥٠٧٤٩) منزلا وانقطعت الكهرباء وخربت خزانات الماء وانفجرت أنابيب الماء والغاز مما جعل مهمة

الدفاع المدني عسيرة جدا فكيف تطفأ الحرائق دون ماء ؟ . وكان من شدة القصف المتناوب بين القنابل الحارقة والقنابل المتفجرة أن بعض الاماكن بقيت اسبوعا بعد الغارة مشتعلة حتى تم اخماد النار فيها وان خراب (٥٠٠) مركز تجاري عرقل لعدة أيام توزيع المواد الغذائية .

وقد ادت عملية معزوفة في ضوء القمر مهمتها بصورة كاملة ووفق المخطط الذي نقلته (اولترا) وأصبح هتلر بامكانه أن يفخر بثأره لهزيمته في الصيف الماضي .

وقد وصف احد الصحفيين الالمان ،الذي كان في احدى قاذفات القنابل ،الغارة على (كوفنتري) ب : (انها اعظم هجوم في تاريخ الحرب الجوية ،حتى يمكن القول بأن الارض تشققت وبدأت ترسل طوفانا من (المهل LAVE) الجهنمي ،وعند العودة كان بوسعنا أن نرى ،على البعد وراءنا ،اعمدة الدخان واللهب الساطع ترتفع بمقدار كيلو متر واحد فوق المدينة) .

كانت خسائر الالمان طائرة قاذفة اسقطتها وسائل الدفاع الجوي أما سلاح الجو الملكي فقد قام ب(١٦٥) طلعة واذيع ،فيما بعد ،بأنه لم ير الا سبع طائرات عدوة هوجمت اثنتان منها دون نجاح ،كما اذاع راديو لندن ،وقد وصف مراسل (نيويورك تايمز / في لندن) ، الذي زار كوفنتري بعد الغارة منظر المدينة بهذه الكلمات : (تشبه كوفنتري الان مدينة خربتها الزلازل) ،أما صحيفة (التايمز) فقد أطلقت عليها اسم (المدينة الشهيدة) وفعلا استشهدت المدينة في سبيل المحافظة على بقاء اولترا وسريتها ،ولقي الموت من سكانها (٥٥٤) نسمة و(٨٦٥) نسمة كانت جراحهم خطيرة جدا وبضعة آلافاخرين يعانون من الجروح والحروق . أما المدينة فقد أصبحت ركاما وكان ذلك هو الثمن الذي دفع من أجل الابقاء على (اولترا) .

أبولودور الدمشقي أعظم معمار في التاريخ

ا الدكتور عدنان البني

ولد أبو لودور في دمشق حوالي العام ٦٠م ومات منفيا حوالي العام ١٢٥م في قمة نضوج عبقريته وكمال شخصيته . ورغم عدم انتمائه للطبقة الارستقراطية فقد فرض على المجتمع الروماني الاحترام لنفسه والتقدير لمواهبه وعاش في أعلى مستوى الحكم ،وفي عهد الامبراطور الروماني تراجان (٩٨-١١٧م) بلغ منصبا معادلا لمنصب وزير الاشغال العامة في لغة اليوم .

كان حسورا في عمله ،يتصدى لاصعب المعضلات التقنية والفنية كما كان جسورا في حياته ،ومن تمثاله النصفي الموجود حاليا في متحف ميونخ يتضح أنه كان متين البنية قوي الشكيمة متوازن الشخصية نبيل القسمات ،حميل الرجولة ،وفيه مهابة ،ووجهه سمات شرقية لاشك فيها .

وعلى الرغم من بعض المعلومات المتناثرة هنا وهناك عن حياته العملية أو الرسمية فاننا نجهل الكثير عن حياته الشخصية . وفي هذا المجال يقول "مورتمرهويلر" : (ان ابو لودور الدمشقي الذي يكمن اسمه خلف اعظم المنجزات المعمارية في عهد الامبراطور - تراجان - يظل لعزاً من الالغاز) ،وفي رأي " بيانكي باندينيللي " : (ان اكثر الدفعات الثقافية حيوية كانت تأتي غالبا من مقاطعات الشرق سواء في الفكر أم الفن ،ومنها يأتي أنشط رجال السياسة والموظفين والقادة العسكريين . وهذا التداخل بين روما والولايات برز بشكل خاص في السلالة الانطونية / سلالة ترفا وترجان وهادريان .. الخ .. / لدرجة يستحيل معها النظر للفن الروماني بعد ذلك العصر ،من زاوية النظر لروما وحدها) .

ويذكر تاريخ كمبردج أن بعض العلماء يعتقدون (بأن سورية في مجال العمارة كانت متقدمة على روما بل كانت بالنسبة لها نموذجا يحتذى .. وأن سورية تفوقت على روما في عبقريتها المبدعة وفي معارفها التقنية وفي مهارة عمالها ،ويفترض أن ابو لودور الدمشقي قد اقتبس مخططات المباني في سفح الكورينال عن موطنه الاصلي) .

وهنا نذكر قول الشاعر اللاتيني الهجاء الشهير جوفينال الذي يقول : (ان العاصي السوري يصب مياهه منذ وقت طويل في نهر التيبر حاملا معه لغته وعاداته). وبذلك يؤكد على طريقته حضور السوريين ونفوذهم في روما . " حاتم ،الذكريات ص ٨٣ " .

كان أبو لودور وتراجان (الامبراطور) صديقين حميمين ،وقد تعود صداقتهما لايام خدمة تراجان كمحام عسكري في سورية عندما كان أبوه واليا عليها . ويعتبر الرومان تراجان أفضل الحكام ،كما يسمون عهده الزمن السعيد ،قضى أكثر سنوات حكمه في جبهات القتال ومع ذلك كان يجد الوقت ليحكم بفعالية ويتمتع بشعبية ويجمل روما ويحقق اصلاحات اجتماعية لصالح الطبقات الافقر . ثم يموت دون أن يخلف ولدا أو يكون له رسميا ولي عهد . ولكن زوجته بلوتينا قالت أنه أوصى لابن عمه هدريان الذي كان قد تبناه .

وفي عهد الامبراطور تراجان انتهت في الفن الصور المحورة المؤلهة للامبراطور وأصبحت تعطي رسميا صورته الحقيقية . وبدأ في ذلك العهد - في رأي باندنيللي - تعبير عن عالم فني جديد يختلف بنيويا عن العالم الهلنستي . وظهرت منحوتات بمفاهيم جديدة تمثل لاول مرة الطبقات الشعبية في العديد من المشاهد بمناسبة المساعدة الاجتماعية وتثبيت الارض .. وراء ذلك كله شخصية فنية مبدعة ويرى - باندنيللي - ان هذه الشخصية هوأبو لودور .

وفيما يلي نعطي سردا مجملا للمعروف مما حققه في روما وفي مدن ومناطق أخرى من العالم الروماني ،أما اعماله في موطنه الاصلي قبل أو خلال منصبه الجديد في روما فلا يعرف أحد عنها شيئا ولعل

المستقبل بجود بشيء يضيء لنا السبيل في هذا المجال .
بعض أعماله متعاصر وبعضها متداخل وبعضها متكامل مع بعض ثم آن نقاد الفن من قدامى ومحدثين لم يعاملوهما بتنسيق بل أوردوها حسب سياق البحث وهي ،كما تحقق في الدراسات الحديثة ،خمسة عشر على الاقل .
السوق على سفح رابية الكوديرنيال – الفوروم التراجاني – دار العدل الاولپية – المكتبان عمود تراجان – الجسر العملاق على الدانوب – قوس النصر في بنيفانت – قوس النصر في انكونا – حمامات وجمنزيوم – توسيع مرفأ اوستيا – تجفيف المستنقعات البونتية – اصلاح قناة من النيل للبحر – مؤلف في آلات الحصار .

١– السوق :

عندما عهد لابو لودور بنشاء الفوروم (الميدان) التراجاني في حوالي (١٠٨ – ١٠٩م) وجد نفسه أمام معضلة وجود مرتفع رابية الكوبرنيال في الجهة الشرقية من الارض المتاحة له . وهذا المرتفع يعيق حركته ويشوه المنظور العام من جهة ويحدث الانهيارات من جهة ثانية ،خرج أبو لودور بحل يحقق الغايتين الجمالية والعملية في وقت واحد فاقتطع طرف الرابية وأنشأ مكانه سوقا مجمعة ومغطاة على الاسلوب الشرقي وعلى شكل قوس كبيرة تتدرج على السفح ،تضم هذه السوق فيما نعرف حتى الان ،حوالي مائة وخمسين دكانا في الطابق الارضي ، احد عشر دكانا في القوس الكبيرة ،ويصعد منها بدرجين الى الطابق الثاني وفيه عشرون دكانا أمامها ممر مزود بنوافذ مؤطرة جميلة تطل على الفوروم . وفي الطابق الثالث دكاكين أخرى تنفتح على طريق خلفية على سوية سطح الرابية ،تسمى(فيابيبراتيكا) وتعني طريق التوابل (أي البزورية) . فاذا عبرنا الطريق الى الجهة الشمالية نجد مدخلا واسعا يؤدي كما ذكرنا الى ردهة رحيبة معقودة بعقد متصالب طولها حوالي ثلاثين مترا (لعلها مقر حاكم السوق أو مكانا للمضاربات التجارية والمزايدات) وعلى جانبي الردهة صفان من الدكاكين ،وتتتابع بعد ذلك الدكاكين على طابقين آخرين

بحيث يبلغ المجموع ستة طوابق .

ومن الدراسات والمجادلات حول وظيفة هذا السوق اتضح أنها كانت متعددة النشاط تباع فيها التوابل والحبوب والخمور والزيوت والسمك ويظن البعض أن قسما من الدكاكين حول الردهة العليا كان يديره موظفون حكوميون يتعاملون في تجارة الجملة ويبيعون المواد الغذائية العامة بأسعار مخفضة .

ان سوق أبو لودور الشرقية حققت مركزا تجاريا واجتماعيا ضخما في أقل إشغال للارض وظلت حلا يستهوي المصممين في كل العصور من حيث الجمال والبساطة الاخاذة مع الفائدة القصوى ومنعت انهيار اطراف ربوة الكورينال فضلا عن انها حققت خلفية بديعة للمجتمع المعماري العمراني الذي هو الفوروم التراجاني .

٢- الفوروم التراجاني :

بعيد بدء بناء السوق أو في وقت واحد معا بدأ أبو لودور العمل في الفوروم - أي الميدان - التراجاني ، أنجزه في عام (١١٢م) وتفوق كل ماعداه من ميادين في روما وفي العالم ، لانه أولا أكبر خمس مرات من فوروم الامبراطور اوغسطس مثلا أما من حيث الجمال فهو في رأي تاريخ كمبريدج القديم : (اعجوبة كل العصور) ومن الممكن كما يرى بيانكي باندنيللي أنه استوحى من الساحة الرحيبة المروقة التي كانت موجودة حول معبد جوبتر في دمشق ، ويضيف : وعلى كل حال ان فكرته شرقية أكثر مما هي رومانية .

ضم الفوروم التراجاني (٣٠٠× ١٨٥م) الذي بناه أبو لودور ساحة رحيبة وأواوين وقوسي نصر ، وعمودا تذكاريا عملاقا وتمثالا فروسيا ودارا للعدل ومعبدا وتفاصيل اخرى كثيرة وسكب على ذلك كله زخارف على ارفع مايكون من الانسجام والتساوق . وتضافر ذلك كله ليجعل من الفوروم التراجاني مجمعا رائعا بهر به القدماء واعتبروه واحدا من أكثر لآلىء الفن الروماني صنعا .

٣ـ العمود التذكاري التراجاني :

طلب الامبراطور من أبو لودور أن يشيد له عمودا شـــــاهقا ليكون له قبرا وشاهدا على المنشآت المنفذة في هذا الميدان الرائع فقادته عبقريته الفذة الى خلق عمود لم يسبق له مثيل في تاريـــخ الفن العالمي وقد انجز هذا العمود في (١١٣م) في حياة الامبراطــور تراجـــان •

يرى النقاد أن هذا العمود العملاق المزين بافريز منحوت ملتف حـــول جزعه كفيلم تسجيلي ،هو صيغة جديدة استنبطها ابو لودور الذي ولد بدمشق ، الامر الذي جعل بعض الاثاريين يستنتجون من ذلك انه عــــرف في موطنه النماذج السابقة لابداعه هذا حتىأنهم أكدوا أن الافريـــز والاسلوب المتتابع استوحاه من المنحوتات الاشورية التي كانت قـــد ماتت ولم يعد لها اثر في الفن الهلنستي •

ارتفاع العمود (٣٣مترا) " مائة قدم روماني " والشريط المنحوتـــي الذي كان ملونا يلتف على جزعه بشكل حلزوني طوله مائتا متر •

وهو يحدثنا حديث الحربين اللتين قام بهما تراجان في داكيـــــا (رومانيا) بين (١٠١م ـ ١٠٦م) ان سرد الاحداث يبدأ من قاعـــدة العمود حيث نرى خروج الجيش من مدينة محصنة واجتيازه الدانوب على صفين احدهما بقيادة تراجان والنشاط النهري الممثل بكل واقعية •• ثم الامبراطور يعقد مجلسا حربيا ثم في زي الكاهن الاعظم يتـــرأس حفل تقديم القربان قبل المعركة ،ثم على مرتفع يعطي الاوامر ويخطب في الجنود وغير ذلك • ويستمر في سرد القصة بأدق التفاصيل عــــن الازياء والاسلحة والالبسة والشعوب حتى اننا نعرف لاول مرة بشـــكل واضح زي الرماة التدمريين • يقول مورتيمر هويلر : (ان هـــذا الشريط هو الاعظم بين انجازات الفن التاريخي الروماني •

ان العمل يسير دون تردد ومن مرحلة الى اخرى والنحات يبرهن عـــن تمكن تام وحساسية فائقة) •

فكرة الشريط هي السينما احدث منجزات الفن التصويري وأكثرها شعبية في الوقت الحاضر وهو قريب من عقليتنا الحاضرة وانه يسجل عمـــلا

بكل واقعية في الزمان والمكان . وقد قلد هذا العمود مرات عدة ،ففي عهد اركاديوس (٤٠٨م) بني عمود مماثل في القسطنطينية وهناك عمود برونزي مشابه في كاتدرائية Hildesheim بهانوفر بني في (١٠٢٢) تقليدا لعمود تراجان والمنحوتات فيه تمثل حياة السيد المسيح ،وفي فرنسا اقيم عمود فاندوم تخليدا لحملات نابليون ونقوشه البارزة تقليداً للاسلوب المستمر في عمود تراجان .

٤ـ الجسر العملاق على الدانوب :

كان أبو لودور في الاصل المهندس الحربي للامبراطور تراجان وقد رافقه في حروبه الداكية (في رومانيا) وقد ذكر ذلك بروكوبيوس في الفترة بين الحربين الداكيتين الاولى والثانية (١٠٤ـ ١٠٥م) ،وضع تصاميم هذا الجسر وأنشأه على الدانوب عند مضيق ابواب الحديد قرب مدينة دوبريتي (دوبريسين الحالية في هنغاريا) وقد عمل في اقامته جيش بأسره خلال عام كامل تقريبا ، وقد وصف ابو لودور نفسه هذا الجسر في دراسة له ذكرها المؤرّخ البزنطي بروكربيوس :

كان يصعب على الرومان أن يقيموا أسس وركائز في سرير النهر اذا كان من الغزارة بحيث لايستطيعون تحويله . ولكن أبو لودور ولاول مرة في التاريخ تصدى لمثل هذا العمل الذي يتطلب جسارة تقنية عالية ،فنجح في ارساء عشرين ركيزة قوية جدا في لجة النهر ثم مد الجسر بطول ألف ومائة متر وبعرض مرجح بين (١٣ و ١٩م) .

وكانت فرجة القناطر بين الركائز بين (٣٥ـ ٣٨م) وحصن طرفي الجسر بالابراج ــ ثم ازال هادريان سطح الجسر حتى لايستخدمه العدو ،ثم اصلحه قسطنطينيوس في (٣٢٨) وماتزال بعض اثاره باقية .

٥ـ أبو لودور والبانثيون :

ان معبد البانثيون (ويعني معبد مجمع الارباب) وهو أهم المعابد الرومانية المستديرة الباقية وأروع المباني الدينية الرومانية في كثير من الوجوه . وهو يتألف من جسم مستدير قطره (٤٣ر٨٠م) ــ (١٤٢ قدما) مكون من جدار من الكونكريت ــ المصفح بالاجر سماكته ٦متر

تقريبا (٢٠ قدم) ،وتتناوب فيه من الداخل محاريب مستديرة ومستطيلة يتقدم كل منها عمودان • وكل جدار من الداخل مصفح بالرخام الثمين وبلاط الارضية منه أيضا • وتعلو جسم المعبد قبة رحيبة من ـ الكونكريت ـ دون رقبة بارتفاع (٤٣م) وقطر مماثل مدعوم بأقواس من الاجر مخفية وهي أكبر القباب في العالم القديم وللقبة في ذروتها فتحة مستديرة قطرها (٨ر٥م) • ومدخل البانثيون يظله (١٦) عمودا باسقا وجبهة مثلثة ،وتحت هذا المدخل يحس المرء بشيء من الثقل وما ان يصل الى الداخل حتى يحس بالرحابة والامتداد والنور يتدفق من القمة ويعظم ويجسم كل شيء •

على واجهة البانثيون كتابة تذكارية تؤرخ بناء المعبد الاقدم في زمن اغريبا (١٢ق ٠م ـ ١٤م) وقد تهدم ذلك البناء في (٨٠م) في حريق الحي الذي يقوم فيه فأصلحه الامبراطور دوميتيانوس ثم احترق مرة ثانية في (١١٠م) ـ وينسب الى الامبراطور هادريان (١١٧ـ ١٣٥م انجازه بالشكل الذي وصلنا به • ويحدد تارة زمن انجاز (هادريان للباثيون بين ١٢٠ ـ ١٢١) والامر موضع الشك الان فاذا كان قد احترق في (١١٠م) فلماذا يبقى عشر سنوات على الاقل دون اصلاح واكمال وترد اعتراضات اخرى على نسبة البانثيون لهدريان حتى اصبح في حكم المؤكد ان البانثيون هو من منجزات ابو لودور الدمشقي وقد عقد (وولف ديتر هيلماير) بحثا مطولا عن الموضوع بعنوان (ابو لودور الدمشقي معمار البانثيون) ولخص فيه الآراء المختلفة في هذا الموضوع الهام وخلص الى هذا البناء كان من انشاء أبو لودور وأن تصميمه له يعود الى (١١٤م) واسلوبه هو اسلوب أبو لودور بمزجه بين العظمة والبساطة والوضوح ،وتصميم يعتمد على العناصر الافقية والعمودية وزخارف معمارية تنزع الى أشكال عهد اغسطس وهي اشياء واضحة في البانثيون •

٦ـ منجزات باهرة أخرى :

وأولى تلك المنجزات هي الحمامات التي شيدها على رابية الاسكويلينوس لتراجان ،ويرى ليورهومو : (ان الحمامات التي

بناها أبو لودور لتراجان هي التي حددت شكل الحمامات النهائي اذ اصبح على التصميم أن يلبي حاجتين اساسيتين هما الاستحمام بأشكاله ومراحله المتعددة من جهة ،والترويح والرياضة من جهة ثانية ٠

وينسب لابولودور قوس النصر في مدينة بيتغانتوم ،وقوس النصر في مدينة انكونا وكذلك افريز ضخم منحوت كان معدا ليقام في مكان ما من الفوروم ٠ ومن منجزاته أيضا مسرح موسيقى (آوديون) في مونتي جورديانو ٠ أما في مجال السباقات فقد أنشأ ابو لودور حلبة بطول مرحلتين (أكثر من ثلاثمائة متر) الى الشمال من موقع مدفن هدريان على ضفة التيبر في روما وكان مخصصا للمعارك البحرية (نوماكيا) وتنسب الدراسات الحديثة لابو لودور تعديل مرفأ اوستيا وانشاء حوضه المضلع الذي يشبه من حيث الشكل النماذج الهيلنستية - السورية ٠ وكذلك مرفأ (كنتوم كيللي) بأرصفته المقوسة الرحيبة وهو مرتبط بفيلا تراجان ٠

ومن اعمال ابو لودرو في ايام هدريان البدء بتشييد المعبد المكرس لتراجان وقد حدد مكانه في صدر الفوروم ،وأكمله الامبراطور هدريان نفسه فيما بعد ٠ وفي ختام هذا السرد المتعجل عن أعمال أبو لودور في عهد هدريان من الضروري أن نذكر مؤلفا عن الات الحصار وصلت بعض رسوم مستنسخة منه في مخطوط بيزنطي ٠ ومنها آلة لاقتحام الاسوار عممت في القرون الوسطى ،ويتضح من بحث بيزنطي آخر عن آلات الحصار ان دراسة أبو لودور ارسلت لهدريان وهو يتهيا لحملة الدانوب في العام الذي مات فيه تراجان والعام الذي يليه (١١٧ - ١١٨م) ٠

وجاء في مخطوط منياس قول أبو لودور مخاطبا الامبراطور بما أني صنعت نماذج مفيدة من الات الحصار فاني مرسل لك هذه الرسوم عنها٠ وكذلك احد مساعدي وقد اطلعته على كل شيء ،ونفذت أمامه العمل فيمكنه أن يبني وفق نماذجي متى شئت ٠٠٠ ويتحدث ايضا عن ارسال سقائل وعمال متخصصين ويتضح من هذا أنه لم يكتف بما كان يحققه

في ميادين العمارة والنحت بل ظل يمارس حتى آخر ايامه مهمته الاصلية في ميدان الهندسة العسكرية •

7- نهاية مأساوية :

كان الامبراطور هدريان مأخوذا بالعمارة الاغريقية ،وله آراء في فن العمارة ويقال انه صمم عددا من العمائر خاصة بمعبد روما وفينوس والفيلا الشهيرة المسماة باسمه (فيلا هدريان) ولم يكن على وفاق مع ابو لودور الذي كان ينتقد تصاميمه • وقد اورد المؤرخ ديوكاسيوس (ان ابو لودور كان يتدارس مرة مع تراجان بعض المشاريع فتدخل هدريان في المناقشة فطلب منه ابو لودور آن يذهب الى يقطينة - تعريضا بالقباب التي كان يصممها - ولما أصبح هدريان امبراطورا ارسل لابولودور تصميما للمعبد العملاق الذي يزمع اقامته للربتين روما وفينوس فلم يعجبه ذلك التصميم وانتقده دون مواربة ،وكان انتقاده صحيحا من وجهة نظر نقاد فن العمارة فهذا المعبد الذي يبلغ طول هيكله المركزي (١٣٦ م) وعرضه (٦٦م) ويحف به ستون معبدا لم يرفع على منصة عالية (بوديوم) على عادة الرومان (كما في بعلبك مثلا) مما جعل له درجات واطئة وفق التقاليد الاغريقية فبدا طويلا وواطئا جدا •
ان هدريان أعطى لمعبده نسبا يونانية ولكنه لم يسبغ عليه اناقة المعبد الاغريقي الدوري ولا اطاره فكان معبد فينوس وروما فاشلا من الناحية الجمالية •
يرى المؤرخ الروماني (دونكاسيوس) أن هدريان من أجل ذلك كله اتهم ابو لودور بأشياء مختلفة ونفاه ثم امر بقتله •

- الدكتور عدنان البني -

حول إعادة كتابة التاريخ العربي

بقلم الأستاذ عبد الرحمن بدر الدين

ليست فكرة اعادة كتابة التاريخ العربي بالفكرة الجديدة كما أن الدعوة اليها لم تكن مقتصرة على القطر العربي السوري ، بل دعا اليها عدد من الاقطار العربية الاخرى ، ونادى بها العديد من الكتاب والمؤرخين والسياسين العرب . ولقد كان في مقدمة المنادين بعض رجال الفكر والسياسة من السوريين ، وذلك منذ أكثر من عشرين عاما (1) . ومن دراسة آرائهم وكتاباتهم بهذا الشأن تبرز هوياتهم الفكرية ومذاهبهم السياسية ، ولذا فان اراءهم جاءت معبرة عن معتقداتهم السياسية اكثر من تعبيرها عن الحقيقة العلمية الخالصة فهم يريدون من اعادة كتابة التاريخ العربي تحليل احداث هذا التاريخ وتوجيهها كل حسب مذهبه الفكري ، وانتمائه السياسي ، كما انهم لايعدمون حجة أو مثلا يضربونه من احداث التاريخ العربي للتدليل على صحة تفسيرهم لاحداث ذلك التاريخ ، مبررين بالتالي صحة مذاهبهم السياسية التي ينتمون اليها وان انتماءهم جاء نتيجة دراسة وتحليل لاحداث التاريخ ومعرفة للقوى الصانعة له .

لقد نبش هؤلاء السادة احداث التاريخ العربي للعثور على شهود اثبات تدل على صحة نظرياتهم غير عابئين بمئات الاحداث التي تقوم شهود نفي وادانة لما يعتقدون - ولذا فان معظم ابحاثهم وآرائهم جاءت مجانبة للصواب لانها لم تعتمد طرق البحث العلمي الرصين واساليبه ، بل كانت صادرة عن خلفيتهم الفكرية والسياسية ومع هذا فانهم يبررون عملهم بحجة ان التاريخ وسيلة هامة من

---

(1) : كيف نكتب تاريخنا القومي - وزارة الثقافة في سورية ١٩٦٦ .

من وسائل التوجيه ، لذا كان لابد من استخدامه بما ينمي الايمان بعقيدة أو هدف سياسي معين ،أما الحقيقة العلمية فلا قيمة لها بنظرهم ان لم تكن موظفة في خدمة الهدف المنشود ، فهم بذلك لايفرقون بين كتابة التاريخ كمادة علمية وسجل لاحداث الامة يقوم به فريق من العلماء المختصين يتصفون بالموضوعية وسعة الافق وسلامة المنطق ، وبين كتابة هذه المادة لتثبيت مفاهيم وقيم معينة من خلال سرد احداثها سواء عن طريق اجهزة الاعلام المختلفة أو الكتب المدرسية التي توضع بين أيدي الطلاب في المدارس بعد اعتمادها من قبل السلطات المختصة في الدولة والتي تتمشى مع اهداف الدولة من تربية الناشئة .

من المعروف أن من أهم اهداف دراسة التاريخ هو القاء اضواء على مستقبل الامة ، ولن يتحقق هذا الهدف الا بدراسة الماضي بكل أبعاده واحداثه لمعرفة التيارات التي أدت الى صنعه ، هذا بالاضافة الى استنتاج خصائص الامة التي ندرس تاريخها من خلال الاحداث التي تعاقبت عليه ، وردود فعل تلك الامة على مالاقته من تحديات وليس بمقدورنا معرفة تلك الخصائص اذا لم نستخلصها من مجمل تاريخ الامة عبر مئات السنين وبعد دراسة موضوعية له . ولكي تكون دراستنا علمية لابد لنا من الاجابة عن بعض الاسئلة وهي .

- متى بدأ تاريخ العرب . ؟
- ماهي التيارات الفكرية التي سيطرت عليه خلال امتداده الطويل . ؟
- هل دون كاتبو هذا التاريخ احداثه بكل أمانة ودقة علمية . ؟

للاجابة على التساؤل الاول لابد لنا من التعرف على البقعة التي عاشت عليها الامة العربية عبر عصورها الطويلة اذ ان الزمان والمكان في التاريخ ضروريان لتحديد اطار الحادثة التاريخية وموقعها . وفي الواقع إن هنالك اختلافا بين المؤرخين حول الموطن الاصلي للعرب ، فمنهم من يعتقد أن بلاد مابين النهرين هي الموطن

الاول لهم على حين يعارضهم آخرون فيعتبرون جنوب الجزيرة العربية هو المهد الاصلي للعرب ، ويدل كل فريق على صحة نظريته بحجج يعتبرها دامغة ومقنعة ،الاآن النظرية الاكثر اعتمادا واقناعا تلك التي نادى بها عدد من كبار المؤرخين امثال :

شبرنكر ، وبروكلمن ، وماير ، دي خوي(١)

والتي تجعل من شبه الجزيرة العربية الموطن الاصلي للعرب ومنها اتجهوا على شكل موجات ولاسباب عدة كالجفاف والتزايد السكاني وقلة الاراضي الصالحة للزراعة والرعي نحو الشمال والغرب أي الى منطقتي الهلال الخصيب ووادي النيل .

ان الاخذ بهذا الرأي في تحديد موطن العرب الاصلي أو بالرأي السابق،لايخرج عن كون مانطلق عليه اسم الجزيرة العربية هي الموطن الذي عاش فيه العرب منذ أقدم الازمنة وحتى الوقت الحاضر ، ومعنى ذلك أن جميع الاقوام القديمة التي عاشت في هذه المنطقة كالاكاديين والبابليين ، والاشوريين ، والكلدان ، والكنعانيين ، والاراميين والانباط ،والسبئيين ، والحميريين ... الخ ، هي أقوام عربية لعبت دورا في التاريخ فأسست دولا وأنشأت حضارات ثم زالت لتحل محلها اقوام عربية أخرى ، ولقد اوضحت الدراسات الانتربولوجية واللغوية والانتولوجية وشائج القربى بين هذه الاقوام عامة من جهة وبينها وبين العرب المسلمين الذين خرجوا من شبه الجزيرة لنشر الدين الاسلامي من جهة ثانية(٢) .

وعلى هذا فان الوجود العربي موغل في القدم ، يرجع تاريخه الى وجود الانسان العاقل على هذه الارض التي نسميها اليوم بالارض العربية ، وتكاد تكون معلوماتنا معدومة عن الاقوام الاولى التي

---

(١) : تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي الجزء الاول ص ١٥٢

(٢) : يذهب السيرجون فليبي في دراساته الى القول بأن الاقسام الجنوبية من شبه الجزيرة العربية هي الموطن الاصلي للساميين ومنها هاجروا بسبب الجفاف الذي بدأت تظهر بوادره منذ عصر الباليوليتيك(العصر الحجري القديم) مما أدى حسب رأيه

سكنتها ،وكل ما استطاعه المؤرخون والمنقبون تحديد تواريخ تقريبية للهجرات التي تدفقت من قلب شبه الجزيرة العربية الى اطرافها وهي لاتعدو الالف الرابعة قبل الميلاد • أما ماقبل ذلك فان اثباته وتوضيحه متوقف على الاكتشافات الاثرية التي تزيد من ثروتنا التاريخية يوما بعد يوم • وهذا مايستدعي اعادة النظر فيما كتب عن تاريخنا القديم من حين الى آخر على ضوء الاكتشافات التي تظهرها معاول علماء الاثار ، اذ ان هذه المكتشفات تسهم في زيادة الثروة التاريخية من جهة ، كما تصحح بعض المفاهيم والآراء من جهة ثانية ، أو تعمل على ترسيخها وتزويدها بالدليل العلمي الصحيح وبمعنى آخر نقلها من مرحلة الفرضية الى موقع الحقيقة العلمية •

أما بالنسبة للتساؤل الثاني المتعلق بالتيارات الفكرية التي سيطرت على تاريخنا فان دراسة المعلومات المتوفرة لدينا عن تاريخ العرب القديم ،واستقراء العوامل التي اثرت في صنع احداثه نجد أن ابرز تلك العوامل هو العامل الغيبي ، مما جعل تاريخ العرب القدماء الحضاري والسياسي مرتبطا ارتباطا وثيقا بالقوى الغيبية فالملوك هم آلهة أو نواب عن الالهة والثواب والعقاب موكول امرهما للالهة ومدى رضاها عن المحاسب وتقديرها لتفانيه في خدمتها والقيام بشعائر وطقوس عبادتها • كما أن المجتمع وتنظيمه وطبقاته المختلفة تعتمد بالدرجة الاولى على اسس اخلاقية تعتبر من صلب العقائد الدينية التي كانت شائعة ومعمولا بها آنذاك وكذلك كل مناحي الفكر من علم وادب وفن موظفة في خدمة الالهة أو من يمثلها على الارض ، فما التشريع الا وحي من الاله كما ان بناء المعابد الكبيرة والاهرامات الضخمة ناتج عن الرغبة بالحفاظ على الجسد

الى نزوح موجات متعاقبة من البشر من العربية الجنوبية سالكة الطرق البرية والبحرية حتى وصلت الى المناطق التي استقرت بها وقد حمل هؤلاء المهاجرون معهم آلهتهم وثقافتهم وخطهم الذي اشتقت منه سائر الاقلام ومنه القلم الفينيقي •

عن (تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي الجزء الاول ص ١٦١) •

من عبث العابثين ليقف صاحبه بين يدي الاله بشكله السليم كما كان عليه في الحياة الدنيا وكذلك الامر بالنسبة للعلوم والادب فانها جميعها يبرز فيها العامل الغيبي وتسخر لتأكيده والحفاظ عليه وحتى المعارك والحروب التي كانت تنشب بين اقوام ذلك العصر كان للالهة دور بارز فيها فهي صراع بين الهة المتحاربين وبأمر منها وكان انتصار فئة على أخرى يؤدي الى تضحية عدد من رجال الجيش المقهور على مذبح الالهة تقربا منها وتكريما لها لانها اكسبتهم النصر على اعدائهم . وكان العديد من اسماء الالهة تدون على المعاهدات بين المتحاربين كشهود وعليها ان تصب لعناتها وجام غضبها على كل من يخرق المعاهدة أو يعمل على تمزيقها . الا ان هذا لايعني عدم وجود عوامل اخرى أسهمت في صنع الاحداث التاريخية كالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ... الخ . ولكنها جميعها تبقى ضمن الاطار الايديولوجي للعصر والذي كان يسيطر على كل مناحي الحياة ويوجهها .

ويحدثنا التاريخ القديم عن محاولة فرعون مصر اخناتون وضع الاله (اتون) الشمس في مقدمة الالهة المصرية الكثيرة ، مما جعل كهنة معابد تلك الالهة واتباعهم يتآمرون عليه ، وما إن لاقى حتفه حتى عادت عبادة تلك الالهة الى ماكانت عليه . وعاد فراعنة مصر القديمة الى استرضاء الكهنة واغداق الهبات عليهم تمكينا لعروشهم واستمرارا لاعتبارهم كممثلين وابناء للالهة .

واذا ما انتقلنا الى العصر الاسلامي فان التاريخ العربي يبدو اكثر وضوحا وان الايديولوجية الجديدة التي جاء بها الاسلام وهي ايديولوجية التوحيد غدت اكثر عمقا وترسيخا ، ودفعت بالعرب المسلمين الى تأدية الدور الذي ندبوا لتأديته في التاريخ مما جعلهم محط انظار العالم اجمع في العصور الوسطى كقوة سياسية وحضارة مزدهرة . والمتفحص لتاريخ العرب في هذه الحقبة من الزمن يسترعي انتباهه ثلاثة امور وهي :

أ- ظهور نزعات فكرية ارادت أن تعود بالامة العربية وبالمسلمين عامة الى تعاليم الاسلام كما فهمها اصحاب

تلك النزعات •

٢- بروز العصبية القبلية من جديد بعد أن اضعفها الاسلام بتعاليمه واحل محلها الرابطة الدينية •

٣- النزعة الشعوبية ، وقد برزت بشكل واضح في فترة اشتد فيها نفوذ الفرس سياسيا ،واتسمت بالتسامح الفكري •

لقد برز الامر الاول في الثورة التي قامت ضد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان ، ذلك الخليفة الذي لانشك مطلقا بايمانه وتقواه كان ضحية اقربائه وابناء عشيرته الذين استغلوا شيخوخته ولينه فجعلوه يغدق عليهم الاموال الطائلة ويوليهم المناصب الكبيرة في الدولة (١) • مما أثار بعض الصحابة وفي مقدمتهم ابو ذر الغفاري

---

(١) : عزل عثمان بن عفان المغيرة بن شعبه عن الكوفه وولاها سعد بن ابي وقاص ثم عزله وولى الكوفة الوليد بن عقبة بن ابي معيط وكان أخا لعثمان من امه • وفي سنة (٢٦)هـ عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن سعد بن ابي سرح العامري وكان أخا لعثمان من الرضاعة وكان رسول الله (ص) قد اهدر دم عبد الله بن سعد المذكور يوم الفتح وشفع فيه عثمان حتى اطلقه الرسول • وفي ايام عثمان فتحت افريقيا وكان المتولي لذلك عبد الله بن سعد بن سرح فبعث بالخمس الى عثمان فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار فوضعها عنه عثمان وهذا من الامور التي انكرت عليه •

وفي السنة (٢٩)هـ عزل عثمان أبا موسى الاشعري عن البصرة وولاها ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز •

عن كتاب المختصر في اخبار البشر لابي الفداء الجزء الاول ص ١٦٦- ١٦٧ • كما نقم الناس على عثمان لرده الحكم بن العاص طريد الرسول وطريد ابي بكر وعمر ،واعطى مروان بن الحكم خمس غنائم افريقية وهو خمسمائة ألف دينار،واقطعه فدك وهي صدقة رسول الله (ص) ، المصدر السابق ص ١٦٩ •

الذي ساءه مارآه من سلوك بعض المسؤولين من المسلمين وتبذيرهم للاموال واستغلالهم لمناصبهم بعد أن تدفقت على بيت المال الغنائم من كل مكان . لقد عرف ذلك الصحابي الجليل ماكان عليه المسلمون زمن الرسول (ص) من ايمان وتفان في نشر الدعوة والتبشير بها وما بذلوه من اموال وأرواح في سبيلها ، وما حملته تعاليمها من دعوة لانصاف المظلومين والمساواة بين الناس ، ووأد للعصبية القبلية واستنكار للتفاخر بالاحساب والانساب ، وما آل اليه أمرهم من ترف وغنى وخلود الى الحياة الهنيئة الرضية بعدأن استتب لهم الامر في المناطق التي فتحوها فاستقطعوا الاراضي وجمعوا الثروات وتنافسوا في بناء البيوت والقصور ، كل ذلك بسبب تدفق الاموال الطائلة والغنائم الكثيرة عليهم . لقد حمل هذا الوضع الغريب ابا ذر وكان آنذاك في دمشق على انتقاد معاوية بن ابي سفيان واصحابه والتشهير باعمالهم المنافية لما عرفه عن مبادئ الاسلام وسلوك المسلمين الاوائل ، مما جعل معاوية يضيق به ذرعا فاشتكاه الى الخليفة عثمان الذي استقدمه الى المدينة ليكون تحت اشرافه ، الاأن أبا ذر آثر أن يعيش في الربذة فنفى نفسه اليها وقضى فيها وحيدا .

لقد كانت معالجة الخليفة عثمان لمشكلة أبي ذر مطمئنة لطبقة الاثرياء الجدد ، الا أن آراء ذلك الصحابي مالبثت أن وجدت لها صدىً عند الفئات المحرومة واستجابة عند الملتزمين بالاسلام وتعاليمه وقد مهد ذلك للقيام بالثورة على الخليفة عثمان . ثم كان النزاع بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان ونجم عنه حركات الخوارج ، وهي محاولة لوضع السلطة في طريقها القويم واعطائها سمة ديموقراطية بعيدة عن ثيوقراطية الحكم وذلك خلافا للشيعة الذين أرادوا اعادة الحق الى اصحابه الشرعيين على حد تعبيرهم ان جميع هذه الحركات وجدت انصارا ومؤيدين انطلقوا من فهم للايديولوجية الاسلامية . وحتى ثورة الزنج تلك الثورة التي يبرز فيها العامل الاقتصادي بوضوح ، وكان قيامها بسبب سوء اوضاع الزنج والعبيد الاقتصادية والاجتماعية في العراق عمد قائدها الى

ادعائه أن له صلة قرابة مع آل البيت لتدعيم مركزه القيادي وليستطيع تحريك الجماهير التي ارمضها الفقر واستحوذ على قسم كبير منها الايمان بضرورة مجابهة الانحراف عملا بروح الشريعة وتعاليم الاسلام ٠

أما الامر الثاني وهو بروز العصبية القبلية من جديد ، بعد أن حاول الاسلام القضاء عليها محلا الرابطة الدينية بديلا عنها فجعل المسلمين متكافئين ، فهم متساوون كأسنان المشط ولا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ٠ ولكن هل استطاع العرب التحرر من عصبيتهم القبلية التي كانت خبزهم اليومي في الجاهلية ؟ ، كما تحرروا من وثنيتهم بفضل الاسلام ؟ ٠ والى أي مدى نجح الدين الجديد في القضاء على تلك الرابطة ؟ ٠

ما إن توفي الرسول الكريم حتى ظهرت بوادر الخلاف بين الانصار والمهاجرين في سقيفة بني ساعدة على من يخلفه ، ولولا ما أدلى به أبو بكر من حجج أمام المجتمعين (ان العرب لاتدين الا لهذا الحي من قريش) وقول الرسول (الائمة من قريش) كما ذكرهم بأن الخلافة لو آلت الى الاوس لنافسهم عليها الخزرج ، وفي هذا ما فيه من عصبية جاهلية ، ولولا حسم عمر بن الخطاب الامر ومبايعته لابي بكر لتأزم الوضع وانتهى الى قتال بين الانصار والمهاجرين(١) ٠

كما تبرز العصبية القبلية بوضوح اشد في موقف ابي سفيان عند مبايعة عثمان بن عفان بالخلافة ٠ اذ يذكر المسعودي صاحب مروج الذهب أن عمار بن ياسر دخل دار ابي سفيان ومعه بنو أمية فقال أبو سفيان :(أفيكم أحد من غيركم ؟ وقد كان عمي قالوا لا قال . يابني أمية

---

(١) : قال الحباب بن المنذر وهو من الخزرج : يامعشر الانصار املكوا على ايديكم ولاتسمعوا مقالة هذا (يعني عمر بن الخطاب) واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر ثم قال :
أنا جذيلها المحكك وعزيقها المرجب أما والله ان شئتم لنعيدنها جزعة ٠

تلقفوها تلقف الكرة فو الذي يحلف به أبو سفيان مازلت ارجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة.(١) .

فانتهز عثمان وساءه ماقال . كما ظهرت العصبية القبلية بشكل واضح جدا اثناء حروب الردة التي خاضها المسلمون زمن الخليفة ابي بكر لتثبيت مفهوم الدولة (٢) .

والمتتبع لاحداث التاريخ العربي في العصر الاموي ، يلمس بشكل واضح الاثر السيء الذي نتج عن تشجيع خلفاء هذا العصر للقيسيين أو اليمنيين وتأليبهم بعضهم على البعض سواء في المشرق أو في الاندلس ، مما عجل بزوال دولتهم ، ومع هذا كله فان عودة العصبية للبروز وما نتج عنها من نتائج سيئة بقي ضمن الاطر المادية والمكاسب الآنية دون أن يجرؤ أي متعصب على الخروج عن الايديولوجية الاسلامية .

وفي العصر العباسي برزت عناصر أخرى أخذت تسهم في صنع الاحداث التاريخية كالفرس والاتراك والشيعة وبقايا الامويين .. الخ مما أدى الى ظهور نزعات مختلفة متأثرة الى حد كبير بالثقافات الاجنبية من فارسية وهندية ويونانية .. ولكن جميع هذه النزعات لم تستطع الخروج عن الاطار الايديولوجي للدولة التي أخذت تتهم خصومها بالالحاد أو الزندقة لتأليب الرأي العام عليهم بغية التخلص منهم . كما عمد خلفاء الدور الثاني من الحكم العباسي الى تدعيم مركزهم الدنيوي عن طريق الالقاب والكنى التي أضافوها الى اسمائهم كالمستعصم بالله والمتوكل على الله والمعتمد على الله ، والمعتز بالله ...

---

(١) : مروج الذهب للمسعودي - الجزء الثاني ص ٣٥١- ٣٥٢ طبعة دارالفكر

(٢) : يذكر الطبري في تاريخه الجزء ٣ ص ٢٤٦ طبعة خياط أن أبا عمير بن طلحة جاء اليمامة فقال ابن مسيلمة فقالوا: رسول الله فقال لا حتى أراه ،فلما جاءه قال انت مسيلمة قال نعم قال من يأتيك ؟ قال رحمن . قال اخي نور او ظلمة فقال مسيلمة في ظلمة فقال : اشهد انك كذاب وان محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة احب الينا من صادق مضر .

أما الشعوبية فقد كانت من ابرز النزعات التي تكونت جذورها في العصر الاموي ، ومالبثت ان ازدهرت هذه الحركة في العصر العباسي فامتلأت كتب التاريخ والادب بنتاجها الفكري وباسماء العديد من الكتاب والادباء والشعراء الذين اعتنقوها أو شجعوا على اعتناقها . وأخذ كل من انصارها وخصومها يحاولون ايجاد سند لدعواهم من القرآن أو الحديث أي من خلال الايديولوجية الاسلامية مما أدى الى وضع كثير من الاحاديث التي تؤيد جانبا دون آخر(١).

وفي الواقع ان الشعوبية لم تقتصر على التهجم على العرب والنيل منهم والتشهير بمثالبهم بل اساءت الى الفكر فشوهته ، كما أفسدت الدين بالزندقة ، وشجعت النحل والبدع والخرافات والاساطير التي ارادت ادخالها في صلب العقيدة وهي براء من كل ذلك .

---

(١) : روى الشعوبيون عن رسول الله (ص) انه تلا الاية الكريمة " وان تتولوا يستبدل قوما غيركم " فقالوا : من يستبدل بنا فضرب صلي الله عليه وسلم على منكب سلمان الفارسي ثم قال هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لناله رجال من فارس .

كما رووا ان رسول الله (ص) قال :لانا بهم أوثق مني بكم يريد بذلك الاعاجم . وفي حديث موضوع "لاتسبوا فارسا فما سبه احد الا انتقم منه عاجلا أو آجلا ". وفي حديث آخر : ان آدم افتخر بي وانا افتخر برجل من امتي اسمه نعمان وكنيته ابو حنيفه هو سراج امتي .

كما وضع العرب بعض الاحاديث منها " من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ، ولم تنله مودتي " .

ومثل : احبوا العرب لثلاث ، لاني عربي ، والقرآن عربي ولسان أهل الجنة في الجنة عربي ، عن ضمى الاسلام الجزء الاول للدكتور احمد أمين .

أما في المجال السياسي فقد ساندت الشعوبية النزعة الوطنية وعملت على النيل من العرب واسقاط دولتهم ، وقد وصل بعض معتنقيها الى مناصب عليا في الدولة فأحاطوا انفسهم بابناء قومهم ممن يؤمنون بنزعتهم ، واغدقوا الاموال والحماية على اتباعهم سرا تارة وعلانية أخرى ، وهم في ذلك يظهرون خلاف مايبطنون فاذا ما اتيحت لهم الفرصة للبطش بالعرب ، بادروا الى انتهازها بحجة الحرص على الاسلام والذود عن الخلافة .

والخلاصة ان السمة العامة للعصر الوسيط في تاريخ العرب هي العصبية القبلية فما انتقال الخلافة الى معاوية الا انتصاراً لبني امية على بني هاشم ، واستعادة لنفوذهم السابق الذي كان لهم زمن الجاهلية وان انتقال الخلافة الى بني العباس ، هو استعادة بني هاشم مركز الصدارة الذي كان لهم زمن الرسول الكريم وبمجيء آل العباس الى الخلافة انتقل الصراع فأصبح بينهم وبين ابناء عمومتهم العلويين بتشجيع عناصر جديدة اظهرت تأييدها لاحدى الفئتين .

لقد كان ذلك كله ضمن الاطار الديني والتنافس على احقية فئة دون أخرى بالخلافة ، ولم تجرؤ اية فئة من الفئات المتناحرة على الخروج على العقيدة أو النيل منها ، بل كانت تتهم الواحدة الاخرى بالاساءة الى الدين والخروج على تعاليمه ، مما أدى الى تعميق الخلافات بين ابناء الاسرة الواحدة ، وسمح بالتالي بتدخل عناصر غريبة اخذت تنشط في المجال السياسي وتبث سمومها عن طريق الفكر ونتاجاته مستهدفة اضعاف الفئات المتناحرة لتحقيق اهدافها السياسية والدينية.

لقد بقيت الايديولوجية الاسلامية مسيطرة باطارها العام على احداث التاريخ العربي طوال قرون عدة ،ولذا فان حكم المماليك وما تلاه من سيطرة الدولة العثمانية لم يكن بالامر المستهجن مادام الجميع يؤمنون بالاسلام ويعملون على رفع شأنه ، والسلطان العثماني ينظر رعاياه المسلمين من عرب أو غيرهم هو المسؤول الاول عن حمايتهم فهو خادم الحرمين الشريفين والمتمسك بآهداب الدين الحنيف والعامل

على نشره وتعزيز مكانته ، وهو الرئيس الاعلى للمسلمين والممثل لهم وهو الذي يوعز بالدعوة الى الجهاد ان أحوج الامر لقتال أعداء الدين • ومن واجب المسلمين عامة اطاعته مادام مطيعا لله ومنفذا لاحكام شريعته ، وبذلك انتهت العصبية القبلية كموشر سياسي والتي تميز بها العصر الاموي ، كما انتهى العرب كأصحاب سلطة رئيسة لعبوا دورا بارزا في تاريخ العصور الوسطى ،ولم يعد لعواصمهم السابقة كبغداد ودمشق والقاهرة تأثير كبير في صنع الاحداث التاريخية •

لقد استمر الحكم العثماني للبلاد العربية نحو أربعة قرون ركزوا خلالها على أهمية الرابطة الدينية ، وشجعوا الطرق الصوفية وبناء الزوايا والتكايا ،ليصرفوا الناس عن الاحداث السياسية التي كانت تجري على مسرح التاريخ ،وليوظفوا تلك الطرق واصحابها في خدمة توطيد عروشهم واستمرار تسلطهم •

وما أن أطل القرن التاسع عشر حتى بدأت فترة يمكن أن نطلق عليها اسم البحث عن الذات واكتشاف الهوية بالنسبة للعرب ، واستمرت حتى مطلع القرن الحالي حيث أخذ العرب يتلمسون موقعهم بين الامم الاخرى مناضلين للتخلص من نير المستعمر الغربي بعد أن تخلصوا من حكم العثمانيين طارحين شعار وحدة الامة العربية الذي أخذ يتحول الى ايديولوجية جديدة ترسم الطريق وتوضح المعالم لهم • بعد هذا العرض السريع للايديولوجيات التي أسهمت في صنع احداث التاريخ العربي آن لنا أن نتساءل لماذا نريد اعادة كتارية تاريخنا ؟ ••

وهل يجب أن نفسر أحداثه سواء في العصور القديمة أو الوسطى أو الحديثة بالعامل الغيبي أو بدافع العقيدة الاسلامية وحدها أو بالعامل القومي ؟ •

ان الغاية من اعادة كتابة تاريخنا يجب أن تهدف بالدرجة الاولى الى ابراز وحدة تاريخ هذه الامة منذ أقدم الازمنة وحتى

الوقت الحاضر في مغربها ومشرقها واستجلاء الدور الذي لعبته خلال عصورها الطويلة • ومن نافلة القول ان اعادة كتابة التاريخ العربي تهدف الى سد الثغرات واستكمال المعلومات قدر الامكان وبخاصة فيما يتعلق بالتاريخ القديم ، اذ أن دراسات ومعاول علماء الاثار تكشف كل يوم عن خبايا الارض العربية مما يزيد في الثروة التاريخية للامة ويسلط الاضواء على ماعتم من جوانب في تاريخها •

أما فيما يتعلق بالتاريخ العربي الاسلامي فانه من الضروري تنقيته من الشوائب والدسائس التي علقت به ، وذلك باخضاعه للنقد الموضوعي وفرز الضعيف من احداثه والذي لايقوم على سند علمي واستبعاده ، والاطلاع على وجهات النظر المتعددة في احداثه وبكلمة مختصرة اتباع منهج البحث التاريخي المعروف في تدوينه • ان عملية الفرز هذه ليست بالامر السهل ، اذ أن الشكل العربي لكتابة التاريخ سابقا كانت تتسم بسرد الحوادث حسب تتابعها ، مما جعل الربط يتصف بالضعف ، واتاح بالتالي كما يقول غوستاف ريختر (١) ادخال القصص الفارسي ،ذي المنزع الاخلاقي •

ولقد تركت الادبيات الفارسية غير التاريخية اثارا عميقة على الثقافة والادب العربيين الاسلاميين ،وأضيف اليهما اضافات غير فارسية زادت من تأثيرها وساعدت على تبنيها تماما •

وقد حدث الشيء نفسه ولكن بدرجة أقل في مجال الكتابة التاريخية فقد حشا العرب مؤلفاتهم بقصص تاريخي فارسي اغناها من ناحية ولكنه ترك آثارا سلبية على الاعمال التاريخية العربية من حيث أنه أدى الى عدم تحدد الهدف أو عدم وضوحه تماما •

وكما أدخل الكثير من القصص الفارسي والغريب عامة على التاريخ

---

(١) : الصورة التاريخية في اعمال المؤرخين العرب القدامى من تأليف غوستاف ريختر وترجمة رضوان السيد نشر في مجلة الفكر العربي العدد الثاني (١٩٧٨) السنة الاولى •

العربي الاسلامي فان العديد من المستشرقين أيضا أساوّوا الى تاريخنا مدفوعين بحقدهم على العروبة والاسلام أو بدوافع استعمارية هدفها النيل من الامة العربية والغاء دورها أو تقليصه من تاريخ الانسانية لذا فان اعادة كتابة تاريخنا يهيء لنا الفرصة للتخلص من كل ماهو هجين أو غريب أو مدسوس عليه ، كما أنها تسمح لنا باعادة النظر في كتب المصادر المتوفرة والتدقيق في صحة احداثها آخذين بعين الاعتبار ميول مؤلفيها الدينية أو العنصرية ،ومدى تأثرهم بالسلطات الحاكمة التي كانت آنذاك . وبالبحث عن المفقود من مصادر التاريخ العربي الاسلامي ودراسة مايمكن العثور عليه منها ، هذا بالاضافة الى الاطلاع على المؤلفات التي كتبت في ذلك العصر من قبل مؤرخين اجانب تحدثوا فيها عن بعض احداث التاريخ العربي الاسلامي وذلك بحكم مجاورة بلادهم للدولة العربية الاسلامية وقيام علاقات اقتصادية أو سياسية أو عسكرية .. الخ بينهما .
والتساؤل هو تفسير احداث التاريخ العربي سواء في العصور القديمة أو الوسطى أو الحديثة .. وهل يجب تفسير احداثه بالعامل الغيبي أو بدافع العقيدة الاسلامية وحدها أو بالعامل القومي ؟ ..

ان فكرة تفسير التاريخ بعامل وحيد مرفوضة لعدم ثباتها علميا اذ من المؤكد أن هنالك عدة عوامل تنتج عنها الحادثة التاريخية وربما كان أحد هذه العوامل هو أكثرها أهمية وأبرز من غيره في صنع الحادثة ،ولكن هذا لاينفي وجود العوامل الاخرى التي تشارك في صنعها . فالعامل الغيبي الذي نراه بارزا في التاريخ القديم كان متمشيا مع المرحلة الفكرية التي كان يعيشها الانسان آنذاك والتي تعتبر متقدمة نسبيا عن المرحلة الطوطمية التي عاشها اسلافه

لقد استغل أصحاب السلطة السياسية آنذاك العامل الغيبي ووظفوه لتحقيق أهدافهم مستعينين برجال الدين والكهنة ومغدقين عليهم الاموال والهبات ومشيدين لهم المعابد والهياكل ، كل ذلك لتكريس

فكرة ألوهيتهم أو صلة القربى بينهم وبين الاله مما جعل العامة يندفعون في خدمتهم وتحقيق رغباتهم التي يعتبرونها رغبة الاله نفسه .

وكذلك الامر بالنسبة لاحداث التاريخ العربي الاسلامي ، اذ أن العقيدة الاسلامية كانت في أول الامر الحافز القوي لنشر الدعوة والاستشهاد في سبيلها ، وما أن اتجه العرب المسلمون لتحرير اطراف الجزيرة العربية حتى ظهرت عوامل أخرى اسهمت في عملية التحرير كالعامل الاقتصادي من رغبة في الثروة والارض الى جانب الايمان بنشر الرسالة بالاضافة الى ظهور بذور للنزعة القومية ولكن في نطاق محدود جدا اذ لم تكن قد توضحت تماما .

أما في التاريخ الحديث فان العامل الاقتصادي يلعب الدور الرئيسي في صنع احداث التاريخ ، هذا بالاضافة الى العامل القومي عند الامم التي قاست من ويلات الاستعمار والتي لم تستطع التحرر منه وبناء وحدتها .

ومما لاشك فيه ، ان عملية اعادة كتابة التاريخ العربي يجب أن تكون من خلال المفاهيم التي كانت سائدة ابان الاحداث التي ندرسها وبمعنى آخر انه من المغالطة أن نفسر احداث التاريخ القديم أو الوسيط بمفاهيم عصرنا الحاضر ، اذ أن لكل عصر عوامل صنعه وهي عوامل متطورة ومتغيرة وليست ثابتة وهذا مايجعل التاريخ في حركة دائمة ومستمرة ، ويبعده عن القوالب والصيغ الجامدة التي تتحكم بالعلوم التجريبية .

سؤال اخير يطرح نفسه عند كتابتنا للتاريخ وهو هل يجب أن نتوخى الحقيقة العلمية أولا وآخرا في كتابتنا ، فنذكر كل مافيه من حسنات وسيئات ، من مواقف مشرفة ناصعة وأخرى ملطخة قاتمة ؟؟ .

ان الحقيقة العلمية يجب أن تحترم سواء آكانت بصالحنا أو ضدنا اذ أن الامانة في البحث العلمي تتطلب ذلك ، ورب قائل ان التاريخ اداة توجيه وتربية ، فلابد من استبعاد مايشين تاريخنا من

المواقف والاحداث كي لايتولد لدى الناشئة شعور بالنفور منه بدلا من الاعتزاز به . وعندي أن الحقيقة العلمية فوق كل اعتبار ،أما مايتعلق بالناشئة وتوجيههم فأمره موكول الى كتب التاريخ المدرسية والى أجهزة الاعلام المختلفة التي تملكها الدولة ، وهي جميعا تترجم الاهداف التربوية للامة عن طريق عرض المادة التاريخية المختارة وابراز العوامل الصانعة لها بغية خلق الاعتزاز لدى الناشئة بما قدمه اجدادهم من بطولات ، وما أسهموا فيه لبناء الحضارة الانسانية .

وأخيرا :

بعد هذا العرض السريع لجوانب من تاريخنا نخلص الى القول : ان فكرة اعادة كتابة التاريخ العربي يجب تحقيقها لانها مطلب قومي وعلمي بآن واحد . ولن يتم ذلك اذا لم يهيأ للقائمين على اعادة كتابته الجو العلمي السليم والحرية الفكرية التامة لتأتي ابحاثهم واستنتاجاتهم بعيدة عن كل ضغط أو اغراء وخالية من كل مايسيء الى الحقيقة العلمية ويعمل على طمسها . كما لابد من توفر بعض الشروط الاساسية فيمن سيتصدى لهذا العمل الجليل من أهمها :

١- يجب ان يتميز المكلفون باعادة كتابة التاريخ العربي بايمانهم العميق بطرق البحث العلمي وباحترامهم لما تسفر عنه من نتائج وحقائق ،وان يكونوا حياديين نسبيا واقول نسبيا لان الحياد المطلق لايمكن توفره ،وبمعنى آخرأن لاتكون لهم هوية سياسية أو مذهبية تحد من موضوعيتهم وتحجب عنهم الحقيقة العلمية .

٢- ان يتصف هؤلاء بالنظرة الشاملة ،واستشفاف ماوراء الاحداث التاريخية والمهارة بالربط فيما بينها وفق المنطق التاريخي وان لاينظر الى احداث التاريخ العربي وكأنها في معزل عما يجري في المناطق المجاورة للوطن العربي أو في العالم .

٣- أن يكون هؤلاء المكلفون من المختصين المشهود لهم بالمناسة

والبحث وسلامة المنطق وعملية الانتاج ،وان يعمل كل منهم في مجال تخصصه . فالمختص بالتاريخ القديم مثلا تكون رؤيته لاحداث تاريخ ذلك العصر أوضح وأشمل من غيره من المختصين في عصور التاريخ الاخرى . وكذلك الامر بالنسبة للمختصين في تاريخ العرب والاسلام أو تاريخ العرب الحديث .

٤- ومن الضروري ان يكون الاعضاء المكلفون ممن يتقنون معرفة بعض اللغات التي كتبت بها وثائق أو معاهدات أو دراسات تتعلق بتاريخ العرب سواء القديم منه أو الوسيط أو الحديث ، أي لابد لدارسي تاريخ العرب الحديث مثلا من معرفة اللغة الانكليزية أو الفرنسية أو التركية التي كانت تكتب بالاحرف العربية .

٥- وأخيرا لابد من التنويه أن لجان اعادة كتابة التاريخ العربي يجب أن تضم مشاهير العاملين في حقل التاريخ في الوطن العربي وأن لاتقتصر عضويتها على فئة دون اخرى أو أبناء قطر عربي دون آخر . وباستطاعتها الاستعانة بمن تراه مناسبا لها في عملها ،سواء داخل الوطن العربي أو خارجه ،وفي مختلف حقول المعرفة المساعدة للتاريخ ، كي يأتي عملها مدروسا دراسة علمية وافية لاشائبة فيها .

والخلاصة :

ان اعادة كتابة تاريخنا ،ليس بالامر السهل اذ يتطلب فسحة من الزمن وحشد جمهور كبير من المؤرخين ،وامكانيات مادية ضخمة تسهل لهم مهمتهم ونضع بين أيديهم مختلف المصادر والوثائق وبكل اللغات التي تطرقت الى بحث تاريخنا في مختلف عصورنا .

دراسة مقارنة لروايات فتح الشام

★ الأستاذ محمد عبد الصمد الشاطر

اختلف المؤرخون اختلافا بينا عند تدوين الفتوح العربية واخبارها وتاريخ وقوعها فقلما تجد رواية تتفق مع رواية اخرى كان ذلك في الشرق بأخبار الجهاد على الجبهة الفارسية ،كما كان في العرب على الجبهة البيزنطية ،ومن مقارنة المصادر الاساسية بعضها مع بعض قلما تجد وفاقا فيما بينها ،في معظم الحوادث العادية وحتى الهامة منها كفتح الشام والقادسية وحمص وغيرها . ولاتتفق أيضا في عدد الجيوش التي سيرها أبو بكر وفي خط سير خالد بالصحراء في طريقه لنجدة المسلمين في بلاد الشام ورغم الخلاف في وجهات النظر والتفاصيل يبقى الواقدي هو الاساس والاقدم والمفصل بالنسبة للفتوح في بلاد الشام .

أخذ عنه معظم من كتب بعده في هذا المجال كالطبري والبلاذري وابن الاثير وغيرهم ،فقد رووا عنه أحيانا ،وزادوا ،وجاؤا بروايات جديدة في أحيان أخرى . ولكنهم تخلصوا من ضروب المغالاة التي جاء بها الواقدي الى حد بعيد . سواء في مجال تقدير اعداد الجيوش المتحاربة ،أو ضروب الشجاعة التي كان يبديها قادة الجيوش المتقدمة بشكل لايقع ولايمكن أن يقع حسب الامكانات والقوى الجسدية المتاحة لبني الانسان[1] والمرجح أنها من الروايات المنسوبة والملحقة بكتابات الواقدي في فتوح الشام[2].

---

(١) فتوح الشام الواقدي ص ٩٧ في تقدير اعداد الجيوش البيزنطية في اليرموك حتى تصل الى المليون جندي وص ٧٤ في لقاء خالد ابن الوليد مع جموع جبلة بن الايهم وأمثالها .

(٢) خير الدين الزركلي / الاعلام / المجلد السادس ص ٣١١ طبعة دار العلم بيروت – ١٩٨٠ – .

لقد اتفق المؤرخون ان دمشق وحمص لم تفتحا حربا وعنوة ولكنهم اختلفوا اختلافا بينا في التفاصيل والتاريخ ولمن كانت القيادة أو الخلافة خلال هذا الفتح أو ذاك .

* تسيير الجيوش :

بناء على دعوة ابي بكر الصديق أقبلت قبائل اليمن وعسكرت حول المدينة ،منتظرة أوامر الصديق للتوجه للجهاد . ولما طال أمد المكوث حول المدينة ،واضر بها المقام ،طلبت من الخليفة أن يوجهها الى الفتح والجهاد . فعقد الرايات لقيادات حجازية شمالية :

١- الراية الاولى كانت ليزيد بن أبي سفيان ،يساعده ربيعة ابن عامر على أن يسلك طريق تبوك فالبلقاء الى فلسطين .

٢- الراية الثانية لعمرو بن العاص على أهل مكة والطائف وهوازن ، وبني كلاب ،ووجهته فلسطين ايضا بطريق العقبة .

٣- اما الراية الثالثة فهي من نصيب ابي عبيدة بن الجراح ووجهته الجابية (١) ومعه معظم الصحابة والانصار على أن تكون القيادة العامة لابي عبيدة حال اجتماعهم . ولكن عمرو بن العاص جاء يوسط عمر ابن الخطاب لدى الخليفة لتكون القيادة العامة له ،ولكن عمر رفض القيام بمثل هذه الوساطة ،لانه يرى أن ابا عبيدة هو المؤهل للقيادة .

٤- أما شرحبيل بن حسنة فكانت رايته ملحقة وذلك بعد عودته من العراق فقد الحقه أبو بكر بجيوش الشام بدلا من الوليد بن عقبة .

٥- وراية العقاب كانت لخالد بن الوليد ووجهته فارس والعراق وأمّره على لحم وجذام (٢) وكان العقد في بادئ الامر على ثلاثة آلاف

---

(١) فتوح الشام ص ٨ - أما ابن الاثير فيقول إن ابا بكر جعل ابا عبيدة على من اجتمع وأمره على حمص (ابن الاثير الجزء الثاني ص ٢٧٧) . وكذلك رواية ابي جعفر في الطبري ص ٣٩٤ ج ٣ .

(٢) راية العقاب راية رسول الله (ص) ولايختلف الطبري مع الواقدي في في هذه الناحية الا في أمر خالد فانه يرى أن مسيره الى العراق كان سنة ١٢هـ بعد انتهائه من حروب الردة مباشرة .

رجل فلم يزل أبو بكر يمدهم حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمس مائة واصبح عدد المجموع (٢٤) الفا (١).

بعد نصر كبير حققه عمرو بن العاص على القائد البيزنطي (روبيس) في فلسطين ، ارسل مع ابي عامر الدوسي الغنائم وكتابا الى الخليفة ابي بكر الصديق يعلمه بالفتح . هنا يسأل ابو بكر عن أحوال ابي عبيدة ، فيجيبه : انه قد اشرف على اوائل الشام ولم يجسر على الدخول اليها . فعلم أن أبا عبيدة لين العريكة لايصلح لقتال الروم وعول أن يكتب الى خالد بن الوليد ليوليه على جيوش المسلمين وقتال الروم (٢) ، بل كتب اليه الرسالة التالية :

(من عبد الله عتيق بن ابي قحافة الى خالد بن الوليد سلام عليك . أما بعد فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد (ص) واني قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم وأن تسارع الى مرضاة الله عز وجل وقتال اعداء الله وكن ممن يجاهد في الله حق جهاده ، ثم كتب : ياأيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم (الاية) ، وقد جعلتك الامير على ابي عبيدة ومن معه)

بينما نص الرسالة التي وجهها ابوبكر الى خالد ـ حسب ماذكره الطبري ـ تنبىء بالغضب وانه جعل له هذا النقل عقوبة لانه حج سرا . دون أن يعلم الخليفة . ونص الرسالة هذه :

(ان سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا أو أشجوا واياك أن تعود لمثل مافعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فاتمم يتمم الله لك ، ولايدخلنك عجب فتخسر وتخذل . واياك أن تدل بعمل فان الله له المن وهو ولي الجزاء (٣).

---

(١) البلاذري ص ١١٢-١١٣ حيث يثبت رواية اخرى للواقدي مضمونها ان الامير في حال الاجتماع للحرب هو الذي يكون في عمله .

(٢) فتوح الشام ج ١ ص ١٣ القاهرة ١٩٥٣ .

(٣) الطبري ج٣، ص ٣٨٥ دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

الاختلاف واضح في التفاصيل والدوافع . بالرسالة الاولى نصا صريحا بتولية خالد على عمل أبي عبيدة وقيادة جيوش المسلمين . ولكنها لاتذكر المكان الذي سيجتمع به بجيوش المسلمين .
بينما الرسالة الثانية بالاضافة لمزيج الغضب والرضاء تجعل الاجتماع بجيوش المسلمين في اليرموك دون أن تأتي على ذكر القيادة بشيء .
فقام خالد بدوره واعلم أبا عبيدة بأنه اصبح القائد العام فلاييرح مكانه حتى يوافيه – طبقا لرسالة الواقدي – ولن أتعرض لمسير خالد من العراق والصعوبات التي تغلب عليها بين قراقروسوى ،وقصته المشهورة مضطربة تحتاج الى تنسيق بين الروايات المختلفة وخاصة وصوله الى دومة الجندل . وسأترك ذلك لبحث خاص . اخيرا وصل خالد الى بلاد الشام وبعد أن تم للمسلمين فتح بصرى توجهوا الى حصار دمشق .

* رفع الحصار عن دمشق والتوجه الى أجنادين :

بدأ الحصار هنا بتقسيم الجند الى فرقتين ،فرقة مع أبي عبيدة ومكانها على باب الجابية واخرى مع خالد بن الوليد ومكانها على الباب الشرقي . وقد تضايق اهالي دمشق من جراء هذا الحصار فطلبوا الغوث من هرقل . فارسل جيشا كبيرا بقيادة وردان حاكم حمص فتوجه نحو اجنادين وهناك تجمع له حوالي ٩٠ الفا من الجنود . فكتب خالد الى القادة المسلمين كافة ،بأن يجتمعوا في اجنادين حيث كانت معركة كبرى في (٦) جمادي الاولى سنة (١٣هـ) قبل وفاة ابي بكر ب ٢٣ ليلة ،وبعد نصر اجنادين ووصول اخباره الى الحجاز خرج بعض سادة قريش والحجاز واليمن يريدون الجهاد ،فكان رأي عمر أن لايسمح لهم لانهم جاؤا ليحصدوا الغنائم ،وجرت مناظرة بين أبي سفيان وعمر ، استحى على اثرها عمر وسمح لهم بالجهاد(١) . وفي

---

(١) فتوح الشام للواقدي جـ١ ،ص ٣٨ القاهرة ١٩٥٣ .

الوقت نفسه التحق عمرو بن معد يكرب الزبيدي ومالك النخعي (الاشتر) بالشام . وجاء الى خالد كتاب ابي بكر يقول فيه :(سر الى دمشق ثم حمص فانطاكية...) فعاد خالد الى حصار دمشق ثانية . فجعل أبا عبيدة على (باب الجابية)[1] ويزيد بن ابي سفيان على (الباب الصغير) وشرحبيل بن حسنة على (باب توما) وعمرو بن العاص على (باب القواديس) وقيس بن هبيرة المرادي على (باب الفرج) وخالد على (الباب الشرقي)[2] وضرار بن الازور على الخيالة .

انظر المصور رقم (١) .

وبعد حصار طويل وجد المدافعون أن أبا عبيدة هو الالين عريكة ففاوضوه على الصلح . فكتب لهم كتاب الصلح والامان ،ولم يسم فيه اسمه ولا أثبت شهودا .

ودخل أبو عبيدة من باب الجابية ولم يعلم خالد بن الوليد بذلك . بينما استطاع خالد أن يدخل عنوة بمساعدة القسيس(يونس بن مرقص). والتقيا عند كنيسة مريم ،فنظر أبو عبيدة فوجد الانكار بوجه خالد فقال له :(يا أبا سليمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحا ،وكفى المؤمنين القتال) . فقال خالد :(وما الصلح لا أصلح الله بالهم ،وانى لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف ؟) . فقال

---

(١) ابواب دمشق هي (الباب الشرقي)(باب الفراديس) بالجهة الشمالية للمدينة وهو بمعنى الجنات ويدعى أيضا الكرابيس من تكوم الجثث قربها . وفي الشمال الشرقي باب يدعى (باب توما) والاسم يشير الى صهر الملك توما . وفي الغرب بوابة باسم باب الجابية وفي الجنوب مدخلان يعرف احدهما بباب كيسان والاخرباب الصغير (فتح العرب للشام جورج حداد ص ٥٩ - ٦٠) .

(٢) يختلف البلاذري مع الواقدي حيث يقول أن شرحبيل بن حسنة كان على باب الفراديس ،بينما عمرو بن العاص على باب توما ولاذكر لباب الفرج لديه - البلاذري ص ١٢٣) .

أبو عبيدة :(ايها الامير : اعلم اني مادخلتها الا بالصلح). فقال له خالد بن الوليد : (انك لم تزل مغفلا وانا مادخلتها الا بالسيف عنوة . ومابقي لهم حماية). وكان دخولهم اليها يوم وفاة أبي بكر[1]. ثم اتفق رأي القادة أن يقروا الصلح في منطقة أبي عبيدة وأن يحتكما للخليفة ،فرضي خالد وأمن أهل دمشق الا (توما) و(هربيس) فعليهما أن يخرجا بأموالهما وكان ذلك . ثم أن خالد ابن الوليد كتب كتابا الى الخليفة ابي بكر يعلمه بأمر الفتح ، وخلافه مع ابي عبيدة ،وكان ابو بكر قد توفي ،وأصبح الخليفة عمر فوصل اليه الكتاب ،فتعجب وسأل : ألم يعلم المسلمون بوفاة ابي بكر؟ فأجابوه بالنفي . فقال :كنت أعلمت أبا عبيدة ووليته على المسلمين وعزلت خالدا . ثم صعد المنبر يعلم المسلمين بما فعل وكان . فقال :(يامعاشر الناس اني امرت أبا عبيدة الرجل الامين وقد رأيته لذلك أهلا ،وقد عزلت خالدا عن امارته). فقال رجل من بني مخزوم : أتعزل رجلا قد اشهر الله بيده سيفا قاطعا ونصر به دينه . وان الله لايعذرك في ذلك ولا المسلمين ان أنت اغمدت سيفا وعزلت أميرا أمره الله ،لقد قطعت الرحم)ثم سكت الرجل فنظر عمر الى الرجل المخزومي فرآه غلاما حدث السن ،فقال :(شاب حدث السن غضب لابن عمه). ثم نزل عن المنبر[2]،ونام وهو يفكر في عزل خالد ،وفي الصباح صعد المنبر وخطب خطبة برر فيها سبب عزل خالد بأنه مسرف ويعطي المجد والفارس فوق مايستحق ولايبقي لفقراء المسلمين ولالضعفائهم شيئا. وكتب كتابه ثانية بعزل خالد وتوليته ابي عبيدة ،وأوصاه بالرحمة وعدم التغرير بالمسلمين ،قائلا له :

(وبعد فقد وليتك امور المسلمين فلا تستحي فان الله لايستحي من الحق وأما اختصامك انت وخالد في الصلح والقتال فأنت الوالي وصاحب الامر وان صلحك جرى على الحقيقة انها للروم فسلم اليهم وذلك والسلام) .

---

(١) فتوح الشام ص ٤٦ ،ج ١ القاهرة ١٩٦٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٥٥ .

أما خالد بن الوليد فانه أبدى السمع والطاعة ،وكان أشد من ذي قبل في حروبه ،وقد ظهرت أول بادرة تدل على ذلك عندما تضايق عبد الله بن جعفر في حصاره لدير (ابي القدس) فلما وصل الخبر الى ابي عبيدة ،قال :(انا لله وانا اليه راجعون ، ايصاب عبد الله بن جعفر ومن معه تحت رايتك يا أبا عبيدة وهي أول أمارتك ؟) ثم التفت الى خالد بن الوليد رضي الله عنه وقال :(يا أبا سليمان سألتك بالله الحق عبد الله بن جعفر فانت المعد لها). فقال خالد :(انا لها ان شاء الله تعالى ،وماكنت انتظر الا أن تأمرني) . فقال أبو عبيدة : (استحيت منك يا أبا سليمان فقال والله لو أمر علي طفل صغير لاطيعن له ،فكيف اخالفك وانت اقدم ايمانا واسبق اسلاما . سبقت باسلامك مع السابقين وسارعت بايمانك مع المسارعين وسماك رسول الله بالامين ،فكيف أخالفك وانال درجتك ،والان أشهدك أني قد جعلت نفسي حبسا في سبيل الله تعالى ولا اخالفك ابدا ولاوليت امارة بعدها أبدا[1]. بعد هذا الكلام انجز خالد المهمة بكثير من المغالاة وخلص عبد الله بن جعفر وساروا يريدون حمص بمحاولتهم فتحها .

* ماذا في هذه الرواية :؟

أهالي دمشق يراسلون هرقل ويطلبون المدد فيجيبهم الى ذلك بمدد قدره تسعون الفا بقيادة (وردان)حاكم حمص ولكن هذا المددتوجه الى اجنادين ،وكان وردان قبلها قد هزم حول دمشق ،لقد نجحت مناورته اذ جعل المسلمين يرفعون الحصار عن دمشق ،ولكنه في اجنادين تعرض لاجتماع قادة المسلمين كافة ،ولم يكونوا قد اجتمعوا جميعا قبلها . ولكن هذا لم يكن بحسبانه فيما يبدو . والاهم من ذلك دخول مدينة دمشق بعد حصارها الثاني المركز ،كيف يفاوض

---

(١) الواقدي ج ١ ،ص (٦٠) .

أبو عبيدة ،ويوقع صلحا منفردا ،دون علم خالد ،وبيد الاخير القيادة العامة والجميع يعرفون من هو خالد ؟.

هل وصل كتاب الخليفة عمر بعزل خالد قبل بدء هذه المفاوضات فعلم بها ابو عبيدة بطبيعة الامر كما علم بها الروم المحاصرون ليبدأوا مفاوضاتهم مع ابي عبيدة دون خالد ؟ .

واستحى ابو عبيدة وتردد باعلام خالد صراحة بعزله كما يستدل من كتاب عمر اليه . أما القول بأنهم لمسوا اللين في مواقف أبي عبيدة والشدة في مواقف خالد ،فما يجديهم لين رجل لايملك حق اجراء مثل هذه المفاوضات وتقرير المصير ؟ .

ماذا قال الاخرون في ذلك ؟ وفي التاريخ لايمكن النفي والاثبات مالم نحصل على الدليل فأين هو ؟ .

* حديث البلاذري حول هذه النقطة :

قالوا لما فرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بالمرج أقاموا خمس عشرة ليلة ثم رجعوا الى مدينة دمشق لاربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع عشرة للهجرة ،فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوة ،وتحصن أهل المدينة واغلقوا بابها ،فنزل خالد بن الوليد على (الباب الشرقي) في زهاء خمسة آلاف ضمهم اليه أبو عبيدة . وقوم يقولون ان خالدا كان أميرا وانما اتاه عزله وهم محاصرون دمشق . وسمي الدير الذي نزل عنده خالد وهو (دير صليبا) دير خالد . ونزل عمرو بن العاص على (باب توما) ونزل شرحبيل بن حسنة على (باب الفراديس) ونزل أبو عبيدة على (باب الجابية) ونزل يزيد بن ابي سفيان على الباب الصغير أي الباب الذي يعرف (بكيسان) [(1)].

كلتا الروايتين تجعل القيادة لابي عبيدة خلال حصار دمشق ،حيث أن أبا عبيدة هو الذي ضم الخمسة آلاف الى خالد ،بالاضافة لما يقوله القوم ... آنفا .

(1) البلاذري ص (١٢٣) .

أما بشأن دخول المدينة واقتحامها فالبلاذري يقول في رواية غير متشققة :

ان ابا عبيدة هو الذي دخل حربا من باب الجابية عندما قام الروم باخراج جنازة احد موتاهم فعمد الاسقف الى خالد بن الوليد وفتح له الباب الشرقي والاسقف معه ناشرا كتابه الذي كتبه له ،فقال بعض المسلمين والله ماخالد بأمير فكيف يجوز صلحه ،فقال ابو عبيدة انه يجيز على المسلمين أدناهم وأجاز صلحه وأمضاه ولم يلتفت الى مافتح عنوة فصارت دمشق صلحا كلها ،وكتب أبو عبيدة بذلك الى عمر وأنفذه ،وفتحت أبواب المدينة فالتقى القوم جميعا (١) .

هنا أبو عبيدة يتصرف تصرف الامير العارف بوفاة ابي بكر وخلافة عمر ولكنها رواية مفردة لم ترد في غير هذا المكان .

أما رواية الواقدي التي تقول ان اجنادين حدثت في ٦ جمادي الاولى سنة ١٣ هـ :

قبل وفاة أبي بكر ب ٢٣ ليلة وان النصر تم واعلم خالد ابا بكر به ،وجاءه الرد بأن يسير الى دمشق ثم حمص فانطاكية .... المعركة تنتهي ويذهب الخبر بانتهائها الى المدينة ويعود منها . ويبدأ حصار دمشق ثانية وينتهي والثلاث والعشرون ليلة لم تنته بعد ،اذ مازال أبو بكر هو الخليفة ؟ . على علم أن حصار دمشق دام بين ٧٠ ليلة والستة اشهر على اختلاف مابين الروايات . هذا يصعب قبوله بمختلف المقاييس . ولا تفسير له سوى أن عمر أصبح خليفة ودمشق محاصرة للمرة الثانية . وعند الواقدي نفسه مايشير الى ذلك قال الواقدي :(ولقد بلغني أن خالدا (رضي الله عنه) لما رجع من غزوته بملاحقة توما وهربيس بعد فتح دمشق ومسيره غانما ،

(١) المصدر السابق ص (١٢٤ – ١٢٥) .

ظن أن الخليفة ابا بكر الصديق (رضي الله عنه) حي لم يقبض ،فهم أن يكتب له كتابا بالفتح والبشارة وماغنم من الروم وابو عبيدة لايخبره بذلك ولايعلمه أن الخليفة عمر بن الخطاب [1]) .

اذا فالخليفة عند الانتهاء من فتح دمشق هو عمر بن الخطاب وابو عبيدة يعلم ذلك ،وخالد هو الذي يجهل هذه القضية لان ابا عبيدة كتمه الخبر واستحى أن يعلمه يمعزله .

والتاريخ الذي يعطيه البلاذري لاجنادين يمكن أن يكون أدق واكثر قبولا فهو يقول :(ان اجنادين حدثت في ٢٨ جمادي الثانية سنة ١٣ هـ ،هذا اقرب الى الواقع اذا اعتبرنا ماقاله الواقدي وابن اسحاق صحيحا حيث يقولان : ان فتح دمشق تم سنة ١٤ هـ وحصارها دام ستة آشهر وان وقعة اليرموك كانت سنة ١٥ هـ [2].

أما رواية سيف بن عمر فتقول : كان فتح دمشق سنة ١٣هـ ،وان المسلمين ورد عليهم البريد بوفاة أبي بكر وعزل خالد باليرموك وان عمر أمرهم بعد فراغهم من اليرموك بالمسير الى دمشق وزعم أن مخلا كانت بعد دمشق [3].

أما ابن الاثير فيجعل أيضا عام تسيير الجيوش عام ١٣هـ ،بعد عودة أبي بكر من حجه (حج عام ١٢هـ) ،وكانت الجيوش التي سيرها كتلك التي ذكرها الطبري والواقدي وانما يجعل امارة ابي عبيدة في حمص، وانه بعد اجتماع الجموع الكثيرة من الروم كان رأي عمرو بن العاص

---

(١) فتوح الشام ص (٥٣) .

(٢)الطبري جـ٣،ص(٤٤١) : هكذا وردت في الطبري المصدر المشار اليه ولكن البلاذري يقول ص (١١٧) : وكانت وقعة اجنادين يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادي الاولى سنة ثلاث عشر ويقال لليلتين خلتا من جمادي الاخرة ويقال لليلتين بقيتا منه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

وابي بكر أيضا أن يجتمعوا فكان الاجتماع باليرموك ،وامدهم بخالد ابن الوليد وذلك في جمادي الثانية /عام ١٣هـ/ والمعركة دائـــرة باليرموك اذ قدم البريد بوفاة ابي بكر وعزل خالد ،روايته تماما مثل رواية سيف بن عمر في الطبري ،كما أن حصار دمشق دام سبعين ليلة ولم يذكر توزيع القادة على الابواب ،وبعد تمام الفتح جاءه كتاب عمر باعادة جند العراق . أما ابو عبيدة فانه توجه نحـو مخـل (١). انظر المصور رقم (٢) .

ويرى الدكتور جورج حداد رأي المستعرب الهولندي ـ دي غـوي ـ وخلاصته أن سيف بن عمر خلط بين اجنادين واليرموك . فسبق الثانية وأخر الاولي . وان معركة اجنادين (يرموث) هي اليرموك الاولـى، و(هيروماكس) هي معركة اليرموك الثانية (٢)بالطبع كان ذلـك بسبب تقارب الامكنة . وان البلاذري بعد أن تحدث عن اليرموك عـام (١٣هـ) يعود للحديث عنها عام (١٥هـ) وهكذا نرى أن التناقـض والاختلاف حاصل في معظم الحوادث والخطوات ومرد ذلك الى المصادر التي أخذ عنها متأخرة وان هذه الحوادث على جلالة قدرها لم تدون في حينهـا .

---

(١) ابن الاثير ج٢ ،ص ٢٧٥ ومابعدها .

(٢) د. جورج حداد (فتوح العرب للشام ص ٤٥) .

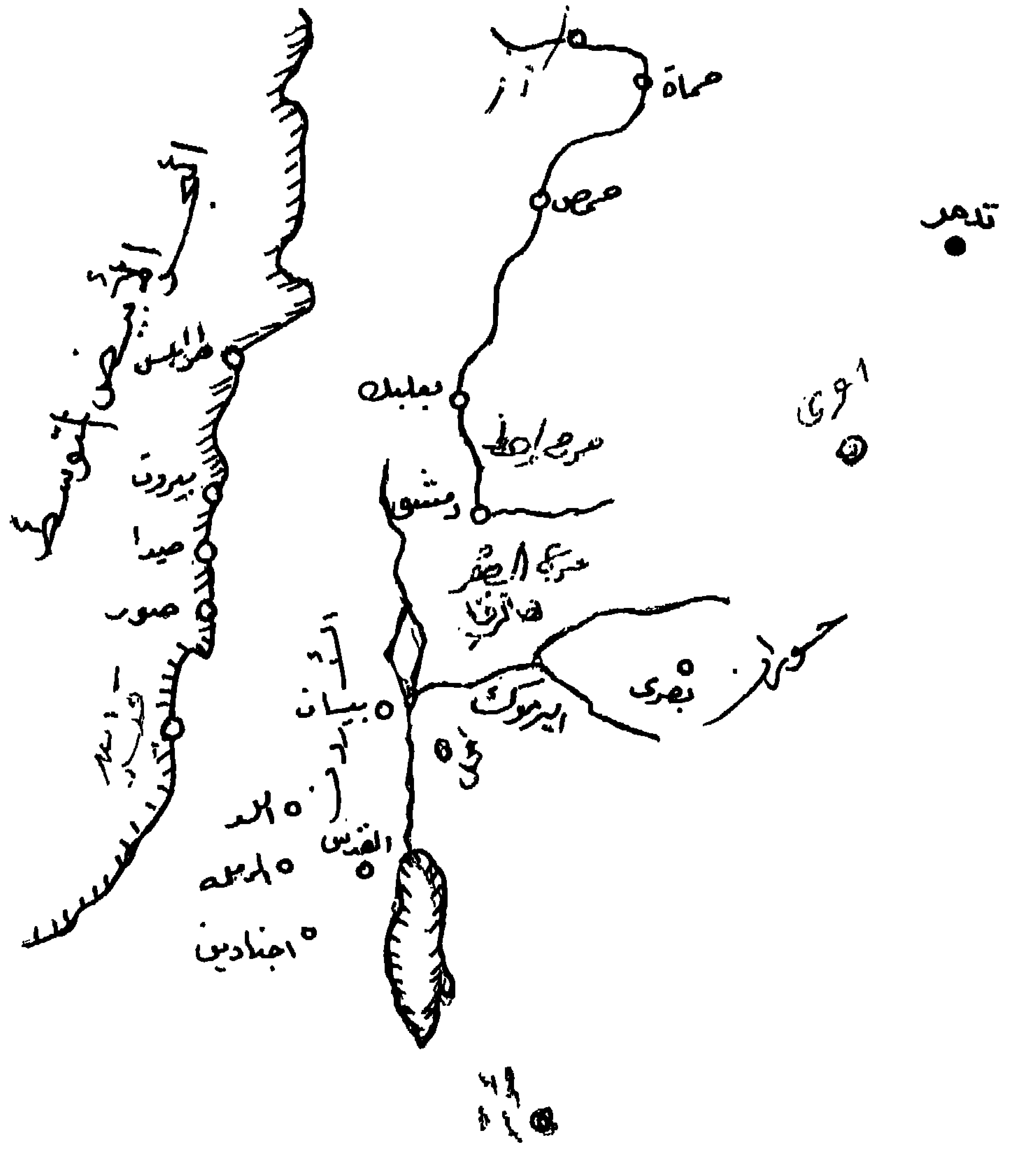
حماة
حمص
تدمر
طرابلس
بعلبك
بيروت
دمشق
صيدا
صور
بيسان
اليرموك
بصرى
حوران
اللد
القدس
الرملة
اجنادين

مصور رقم (١)

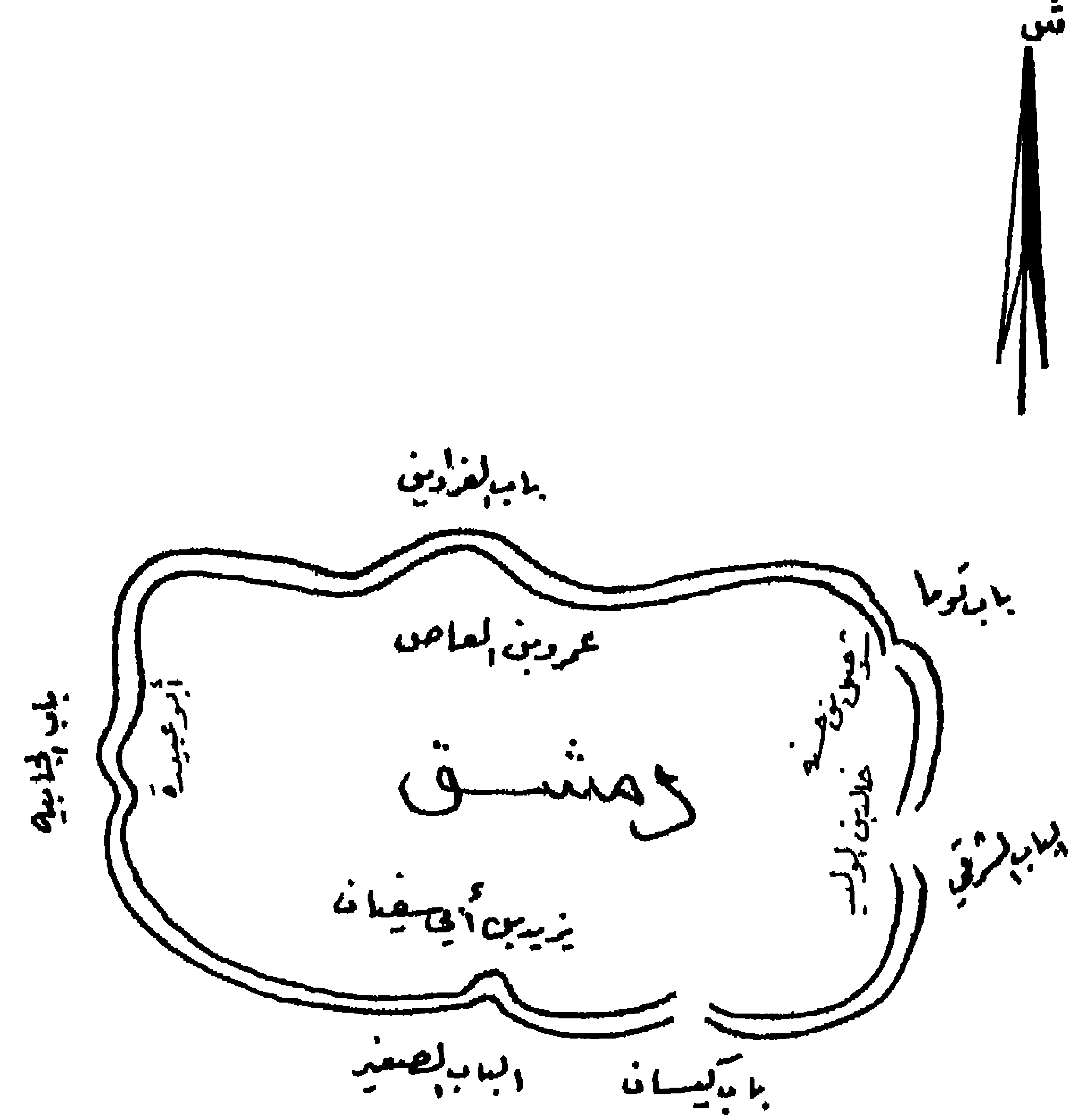
ش
باب الفراديس
باب توما
عمرو بن العاص
أبو عبيدة
باب الجابية
دمشق
شرحبيل بن حسنة
خالد بن الوليد
الباب الشرقي
يزيد بن أبي سفيان
الباب الصغير
باب كيسان

كفرالبارة ومدنها الست

الأستاذ كامل شحادة

احدى مدن المنطقة الافامية في العهد الروماني ،وأبرز مدن جبل الزاوية وتتوسطه متوضعة بين مرتفعين صخريين وبنقطة ممر جبلي ولها أهميتها الاستراتيجية منذ مطلع القرن الرابع الميلادي،وان اشجار الزيتون تغطي أكثر أراضيها ،فضلا عن الكروم وزراعات محدودة ومختلفة . وعلى كتف واديها بئر قديمة لاينضب ماؤها ،وغالبية مبانيها الاثرية رومانية وبيزنطية العهد ،تنتشر على مساحة واسعة جدا بطول (٤) كم ،وعرض (٣) كم وأوابدها الاثرية تتوزع في سبعة مواقع اثرية مأهولة مكتظة بالعمران ،سكني واجتماعي وديني، وصناعي وجنائزي ،مشيدة من حجارة كلسية كبيرة الحجم وبمستوى عمراني رفيع جدا ومن جودته لم يتطلب مؤونة لازمة .

وابتدأت الحياة بمواقعها التاريخية منذ مطلع العهد الروماني ، فاحتفظت بكثافة سكانها واهميتها الاقتصادية حتى نهاية الحروب الصليبية ،وكانت ايضا ذات وسط دفاعي عربي واسلامي من قلاع وحصون هامة ،تتبعها في ذلك المواقع الستة المحيطة بها وهي :
سرجلة ـ بعودا ـ بترسا ـ مجليا ـ بشلله ـ دير دبانة .
وتتنوع مبانيها بين مغاني ـ فيلات ـ كثيرة تتوسطها ،واجتماعية وابراج وحمامات ومقاصف رائعة ودفنية، فضلا عن المباني الدينية الكبيرة وهي ثلاث اديرة وكاتدرائية كبرى وخمس كنائس ،من أشهرها دير سوباط وكنيسة الحصن .

أما المباني الاقتصادية فهي مؤسسات صناعية للزيت والعنب

والخمور تتوسط المدينة . وأما المباني الدفنية فثمة قبور هرمية عظيمة ،ومدافن غنية وهامة .

وعرفت المدينة باسم (كبر وبيرة) وفقا لنص باليونانية على حجر بمبنى الدير الكبير بطرف بيوت البارة الحديثة من الغرب(١). وذكرتها وثائق سريانية باسم (كفر دبرته)(٢)،وذكرها مؤرخو الحروب الصليبية باسم البارة (٣). وكان أول من هاجمها (بوهيموند وروبير الفلندري) فرنسا عام ١٠٩٧م .

ودخلها في السنة التالية (الكونت سانجيل) ،واحتلها ريموند دو سانجيل عام ١٠٩٨م . واتخذها قاعدة لمهاجمة المعرة وكان لوفرة لكثرة المسيحية في البارة أن أسس فيها ريموند مطرانية (٤). ونصب عليها كاهنا فرنسيا يدعى (بيير دوناربون) وعين فيها المطران اليوناني الذي كان في شيزر قبلها . وزودها ريموند بمنح كثيرة كان منها حق امتلاك معرة النعمان واعطيت لها الاهمية السياسية والدينية (٥) . وتحولت الى بطريكية وحل بها مطارنة يونانيون فضلا عن الناحية العسكرية لوقوعها بمفترق طرق بين (افامية – وسيروس النبي هوري) وبين انطاكية وافامية . ولقد تعرضت المدينة للتدمير عام ١٠٩٩م(٩) . واستعادها نور الدين الشهيد عام ١١٥١م(٦) كما

---

1)Villes mortes De Haute syrie ,P.Maitern. Byr.1944

٢) طبوغرافية سورية لدوسو (بالفرنسية صحيفة (٢٠٣) باريس ١٩٢٧

3) Villes Mortes De Haute syrie P. 47 .

(٤) الحروب الصليبية (لـ كروسية) ج١،ص ٥٤٤

(٥) تاريخ سورية ،حرحي ينى أفندي (ص ٣٤٩)

(٦) حولة آثرية في بعض البلاد الشامية ، أحمد وصفي زكريا ،ص ١٢٧ .

(٧)زبدة الحلب لابن النديم ج٢ ص ١٤١ ،وكان يرتسم في رحلة في سوريا محلدا ص ١٩٩ – ١٠٠ وكروسية ج١ ،ص (٥٨٥)

(٨) مفرج الكروب في اخبار دولة بني أيوب ج١ ص ١١٥ الابن واصل وتحقيق د . جمال الدين الشيال .

استرجع المناطق من حولها (١).

واذا ما استعرضنا الاوابد الاثرية في البارة ،فان ذلك يتطلب مجلدا كاملا ،مع أن المجال هنا ضيق جدا ولذا وجب الاقتصار على تعداد الاهم منها وبالترتيب .

١- ففي كفر البارة من الشمال قلعة أبو سفيان ،وهي تسمية عامة لذلك الحصن الكبير والاستراتيجي الموقع ،مبني من طابقين ،يعاصر بتحويله الى حصن ،كنيسة سمعان في اواخر القرن العاشر (٢). وكان معدا كمركز كتائب للمراقبة فقط عند مفترق طرق الجبل القديمة الهامة اذ يتوسط كثافة عمرانية ،سكنية منها ودينية مشيدة من حجارة كلسية كبيرة الحجم .

٢- الكنائس : وهي تبلغ ثماني كنائس ،واحداها اكليركية - كهنوتية - واخرى كاتدرائية كبرى تسمى (كنيسة الحصن) فهي ابرز الاوابد بكاملها ،تهيمن بموقعها الجغرافي على الطريق القديمة من تحتها تجاه قلعة أبو سفيان ،ويحفظها سور من ثلاثة مداميك حجرية وكلسية ضخمة (١٠٠x ٦٠) مترا ،وابعادها بالذات (٣٠x ١٦) متر . فخمة البناء غنية النحت خصبة الزخارف النباتية منها والحيوانية (٣). وسقفها السنامي على صفين من الاعمدة المستديرة المتوجة بنوع كوارنتي جميل ،وكل صف من الاعمدة لهو من طابقين من الاعمدة ، يعطيها اكثر ارتفاعا واجمل اضاءة .

---

(١) تاريخ ابن الوردي ج٢ ص ٥١ . وزبدة الحلب ج٢ ص ٣١٢ و ٣١٣ .
(٢) المدن الميتة في سوريا الشمالية للاب ماتيريد ص (٣٩ و ٤٠) - (بالفرنسية) .
(٣) القرى الاثرية في سورية الشمالية لتساك كوج (ص ٢٨٤ وج٢) مخططات ٨١ و ١٣٨ و ١٣٩ (بالفرنسية) .

وان في طرز تيجانها واشرطة زخارفها وضوح كامل للفن السوري في البناء [1]. وثمة كنيسة كبيرة بأبعادها (٢٥x ٠٦ر١٦م) وقد تجمعت من حولها الافنية والاروقة والاعمدة اللاصقة بالبناء والمساكن الخاصة بالرهبان والرئيس المطران .

ويرى (فان برشم) ان هذه الكنيسة – تعود لفترة لم تكن فيها الهندسة العسكرية معروفة جيدا .

وكنيسة رابعة – كنيسة بيت جبر – تتوسط المدينة الاثرية وفي الحقيقة هي على غاية من الخصب الفني والزخرفي [2]. وتقع جنوبي كنيسة الحصن بنحو (٥٠م) . ومن أبرز خصائصها الفنية والعمرانية وجود هياكل – حنيات ثلاثة من الشرق – والحنية الوسطى منها حدوية الشكل ،وقوس الهيكل فيها يستند على عمودين ،ليعطي بذلك الخفة والمرونة الرشيقة ،وان مبلغ الازدهار الفني والعمراني في البناء هنا يؤكد انتماءه الى القرن السادس الميلادي في سوريا الدينية ولم يخل بعض سواكفهذه الابنية من كتابة فثمة نص باليونانية على ساكف باب الكنيسة الجنوبي ترجمته (نذرا ولصيانة بانتاليون عام ٥٩٥ م [3].

٣– هذا والجدير بالذكر هنا وجود بناء جامع مستحال من مبنى قاعة كبيرة قد توسط المدينة وتاريخه عام ٤٩٧ هـ ١١٠٣م وفق مايشير اليه النص الكتابي السافر بخط كوفي بسيط على حجر كبير بظاهر الجدار الشرقي ،يذكر بناته مع التاريخ [4]. ويعرف بجامع خراب عنكور وثمة اربعة جوامع أخرى صغيرة ،موزعة هنا وهناك

---

(١) مانيرك ٣٦ وآيس ٣– ١٨٩ – ٢١٥ ،وبايس ٣ب ١٠٦٢و١٠٦٥ .

(٢) المدن الميتة في سوريا العليا ج١ ص ٤٠ .

(٣) سوريا اطلس رقم ١٧٤٣ .

(٤) القرى الاثرية في سوريا الشمالية ج٢ مخطط ١٤٧ لتشالنكو بالفرنسية .

تشهد بفترة استرجاع المدينة واقامة المسلمين العرب فيها ،كما تثبت ذلك شواهد القبور الاسلامية المنتشرة جانبا من الجامع وعلى احداها كتابة كوفية مؤرخة لعام (٥٢٠ هـ - ١١٢٦م) تضمنت اسم المتوفي (ذوابة بن الحسن[(١)]).

وعلى شاهدة ثانية عشرة اسطر بالكوفي ايضا مؤرخة بعام (٤٥١ هـ - ١٠٥٩م[(٢)]). وعلى شاهدة ثالثة نص بالكوفية تضمن البسملة والتوحيد واسم سلطان بعام (٤٦١هـ - ١٠٦٨م[(٣)]).

ان هذه الوثائق لتشهد بعروبة السكان ،عروبة سبقت تاريخ سقوط الولاية البيزنطية في انطاكية عام ١٠٨٤م . وهي تشهد بوجود جمعيات اسلامية قبل أن تسترد نهائيا من قبل نور الدين الشهيد كما مر آنفا وان بناء قديما ذا قبة حوت جدره الداخلية ثماني كتابات عبرية تشير الى وجود جماعة موسوية في ذلك الوسط ،وقد أصبح البناء هذا قبرا مشتركا[(٤)].

٤- وفي المدينة أربعة أديرة كبيرة في الشمال الغربي منها (دار الرهبان) وفي الجنوب الغربي دار سوباط ،وبالقرب منها الغرب وبقمة الهضبة الصخرية دير دبانة ،وفي الجنوب الشرقي بناء الدير ذي السور العظيم من حوله بين القرية الحديثة والمدينة الاثرية .

ثم في الجنوب من القرية حصن البريج الذي هو بحد ذاته مزرعة ديرية أثرية خاصة . على أن أبرز هذه الاديرة هو دير سوباط ،الذي يشبه

---

(١) القرى الاثرية في سوريا الشمالية - تشالكنو ج٣ ص (١١٥)- (بالفرنسية) .

(٢) ذكرتها مجموعة الخطوط العربية (اصدار المعهد الاثري الفرنسي بالقاهرة تحت رقم ٢٦٣٠)

(٣) ذكرتها مجموعة الخطوط العربية (اصدار المعهد الاثري الفرنسي بالقاهرة تحت رقم ٢٦٦٨ .

(٤) القرى الاثرية في سوريا الشمالية ج٣ ص ١١٥ .

الى حد ديري ترمانين والداننا الجنوبية من حيث احتواؤه على المسكن والمعبد والمدفن • بما يبدو أن الجياة فيه اكثر اهمالا وانعزالا وبسطة • وهذا غير ماهو في النظام الديري الانطاكي ،ان هذه الاديرة الخمسة هنا تؤرخ في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ،وهي في نهجها تخضع لنظم الاديرة الافامية من حيث تنظيمها وترتيبها في ذلك العهد لاتصافها بتنظيم عمراني كثيف في سائر الاقسام الملحقة بها •

ـ المباني السكنية :

يتميز العديد من المباني السكنية في كفر البارة بالفخامة والجودة ،ومع ذلك فهي أقل اهمية وفخامة وغنى من المباني الدينية والدفنية ،وان مجموعة كاملة منها تنتشر بوسط المدينة لاتزال محتفظة بهيكلها واروقتها الامامية المعمدة والمتوجة بنوع كوارنتي جميل ،مؤلفة من طابقين ،والطابق العلوي سنامي السقف وزينت مداخلها بالرموز الدينية كشارة الصليب واحرف التوحيد على اضلاعه مضمومة بدائرة ،ومن ثم تأطير المداخل والنوافذ بأشرطة زخرفية بديعة ،وان لبعضها بوابات بقنطرة كبيرة من فوقها تبرز للامام بزخارف جميلة يستظل الزائر بها ويضم اكثر من مدخل ومن فوق الخارجي كتابات وتطل نوافذها على الباحة الامامية (١) ،وفي الطابق العلوي تطل للخارج ،ويفصل البيوت بأزقة ضيقة ومبلطة •

٦ـ تكثر المؤسسات الصناعية والاستثمارية بكفر البارة ،ومن أبرزها مؤسستان كبيرتان ، تقعان وسط الشطر الجنوبي من المدينة واحداهما معصرة للزيتون واستخراج الزيت ،والاخرى معصرة زبيب لاستخراج الدبس واهم من هاتين معصرة للخمر (٢) وشيد البناء بحجارة كبيرة الحجم

---

(١) المدن الميتة في سوريا العليا لما تبرن ص ٤٤ •

(٢) القرى الاثرية في سوريا الشمالية ـ تشالنكو (بالفرنسية) ج٣ ملحق رقم ٣٢ وج٢ رقم ٤٠ •

كلسية ،واحدثت فجوة في جدار البناء ،تستخدم لادخال المواد التي داخل المعصرة (مما يؤدي الى انقاص اليد العاملة) وعلى مرتفع من الجدار الشمالي أيضا وتحت غطاء بارز توجد كتابة لاتينية من سطرين نصهما :

1-Nectareos Succos Baccheia Munera Cernis

2-Ruaebitis Genuit Aprico Sote Refecta(2)

وترجمتها الى العربية :(هذا العصير الرحيق هو منحة باخوس ،والذي ترون هو ثمرة الكرمة المغذاة بشمس حامية (٢)) ،ورغم وجود اسم باخوس فان الكتابة بيزنطية العهد تعاصر البناء • وثمة معاصر كثيرة منتشرة على اطراف الوادي خاصة بعصر العنب •

أما المؤسسات في المدن الملحقة بها فسنذكرها في حينها معها •

المباني الدفنية :

هي من مميزات كفر البارة وهي النادرة كما ونوعا بسقوفها الهرمية (٣) من فوق قاعدة مربعة كبيرة أقيمت من حجارة كلسية كبيرة الحجم وفيها المدخل وكوى للنور ،وجميعها قد توجت بأشرطة زخرفية بارزة متكررة ،تزدان فيها اشارات الصليب بأنواعه ،وشيدت القاعدة مع الهرم بمدماك واحد فقط ،وقد برزت في حجارة الهرم مثلثات للاستناد تسهيلا للعمل في الصعود ،ولايزال قبران هرميان فيها يحتفظان بسلامة البنيان والخصب الفني والزخرفي تمثيلا لورق الاكانتس – الخرشوف – على المحيط ،وأوراق العنب في تأطير الابواب ،ويذكرنا احدهما المسمى (المذوقة) – نسبة للاغراق بذوقته الزخرفية بالقبر الهرمي في الدانا الجنوبية – المعرة – وثمة مدافن وقبور مختلفة حجما ونوعا وحفرا في الصخر ،وبناء تنتشر على اطراف المدينة

---

(٢) (ويرتكتون – كتابة سورية ٢٦٤٤ • وايتر البعثة الامريكية الاثرية السورية ١٨٧م •

(٣) طبوغرافية سورية لدوسو ص ٢١٠ •

الاثرية • واذا ما انتقلنا الى المدن الاثرية الاخرى الملحقة بقرية البارة نبدأ :

ا- سرجلا :

وهي ضاحية البارة من الشرق على مسافة (٣كم) ذات موقع استراتيجي ووضع جغرافي عظيم وبملتقى طريق قديمة ،بواد منخفض ذي ذرع[(١)] ،وعلى كتفيه شيدت المدينة بمستوى عمراني عظيم ،ومن القرن الرابع الى السادس الميلادي وهو يعبر عن مدى عظيم لرخاء المدينة وترفها العمراني •

وتتألف المباني من مغاني ــ فيلات ــ فخمة ،جداوغنية وكنيسة ودير[(٢)] • وحمام ضخمة جدا ومقصف ــ اندرون ــ كبير وانواع من القبور المقامة بالهواء الطلق سنامية الغطاء ،فضلا عن بناء قبر هرمي صغير من الغرب على طراز المعابد اليونانية •

والكنيسة من القرن الرابع الميلادي ذات صحون ثلاثة وسقف سنامي كان يرتكز على صفين من الاعمدة المتوجة بنوع كوارنتي في كل صف ستة أعمدة ،ويضاف اليها ملحق خاص بالرهبان له بوابة مقنطرة تسمح بالمرور الى قاعة ذات مقاعد حجرية • وتاريخ الكنيسة عام ٣٧٠م ،ــ تسبق بناء الحمام والاندرون بمائة عام •

أما الحمام والمقصف فمؤرخان حسبما اشارت كتابة بفسيفساء بعام (٤٧٣م) • وهما موهوبان الى المواطنين السكان من قبل ملاك ثري جدا اسمه (جوليانوس) وزوجته (دمنة) وبناء الحمام الى جانب المقصف ،تتوسطها قاعدة كبيرة لنزع الثياب (١٥ x ٨م) ــ بسقف سنامي وشريط زخرفي يحيط بها وبنوافذها ،وتغذى بماء يخزن في صهريج ملاصق (١٦ x ١٤ x ٨م) مغطى بسقف من حجر عليه اقواس من

---

(١) القرى الاثرية في سوريا الشمالية ج٢ ص ١٣٩ وج٣ طراز المساكن •

(٢) القرى الاثرية في سوريا الشمالية ج٢ مخططات ١٩و٢٠و١٤٠و ٣٥ •

تحته . وكان الماء يرفع آليا لبقاء معالمه ،ومن ثم يجري بقناة واسعة على مرتفع بالجدران تصل الى جميع أقسامها وتبرز القناة بنحو (٤٠ سم) أما المقصف فهو من ثلاثة طوابق بأروقة على المحيط وان الطابق الارضي كان يخصص لحجز الدواب وكفندق للزائرين (١).

٢- بعودا :

وهي الضاحية الثانية البارة مع سرجللة من الشرق ،وعلى الطريق المؤدية لها بمسافة (٢كم) تتوضع بوسط صخري تخلو من أي ساكن ، الا بفصل الربيع يؤمها الرعاة من أجل مواشيهم ولاتقل شأنا عن جاراتها من حولها . سرجللة والربيعة وبترسا ومجليا - وجميع مبانيها مشيدة من حجارة كلسية كبيرة الحجم مقتطعة محليا ، ويتميز من بينها قبر هرمي بحالة حسنة ،مؤطر المدخل ومربع القاعدة ومتوج الاركان ، أبعاده (٤ره × ٤ر٥م) . ويعلو القاعدة هرم مثلث الشكل يرتفع بواسطة (١٤) مدماكا ،تبرز في احجاره مثلثات واسطة التصعيد في البناء (صورة ٦) وثمة قبور منفردة، اقيمت في الهواء الطلق من قطعة واحدة وغطاء سنامي ،دونما تحديد في الاتجاه ،ومدافن كثيرة محدثة في الصخر ،ويتوسط المدينة بناء كنيسة ذات استطالة كبيرة (١٦٫٧٥ × ١٠٫٦م) . ولها صحن واحد، والهيكل متسع من الشرق ،على يمينه غرفة الدياكونيكون لتحضير الصلاة ،وهي مؤرخة في القرن الرابع الميلادي .

٣- مجليا :

هي الضاحية الجنوبية للبارة على رمية منها ،وعلى طريق داخلية كبيرة ،وتغطي اوابدها ساحات واسعة من الارض وهي اكثر قدما من البارة بل واعظمها شأنا وازدهارا بالفن والعمران (٢) .

---

(١) المدن الميتة في سوريا العليا ص٥١ و ٥٢ .

(٢) القرى الاثرية في سوريا الشمالية للاشاري تشالنكو (بالفرنسية) ج١ ص ٢٦.

وتوحدت مجليا مع البارة في القرن السادس الميلادي بعد أن كانت مستقلة وهي تحتوي على ممتلكات اثرية على غاية من الاهمية والفخامة ومن أهمها :

كاتدرائية كبرى في الشطر الشمالي من المدينة ،وكنيسة كبيرة في الشطر الغربي منها (١) ،وبجانبها حمام واسعة ،وبقربها معصرة زيت كبيرة (٢) ،وكثير من المدافن والانصاب الجنائزية (٣) . فالكاتدرائية ذات صحون ثلاثة يفصلها صفان من الاعمدة المستديرة متوجة بنوع كوارنتي وفي كل صف عشرة أعمدة وهيكلها من الشرق على طرفيه غرفتا الدياكوينكون والبروتيز – للتحضير والهدايا ويتقدمها النارتكس من الغرب فيه خمسة أبواب تؤدي اليها ،وهي مؤرخة من أوائل القرن الخامس الميلادي .

ويقوم مدفن من طابقين على يمين الكاتدرائية ،يتوضع سقفه على قناطر واقواس ،يضم ثمانية توابيت كبيرة وهو خاص برجال الدين .

أما الكنيسة : فهي في الشطر الغربي من المدينة ،ذات مخطط نسيج وحده ،مثمن الشكل تقريبا تعلوه قبة ترتكز على ثمانية أعمدة واقواس من تحتها ،ويتميز الهيكل بحجمه وقنطرة امامية تستند على عمودين وعن يمين وشمال الحنية غرفتان لتحضير الصلاة والهدايا والهبات ،وفي البناء روعة في التخطيط وابداع في النحت وخصب في الزخرفة وهي مؤرخة في القرن السادس الميلادي ،وحمام المدينة يتوضع بوسط رئيسي بين شارعين ،شيد من حجارة كبيرة الحجم وبني السقف

---

(١) المدن الاثرية الميتة في سوريا العليا .ماتيرن (بالفرنسية) ص ٣٦ .

(٢) القرى الاثرية في سوريا الشمالية ج١ ص ٤١ ترتيبا .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣ .

بالعوارض الحجرية وفرشت الارض كما في الكاتدرائية بالفسيفساء، باستثناء الكنيسة مرصوفة ببلاط حجري ،واحسنت الانارة بالنوافذ وارتفاع البناء ،كما استعيض عن الباحة والرواق بقاعة كبرى لخلع الالبسة ، وان عظمة البناء تثبت كون الحمام جماعية للعموم(١).

اما المعصرة فانها أقيمت بمنتصف المدينة وباتجاه الشرق يتقدمها مدرج وتعلو مدخلها قنطرة وهي محدثة نقرا في الصخر وتضم بداخلها الرحى وادوات العصر ودراسة الزيتون ،وعلى يمين المدخل لوحة كتابية باليونانية من أربعة سطور ،تعلوها اشارة الصليب واحرف اسم المسيح وترجمتها الى العربية :(أيها السيد المسيح أغث جليانوس وديمتريوس ،لانهما اكملا هذا العمل(٢)) ، وان هذا لهو دعاء يخص هذين المحسنين وبخاصة منهما جليانوس الذي له سابق فضل في بناء حمام سرجلا كما مر انفا ، وعلى اساس ان المعصرة هنا من املاك وقفية ،وهذا العمل الخيري يشير دون ريب لاهمية الاستثمار الزراعي في حياة المعابد والكنائس والأديرة .

وفي مجليا تتنوع المدافن والقبور فمن شكل هرمي المدخل مثلثا على طراز المعابد اليونانية الى ذات قنطرة وتوابيت من قطعة واحدة بغطاء سنامي وعليه كتابات تحفظ المتوفي وتورخ الوفاة .

٣- بترسا :

ضاحية ثانية من الجنوب للبارة بعد مجليا المتجاورتين وكلتاهما تمر بهما الطريق القديمة بين جسر الشغور وقسطون ،وبين معرة النعمان(٣). تتوضع على كتف واد منحن يتصل بكفر البارة من الشمال ومارا بكفر نبين وحاس وكفر روما ومعرة النعمان من الجنوب

---

(١) القرى الاثرية في سوريا الشمالية ج١ ص ٣٦ .

(٢) القرى الاثرية في سوريا الشمالية ج١ ص ٢٦ لتشالنكو بالفرنسية

(٣) المدن الميتة في سوريا العليا ص ٣٥ .

والشرق يجري به نهر الهرماس. وتضم المدينة مجموعات عمرانية مختلفة ،بعضها ذو مخطط نسيج وحده وهو ماتتميز به كنيستها القائمة السقف على عوارض حجرية بدلا من الاقواس ،وكذلك في كنيستها الثانية ،وفي بعض مساكنها المحفورة في الصخر الكلسي ذات الاقواس والزخارف بسقوفها ،ومن بينها دار كبيرة تسمى محليا ـ القهوة ـ ذات مناور وسقوف منحنية غنية جدا بأطرها ومخططها .

ويبدو أن الحياة بدأت فيها في القرن الثالث الميلادي ،واستمرت الى العهد الصليبي حيث هجرت من ساكنيها .

٥ـ بشللة :

تقع في الجنوب الغربي من البارة على مسافة (٤كم) وفوق مرتفع صخري صعب المسلك ،تهيمن على مواقع تاريخية واثرية من جهاتها وهي تخلو من السكان الا بفصل الربيع لرعي المواشي ،وانها قرية صغيرة تعد نحو خمسة عشر بيتا مشيدة من الحجارة المحلية كبيرة الحجم كلسية ،ويتميز بعضها ببوابة ذات قنطرة من فوق مداخلها المزخرفة الجميلة تحمل شارة الصليب بأنواعها ،وتمثل ورق الخرشوف وثمة اغطية ببروز (٧٥ سم) .

لمداخل آخرى وقاية للزائر من حر ومطر ،ولكل من البيوت صحن مكشوف واروقة ومحاريب تزيينية وزخرفية في وجهاتها الرئيسية ولوضع التماثيل احيانا ،وابرز اوابدها بناء كنيسة متوسطة الحجم يقوم سقفها على صفين من اعمدة مستديرة ومتوجة بكل منها خمسة وبطرفي الهيكل غرفتان لتحضير الصلاة والهدايا . وعلى حجر فيها نص كتابي بالعربية قديم منذ العهد الاموي يذكرنا بكتابات مماثلة في خربة الربيعة في كنيستها بالذات المجاورة لها من الشرق ،وثمة

مقابر ومدافن غنية متنوعة بأطرافها ولاتقل شأنا عن أوابد بترسا من قبلهـــــا ٠

٦- دير دبانـــــــة :

القرية الاثرية السادسة الملحقة بالبارة ،فوق قمة هضبة صخرية وللجنوب الغربي منها على مسافة (٤كم) تجاور دير سوباط وبيـــــن الموقعين كتابة باليونانية من أربعة أسطر[1]،على صخرة أبعادها (٨٠ x ٧٠ سم) ترجمتها الى العربية :

(نذرا وللحفاظ على الكونت آجا تونيكوس ،كل هذه الطريق قد بلطت ٠٠ في شهر باتيموس (العهد الثاني) عام ٨٧٤ يونانية) ٠

ومع مقارنة التاريخ السلوقي بالميلادي يوافق صيف عام ٥٦٣ م وهو عصر جوستنيان الذي مات عام ٥٦٥م والصيغة هنا ذات طبيعـــــة دينية خاصة باصلاح الطريق المؤدية الى مبنى الدير من فوقها (ديـــر دبانة) وقد حوى هذا الموقع عددا من المباني الاثرية والمدافـــن من حول الدير ٠

---

(١) المصدر الاسبق ج٢ مخطط (١٤٨)

(٢)المصدر ذاته ج٣ ص ١٠٣٣

* * *

* *

*

رومانسية الشرق من خلال النقود

★ الأستاذ محمد الخولي

قرأت مقالا بهذا العنوان باللغة الانكليزية في مجلة النقود الانكليزية عدد تموز لعام (١٩٧٨) م كتبه ريتشارد بلانت فأعجبني الاطار الجميل الذي قدم فيه موضوعه ،ففكرت بترجمته لكي يطلع عليه أكبر عدد من جماهير قرائنا لعله يفيد في توطيد الصلة بين بعض من جماهير أمتنا وبين موضوع يستأثر الان باهتمام نفر كبير من شعوب العالم . ان موضوع النقود الثري يحتل مكانة هامة من تراث أمتنا الخالد الذي يمثل بدوره نبتة جنية الثمار في دوحة الحضارة الشرقية . لقد أطلقت لنفسي العنان بالتصرف في الترجمة لاجعل هذا الموضوع سائغا لقرائنا كما أني حذفت بعضا من المقال وأدخلت عناصر بديلة من تراثنا بما أنه سيئدم الى جماهير أمتنا فأصبح كما يلي :

لشعوب الشرق عبر التاريخ حياتها الخاصة بها التي تكتنفها الاسرار التي كرستها الاساطير والفلسفات الدينية التي انتقلت بالروح من عالم المادة المحسوس الى عالم الغيبيات الذي أضفى على الشرق روحانية خاصة تتصف بالخيالية المجنحة والرومانسية المبدعة .

مما كان له اثره في طبع جانب كبير من النتاج الفكري بهذا الطابع السحري الذي يمتع الروح ويغني المعرفة الانسانية باسلوب مشوق سهل كالذي نجده في روايات ألف ليلة وليلة وعنترة والزير سالم وسبق بن ذي يزن وغير ذلك مما عرف في الآداب العربية والفارسية والهندية .

خطر لي أن ارصد تلك الشخصيات التاريخية التي نسجت حولها الاساطير من خلال النقود التي تعتبر من أفضل الوثائق المادية لتاريخ رجال التاريخ • مما يفيد في القاء الضوء الجلي على بعض هؤلاء الاشخاص • لعلي أستطيع أن أضفي على سحر الخيال متعة اليقين وبنفس الوقت أضع أمام ناظر قرائنا نماذج من العملة القديمة بشكل مبسط قد تفيده وتسعده معرفتها •

نبدأ بنقد ذهبي هندي أصدرته اسرة هندية تعرف باسرة جبتا (Gupta) سكنت الهند خلال الفترة (٣٣٠ – ٣٧٥) ميلادية •

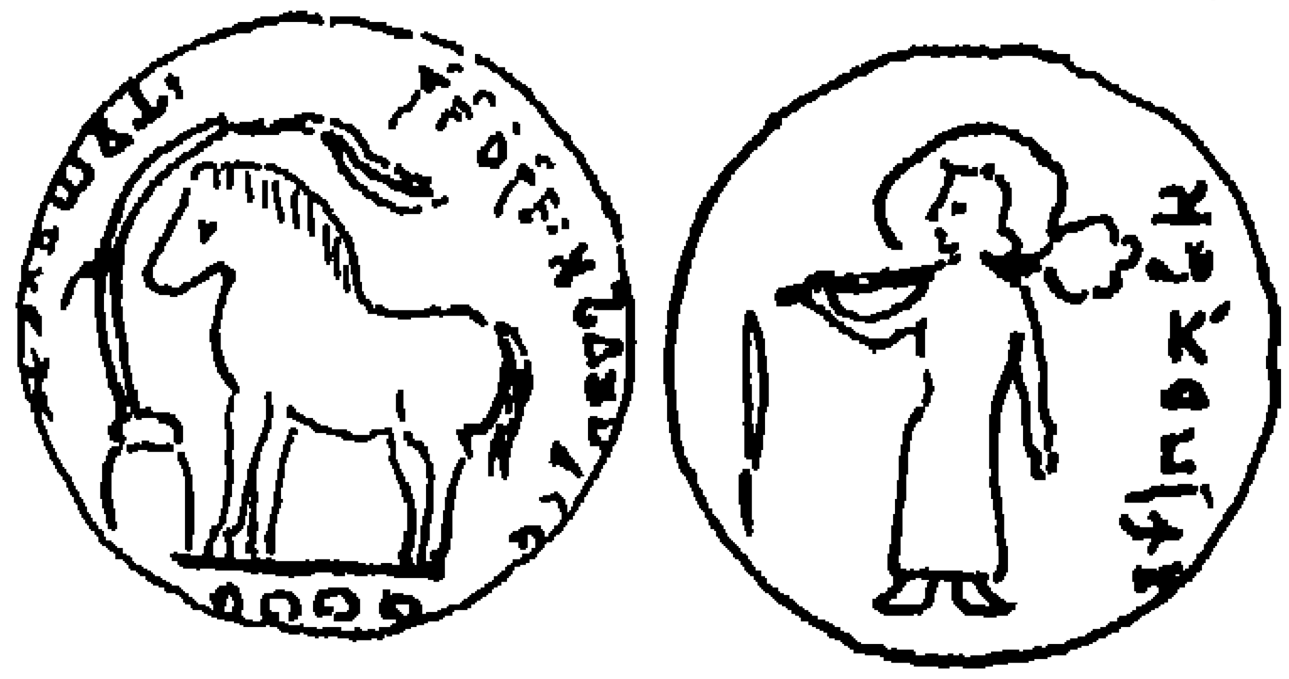

أصدرت هذه الاسرة أجمل سلسلة من النقود ،وكانت هذه النقود ذات أهمية بالغة لانها تخص أسرة من أبناء الهند نفسها ،والمعلوم أن الهند كانت خاضعة خلال معظم تاريخها للحكام الغرباء كاليونانين والمسلمين والانكليز ومع أنه توجد نقود أجمل من النموذج المذكور أعلاه ،لكن اختيار هذا النقد بالذات قصد منه الاطلاع على القصة التي وراء الرسم المنفذ عليه ،انها قصة (اضحية شفاميذا) التي تفيد : أن الامبراطور العظيم سامودرا ذا النفوذ الواسع كان ملتزماً بتنفيذ مراسم هذه الاضحية التي تجري حوادثها على النحو التالي :

ينتقي حصان على أحسن مايكون ويطلق له العنان في التجوال

خلال عام كامل حيثما يريد في أرض الهند وفي نهاية العام يدعـــو الامبراطور جماهير شعبه ليضحي أمام أعينهم ذلك الحصان المقدس في احتفال مهيب ٠

يحمل النقد في وجهه صورة الحصان المقدس مواجها للعمود الـــذي تنفذ بواسطته عملية التضحية وعلى خلف النقد تبدو ملكة سامـــودرا تحمل ريشة كبيرة على كتفها ولهذه الشخصية دور هام رئيسي فـــي هذه المراسم ٠

مما تجدر الاشارة اليه أن هذا الدينار الذهبي من طراز (اشفاميذا) لم يصدر للتداول من قبل أي شخص ٠ بل أصدر خصيصا ليدفع الى عـــدد من الكهنة البراهميـــن الذين يحضرون مراسم الاضحية ٠ وكل هـــذه النقود تحتفظ بها الهند كتراث وطني تعتز به ٠

وهذا نقد نحاسي هندي آخر من منطقة البنجاب ٠ سك لامر حاكـــم يدعى (ميهيراجولا) حوالي الفترة (٥١٥ ــ ٥٢٨) ميلادي ،ومـــع ان

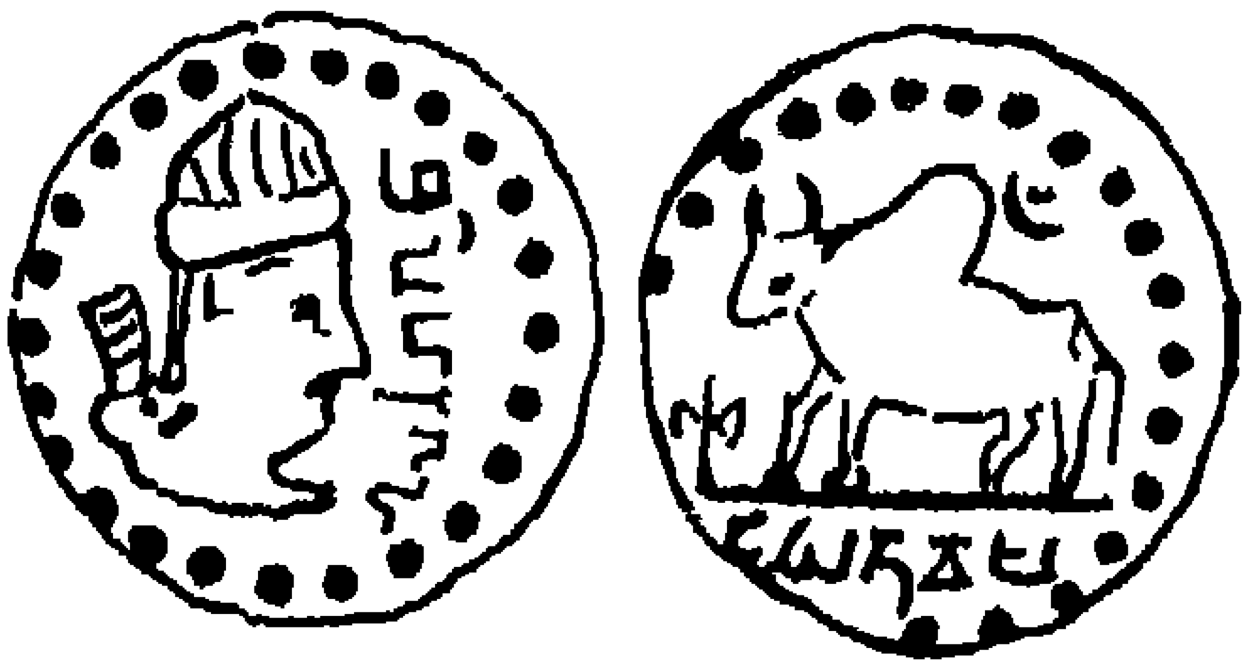

اسم الحاكم المذكور يعني (دوار الشمس) كان على نقيض الزهـــور بشخصيته حيث أن اشتهر بغلظة طباعه وعنفـــه وجبروته ٠

وذات يوم بينما كان يتراجع بجيشه عبر الممرات الجبلية المؤدية الى كشمير سقط أحد فيلته من فوق جرف جبلي سحيق وخلال سقوطـــه

أحدث صوتا ذا زعيق مرتفع فراق ذلك الصوت مبهير جولا فأمر أن تدفع فيلته الواحد تلو الاخر من فوق ذلك الجرف حتى يتكرر الصوت ويمتع نفسه بذلك الزعيق .

ولكن الصورة التي على النقد هي الثور وليس الفيل ،لقد فضل ميهير جولا أن يحمل نقده صورة هذا الحيوان الجبار الذي يمثل الاله شيفا . هذا الاله الذي كان ميهير جولا ،يرجو أن ينال لديه الحظوة فيقبله في عداد المؤمنين به المقربين اليه .

وهذا دينار ذهبي من ضرب بغداد في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣) هجري - (٧٦٣ - ٨٠٩) ميلادي .
هذه الشخصية التي تمثل الحقيقة الشامخة الكبرى في التاريخ الاسلامي والاسطورة المغرقة في الخيال بين شخصيات ألف ليلة وليلة التي ترجمت الى اللغات : (الفرنسية والانكليزية والالمانية) والتي تصور هارون الرشيد ذلك الشخص النادر المثال الذي يتمتع بالعاطفة الفياضة والاحساس المرهف ،الرجل النقي الذي يصلي كل يوم مئة ركعة ويحج ماشيا ،ومن ناحية أخرى يغرق نفسه بمجالس الانس والشراب والغناء والرقص .
الرجل الذي يضحك حتى يستلقي على قفاه لسماع نكتة من ندمائه ويقتل وينكل ويدمر اذا ماثار غضبه كما فعل بآل برمك .

ولم تغفل الروايات ذكر مقدار كرمه ووصفه بالخليفة العظيم العادل الشجاع الساهر على مصالح رعيته المتجول ليلا " متنكرا " في شوارع بغداد متفقدا أحوال الناس وقد أضفت عليه علاقته بشارلمان المزيد من الاهتمام من قبل شعوب الغرب ،حتى أصبح مجرد ذكر هارون الرشيد يصور الشرق بفتنته العجيبة وجاذبيته الساحرة .

ان دينار هارون الرشيد لايمثل شيئا محسوسا من حياة هذا الحاكم العظيم ،وانما هو على شاكلة الدنانير الاخرى التي أصدرها الذين

سبقوه ، والاختلاف فقط هو التاريخ الذي تحمله دنانيره ودراهمــه أو أسماء اولاده أو أسماء بعض البارزين من اتباعه كدينارنا الذي يحمــل

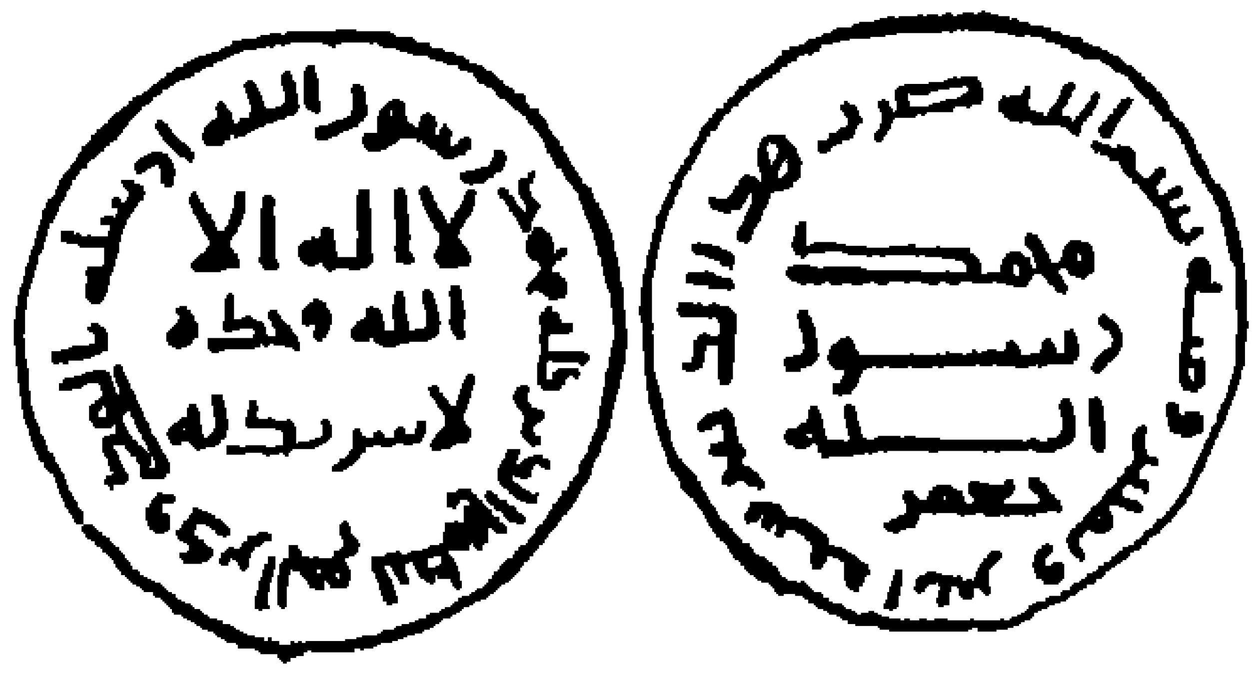

اسم جعفر والمقصود جعفر البرمكي وزيره الذي منحه هارون الرشـــيد حق الاشراف على السكة وهذه أول مرة يتنازل فيها خليفة اسلامي بمثل هذا الحق لوزيره •

بالاضافة الى رموز تميز السكات بعضها من بعض • ولم تحمل هذه ـ النقود اسم الخليفة الصريح الا في عهد لاحق •

كتابة هذا الدينار في وجهــــه :

في الوســـط :

لا اله الا الله وحده ـ لاشريك له •

في المحيـــــط :

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلــه،

في خلفــــه •

في الوســـط :

محمد ـ رسول ـ الله ـ جعفــــر •

في المحيـــط :

بسم الله ضرب هذا الدينار سنة اثنتين وثمانين ومئة •

يعتبر من أطرف النقود التي صدرت في عهد صلاح الدين هو ذلك النقد النحاسي الواسع المصور الذي يعد الوحيد بين النقود التي أصدرها صلاح الدين وتحمل صورته ٠

والمعروف أن المسلمين من الوجهة الدينية لم يشجعوا على تصوير الكائنات الحية في مواضيعهم الفنية والحياتية بشكل عام ولكن عقب اتصالهم بالسلاجقة والاراتقة والاتابكة الذين لجوّوا الى تمثيل الكائنات الحية على نقودهم وفي مواضيعهم الفنية المتنوعة وهن أثر القاعدة الدينية ٠

وهكذا اصدر صلاح الدين نقده على النحو الذي نرى وهو يحمل صورة السلطان جالسا فوق عرشه وبعظمة المنتصرين يتقبل هدية (ربما كانت درة ثمينة) قدمت اليه من قبل ريتشارد قلب الاسد ٠
ان هذا الاصدار كان محدودا جدا حتى أن نماذجه تعد من نوادر ـ النقود وربما أصدر خصيصا بمناسبة استرجاع بيت المقدس من الصليبيين ليضعه بين أيدي سكان فلسطين الذين تعودوا على استعمال النقود الصليبية المصورة ،والصورة تعني أن أكبر قائد صليبي قدم ولاءه وهداياه وأصبحت البلاد تحت سلطة صلاح الدين بلا منازع ٠
ان حرب صلاح الدين كانت ضد الجيوش الصليبية القادمة من أوربا واستطاع أن يحقق انتصارا باهرا على تلك الجيوش وقد أظهر ذلك البطل من

تسامحه وشجاعته وعدله ماجعل لاسمه وقعا رائعا لدى شعوب الشـــرق والغرب على السواء حتى غدا اسطورة عصره .

* قراءة النقـــــد :

في الوجـــــــه :

صورة صلاح الدين جالسا فوق عرشه ويحمل بيده شيئا ثمينا يحيط بالصورة :(الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن آيوب).

في الخلـــــف :

في الوســـــط :

الامام الناصر لدين الله - آمير المؤمنين .

في المحيـــــط :

ضرب هذا الدرهم سنة ست وثمانين وخمسمائة .

سنتحدث عن نقد آخر يخص قائدا ملأت شهرته الخافقين وهو معاصرٌ للعهود الصليبية ولكنه لم يكن مسيحيا ولامسلما بل وثنيا موغوليـــا انه جنكيز خان الذي اجتاح رقعة واسعة من العالم الاسلامي في الشرق ثم لم يلبث اتباعه الذين انتشروا على الارض الاسلامية آن تحولـــــوا الى مســـــلمين .

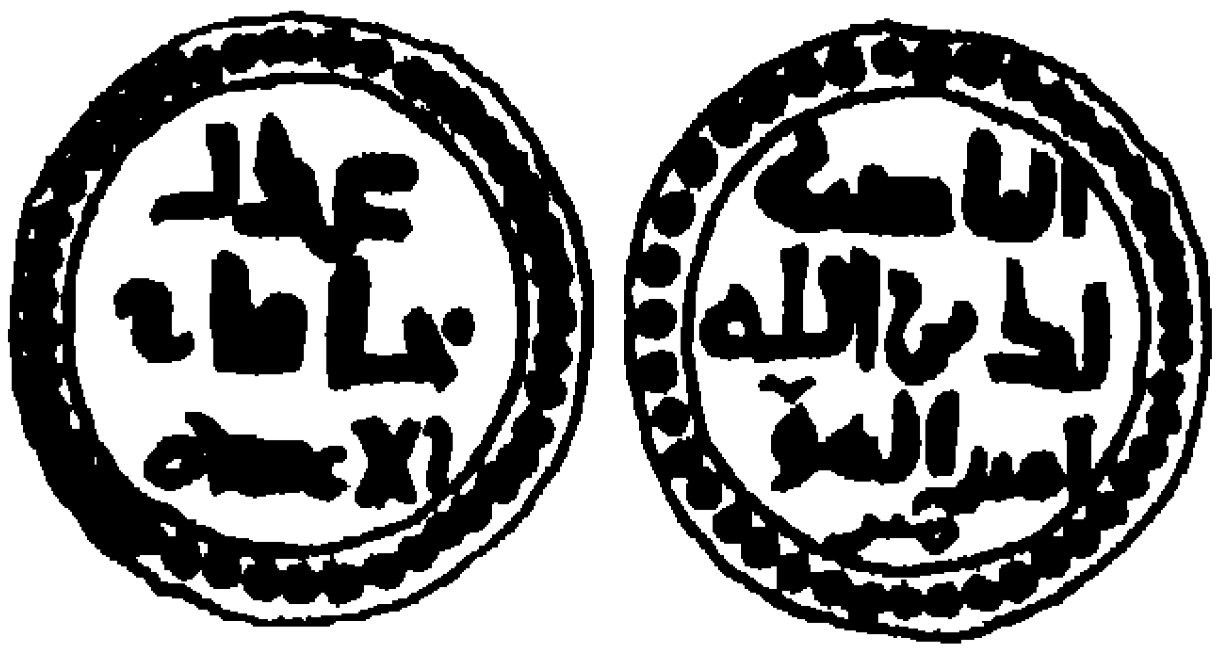

النقد بحد ذاته بسيط المظهر ، انه كنقد هارون الرشيد من حيث آنه لايحمل اسم الحاكم وانما لقبه فقط (الخاقان الاعظم) وخلفه اسم الخليفة العباسي في بغداد في ذلك الحين (الناصر لدين الله) .

يعتقد بعض المستشرقين أمثال ريتشارد وبلانت بأن عدم ذكر اسم جينكيز خان الصريح على النقد كان بسبب آن المسلمين هم الذين ضربوا له نقوده وهم وضعوا على السكة ما أرادوا واهملوا ما أرادوا. ولكن مثل هذه الحال لايمكن أن يتمتع بها شعب مغلوب مقهور لان السكة أمر يهم السلطان مباشرة ولايعقل أن يدعها بأيدي أناس موتورين ،لذا أرى أن ظهور النقد بهذا القدر من التواضع لايعدو كونه دبلوماسية منه وتواضعا ، امام نفوذ الخليفة المسلم الديني الى أن ترسخ قدمه في الحكم وقد خرقت هذه القاعدة من قبل خلفاء جنكيز خان اذ آن هولاكو حمل نقده اسمه الصريح .

لقد أتى هذا النقد غير مذكر بشيء من التقاليد التي اشتهرت بها الجحافل البربرية التي اجتاحت القارة الاسيوية في القرن الثالث عشر والتي كانت تقتطع شرائح اللحم من فخذ الثور الحي ثم تخيط الجرح وتتركه حتى يلتئم ويرخم نقصه خلال عام ،وربما عادت مرة ثانية وثالثة لاقتطاع شرائح مماثلة من نفس الموضع من جسم ذلك الحيوان المسكين .

قبلاي خان هو حفيد جنكيز خان وشقيق هولاكو . اتخذ بكين حاضرة لملكه بدلا من قرة فورم في الوقت الذي استقل به هولاكو ببلاد الفرس وسورية وآسيا الصغرى . وقد أصدر قبلاي خان النقد التالي باللغة الصينية تخليدا لاتخاذه بكين حاضرة لملكه الذي استمر من (٦٥٥ – ٦٩٣ هـ) (١٢٥٧ – ١٢٩٤م) .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الصينيين لم يذكروا اسم حاكمهم قبلاي خان على هذا النقد شأن جميع نقودهم وانما حمل اسم الفترة

قبلاي خان

التي حكم خلالها أكثر من مرة اذا شاء. ومثلا على ذلك أن حاكما من آسرة سانغ ضرب نقودا تحمل تسعة اسماء مختلفة خلال فترة حكمه .

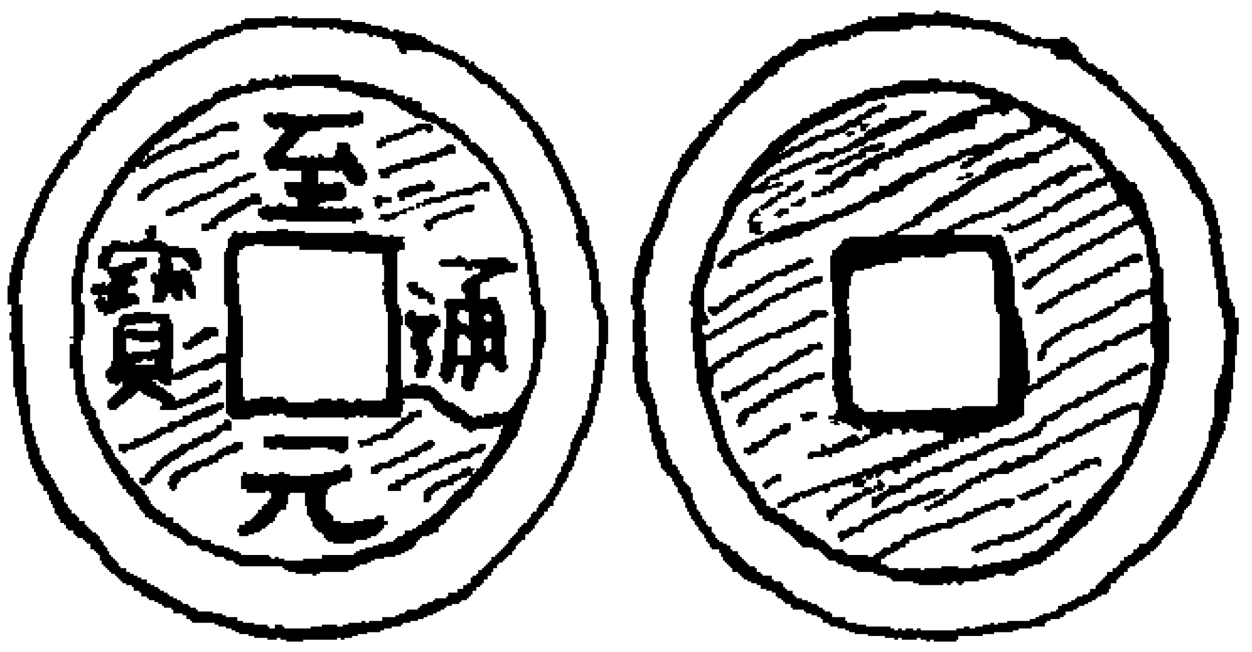

هذا النقد بالذات يعد من الندرة بمكان اذ أنه ضرب خلال الفتــــرة التي زار خلالها ماركو بولو الصين ، وبما أن الادب الغربي تابـــــع رحلة ماركو بولو في بلاد الصين اثناء حكم قبلاي خان وروى الكثيــر

عن حياة هذا الشعب الحافلة بالاسرار الخاصة والتقاليد المتميزة ،لذا أصبح لهذا الحاكم وقع الاسطورة في اذهان الغربيين ٠

هناك قصص محببة لسيدات عريقات لعبن أدوارا في التاريخ الاسلامي وضربت نقودٌ باسمائهن أو شاركن برموزهن وأسمائهن في اصدار النقود مثل شجرة الدر ٠

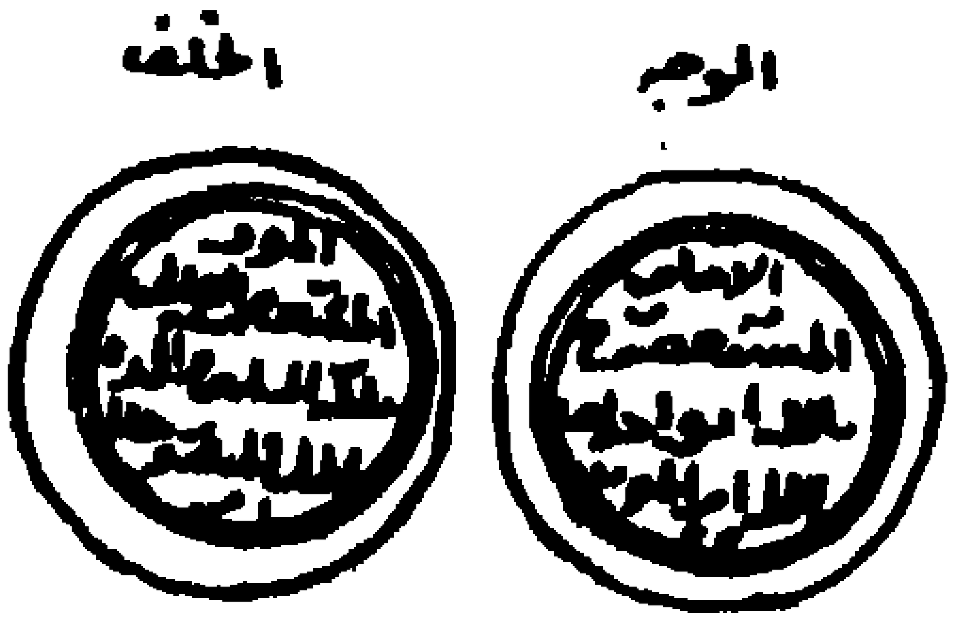

* دراسة هذا الدينار :

في مركز الوجه :

الامام المعتصم بالله أبو أحمد عبد الله أمير المؤمنين ٠

نص المحيط (غير مذكور بالرسم) :

بسم الله الرحمن الرحيم ـ ضرب هذا الدينار بالقاهرة سنة ثمان وأربعين وستماية ٠

في مركز الخلف :

المؤسسين [ـ المستعصمية الصالحية ـ ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل ـ أمير ٠

نص المحيط (غير مذكور بالرسم) :

لا اله الا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ٠

* من هي شجرة الدر ؟ :

قدمت شجرة الدر الى مصر من بغداد كهدية من الخليفة المستعصم بالله الى نجم الدين أيوب فولدت له ابنه خليلا وأصبحت أم ولد في حريمه ، ولما اعتلى أيوب عرش السلطة الايوبيه في مصر ارتفع شأن شجرة الدر حتى أن أيوب اعتقها وتزوجها .

كانت شجرة الدر على جانب وافر من الذكاء والجمال وذات شخصية فذة ومزاج صعب ودهاء لايجارى وقد تجلى ذلك حين كتمت سر وفاة زوجها أيوب أثناء الحرب التي كانت قائمة بين المسلمين والصليبيين في مصر حتى لايضطرب الجنود واستمرت هي في وضع الخطط الحربية والإشراف على تنفيذها ومراقبة سير المعارك وامداد القواد بآرائها وقد تمكنت من حشد الاهالي الى جانب المماليك حتى استطاعت تمزيق جموع الاعداء في المنصورة .

تولت عرش مصر مدة ثمانين يوما من عام (٦٤٨ هـ) اظهرت خلالها من الكفاية والحكمة والبراعة في تصريف الامور مما جعلها قبلة الانظار ولقبت بعدة القاب منها : (الملكة عصمة الدين شجرة الدر – وملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين صاحبة الملك الصالح) . أخيرا تنازلت عن العرش الى الامير عز الدين ايبك تنفيذا لرغبة الخليفة العباسي ، ولكنها بحسن دهائها استطاعت حفظ العرش في بيتها بزواجها من الامير المذكور .

لقد اثرت هذه الشخصية الجذابة على كثير من الكتاب فألفت حولها كثير من القصص والروايات تناولت حياتها الخاصة والعامة بأساليب لاتخلو من الخيال المترف .

الدرهم التالي ضرب من قبل أحد سلاطين السلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، انه السلطان كيخسرو(٦٣٤ – ٦٤٣ هـ) (١٢٣٦– ١٢٤٥م) الذي نبم بحب زوجته الجرجية (نسبة الى مقاطعة جرجيا وهي ضمن حدود

الاتحاد السوفياتي الان) .

أراد هذا السلطان أن يخلد ذكر زوجته الحبيبة وذلك بوضع صورتها على نقوده ولكن مستشاريه وجدوا في ذلك تطرفا شديدا ،لذلك نصحوه بأن يرمز لها على النقد ببرجها وكان مولدها ببرج الشمس وقد اختار صورة الاسد ليعبر عن نفسه وهكذا تضمن نقده هذين الرمزين الذي يعني أحدهما القوة والسيطرة ويعني الاخر الجمال والدفء والخصب .

* دراسة الدرهم :

- الوجه :

الاسد وفوقه قرص الشمس

بالله أمير المؤمنين .

- في الخلف :

السلطان الاعظم عماد الدنيا والدين كيخسرو بن كيقباد .

القطاعات المحيطة :

ضرب بقونية سنة سبع وثلاثين وستمائة .

هناك نقد آخر مزين ببرج وهو من سلسلة الاصدارات التي ضربها أباطرة الموغول في الهند في عهد جاهنجير (١٠١٤- ١٠٣٨هـ) (١٦٠٥ - ١٦٢٨م) ولهذه السكة قصة تروي كيف أن نورجهان زوجة جاهنجير الاثيرة على قلبه توسلت الى زوجها ان يمنحها السلطان المطلق خلال أربع وعشرين ساعة .

وبما أنها تعلم مدى أثرتها على قلب زوجها وتعلم أنه سوف يلبي طلبها يوما ما لذلك أعدت برنامجا مكثفا لتنفيذه في هذه الفترة القصيرة وكان من برنامجها بل أهم فقرة في برنامجها ان تضرب نقودا تمثل زخرفتها برجها الفلكي الذي هو الجدي .

وقد هيأت من أجل ذلك كميات كبيرة من سبائك الذهب والفضة كمـا أعدت سكة تمثل الزخرفة المطلوبة ،وما أن ظفرت بموافقة زوجها على طلبها حتى شرعت فورا بضرب نقودها وما أن انتهت الفترة الممنوحة حتى ضربت مقدارا كبيرا من هذه النقود تكفي لاغراق الاسواق .

وفي رواية أن جاهنجير لكي يبدي اعجابه بذلك الاصدار وتأييدا لما أقدمت عليه زوجته المحبوبة أمر أن يرمز الى الاشهر بالابـراج الفلكية حتى يعلم الجميع برج زوجته وبالتالي تنال تلك السـكة الاهتمام اللائق من جماهير امبراطوريته .

النقد الاخير في هذا المقال هو من اصدار الفاتح الفارسي نادرشاه (١١٢٩- ١١٦٠هـ) (١٧٣٦- ١٧٤٧م) الذي غزا بلاد الهند واضعا نصـب عينيه الاستيلاء على الماسة الشهيرة كوهينور التي أصبحت فيما بعد ١٨٤٩م جزءا من جواهر التـاج البريطاني وقد ضمت الى جواهر تاج الملكة اليزابيت قرينة جورج السادس اثناء حفلة تتويجها .
ومما يجدر ذكره أن باكستان تحاول الآن أن تستعيدها .

والطريف في هذا النقد أنه يحمل في خلفه عبارة (بتاريخ الخيـر فيما وقع) ،واذا ماحللنا قيمة الاحرف العددية للعبارة (الخير فيما وقع) الى ارقام حصلنا على الرقـم (١١٤٨) وهو السـنة الهجرية للاصدار الذي يسـاوي سـنة (١٧٣٦) ميلاديـة

وهي الســـــنة التي اقتحم خلالها نادرشـــــاه حدود بلاد الهند .

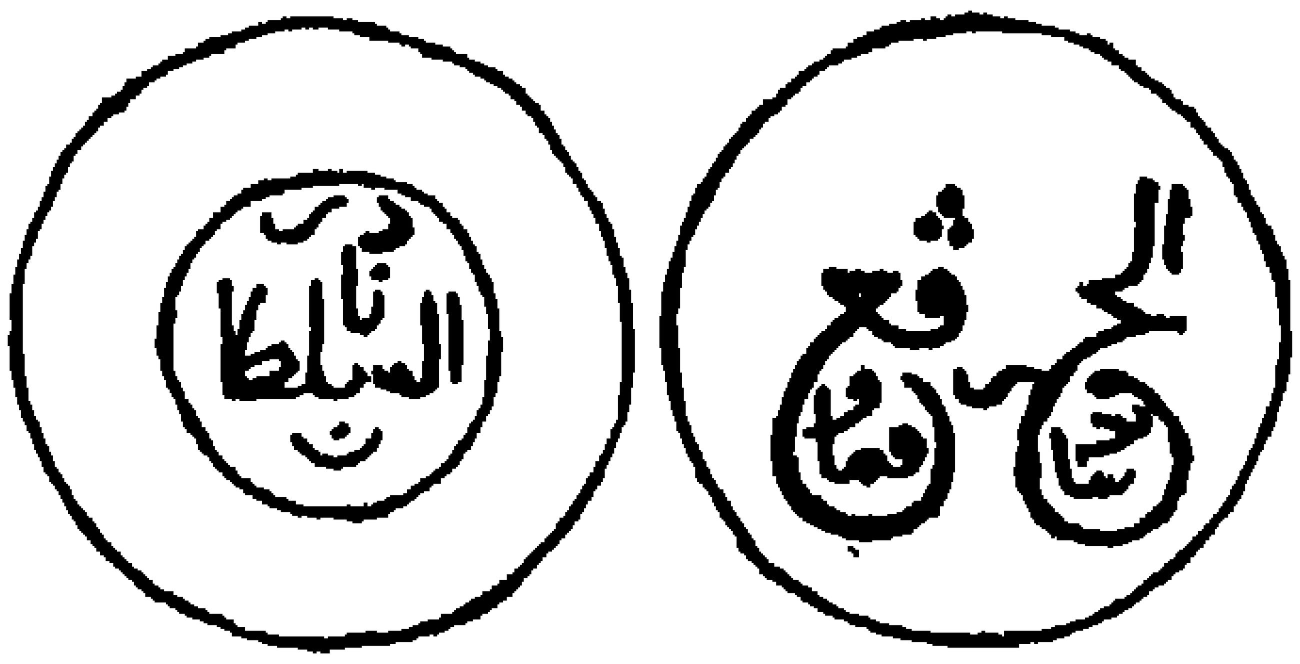

علم المتاحف

الأستاذ بشير زهدي

* تعريف علم المتاحـــف :

علم المتاحف هو العلم المتعلق بدراسة (تاريخ نشوء المتحـــف وتطوره وتنظيمه ووظائفه والمحافظة على مجموعاته وعرضها وكـــل مايتعلق بنظريات المتحف ...) .

- تاريخ ظهور علم المتاحف :

ظهر علم المتاحف في القرن الثامن عشر، ويعتبر أقدم مؤلف فـــي هذا الميدان وهو(كاسبرف . نايكل) الذي كان بائعا في هامبـــورغ، وتكونت لديه - بالممارسة - خبرة بكل مايتعلق بالمجموعات الفنية والطبيعية والعلمية ، وكيفية المحافظة عليها وحسن تصنيفها .. فألف كتاب (ميزوغرافيا = علم المتاحف) باللغة اللاتينية عام (١٧٢٧) واشتهر بنصائحه الى زبائنه الهواة في كل مايتعلق بالمجموعات . ولاشك ان الثورة الفرنسية ،أو المنهج العقلي في ألمانيا ،واهتمـــام الدول الاسكاندنافية بمتاحف التقاليد الشعبية ، ورغبة بريطانيـــا في الإفادة من المتاحف في قضايا التربية ،واعتماد الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة على المتاحف في نشر الثقافة وتعميم المعرفة ،وتعاون المتحفيين في اقطار العالم في ميادين البحوث العلمية ... كل ذلـــك أسهم في تقدم علم المتاحف وظهوره كعلم هام له مجلسه الدولـــي ولجانه الدولية والوطنية . وله مؤلفاته وبحوثه ومجلاته ومؤتمراته ومختصوه ... وهكذا نجد علم المتاحف - بفضل مثقفين مشهوريـــن باهتمامهم بالتراث الحضاري - قد انتقل الاهتمام به من النطـــاق الوطني الى الصعيد الدولي والعالمي وقد تأسست الدائرة الدولية للمتاحف في باريس بعد الحرب العالمية الاولى كاحدى مؤسسات (عصبة الامـــم)

وفي عام (١٩٤٧)حل (المجلس الدولي للمتاحف ـ الايكوم) محل الدائرة الدولية للمتاحف وذلك بفضل جهود شخصيات مثل السيد (هاملان) مدير متحف العلوم في بوفالو في الولايات المتحدة • وأصبح هذا المجلس الدولي للمتاحف برعاية منظمة اليونسكو ويصدر مجلة (اخبار الايكوم ومجلة (ميوزيوم) •

واذا كان تدريس (علم المتاحف) سابقا لم يستمر في كثير من المعاهد والجامعات ، فان (معهد اللوفر) أخذ على عاتقه تدريسه منذ عام (١٩٤١) وباستمرار • وبدأت الجامعات تدرس علم المتاحف وقررت جامعة دمشق أخيرا تدريس علم المتاحف في عصر ازدهرت فيه المتاحف وتسابقت أمم العالم الى زيادة عدد متاحفها ومتابعة اغناء مجموعاتها وحسن عرضها والمحافظة عليها ورفع مستوى متاحفها • وتعاون مختصيها في سبيل التعريف بالمتاحف ونشأتها وتطورها وتنوعها والافادة منها في مختلف الميادين التربوية والتعليمية والثقافية والاجتماعية والسياحية والاقتصادية والفنية والجمالية •

ـ المتحف :

اذا كان المتحف مؤسسة ثقافية تعرض مجموعاتها باستمرار من الممتلكات الثقافية للمحافظة عليها والافادة منها في ميادين التربية والفنون والآداب والسياحة •• فان هذه المؤسسة قريبة من قلوب المجتمع ومفتوحة أبوابها للجميع •

وفي زيارة المتحف مايسهم في توسيع آفاق الثقافة وحدود المعرفة وميادين الفكر ، وتنمية شعور الانتماء القومي وتوثيق العلاقات الاجتماعية والعالمية •• وفي تأمل معروضاته مايثير الاعجاب والسرور الجمالي • وان الاعجاب بالشيء يحث على الابداع ، مما يجعل المتحف بمثابة (معبد جمال) و(مجمع فنون) و(ينبوع الهام) • يسهم في تنمية الاحساس الحضاري والجمالي •

ـ تاريخ المتحف ونشوؤه :

عرف قدماء الاغريق لفظ (موزيون) الذي اطلقوه على معبد

على تل (هيليكون) قرب اكروبول اثينا ،كان خاصا بربات الفنـــون (الموز) ٠ وربما كان في هذا المعبد كنوز وذكريات وهدايا ثمينـــة وكان الاغريق يحفظون روائعهم الفنية في قاعة جميلة عرفت باســـم (بيناكوتيك) ٠٠٠

ويعتبر (متحف الاسكندرية) اقدم المتاحف القديمة المعروفة فعلا في التاريخ ٠ وفي العصر الروماني ظهرت فكرة المتحف بمفهوم مكـــان المجموعات الخاصة ٠ وكان لهذه المجموعات الخاصة فيما بعد دور كبير في ظهور المتاحف الحديثة ولا سيما منذ عصر النهضة ٠ وان شهـــرة مجموعات أسرة ميديتشي ٠ وغيرها واهداء اصحاب هذه المجموعـــات ماليديهم الى مدنهم لتشكل نواة متاحف تلك المدن جعل ايطاليا تعتبر الموطن الذي ظهر فيه مفهوم المتحف في عصر النهضة ٠

وتسابق ملوك وحكام اوروبا (فرانسا ، انكلترا ،المانيا ،النمســا سويسرا ، اسبانيا) في سبيل تشكيل مجموعات خاصة شكلت نواة متاحف بلادهم ٠

وظهر في البلاد الاسكاندينافية شوق الانسان الى الماضي وحنينه اليـــه وتمسكه بكل مايتعلق به من ذكريات شعبية وممتلكات ثقافية ممـــا أسهم في ظهور وازدهار(متاحف التقاليد الشعبية والصناعات اليدويـــة التي تشكل احدى مفاخر البلاد الاسكاندينافية ٠ ويعتبر(متحف سكانسن) في ضاحية استوكهولم من أهم متاحف العالم لما يتميز به من حســن التعبير عن الحياة الشعبية والقومية ٠

وتحولت مساكن عظماء الفكر والفن والعلم والادب والنضال ٠٠ الى متاحف يزورها المواطنون وقلوبهم مفعمة بالحب القومي والاحترام لاولئـــك الاعلام ٠

وظهرت متاحف الاطفال في انكلترا وغيرها مؤكدة وظيفة المتحـــف التربوي ٠ كما ظهرت المتاحف العلمية في العواصم الكبرى ٠ ويعتبـــر (متحف غزو الفضاء) في الولايات المتحدة أهم متحف علمي يفتح أمـــام الزائر آفاق المعرفة ٠

ويعتبر عصرنا العصر الذهبي للسياحة المعتمدة على الآثار والمتاحـــف

مما أسهم في تعميم المتاحف وزيادة عددها واغناء مجموعاتها وحسن عرضها وتأمين مختلف الخدمات والمتطلبات للزائرين الذين عبروا عن ملاحظاتهم ورغباتهم في مقالات نشرتها لهم الصحف والمجلات مما أسهم في ظهور (النقد المتحفي) ودفع المتحفيين الى القيام بكل مامن شأنه تلبية متطلبات الزائر المعاصر .

وبعدما كانت المتاحف توسس في المباني التاريخية أخذ المسؤولون يهتمون بتشييد المباني الجديدة للمتاحف تتوفر فيها كل مايتطلبه الزائر المعاصر . وصار هناك مختصون (بعمارة المتاحف) .

وحرص المتحفيون على تشويق الجماهير بزيارة المتاحف فتبادلوا اقامة المعارض مع المتاحف الاخرى الوطنية والاجنبية .

واذا كان من نتائج الحرب العالمية الثانية ظهور أزمات امتدت الى مختلف ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فان عدد المتاحف مازال بتزايد مستمر ،وان عدد الزائرين للمتاحف يزداد باستمرار ، مما يبشر بمستقبل مشرق للمتاحف وعلم المتاحف في مختلف اقطار العالم واعتبار المتحف كمنبر للحضارة وملتقى سياحي ومعهد للبحوث العلمية وجامعة شعبية للجميع .

السفارات العربية عند العرب المسلمين

* الأستاذ جرجس مخول

١- تمهيـــد :

الدبلوماسية أو السفارات [1] في لغة السياسية الحديثة هي مجموعة العلاقات التي تربط دولة من الدول بالدول الاخرى ، اما لتوثيق العلاقات وتمتينها في حالة التحالف أو لتخفيف حدة التوتر وحل بعض المشكلات المعلقة بين الدولتين في حالة التنافس . وقطع العلاقات الدبلوماسية أو عدم وجود سفارات متبادلة يعني حالة من التوتر يعقبها في أكثر الاحيان اعلان الحرب . ولنستعرض تطور وتاريخ الدبلوماسية عند العرب المسلمين .

٢- السفارات العربية في العصر الاسلامي الاول :

لاريب أن الدبلوماسية لم تنم ولم تزدهر في العصر الاسلامي الاول ، وكان من أعظمها وأقدمها كتب النبي العربي الكريم الى ملوك العصر وأمرائه يدعوهم فيها الى الاسلام والايمان برسالته . والسفراء كما هو معروف لهم حصانات لايستطيع أحد أن ينالهم بسوء مهما كان مضمون الرسائل التي يحملونها . ويتم اختيار السفراء من بين الاشخاص الذين يتميزون بالعلم والذكاء وحسن السمعة ولياقة المظهر ولطف المنطق مما يساعدهم على القيام بمهمتهم على أكمل وجه .
وممن وجهت اليهم أقدم رسائل الرسول الكريم (قيصر الروم والنجاشي) وقد جاء فيها [2] .

---

(١) : مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام . محمد عبد الله عنان ص ٢٩

(٢) : سلسلة كتابك رقم (٩٦) د. مختار الوكيل دار المعارف .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبدالله ورسوله

الى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهدى ..

أما بعد :

فاني أدعوك بدعاية الاسلام . اسلم تسلم . يؤتيك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك آثم الاليسين(الفلاحين) قل (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) .

أما رسالته الى النجاشي حاكم الحبشة فقد جاء فيها (١).

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى

النجاشي ملك الحبشة

أما بعد :

فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس . السلام المؤمن المهيمن ،وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة . فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما نفخ آدم بيده ،واني ادعوك الى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته . وان تتبعني وتؤمن بالذي جاءني . فاني رسول الله واني ادعوك وجنودك الى الله تعالى . وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي .

وقد بعثت فيهم ابن عمي جعفرا ومعه نفر من المسلمين .

والسلام على من اتبع الهدى .

وقد أجاب النجاشي بالرسالة التالية :

---

(١) : سلسلة كتابك رقم (٩٦) د. مختار الوكيل دار المعارف .

بسم اللــه الرحمــن الرحيـــم

الى محمد رسول الله من النجاشـــــــــي :

سلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته . الله الذي لا الـه الا هـو الذي هداني للاسلام .

أما بعـــــــد :

فقد بلغني كتابك يارسول الله . فما ذكرت من أمر عيسى فــــورب السماء والارض ان عيسى لايزيد على ماذكرت،
وقد عرفنـــا مابعثت به الينا .

فاشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمـــك وأسلمت على يديه لرب العالمين .

وقد بعثت بابني وان شئت أن آتيك بنفسي يارسول الله فانني أشهـد أن ماتقوله حق .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاتـــــــه .

ولكن ابنه غرق ومن معه وهو في طريقه الى الرسول .

وقد حمل رسالة النبي الى كسرى عبد الله بن حنظله السهمي وجاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهـدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمـد عبده ورسوله . وأدعوك بدعاية الله عز وجل . فاني رسول اللــــــه الى الناس كلهم لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين .

أسلم تسلم فان توليت فعليك اثم المجوس .

أما رسالته الى المقوقس كيروس ،حاكم مصر ،فجاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسولــــــــه .

الى المقوقس عظيم القبـــــط .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فاني ادعوك بدعاية الاســـــلام أسلم تسلم . يؤتيك الله أجرك مرتين . فان توليت فعليك اثـــــم القبط .

(يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الاالله ولانشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

وقد حمل الرسالة الشريفة السفير النبوي (حاطب بن ابي بلتعه)،وقد تلقى الرسول الجواب التالي :

نص جواب المقوقس

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد بن عبدالله ، من المقوقس عظيم القبط .

أما بعد :

فقد قرأت كتابك ،وفهمت ماذكرته وماتدعو اليه ،وقد علمت أن نبيا بعث وقد كنت أظن أن يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك . وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وبكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام . ولكنه لم يسلم .

وفي العصر الراشدي اقتصرت الدبلوماسية على ماكان يعقب فتح كل قطر من تعاقد على الصلح والتسليم كما حدث في الشام ومصر أيام الخليفة عمر .

٣ـ السفارات العربية في العصر الاموي :

اقتصرت الرسائل على تبادل بعض الطرق بينهما :

آ ـ أرسل قيصر الروم الى معاوية يسأله :(١).

(أخبرني عما لاقبلة له . وعمن لاأب له وعمن لاعشيرة له وعمن سار به قبره . وعن ثلاثة أشياء لم تخلق من رحم ،وعن شيء ونصف شيء ولاشيء . وابعث الي في هذه القارورة بذر كل شيء) .

فبعث معاوية بالكتاب والقارورة الى ابن عباس فجاء رده الذي ارسله معاوية الى قيصر الروم .

---

(١) : الوثائق السياسية والادارية . د. محمد ماهر حماده ج١ص ١٦٧ـ ١٦٨ مأخوذة عن العقد الفريد لابن عبدربه ج ٢ ص ٢٠١ .

فقال ابن عباس :

أما مالاقبلة له ـ فالكعبة ـ واما من لاعشيرة له ـ فآدم ـ واما من سار به قبره ـ فيونس ـ وأما ثلاثة اشياء لم تخلق من رحم فكبش ابراهيم ـ وناقة ثمود ـ وحية موسى ، واما شيء فالرجل له عقل يعمل بعقله ،واما نصف شيء فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول . واما لاشيء فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره . وملأ القارورة ماء وقال هذا بذر كل شيء .

ويروى عن عبدالملك بن عمير انه قال :

رأيت في ديوان معاوية بعد موته كتابا من ملك الصين مما يشير الى اتصالات مع بلاد الشرق.وما ورد فيه (١).

من ملك الصين الذي على مربطه ألف فيل وبنيت داره بلبن الذهب والفضة والذي تخدمه بنات ألف ملك والذي له نهران يسقيان الاكوة (أي العود الذي يتبخر به) .

ب ـ في عهد عبد الملك بن مروان :

ارسل عبد الملك رسولا الى ملك الروم فلما رجع حمل رسالة خاصة من قيصر الروم الى عبد الملك فيها :

" عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره (٢)" .

د ـ في عهد الوليد بن عبد الملك ومن بعده :

تلقى الوليد رسالة ساخرة من ملك الروم لما هدم كنيسة دمشق ليقيم الجامع الاموي الكبير فأجابه بنفس الاسلوب الساخر دون اكتراث كما تلقى عمر بن عبدالعزيز رسالة من ملك الهند (٣) يطلب منه رجلا يعلمه ويفهمه الاسلام .

---

(١) : الحيوان للجاحظ ج ٧ ص ١١٣ .

(٢) : مروج الذهب للمسعودي ج٣ ص ١٢٤ .

(٣) : العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٢ .

٤ـ السفارات العربية في العصر العباسي الاول :

ازدادت السفارات والمفاوضات بين العباسيين والبيزنطيين حسب الظروف ، حيث اتجهت من الغرب الى الشرق القوي آنذاك ترمي السلام والمهادنة ، ولكنها تحولت في عصور الضعف من السرق الى الغرب حيث لجأت الدولة البيزنطية الى استغلال ضعف الخلافة العباسية والعمل على اثارة الشقاق والفتن داخل الدولة العباسية بين الامارات والدويلات التي قامت على انقاضها ، وهذا مافعلته اسبانيا بعد انهيار الخلافة الاموية في الاندلس وانتشار دول الطوائف .

آـ في عهد المنصور :

بدأت العلاقات الدبلوماسية في عهده مع دولة الفرنجة [1] فقد بعث ملكها (بيبن) برسله الى بغداد في سفارة الى المنصور (٧٦٥م ـ ١٤٨هـ) عادوا بعد ثلاثة اعوام الى فرنسا بصحبة سفراء من قبل الخليفة ، استقبلوا بحفاوة من قبل ملك الفرنج وعادوا بعدها بتحف وهدايا .

ب ـ في عهد الرشيد :

ازدادت الصلات ايام الرشيد وشارلمان قوة وتوثقا ولكن تنفرد المصادر الفرنجية بذكرها ، مع أن الظروف الدولية تساعد على حدوث مثل هذه العلاقات ، فوجود عدوين مشتركين لهما وهما الدولة الاموية في الاندلس المعادية للعباسيين ولدولة الفرنجة وكذلك الدولة البيزنطية المعادية للعباسيين والمنافسة لدولة الفرنجة الناشئة حول زعامة أوربا ومن المستغرب عدم الاشارة الى هذه العلاقات في المصادر العربية [2] .

أما علاقات الرشيد مع الدولة البيزنطية فكانت تتناوب بين المهادنة

---

(١) : الاسم القديم للدولة الفرنسية آنذاك ، مواقف حاسمة . محمد عبد الله عنان ص ٢١٠ .

(٢) : مواقف حاسمة . محمد عبد الله عنان ص ٢١٣ .

والتوتر والحروب فقد طلبت الامبراطورة (ايريني). من الرشيد التماس الصلح وبعثت رسلها لهذه الغاية فأجابها اليه على أن تدفع جزية سنوية مقدارها (٧٠) ألف دينار. فقبلت وتم الصلح . لكن الامبراطور (نقفور) نقض المعاهدة وأرسل سفراء يطالب بما دفع سابقا في خطاب شديد اللهجة ،فرد الرشيد على الكتاب بما يلي(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

من هارون الرشيد أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم .....

وكانت الحرب التي أجبرت نقفور على تجديد المعاهدة واصلاح الحصون المخربة ودفع جزية عنه وعن ولده (٢).

ح ـ في عهد المأمـــون :

تروي المصادر الفرنجية استمرار العلاقات بين المأمون ولويس بن شارلمان ، وقد استمر التنافس بين بيزنطة والفرنجة فأرسل الامبراطور (تيوفيل) الى أمير الاندلس عبدالرحمن سفراء مع هدية فخمة ورسالة يدعوه الى التحالف ،فرد عليه بسفارة يرأسها يحيى الغزال .

وقد امتازت علاقة المأمون بالروم بالسلم الذي غلب عليها أول عهده بالخلافة وهذا طبيعي بسبب الحرب الاخوية والاضطراب الذي اعقبها ثم امتازت بالاعمال الحربية التي شغلت القسم الاخير من خلافته حتى وفاته . ولقد دارت رسائل بينه وبين تيوفيل ملك الروم وحاول تيوفيل الحصول على صلح من المأمون ولكنه لم يطلبه طلب المهزوم الد ، وانما أرسل الى المأمون رسالة يشير فيها الى فوائد السلم والاتفاق بين الخصمين ويعرض عليه الصلح على ذلك المبدأ ، كما عمد تيوفيل الى تشجيع ومساندة الثائرين على المأمون (كبابك

---

(١) : الوثائق الادارية والسياسية . د. ماهر حماده ج٢ ص٥٢-٥٣ .

(٢) : مواقف حاسمة ص٢١٣ مأخوذة عن ابن الاثير ج٦ ص٦١ وصبح الاعشى ج ٦ ص٤٥٧ .

الخرمي) • فرد عليه المأمون بتشجيع ومساندة بعض المتمردين على الامبراطورية البيزنطية •

د ـ في عهد المعتصم :

أرسل اليه الامبراطور (تيوفيل) سفارة على رأسها (يوحنا النحوي) [١] وكانت ذات هدف مزدوج :

١ـ عقد معاهدة سلام دائم •

٢ـ اقناع قائد بيزنطي اسمه (مانويل) بالعودة الى القسطنطينية •

وقد نجح في المهمة الثانية فقط • وبسبب هذا الفشل غزا الامبراطور البيزنطي (زبطرة) وخربها فانتقم المعتصم بفتح عمورية التي خلدها الشاعر ابو تمام بأعظم قصائده •

هـ السفارات العربية في العهد العباسي الثاني والدول المنفصلة عن بغداد :

آ ـ في عهد الخلفاء العباسيين في بغداد :

وصلت في عهد المقتدر بالله سفارة الى بغداد من الامبراطورة (كاربونينا) تطلب تنظيم الفداء والمهادنة [٢]• وقد استقبلت بحفاوة ووافق الخليفة على طلبها •

وفي عهد الراضي بالله وصلت من ملك الروم رسالة مكتوبة بالذهب وترجمتها بالفضة وكان عنوان الكتاب [٣] :

من رومانوس وقسطنطين واسطفانس عظماء الروم الى الشريف البهي ضابط سلطان المسلمين •

وكانت الرسالة تطلب الهدنة : فاجابهم الخليفة لما طلبوا •

---

(١) : مراقف حاسمة ـ د • محمد عبد الله عنان ص ٢٠٥ ومابعد •

(٢) : مواقف حاسمة ـ د • محمد عبد الله عنان ص ٢٠٥ ومابعد •

) : الوثائق د• محمد ماهر حماده ج ٣ ص ٢٩١ عن النجوم الزاهرة ابن تغري بردي ج٣ ص ٢٦٢ ٢٦٣ •

ب ـ في عهد الامويين في الاندلس :

بدأت العلاقات في بداية عهد الامويين في الاندلس ، وبلغت ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر الذي تبادل السفارات مع الامبراطورية البيزنطية ، وكان سفيره الى هناك هشام بن هتيل[1] كما استقبل سفارات ملك الصقالبة ورسل امبراطور المانيا (اوتو الكبير) ورسل ملك فرنسا ورسل البابا يوحنا الثاني .

ج ـ في عهد الفاطميين :

ارسلت الامبراطورة (كاربونينا) سفارة الى الخليفة الفاطمي عبيد الله وعقدت بينهما معاهدة ، كما ارسلت (ست الملك) اخت الحاكم بأمر الله سفيرا الى باسيل الثاني امبراطور بيزنطة وهو نقفور اسقف القدس ليعمل على عقد معاهدة صداقة . ثم اضطربت احوال الغرب والشرق فترة الحروب الصليبية حتى ظهور صلاح الدين وازدادت بعدها العلاقات مع المدن الايطالية وخاصة البندقية وجنوة وبيزا وكذلك مع فرنسا واسبانيا وبقية الدول الاوربية .

٦ـ العنصر السري في الدبلوماسية العربية الاسلامية :

لم تغفل الدبلوماسية العربية الاسلامية العنصر السري الذي يعتبر من ابرز مظاهر الدبلوماسية الحديثة . فقد كانت للخليفة طائفة كبيرة من الرسل السريين ينفذهم الى القصور والحكومات الاجنبية ليزودوه بالمعلومات التي تقع هناك وما يحاك ضد بلاده خيرا كان أم شرا . والظاهر أن بني العباس كانوا أول من نظم هذه الطائفة السرية من الدبلوماسية فقد كان للمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم اعوان سريون في القسطنطينية ، وفي غيرها من العواصم الكبرى ليطلع الخليفة على كل حركة يأتيها الامبراطور البيزنطي وولاته وكان هؤلاء الرسل والمخبرون يختارون من جميع الطبقات وخصوصا من التجار وأحيانا من النساء البارعات في الجمال والدهاء ،وكانوا يؤدون مهمتهم بمهارة فائقة .

---

(١) : مواقف حاسمة . د . عنان ص ٢١٣ وما بعد .

اسرائيل وليدة السياسة الامبريالية

بقلم الاستاذ منذر حمودي

وردت خطأ باسم منذر حموي فالمرجو ملاحظة ذلـك حيثما وجـد

إسرائيل وليدة السياسة الامبريالية العالمية

الأستاذ منذر الحموي

غدت الدولة العثمانية محتلة معظم الوطن العربي منذ مطلع القرن السادس عشر ،وعاشت دولة اوتوقراطية عسكرية ،تعتمد على التنظيم الاقطاعي في بنائها الاجتماعي ،ولم تتقدم حركة التصنيع فيها بالشكل الذي يتيح لها مواكبة التطور الصناعي في الغرب ، اذ ظلت التجارة محدودة أيضا رغم الظروف التاريخية - من حيث عراقة النشاط التجاري في المنطقة - والموقع الاستراتيجي المواتي ،فقد كان التجار في اراضي الدولة العثمانية ،مهددين بالنهب أو بفرض الضرائب القسرية والتعسفية عليهم ،علما بأن معظم هؤلاء التجار لم يكونوا ينتمون في اصولهم الى الاتراك بل كانوا من الرعايا العثمانيين ،من غير الاتراك ،ومن غير التجار الاوربيين .

ومنذ عرفت الامتيازات الاجنبية في الدولة العثمانية عام ١٥٣٥ م بدأ عدد التجار الاوربيين بالازدياد ،وأخذت اهميتهم الاقتصادية والسياسية تفرض نفسها على الدولة العثمانية ورعاياها ... فاضطلع الارمن واليونانيون والعرب الى حد ما بدور الوسيط والمتاول ،وقاموا في الواقع بالنسبة للتجار الاوربيين دور الوكيل(١) غير القادر على الخلاص من التبعية ،لان الاوربي كان يدفع رسما مقداره (٣٪) ثلاثة في المائة من قيمة البضاعة المماثلة ،فضلا عن أن التاجر الاوربي كان يدفع مرة واحدة رسما عن بضاعته العابرة ،لاراضي الدولة العثمانية ،بخلاف التاجر المحلي الذي كان مضطرا الى دفع رسوم عديدة بعدد الاقطاعيات التي يجتاز اراضيها ببضاعته ،كما لو أن هذه

الاقطاعيات كانت دولا مستقلة لاتربط فيما بينها رابطة التبعية للقيادة الواحدة ،وربما كان ذلك أحد أسباب عدم قيام البورجوازية التجارية -- بالمعنى الرأسمالي - باكرا في مرابع الدولة العثمانية ، وقد ظهر ذلك جليا بعد قيام اسر اقطاعية مغتصبة للسلطة الحقيقية -- مع ابقاء السلطة الاسمية للدولة العثمانية -- في الحجاز والعراق ومصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ... ومن الامور التي ساعدت هذه الاسر على تحقيق مطامعها تحول الدولة العثمانية من موقف الهجوم اتجاه الدول المجاورة لها ،الى موقف الدفاع والتقهقر وعلى الخصوص ، اثر هزيمة الدولة العثمانية أمام تحالف روسيا والنمسا وبولندا والبندقية عام ١٦٩٩ وبالتالي اضطرارها الى توقيع معاهدة كرلوفيا (كرلوفتز) . غير أنه في بعض الاحيان كان ولاة الدولة العثمانية يضطرون للاعتراف بسلطتها عليهم ،عندما يجدون في ذلك خدمة لاغراضهم ،كادعاء عبد الله باشا والي عكا بأن رعايا السلطان يستطيعون التنقل دون قيود في اراضي الدولة ،عندما طالبه محمد علي والي مصر باعادة المصريين الفارين الى بلادهم لسبب أو لاخر .

ومع اطلالة القرن الثامن عشر ،زاد ضعف الدولة العثمانية وكثرت المفاسد فيها ،وبالتالي أخذت الدول الاستعمارية تصرح عن وجود مطامع لها في الدولة العثمانية ،باعتبار الدولة قد شارفت على نهايتها ،ولكي تتمكن الدول الاستعمارية من تحقيق أغراضها لجأت الى مساندة الزعامات المحلية ،بشكل يكفل لها ترسيخ قدم النفوذ الاستعماري في المشرق العربي . وحول هذا الموضوع كتب نابليون بونابرت الى حكومة الديركتوار ،يصف لها وضع الدولة العثمانية بقوله (ان الامبراطورية العثمانية على شفا الهاوية ،وليس ثمة مايدعونا الى اسنادها [٢]) . وبعد ذلك رغم هزيمة الامبراطورية الفرنسية أمام الحكومات الاوربية عامة ،وبريطانية خاصة ،- في الحروب البونابرتية - ظلت فرنسا تتطلع الى شرق البحر الابيض المتوسط

والى جنوبه أيضا ،مترقبة الظروف المناسبة لوضع قدمها في المنطقة ، فعمدت الى تمكين والي مصر محمد علي من الظهور على مسرح احداث المنطقة ،الى الدرجة التي وصف فيها بأنه (الشخص الوحيد الذي كان بوسعه أن يتوصل الى استبدال العمامة المفتخرة - اي عقلية تركيا في عصر انحطاطها - برأس حقيقي[٣]) . ولكن تخوف بريطانيا من امتداد نفوذ فرنسا في حوض البحر الابيض المتوسط ،عن طريق محمد علي ،وكذلك خوف بعض الدول الاوربية من عواقب سقوط الدولة العثمانية الضعيفة على يدي محمد علي ،وظهور دولة عربية قوية ، مكان الدولة العثمانية في المنطقة العربية ،كل ذلك عجل في اتمام اتفاقية لندن عام ١٨٤٠ ،بحيث سارعت الى توقيعها كل من (انكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا وكذلك تركيا) . وبذلك كان عقد هذه الاتفاقية نصرا كبيرا للدبلوماسية الانكليزية ،وبها اقتربت انكلترا من تحقيق هدفها المنشود - حماية طريق الهند وضمان مصالحها الاستعمارية - اذ استندت الى دعم ثلاث دول لها وقادت الكفاح ضد محمد على[٤]لانها كانت منذ عام ١٨٢٥ تتبنى رسميا مشروع قيام الدولة اليهودية في فلسطين ،يوم كان عدد اليهود فيها أقل من ستة آلاف نسمة[٥]،واستمرارا لهذا المسعى فقد آقدم شفتسبري رئيس وزراء بريطانيا على القول :(بأنه يجب أن تكون الارض التي بغير شعب الى شعب بغير أرض) . وقدم بعده كل من غولر والقنصل البريطاني في القدس (جيمس فن) جملة من المشاريع باسكان اليهود في فلسطين .

وبعيد توقيع اتفاقية لندن ،تمكنت بريطانيا من شل الرأس الحقيقي (محمد على) الذي كان يؤمل بزعامة الوطن العربي وتحقيق وحدة عربية تمتد على أوسع رقعة من أرض الامة العربية حيث (استطاعت انزال ضربة قاضية ببرامج الاستقلال المصري[٦])،وفي ١٧ آب عام ١٨٤٠ كتبت جريدة التايمس اللندنية قائلة : (ان اقتراح اسكان

اليهود في بلد اجدادهم .. لم يعد مسألة للمجادلات الفارغة بل أصبح على الاكثر مادة للمناقشة الجدية [٧]) كما ظهرت لدى الانكليز فكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين ،مرتبطة بالامبريالية وغير مرتبطة بالعرب بأية رابطة ،قد تضع العرب وفقراء اليهود في خندق واحد ازاء التآمر الامبريالي ،ولهذا السبب طلب بالمرستيون عام ١٨٤٠ أيضا بشكل سري الى (قنصل بريطانيا في فلسطين (يونغ) عدم التشجيع على تنصير يهود فلسطين [٨]) .

بينما كانت فكرة انشاء الدولة اليهودية في فلسطين ،يروج لها في الغرب منذ عهد كيرومويل(عهد ولادة الرأسمالية الاوروبية) عام ١٦٤٦ حيث تسترت الرأسمالية بذريعة دينية تقول بأن قيام الدولة اليهودية ،يعجل في قدوم المسيح المنتظر ،كما كان يعتقد البروتستانت الاطهار انئذ على الاقل . غير أن هذه الذريعة لم تعد موجودة في عصر الامبريالية التي صارت أكثر صراحة في طرح مشاريعها الرامية الى انشاء الدولة اليهودية ،لتكون تحت الحماية البريطانية فحظيت الفكرة بعطف بالمرستون المشار اليه آنفا ،ورأى فيها ضمانا لأمن مواصلات الامبراطورية كما لقيت سندا من قبل مونتغيوري (رأسمالي يهودي يمت بصلة الى اسرة روتشيلد المصرفية) الذي قام بزيارة الشرق ،بضع مرات ،وابتاع في احدى هذه الزيارات عام ١٨٥٥ بستان برتقال بالقرب من يافا ،الا أنه لم يستطيع استمالة أي مستوطن يهودي ،يشاركه في تحقيق تطلعاته [٩].

ان ماسيق ذكره ان دل على شيء فانه يدل على أن فكرة الميعاد بالمفهوم الصهيوني المعاصر لم تكن محببة وغير خاطرة على البال لدى يهود العالم بمن فيهم يهود الدولة العثمانية الذين كانوا [١٠]) يتمتعون بحرية تامة ،في دخولهم الى فلسطين وخروجهم منها . وكانوا يتنقلون بدون عقبات فى جميع أرجاء اراضي الامبراطورية الممتدة من افريقية الشمالية حتى البلقان ... وكانت

السلطات الامبراطورية أكثر ترحيبا ازاء النازحين من أوروبة .. الا أن المهاجرين الاوربيين والرعايا اليهود ،كانت تجزبهم تلك المناطق من الامبراطورية ،حيث الظروف الاقتصادية والسياسية في استانبول ودمشق والقاهرة تلائمهم أكثر من فلسطين .

وهكذا كان اقدام الدول الرأسمالية والامبريالية على العمل لتكوين دولة يهودية في فلسطين ،غير متأثر بدوافع انسانية وعقائدية بمقدار ماكان وليد حاجة الاستعمار الى حلفاء وسماسرة يسهلون مهماتهم ،ويحققون اغراضه ،بدليل أن الانكليز احتجوا على رواية (هارنجتون) عام ١٨١٧ لانها تحدثت عن - شخصية يهودية طيبة - خلافا لما هو معروف عن اليهود في الغرب كما أنه لاول مرة تمكن اليهود من شغل مناصب سياسية في الغرب عام ١٨٥٨ (بينما كان يعطي لهم هذا الحق في دول الشرق الاسلامي والعربي منذ زمن بعيد) ، عندما صار ليونيل روتشيلد عضوا في البرلمان البريطاني ،ومنذ ذلك الوقت أخذت البورجوازيات الاوربية تتحالف مع البورجوازية اليهودية ،لانجاز مشروع الدولة اليهودية كحليف من أجل استثمار أراضي الشرق واستغلال شعوبه . اذ وفق سياسة التحالف هذه ،تلوثت أصابع البورجوازية اليهودية بدم الشعب الجزائري الذي احتلت بلاده وذبح ابناؤه ،بدءا من عام ١٨٣٠ من قبل القوات الفرنسية المحتلة بذريعة مالية مدبرة ،وكذلك حال الشعب المصري الذي احتلت بلاده عام ١٨٨٢ بذريعة مالية أيضا عن طريق المصارف والبيوتات المالية اليهودية - داعية الحركة الصهيونية - ولم تقف هذه البورجوازية عند هذا الحد ،بل شاركت السلطات الرجعية الاوربية في سحق ثورات عام ١٨٤٨ في اوربة نفسها (١١). ولكشف مزيد من خيوط الارتباط بين الصهيونية والاستعمار لابد لنا من معرفة كيف ساهم سلاح الهندسة الملكي البريطاني وضباط آخرون في العمل لبعث فكرة فلسطين الصهيونية قبل أن تتبلور الفكرة الصهيونية ،مما يدعو الى الجزم بأن الاستعمار الغربي كان له الدور الاساسي في خلق الصهيونية ،بدوافع استعمارية

متسترة بالاغراض العقائدية التاريخية ،والتي لم تصمد حتى الان أمام النقد التاريخي النزيه ،الذي دحض ادعاءاتها الواحدة تلو الاخرى • وانسياقا مع هذه الادعاءات قام الكولونيل كوندر منذ عام ١٨٧٣ ـ بزيارة فلسطين وأجرى بعض الدراسات عن تاريخ فلسطين لصالح الفكر اليهودي التوراتي • وزار أيضا فلسطين الكولونيل البرت غولدسميد عام ١٨٨٤ ثم أصبح فيما بعد أحد المنظمين العسكريين للصهيونية • كذلك شارك بتشنر الاستعماري (البريطاني) والمعروف جيدا في بلدان العالم الثالث عام ١٨٨٤ في عمليات الاستكشاف في فلسطين والاردن لصالح الانكليز (١٢) •

وعلى هذا الاساس استطاع اليهود الصهاينة ،أن يلعبوا في بريطانيا دورا بارزا ،في الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية ،وخاصة في عهد الملكة فكتوريا بوساطة درزائيلي النائب في مجلس العموم والذي أصبح فيما بعد رئيسا لمجلس الوزراء البريطاني ذلك الرجل الذي اعترف خطيا عام ١٨٩٧ بحق اليهود في تأسيس كيان خاص بهم ووطن خاص لهم (١٣) •

وفي عام ١٩٠٧ كلف رئيس وزراء بريطانيا كامبل بنرمان، لجنة مكونة من علماء تاريخ واجتماع وسياسة ،وطلب اليها القيام بدراسة شاملة للاستعمار البريطاني ،وعلى الفور قامت اللجنة المذكورة بدراسة مستفيضة ،لمناطق من العالم ،ثم قدمت اللجنة تقريرا عن اعمالها الى الحكومة البريطانية ،ينصح هذا التقرير بتشديد النضال ضد اتحاد الجماهير الشعبية في المنطقة العربية أو اقامة أي نوع من انواع الاتصال الثقافي أو الروحي أو التاريخي بينها • واقترحت اقامة حاجز بشري قوي ،وأن يكون أجنبيا ـ بالاضافة الى كل عوامل الفرقة الاخرى (١٤) •

وفي نفس العام المذكور آنفا دعا بنرمان الى عقد مؤتمر دولي لمناقشة المقترحات المتعلقة بالوطن العربي ،دعيت الى هذا

المؤتمر الدول الاستعمارية التالية : بريطانيا ـ فرنسا ـ بلجيكا ـ هولندا ـ البرتغال ـ ايطاليا ـ اسبانيا ،وبعد الدراسة المتفحصة والشاملة لمجموع الامور المطروحة على المؤتمرين ،انتهت الوفود المؤتمرة الى وضع توجيهات تحذر من خطر الامة العربية على مصالح الدول الاستعمارية في قارتي آسية وأفريقية ،وبالطبع لم تكن هذه التوجيهات جديدة كل الجدة ،من حيث الممارسة والتدخل الاستعماري في شؤون الامة العربية ،ولكنها كانت خطوة وسابقة أكثر جدية وخطورة على مستقبل الامة العربية من سابقاتها ٠

وفي عام ١٩١٣ـ قبيل الحرب العالمية الاولى ـ نشط ضابط الاستخبارات البريطاني ،لورانس في فلسطين والمنطقة العربية المجاورة بحجة البحث عن الاثار ،ولمعرفة موقع كركميش التاريخي ،بينما كان في الحقيقة يستطلع المنطقة لاحتلالها من قبل بريطانيا وحلفائها متى تسمح الظروف بذلك(١٥) ٠

ان التحركات والنشاطات الانكليزية السابقة ،تظهر لمن يرى وبالتالي يعي ،مدى ترابط الحركة الصهيونية بالهجمة الاستعمارية على الوطن العربي ،ولولا ذلك لما كان بمقدور القائد الانكليزي (اللنبي) أن يشارك في حفل افتتاح الجامعة العبرية في القدس ،قبل أن تنتهي الحرب العالمية الاولى مع الالمان والاتراك ،ولما منع نشر بيان الشريف حسين ،قائد الثورة العربية الكبرى الا بقصد خنق صوت حركة التحرر العربية ،وبغية تمرير المخطط الاستعماري الصهيوني علما بأن بريطانيا قامت اثناء الحرب العالمية المذكورة باسم الحلفاء بمفاوضة الشريف حسين ،واتفقت معه : على قيام العرب بثورة ضد الاتراك ،يدعمها الحلفاء ويعترفون باستقلال العرب عن الاتراك ، وفي نفس الوقت كانت فرنسا وبريطانيا من وراء ظهر العرب تتفاوضان فنجم عن هذه المفاوضات اتفاق ،على صيغة معاهدة سايكس بيكو فيما بينهما بحيث تتقاسمان مناطق الاحتلال والنفوذ في بلاد الشام والعراق ٠

وفي عام ١٩١٧ اقدمت بريطانيا على اقتراف عملية غدر ثانية بحق العرب ،عندما اصدرت وعد بلفور القاضي بأن تعمل على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ،وفق اتفاق حاييم وايزمن مع آرثر بلفور عام ١٩٠٦ يوم كان يصرح بأن الصهيونية السياسية تعني (جعل المسألة اليهودية عالمية ،وانها تعني الذهاب الى الامم والقول لهم: (اننا - اليهود - نحتاج مساعدتكم للوصول الى هدفنا (٩)) .وتوضيحا لدور حاييم وايزمن في الاتصال بالقادة البريطانيين والتفاهم معهم نذكر ماقاله آرثر بلفور عن وايزمن (انه الرجل الذي جعلني صهيونيا (١٦) ولم يقتصر الامر على بلفور ،لكنه تعداه الى الرئيس الامريكي ويلسن ،صاحب النقاط الاربع عشرة الذي هو الاخر اضطر الى التحالف مع الصهيونية ،واستلم توصية من المخابرات الامريكية مرفوعة الى مؤتمر السلام تقول ينبغي :(بأن يدعى اليهود للعودة الى فلسطين للاستقرار هناك ،على أن يضمن لهم المؤتمر بهذا الصدد كل مساعدة ممكنة تكون منسجمة مع حماية الحقوق الشخصية - وخاصة الدينية .. وحقوق الملكية للسكان غير اليهود وأن يؤكد لهم فضلا عن ذلك ، أن - سياسة عصبة الامم ستكون : الاعتراف بفلسطين كدولة يهودية حالما تصبح دولة يهودية في الواقع (١٧))وفعلا كانت تلك التوصية منسجمة مع ما أشار اليه رئيس المؤتمر الصهيوني حاييم وايزمن من قبل في محاضرة القاها عام ١٩١٧ جاء فيها : (ان الكثيرين يتطلعون الى اقامة الدولة اليهودية حالا ولكن المطلعين على سير الامور يعلمون أن تنفيذ مثل هذا المشروع يتعذر في الوقت الحاضر) نعم أن هدفنا هو الدولة اليهودية ولكن بلوغ هذا الهدف لايأتي دفعة واحدة بل يجري على مراحل متعددة أولاها : أن توضع فلسطين تحت حماية دولة صديقة كبريطانيا مثلا ،تسهل الهجرة والسكن لتمكيننا من تحضير الجهاز الاداري اللازم لبلوغ هدفنا ،واستطيع أن اصرح بأن الحكومة البريطانية موافقة على هذه الخطة ومستعدة لتسهيل

تنفيذها (١٨) .

وبعد خروج الاتراك من الوطن العربي اثر الحرب العالمية الاولــى اقدم العرب على اعلان الاستقلال ،في اعقاب الثورة العربية الكبـــرى ، وتتويج الامير فيصل بن الحسين ملكا على بلاد الشام ،نهضت القـــوى الامبريالية والصهيونية داعيـــة الى عقد موتمر للدول المنتصرة ،في الحرب العالمية الاولى - موتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ - وبضغط وتوجيه من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية ، قرر الموتمـــر المذكور ،فرض الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان بحدودهما الحالية وفرض الانتداب الانكليزي على كل من العراق وشرقي الاردن وفلسطين مع التشديد على بريطانيا ،لتنفيذ وعد بلفور في فلسطين ،والحقيقة هي أن ما اتخذ من قرارات في سان ريمو كان مدروسا ومعدأ له بشكل مسبق ،من قبل الدوائر الاستعمارية والامبريالية في العالم . ولهذا الامر ولغيره من البواعث الاستعمارية ،كلفت الجيوش الانكليزيـــة بالتواجد في فلسطين والاردن والعراق ،بينما تواجدت الجيوش الفرنسية في سواحل سورية ولبنان ،ومن ثم في كل سورية ولبنان . وقد رافق التواجد الانكليزي في فلسطين ،قيام لجنة صهيونية برئاسة حاييـــم وايزمن ،لزيارة فلسطين عام ١٩١٨ ،فاصطحبت اللجنة الصهيونيـــة المذكورة معها ضابطا من وزارة الحربية البريطانية وبعد هــــذه الزيارة طلبت اللجنة من بريطانيا أن تشركها في ادارة البـــلاد ، علما بأنه لم يكن يتجاوز عدد اليهود (٦٪) ستة في المائة من عـدد سكان فلسطين ،وحول وجود تلاحم عضوي بين الامبريالية والصهيونيـــة ورد في مذكرات الكولونيل ماينز تساغن سكرتير قيادة الجنـــرال اللنبي ،مايوكد تلاقي المصالح الامبريالية مع المصالح الصهيونيـــة حيث قال : (ان فلسطين ستكون حجر الزاوية في الشرق الاوسط . وان مصر ستكون العدو المسلح لليهود . وفي حال ضم سيناء الينا ،فنحـــن نربح حدأ فاصلا بين مصر وفلسطين ويمكن لبريطانيا مركزا قويا في

الشرق الاوسط ،مع اتصال سهل بالبحرين الاحمر والمتوسط ،وقاعدة استراتيجية واسعة النطاق مع ميناء حيفا الممتاز ،الذي سنستعمله بموافقة اليهود ،وان من حسنات هذا الضم ، احباط أية محاولة مصرية لاغلاق القناة في وجهنا كما سيمكننا من حفر قناة اخرى تربط بين البحرين المتوسط والاحمر (١٩) .

ان المتتبع لما جاء في مذكرات ماينز المذكور آنفا ،يضع كلتا يديه ،على ماترمي اليه الصهيونية بالتعاون مع الامبريالية العالمية ويرى التخطيط الواضح لاخراج الاتراك من المنطقة العربية ،والسعي لمنع العرب بالتالي ،من احراز استقلالهم وذلك من خلال تقسيم بلادهم ، الى مناطق نفوذ وكونتونات مستضعفة ،تذكرنا بدول الطوائف ،في الإندلس وفي خطوات تالية ،تبرز امكانية خلق دولة يهودية صهيونية ،ومن ثم تمكن هذه الدول الصهيونية والحليفة للامبريالية ، من التوسع وفق مخطط مرسوم ،ينفذ على مراحل حسب مايستجد من ظروف ،لظهور دول جديدة أو بروز دور حركات تحرر وطني على الساحة العربية ،أو قيام سلطات جديدة مرتبطة بشكل أو آخر باذرع الاخطبوط الامبريالي في الوطن العربي ،تجعل هذه وتلك اداة أو دريئة لتمرير كافة المخططات المرسومة .

وزاد في الطين بلة ،انه منذ أن ازداد نفوذ الرأسماليين اليهود في امريكا الشمالية ،بدأت الولايات المتحدة الامريكية ،تميل اكثر فأكثر ،الى التطلع نحو منطقة حوض البحر الابيض المتوسط، متحالفة مع الحركة الصهيونية العالمية ،وبذلك توفرت ظروف ادخال الثقل الامريكي الى جانب الموقف البريطاني المعادي للامة العربية منذ زمن بعيد ،وهكذا تضافرت جهود الدولتين معا للتأثير في نصوص صك الانتداب المفروض على بلاد الشام والعراق ،بحيث جاء (صك الانتداب - متضاربا مع معاهدة فرساي وميثاق عصبة الامم ... فقد اشترط انشاء وطن قومي في فلسطين لشعب غريب عنها ،بينما غاية الانتداب

كما عرفته نصوص ميثاق عصبة الامم – هي خدمة مصالح البلدان الخاضعة لهذا النظام وتسديد خطاها والسير بها نحو الاستقلال التام [٢٠] ولكن مافعلته بريطانيا ،كان حقا عكس نصوص صك الانتداب ،الذي هو في الاصل جائر بحق العرب ، اذ منذ وصل هربرت صموئيل – الذي ساهم في تعيينه حاييم وايزمن – الى فلسطين مفوضا ساميا ،لجأ الى تيئيس العرب وثنيهم عن مطالبة بريطانيا ،بتعديل سياستها الفلسطينية بقوله :(لم يطرأ ولن يطرأ أي تغيير على سياسة حكومة صاحب الجلالة [٢١]) وتبعا لذلك اذا كان عزرا الاول قد حاور بتأييد من كورش ،بناء الهيكل ،واحبط زعيم العرب جشم مشروعه ،فان عزرا الثاني – اي هربرت صموئيل – قد استفاد من تجربة سمية ،في الاعتماد على الاجنبي ،وبدأ بارساء اسس الدولة اليهودية الصهيونية أولا ثم قد يتمكن هو أو غيره من ترميم الهيكل ثانيا كما كان في الاذهان آنذاك (٥٧) ولهذا عمدت بريطانيا في فلسطين ،وبغية تحقيق أهدافها ،الى تعيين الموظفين والمسؤولين من الانكليز الموالين للصهيونية ومن اليهود الصهاينة ،في المناصب الهامة ،كالمندوب السامي واعضاء المجلس الاستشاري والنائب العام وسكرتيريا المالية ومديري الهجرة والتجارة ومستشاري الدوائر المختلفة ،كما أنها منذ احتلت فلسطين ،لم تكترث لاحتجاجات العرب عليها لتفريطها بالاراضي العربية ،التي توجد فيها أماكن مقدسة – اسلامية ومسيحية على السواء – بل وزادت في تماديها ،عندما لجأت الى خنق اصوات المحتجين عن طريق مراقبة الصحف ومنعها من اثارة وعد بلفور .

وحين وقعت حوادث عام ١٩٢٠ وارتفعت صيحات الاحتجاج ضد الانتداب تكونت لجنة عسكرية للتحقيق ،جاء في تقريرها ،مايوضح سبب مخاوف العرب من الانتداب مثل (يأس العرب من تحقيق الوعود المقطوعة لهم في اثناء الحرب بالاعتراف باستقلالهم واعتقادهم أن تصريح بلفور يتضمن عدوانا على حقوقهم في تقرير مصيرهم

وخشيتهم أن يؤدي انشاء الوطن القومي اليهودي الى تضخم الهجرة اليهودية تضخما سيسفر عن استعبادهم اقتصاديا وسياسيا من قبل اليهود ، وما أدت اليه تصرفات اللجنة الصهيونية في فلسطين من استفزاز وماسببه تتويج فيصل بن الحسين في دمشق ملكاً على سورية المتحدة بما فيها فلسطين من حماسة (٢٢) ، نعم كل ذلك ساعد العرب مندفعين للتعبير عن اصرارهم على رفض الصهيونية ، والقيام بعقد سلسلة من المؤتمرات في سنوات ١٩١٩ - ١٩٢١ حيث أرسل وفد عربي الى لندن ، اتصل بمجلس اللوردات البريطاني وعمل على حمله على رفض صك الانتداب والمطالبة بتنفيذ الوعود المقطوعة للعرب من قبل ، الا أن الحكومة البريطانية تجاوزت في تصرفاتها مجلس اللوردات ، باعتمادها على قرارات مجلس العموم البريطاني تجاه المسألة الفلسطينية . وكرد فعل على الممارسات البريطانية صار عرب فلسطين يشعرون بالمرارة والظلم الذي تحدث عنه جانب من تقرير لجنة هايكرافت عام ١٩٢١ حين وصف بريطانيا ، الدولة المنتدبة على فلسطين بقوله : (عملت على تجاهل العرب بصفتهم عنصراً يحسب له أكبر الحساب .

وفي بعض الاحيان وقفت في طريق مصالحها ، ابتغاء فائدة اليهود وان تصرفاتهم تثير هياج العرب سكان فلسطين ، بدلاً من تهدئة خواطرهم وانها بذلك تعد سببا من أسباب الاضطراب (٢٣)) . كيف يستطيع العرب التزام الصمت وهم يسمعون حاييم وايزمن يقول عن تشرتشل . وبأنه الرجل الذي يفي بوعوده للصهيونية (٢٤)) . ثم يسمعون تشرتشل نفسه - وزير المستعمرات - ثم رئيس الوزراء في بريطانيا يقول بدوره : (اذا استطعنا وأسعفنا الحظ ، فحضرنا في حياتنا ميلاد دولة يهودية ، ليس في فلسطين وحدها ولكن على ضفتي نهر الاردن ، فاننا سنرى ولادة حدث يتلاءم اطلاقا مع المصالح الامبريالية الحقيقية (٢٥)) . ولما اشتد غضب الجماهير العربية ، وكثرت الاضطرابات هنا وهناك لجأت بريطانيا الى اسلوب التهدئة ، التي اعتادتها

سياسة معتمدة مع الشعوب وكأسلوب لتخدير أعصاب الجماهير ،من أجل صرفها عن النضال الوطني المعادي للامبريالية والصهيونية ،وتبعـــا لذلك ،فقد اصدر تشرشل وزير المستعمرات البريطاني آنذاك ،الكتـاب الابيض – حزيران ١٩٢٢ – المتضمن أن (الحكومة البريطانية تؤكـد ثانية تصريح بلفور الذي لايقبل التغيير وسيؤسس في فلسطين وطـن قومي لليهود ،ولكن ذلك لايعني أن تكون فلسطين برمتها وطناً قومياً لهم وسيكون الشعب اليهودي موجوداً في فلسطين كحق من حقوقه ،لاكمنـة ولكن حكومة جلالته ،لاترمي الى جعل فلسطين يهودية كما أن بريطانيا انكليزية ،وهيلاتفكر في افناء الشعب العربي أو اللغة أو الثقافـة العربيتين أو جعلهما في مرتبة ثانوية ،وان حكومة جلالته تريـد أن تعطي قسطاً كاملا من الحكم الذاتي في فلسطين وستكون خطوتهـا التالية تأسيس مجلس تشريعي في الحال ،تكون أكثرية اعضائه مـن المنتخبين وأن المركز الخاص الممنوح للجنة التنفيذية الصهيونية لايخولها الاشتراك في ادارة البلاد . أما بشأن الهجرة اليهودية ،فالحكومـة ترى من الضروري زيادة عدد اليهود بالمهاجرة على شرط ألا تزيـد على مقدار ماتستطيع مقدرة البلاد الاقتصادية استيعابه مـن المهاجرين الجدد(٢٦). من خلال النص السابق يتبين لنا ماكانـت بريطانيا تنويه ،إزاء تجزئة فلسطين واقامة دولة يهودية ،كما أنه كان بالتأكيد أن بريطانيا هي التي ستقرر قدرة البلاد علـى الاسيعاب حسب ماتمليه عليها مصالحها وارتباطاتها الاستعماريـة المتحالفة مع الصهيونية العالمية .

ومع مرور الزمن انضمت الولايات المتحدة الامريكية بقوة الـى بريطانيا ،في تبني قضية مناصرة الصهيونية بشكل سافر ،لافـي مؤتمرات الصلح فحسب ،بل في داخل الولايات المتحدة نفسها بدليـل (أن الرئيس الامريكي ويلسن في تشرين الاول من عام ١٩١٧ قد وافـق على تصريح بلفور (٢٧) ،وفي آب من عام ١٩١٨ قال الرئيس ولسـن

نفسه :(اعتقد أن الامم الحليفة قررت وضع حجر الاساس للدولة اليهودية في فلسطين بتأييد تام من حكومتنا وشعبنا[٢٨]) .

ومن ناحية أخرى كانت الولايات المتحدة الامريكية مطلعة على كافة الوثائق السرية الخاصة بالحلفاء ومافيها من غدر وتآمر على العرب وتؤكد هذه الحقيقة رسالة وزير خارجية بريطانيا الى الرئيس ويلسن بتاريخ ١٩١٧/٥/١٨ مرفقة بصورة عن نصوص المعاهدات ،وقد جاء في الرسالة :(لاأعتقد بأن هذه الوثائق ستضيف شيئا جديدا الى ماهو معروف لديكم بخصوص هذه المسألة [٢٩]) .

وفي حزيران ٣٠ منه من عام ١٩٢٢ وافق الكونغرس الامريكي بمجلسيه على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ،على أن لايلحق ضرراً بالحقوق المدنية للنصارى والجماعات غير اليهودية [٣٠] ومنذ بداية القرن العشرين أصبحت الولايات المتحدة الامريكية كبشا بقرنين غليظين ،وبهما فرضت على بريطانيا عام ١٩٢٤ معاهدة تنص على تمتع الامريكان بحقوق فتح مختلف المؤسسات والجمعيات التعليمية والخيرية والدينية في فلسطين[٣١].

نظراً للمواقف الامريكية الداعمة للصهيونية وباعتبارها الرأس الحقيقي للامبريالية العالمية ،فقد أثنى عليها حاييم وايزمن بقوله :(كان هذا من أهم العوامل التي شجعت الحكومة الانكليزية على الموافقة على هذا التصريح)ويقصد بالطبع تصريح بلفور . وبعد هذا وذاك لانستغرب مواقف الولايات المتحدة الامريكية ،وتصرفها العدواني المتكرر ، إزاء الامة العربية ،في كل مكان خصوصاً اذا عرفنا انه منذ مطلع القرن العشرين ،طوق المستشارون اليهود الصهاينة ،عنق رؤساء جمهورية الولايات المتحدة ،بسلاسل اعدتها قيادات المنظمة الصهيونية العالمية ،بالتعاون مع اصحاب الاحتكارات العالمية .

فعلى سبيل المثال لاالحصر ،فقد كان الى جانب الرئيس الامريكي ويلسن براندسن ،والى جانب الرئيس روزفلت ـ لوريس آرنست ،والى جانب

الرئيس ترومان جوقة من المستشارين منهم - برنار باروخ ودافيد نايلز وادوارد جاكسون وسام روزتمان والحاخام سلفر، وروبرت ناتان وهربرت بلبارد سواب، وفرانك غولدمان، وكلارك كليفورد (٣٢).

مما سبق نلاحظ زيادة نفوذ الصهيونية في الولايات المتحدة كنتيجة للتحالف العضوي بينهما من ناحية ولازدياد سيطرة الولايات المتحدة على البلدان الامبريالية الاخرى من ناحية أخرى، مما يضطر الصهاينة للمراهنة على الولايات المتحدة أكثر من سواها .

وفي الثلاثينات من القرن العشرين كان الموظفون الانكليز أكثر حماسة من ذي قبل، فقد قال وزير المستعمرات الانكليزي، مالكولم مكدونالد، في حفل استقبال المندوب السامي الانكليزي :(انني فرح جدا لان افتراح هجرة اليهود الى كيسبا قد احفق. ويصفني وزيرا للمستعمرات أشكر الذين رفضوا اقتراح كبنبا، فنبوءة وايزمن قد تحققت، وعاد اليهود الى بلادهم، لو لم يعط وعد بلفور منذ ١٨ سنة لاعطيناه اليوم - أي في عام ١٩٣٥ (٣٣)) . وعلى الأثر نهض المندوب السامي واكهوب وطلب من الحضور أن يشربوا نخب الصهيونية . وبمثل هذه التصريحات كانت أجهزة - الدولة البريطانية تظهر على حقيقتها، راعية وحامية للمخططات الامبريالية - الصهيونية .

كما أننا نستطيع مما سبق تبيان الخط العام للسياسة البريطانية، التي كانت دائما تتجاهل الحقوق العربية ويؤكد لنا ذلك حاييم وايزمن من خلال كلامه الاتي :

(كان بيننا - نحن اليهود الصهونيين - وبين كبار المسؤولين الانكليز، أمثال بلفور ولويد جورج اتفاقاً سرياً، يقضي بتسليمنا فلسطين خالية من السكان تماما سنة ١٩٣٤ (٣٤)) .

ونتيجة لهذا التواطؤ، لم يقتصر القلق والتذمر على العرب وحدهم، بل تعداهم الى بعض الموظفين الانكليز، فقد وصف المدير العام في

فلسطين الجنرال بولز ، اللجنة الصهيونية ،في تقرير له قائلا :
(كما انها تدعي لنفسها سلطتي وسلطة كل دائرة من دوائر الحكومة وتعتدي عليها وعبثا نقول : للمسلمين والنصارى اننا قائمون بما صرحنا به من المحافظة على القديم مما عهدوه وعهدناه يوم دخول القدس ،فالحقائق تشهد بخلاف ذلك ،فمن ادخال اللسان العبري كلغة رسمية الى اقامة قضاء يهودي الى تلك التشكيلات الحكومية التي تتألف منها اللجنة الصهيونية وتلك الامتيازات الخاصة الممنوحة لاعضاء هذه اللجنة في السفر والانتقال كل ذلك حمل العناصر غير اليهودية على الاعتقاد الثابت بأننا أهل محاباة (٣٥) .كما كانت بريطانيا ، تمشيا مع سياسة محاباة الصهيونية وتقويتها ،تحمي صناعات اليهود من المنافسة ،مثل صناعة الاسمنت والسمن النباتي ،على غير عادة الاستعمار ،كذلك مكنت اليهود من استثمار البحر الميت وبعض الأراضي المجاورة له ،فضلا عن أراضي سهل الحولة ،التي شاركت في تهجير سكانها وسهلت أيضا السيطرة الصهيونية على صناعة الكهرباء ، والكيماويات وبنفس الوقت لجأت الى ضرب أسعار السلع العربية ،وعلى سبيل المثال لالحصر ،فقد خفضت أسعار السمسم ومنتجات عربية أخرى ، وكانت بريطانيا طيلة مرحلة الانتداب ،قد مارست سياسة تضليلية لتعمية الجماهير العربية عما يجري وراء الاحداث ،خاصة عندما سافر وفد فلسطيني الى لندن عام ١٩٣٠م عقب مجيء لجنة شو الى فلسطين ،وفي لندن طالب الوفد الفلسطيني حكومة بريطانيا بالعمل على وقف الهجرة اليهودية ،ومنع انتقال الاراضي ،وتأليف حكومة عربية مسؤولة أمام مجلس نيابي ،يشارك السكان في هذه الحكومة بحسب نسبتهم العددية ،ولكن بريطانيا رفضت هذه المطالب بحجة مخالفتها لما جاء في صك الانتداب ،وعلى اثر هذا الموقف ،ابرق الوفد العربي الى فلسطين ومصر موضحاً سياسة بريطانيا بقوله : إن ترمي الى (ابادتنا كأمة وإجلاؤنا عن بلادنا وان المسألة عندنا مسألة حياة أو موت ،وبما أن أهل البلاد العربية والاسلامية شركاء في فلسطين

بـات واجبا علينا أن نخطرهم بالحالة الخطيرة التي تهدد كيـــان بلادهم المقدسة واخوانهم الساكنين فيها [٣٦]) .

ورغم كل المواقف الاعلامية والنضالية العربية ،ورغم وضــوح عدالة قضيتهم ،فقد ظلت بريطانيا ماضية في غيها ، متبعة سياسة التعاون مع الصهيونية ،بحيث ثبت صدق ماتوقعته اللجنة التنفيذيـــة العربية ،في كتاب الرد على الكتاب الابيض الثاني لعام ١٩٣٠م .

وقد وضح ذلك من خلال اقدام رئيس وزراء بريطانيا المســتر مكدونالد ،على ارسال رسالة الى الدكتور حاييم وايزمن ،يفســر فيها الكتاب الابيض الثاني ،بالشكل الذي لايتعارض مع وعد بلفــور ومطامع الحركة الصهيونية ،ولهذا السبب أطلق العرب ،على هذه الرسالة التفسيرية اسم الكتاب الاسود ،نظرا لما ورد فيها من :(ان الالتزام القائل بوجوب تسهيل الهجرة اليهودية وتشجيع حشد اليهود في اراضي البلاد ،يبقى التزاما ايجابيا من التزامات الانتداب ،وفي الاستطاعة تنفيذه من دون الحاق ضرر بحقوق ووضع الفئات الاخرى من ســكان فلسطين[٣٧]) . ان البيان لايتضمن منع اليهود من احتلال اراضـــي اضافية ولیس في النية تقرير هذا وكل مافي الامر فرض مراقبـــة مؤقتة على معاملات التصرف في الاراضي وفراغها على وجه يكفل عدم الاضرار بانتظام مشروع استثمار الاراضي الذي ننوي القيام بـــه ، وأما الهجرة اليهودية ،فحكومة جلالته لم توقفها على اختــــلاف أصنافها كما أنها لاتفكر في وقفها ومنعها وستستمر العادة المتبعة الان من حيث الموافقة على جدول العمال المهاجرين الذين يدخلـــون البلاد للاكتساب بواسطة العمل كما أن الحكومة البريطانية تعتــرف بحق المنظمات اليهودية في الا تستخدم سوى العمال اليهود) ،وعلــى آثر انتفاضات اعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ تعاونت المنظمات العسكريـــة الصهيونية مع القوات البريطانية في ملاحقة الثوار والانتقام مـــن السكان العرب ،علما بأن بريطانيا استخدمت قوات عسكرية لســحق

الثورة الفلسطينية تقدر بحوالي الخمسين آلفا ،وكانت تزج في بعض المعارك بحوالي ثلاثة آلاف لمواجهة بسالة الثوار الذين اتقنوا حرب العصابات وقتال الشوارع (٣٨) ،ووضعت آنذاك في المعتقلات اكثر من خمسين آلفا ،كما آنها قتلت أكثر من ثلاثة آلاف عددا الالاف الاخرى من الجرحى ،وارتكبت مالايحصى من حوادث التخريب والتدمير والاعتداء على كرامات الناس واموالهم ،وعملت على منعهم من التجول عدة شهور كما (كانت المحاكم العسكرية البريطانية تحكم على أي عربي يقبض عليه ومعه أسلحة ولو كانت طلقة أو سلاحا مهجورا بالموت أو السجن مدى الحياة وكانت هذه الاجراءات واجراءات أخرى عديدة مشابهة تتخذ من قبل السلطات بقصد كبح جماح العرب وابقائهم عزلا من السلاح ومن وسائل الدفاع لتجعل منهم بذلك فريسة سهلة للصهاينة (٣٩) .

وعلى اثر هذه الاجراءات كانت تقوم وحدات خاصة من الهاجانا بقيادة الكابتن آودوينجيت عام ١٩٣٩م بغزو القرى العربية وتصفية العناصر التي تحذرها متذرعة بفكرة الدفاع الوقائي ،في حين كانت مهمتها الاساسية هي حراسة آنابيب شركة بترول العراق (٤٠) ،وباعتبار آن وينجيت قد قام بأعماله المشار اليها ،باذن رسمي من السلطات البريطانية ،فقد أعطى اليهود الصهاينة ثقة بأنفسهم ،واقنعهم بجدوى هذه الاساليب الارهابية – التي مازالوا يمارسونها حتى الان كما كانت العصابات الصهيونية ترتكب جرائمها ضد عرب فلسطين بينما كانت القوات البريطانية لاتحرك ساكنا ،مع آنها مكلفة رسميا بالمحافظة على الامن ،ولكنها بالعكس (كانت متنبهة وقت ذاك لانقاذ القوافل اليهودية والمستعمرات اليهودية من هجمات العرب حالما تتلقى الاشارة منها ،وان تحركت لنجدة العرب فالويل لمن يبقى منهم في مكان الاعتداء لان رصاص الانكليز يتناولهم بحجة آن البادئ بالاعتداء لم يعرف ،حتى آنه في كل حادثة آو موقعة

يظهر فيها تفوق عرب فلسطين ، كانت قوات الانكليز تتدخل لتفسد النجاح أو لتضعفه) (٤١).

وعن هذا الموضوع كتب أحد المندوبين السامين البريطانيين في أحد تقاريره ،يصف امكانات بريطانيا في الرد على الارهاب الصهيوني قائلا :(لو سمح للقوات الانكليزية على اختلافها بالتدخل ،لامكن القضاء على الارهاب اليهودي في ساعات) (٤٢) ،وفي اثناء الحرب العالمية الثانية عام (١٩٤٠) تحدث حاييم وايزمن الى وينستون تشرشل بقوله :

(بعد الحرب نود أن نقيم دولة تضم بين (٣-٤) ملايين يهودي في فلسطين) (٤٣) ، فأجابه تشرشل :(حقا انني موافق على ذلك) (٤٤) ، وهكذا كان بامكانهما بحجة مقاومة الغزو الالماني المحتل لمناطق شرق البحر الابيض المتوسط ،ان يجعلا القوات العسكرية البريطانية المتواجدة في فلسطين تقدم على التعاون مع الهاجاناه والارغون والمخابرات الصهيونية ، وكان لانجاز هذه المهمة ، وفق المخططات المرسومة قد قدم الانكليز الى القوات الارهابية الصهيونية ، السلاح والمدربين والمعلومات الاستخبارية والاموال اللازمة ، بل ونفذت عمليات مشتركة خارج فلسطين كمحاولة نسف مصفاة البترول في طرابلس - لبنان - وخطف الحاج أمين الحسيني من بغداد (٤٥) ،وعندما غزا الانكليز سورية ولبنان في شهر(يوليو) تموز عام (١٩٤١) م ساهمت بعض قوات الهاجاناه بأعمال الاستطلاع والتخريب مع طلائع الجيش الغازي • كذلك سمحت بريطانيا لاكثر من ثلاثة وعشرين ألفا جندي صهيوني بالانخراط في قواتها ، اثناء الحرب العالمية الثانية فكانوا منذ ذلك الوقت ، نواة الجيش الاسرائيلي ، بالاضافة الى قوات العصابات الارهابية الاخرى بعد الحرب العالمية الثانية ،وان ذلك الامر لم يكن بخاف على مخططي السياسات البريطانية والصهيونية في المنطقة ، وتمشيا مع هذا الاتجاه ، شارك اليهود في الحرب العالمية الثانية بقوات عرفت باسم (البالماخ) للمساندة في الجبهة الافريقية ، عدا عن تعهد اليهود الصهاينة لبريطانيا بشن

حرب عصابات وقطع الطرق وانشاء اذاعة سرية وشبكة تجسس(٤٦). كذلك تعهدوا بالاتصال بيهود الوطن العربي ، بغية الافادة منهم في الحرب ضد الالمان وحلفائهم ، في المنطقة العربية ، كما شارك الصهاينة في الحرب المذكورة ، بفرقة يهودية أخرى عرفت باسم (هايل) أي القوى اليهودية المقاتلة ، وقد كان لهذه الفرقة علمها ذو اللونين الابيض والازرق تتخلله نجمة داود ، فضلا عن ارسال اليهود الى البلدان التي هاجروا منها كألمانيا وبولونيا أو الى مقربة من الجيوش النازية للقيام بأعمال تخريب وتجسس ، وكل ذلك ، لقاء الوعود المقطوعة لليهود الصهاينة بأنه سيصار الى مساعدتهم على انشاء دولة يهودية صهيونية في فلسطين (وكانت هذه الوعود كما أثبتت الايام صادقة مع الصهاينة بعكس الوعود التي قطعت الى العرب في أكثر من مرة ..) ولكسب تأييد اليهود بالفعل عبر السياسة الانكلو صهيونية ، صرح حزب العمال البريطاني في مؤتمر بلاك بول ، قبل الانتخابات :(بأنه ينوي تحقيق دولة يهودية في فلسطين (اسرائيل) بمجرد استلامه الحكم)وكان اتلي زعيم حزب العمال ، في الواقع قد ذهب الى أبعد من ذلك ، بأن وعد بنقل السكان العرب من فلسطين لاحلال اليهود محلهم ، واعترف الجنرال دارسي بأن خروج الانكليز من فلسطين يعني تسلم اليهود لها(٤٧).

ولا يقتصر أمر مساعدة الصهاينة على اغتصاب فلسطين على الانكليز وحدهم ،بل يبدو لنا أن الولايات المتحدة ليست أقل تورطا ،ففي نيسان عام(١٩٣٨) ،احتجت رسميا لدى بريطانيا على محاولات الانكليز تحديد الهجرة اليهودية الى فلسطين(٤٨). وفي نفس العام دعت الى عقد مؤتمر أوربي امريكي لنصرة الهجرة اليهودية ، حضرت المؤتمر وفود احدى وثلاثين دولة ، كما تكونت لجنة فلسطين الامركية عام(١٩٤٢) تلك اللجنة التي أقدمت على استنكار الكتاب الابيض (الصادر عن بريطانيا) باسم ثمانية وستين عضوا من

مجلس الشيوخ ومائتين من مجلس النواب الامريكيين ، كما أنه خلال الحرب العالمية الثانية ، كان الرئيس الامريكي روزفلت ، يمارس سياسة تطمين العرب على ضمان حقوقهم ، بينما كان يعمل بجد على تمكين الصهيونية من دفع الامور وفق رغباتها ، وفي رسالة تحمل تاريخ (٥ أيار من عام ١٩٤٣) بعث بها باتريك هيرلي الممثل الشخصي للرئيس الامريكي روزفلت جاء فيها (أشارت المنظمة الصهيونية في فلسطين الى التزامها ببرنامج موسع يشمل :

١- قيام دولة يهودية ذات سيادة تضم فلسطين وشرق الاردن .
٢- اخراج السكان العرب من فلسطين الى العراق .
٣- آن يصبح الشرق الاوسط بكامله خاضعا للقيادة اليهودية في اقتصادياته وتنميته (٤٩) .

وفي هذا الاتجاه نشط الصهاينة ، في الدول الامبريالية لمساعدة حركتهم وانجاح اهدافها في محاولة لدفع الكونغرس الامريكي ، نحو اتخاذ قرار باطلاق الهجرة واقامة دولة يهودية صهيونية ، وقد حصلوا فعلا على اذاعة بيان للرئيس ترومان عام (١٩٤٤) يدعو فيه الى فتح فلسطين للهجرة المطلقة . ومنذ (١٩٤٤)م واقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها ، بدآت الصهيونية تمارس ضغطا متزايدا في انتخابات الرئاسة الامريكية ، وبدأ المرشحون للرئاسة الامريكية يغدقون الوعود للصهاينة ، ويتملقونهم ، مقابل الحصول على اصوات اليهود في الانتخابات ، وبواسطة هذه اللعبة التي لاينبغي آن نبالغ في آهميتها لوحدها وبالتحالف المبرم بين الصهيونية والتروستات الاحتكارية في امريكا وغيرها ، تمكنت الصهيونية من دفع الولايات المتحدة الاميركية أكثر فأكثر الى التورط في سياسة ، تتبنى قيام دولة اسرائيل الصهيونية وتتكفل بالتالي بحمايتها ، بما يتفق وينسجم بالتأكيد مع مصالح الاحتكارات الامريكية ، التي تضغط بدورها ، على حكومة الولايات المتحدة والتي هي آصلا من صنع الاحتكارات وتمثل مصالح المحتكرين لتقوم بدور القيم والشرطي في منطقة منابع

النفط والمواد الاولية الاخرى وطرق المواصلات العالمية هنا وهناك ومن ناحية أخرى لضمان استمرار تصريف البضائع الاميركية ، ومن أجل كل ذلك كانت الولايات المتحدة وماتزال ، تقدم مختلف أشكال الدعم والمساعدات لاسرائيل بينما تمارس سياسة مخادعة العرب ومغالطتهم ، على غرار ماكانت تفعله بريطانيا نحوهم ، ولكن بشكل أكثر دهاء وبأساليب أمضى بلاء ، ويؤكد هذه الحقيقة ماكتبه الرئيسان الامريكيان روزفلت وترومان ، الى ملك العربية السعودية يعد أنه بعدم اتخاذ أي اجراء بشأن فلسطين دون الرجوع الى العرب ، حرصا على مصالحهم :

١ـ الرسالة الاولى مؤرخة في ١٩٤٥/٤/٥.

٢ـ الرسالة الثانية مؤرخة في ١٩٤٦/١٠/٢٨ (٥٠).

الا أن المتتبع لاحداث القضية الفلسطينية ، سيجد أنه لايحتاج الى الكد والعناء لايجاد دليل على تبيان الكذب والرياء في السياسات الاميركية ازاء العرب ، فقد جعل الرئيس الامريكي روزفلت نفسه وسيطا لدى الصهيونية ، لعقد صفقة شراء الحجاز من ملك العربية السعودية (وهذا الموقف بذاته هو دليل قاطع على النوايا المشتركة بين أمريكا والصهيونية ازاء العدوان المبين منهما تجاه شبه الجزيرة العربية) غير أن ملك العربية السعودية ، رفض هذه الفكرة بقوة واباء عام (١٩٤٥) ، وفي نفس الفترة ، وتمشيا مع مخطط دعم الحركة الصهيونية ، فقد شكلت اللجنة الانكلو اميركية عام (١٩٤٥) لتتمكن الدولتان من حل مشكلة فلسطين بطريقة علمية ، تخدم مصالحهما (٥١) في الشرق الاوسط ، وعلى هذا الاساس أجمعت على ضرورة دعم الحركة الصهيونية ، جميع الاحزاب الرئيسية البورجوازية في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية ، علما بأن كبار موظفي الولايات المتحدة ، يشتركون بصورة فعالة في نشاط المنظمات الصهيونية ، العاملة في الولايات المتحدة ، بل وفي خارجها ، كما أنهم غالبا ماكانوا من المساهمين في أسهم التروستات الاحتكارية

بشكل أو بآخر ، وتبعا لذلك فقد أقدمت الولايات المتحدة علـــى مساندة المطالب الصهيونية ، في مؤتمر بوتسدام وأكد الرئيـــس الامريكي ترومان هذه المساندة في مؤتمر صحفي ، عقد في آب ١٩٤٥ قال فيه (انه يدافع عن استيطان حر ومفتوح لليهود في فلسطيـــن الى النقطة التي تتفق مع حفظ السلام و الامن) (٥٢).

وهنا لاندري أي أمن يعني ،ولا أي سلام يقصد ،سوى المحافظة علـى المصالح الامبريالية والصهيونية في المنطقة العربية .

وفي الوقت الذي وزعت فيه الوكالة اليهودية مذكرة على أعضـاء مؤتمر سان فرانسيسكو عام (١٩٤٥) ، عندما كان ممثلو دول العالـم يحضرون لانشاء هيئة الامم المتحدة ، طلبت المذكرة من الاعضاء عـدم اتخاذ أي عمل ، لايتفق ومطالب اليهود الصهاينة ، حسب وعد بلفـور وصك الانتداب . كما كانت الولايات المتحدة ، قد طلبت من المؤتمـر اليهودي الامريكي واللجنة اليهودية الاميريكية ، ارسال ممثليـــن عنهما ليعملوا كمستشارين لدى الوفد الاميركي الى مؤتمر ســـان فرانسيسكو وبهذا الاجراء،وهو واحد من الاجراءات الكثيرة ، نرى أن التصرف الاميركي ، كان يبغي تأمين مصالح الصهيونية ومساعدتهـــا في أروقة الامم المتحدة عن طريق الوفود الرسمية الاميركية ، علمـــا بأن أكثرية الاعضاء في مجلس الشيوخ والنواب الاميركيين ، قـــد طالبوا بتأسيس دولة يهودية في فلسطين منذ (١٩٤٥/٧/٢) وانسجامـا مع هذا المخطط الاميركي والصهيوني فقد أعلن وزير الخارجيـــة البريطانية بيفن ، في تشرين الثاني (١٩٤٥) مامعناه :

ان بريطانيا لاتستطيع وحدها ، حل القضية الفلسطينية لذلـــك ترى بريطانيا لزاما عليها اشراك الولايات المتحدة في ايجاد حـل لهذه القضية (٥٣) . ومن خلال هذا التصريح ، يتضح كيف تخلـــت بريطانيا للولايات المتحدة الاميركية ، عن دور الحليف الاول للحركـة الصهيونية (مكتفية بدور الرديف المتحمس) التي اعتادت دائمـــا أي الحركة الصهيونية التفتيش باستمرار عن الحليف الاقوى والافضـل

والاكثر نفعا لها ، والاقدر على تقديم العون المطلوب . وكان لابد لبريطانيا عندئذ من القيام بعمل ظاهره يوحي باسترضاء العرب ، للحفاظ على بعض ماء الوجه ، بينما كانت هي في الواقع مستمرة في تمرير المخططات الصهيونية الهادفة الى بناء دولة عنصرية توسعية ، تتعاون مع الامبريالية في نهب ثروات المنطقة الشرق أوسطية ، ذلك أن التناقضات القائمة بين مصالح بريطانيا ومصالح الولايات المتحدة ،لم تصل بعد الى تفجير المواقف والخروج الى النزاع السافر فيما بينهما ، لكنها وصلت الى مرحلة اكراه بريطانيا ، على قبول حصة أقل من اسلاب الشعوب ، ذلك أمسى متفقا مع واقعها كدولة امبريالية ، بدأت مرحلة التقهقر ، وبالتالي بدأت الشمس تغرب عن مستعمراتها في العالم ، شيئا فشيئا ، بل وبالرغم من ذلك ، فقد بقيت تتشبث بسياستها الاستعمارية ، وعليه فقد كلفت الجنرال ويتجيت على تدريب الصهاينة على فنون الحروب الحديثة وكذلك شجع ضابط المخابرات العامة في القدس ، اليهود على مهاجمة العرب المجاورين للمستعمرات اليهودية ، وحين انسحب الانكليز من فلسطين قاموا وعلى عجل بحملات تجريد السلاح من أيدي العرب لتركهم فريسة سهلة الاقتناص من قبل العصابات الصهيونية المسلحة تسليحا حسنا (٥٤) وتبعا لذلك تداعى عرب فلسطين الى تكوين لجنة مقاطعة عربية تمثل المستهلكين العرب ، وعملت على مقاطعة التجار الصهاينة والبضائع اليهودية الصهيونية ، ولكن من أجل شل المقاطعة هذه ، لجأت السلطات البريطانية الى اعتقال اعضاء اللجنة المذكورة ، في نفس الوقت الذي كان فيه الصهاينة يقومون بأبشع جرائم الارهاب ضد العرب وفي عام (١٩٤٥) عينت بريطانيا في فلسطين مندوبا ساميا عسكريا لمساعدة الصهيونية على اقامة دولتها ، التي تدعو الى تأسيسها وفق مبادئها ، فعمل ذلك المندوب السامي على السماح لاعداد كبيرة من اليهود بدخول فلسطين ، كما أنه هادن الوكالة اليهودية وتعامل مع قادتها ، كزعماء دولة وخاصة حاييم وايزمن الذي جاء الى فلسطين

زائرا وبمناسبة هذه الزيارة فقد(أجمعت الصحف العبرية على الاعراب عن حبها له في عبارات تنطوي على كثير من الاحترام واحاطة اليهود بالشعارات والاحتفالات التي تقدم عادة لرئيس الدولة المحبوب منهم • ولم يكن في وسع أحد ممن قرأوا الصحف في تلك الايام، أن يصدق اليوم أن الدولة اليهودية لم تكن قد قامت برئاسة الدكتور وايزمن • وتبودلت الزيارات الرسمية بينه وبين المندوب السامي اللوردجورت • ووقف طلاب المدارس على جوانب الشوارع لتحيته وعرض مزارعو الجليل منتجات حقولهم ، ومراعيهم ، وحياه علماء مركز البحوث في رحابوت من زملائه بالاجلال • وجاءت حمولة قطار كامل من الجنود اليهود ، من أفراد الفيلق اليهودي الذي قضى هو وشاريت الكثير في اعداده ، الى رحابوت ، لتؤدي له التحية العسكرية أمام منصة العرض التي وقف عليها ، وقد تأثر وايزمن تأثرا عميقا لهذا الاستقبال(٥٥) •

مما سبق نتبين مدى متانة الترابط في وحدة الاهداف والمصالح بين الامبريالية البريطانية وبين الحركة الصهيونية العالمية، من أجل خلق دولة اسرائيل التوسعية على حساب العرب ، كما أنه في تلك الظروف قد ازداد الارهاب الصهيوني في فلسطين ، فتعاقدت (الهيئة العربية مع الضابط المصري المتقاعد محمود لبيب ليتولى تدريب شبان المنظمة واعدادهم للطوارئ ، لكن الحكومة المنتدبة بريطانيا سارعت الى طرده من فلسطين في آب عام (١٩٤٧) وذلك رغم شرعية اقامته ، ورغم علمها /أي بريطانيا/ بمئات الضباط المدربين الصهاينة ، الذين دخلوا البلاد خلسة أو فروا من جيوش الحلفاء(٥٦)) •

فمن خلال مراقبة مواقف بريطانيا ازاء العرب تبدو لنا بريطانيا على حقيقتها ، من حيث انحيازها الى الجانب الصهيوني بشكل لايقبل أي عناء في البحث عن تقديم الاعذار عن سوء تصرفها مع العرب سوى التصميم على تنفيذ السياسات المرسومة عن عمد من قبل ، مما

حدا بالمؤرخ البريطاني المنصف ، ارنولدتويني ، ان يفند سياسة بريطانيا المخادعة ، التي تعطي العرب من خلالها الوعود المعسولة فقط بينما تعطي الصهاينة كل مايشاؤون ، وعبر عن ذلك بقوله :(لم يكن هنالك مثار شك في أن الثلاثمائة ألف يهودي من المهاجرين الذين تم جلبهم وادخالهم الى فلسطين ، خلال الثلاثين سنة من حكم الانتداب انهم دخلوا فلسطين بقوة بريطانيا وسلطتها وضد رغبات العرب الذين كانوا مقتنعين تماما بأن اولئك المهاجرين قد جاؤوا ليخنقوهم ولينشبوا أظافرهم في حلاقيمهم ، والحق ان الحوادث التي تلت قد أثبتت أن عمل البريطانيين كان في الحقيقة يعني القضاء على عرب فلسطين ان آجلا أو عاجلا (٥٧) (.. وان السلوك السياسي البريطاني في عامي (١٩٤٧و ١٩٤٨) كان مؤذيا للعرب أيضا . فقد كان العرب في فلسطين يتوقعون من السلطة المنتدبة أن تحمي على الاقل الجزء المخصص للعرب في مشروع التقسيم من عدوان اليهود . وكان من حقهم أن يطلبوا اليها أن تسلمهم هذا الجزء كاملا وآمنا ومستقرا ، ولكن السياسة البريطانية حرمتهم من ذلك ومهدت الجو لقيام حالة من الفوضى والاضطراب في البلاد (٥٨) .

وهنا أيضا لايمكننا تفسير تلك التصرفات بغير تصميم بريطانيا على تسليم فلسطين للصهاينة لقيموا فيها دولة عنصرية ، تتشابك مصالحها مع المصالح الامبريالية ضد مصالح وحقوق الامة العربية لذا عملت بريطانيا وفق خطة على مساعدة الصهاينة في توفير الجو المناسب لتأمين الكوادر اللازمة لاقامة الدولة وتسلم السلطات عندئذ كما عملت الدول الامبريالية على محاربة عدالة القضية العربية الفلسطينية داخل الامم المتحدة بزعامة كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وبخاصة عندما طالب المندوب العربي هيئة الامم المتحدة أن تعطي اللجنة المكلفة (اونسكوب) التحقيق في اسباب المشكلة الفلسطينية حق اعلان استقلال فلسطين كأحد مهامها ، عارضه مندوبو الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وفرنسا ..وفي تلك الاونة تشدقت

وسائل اعلام الحلفاء كثيرا بالكلام المعسول عن التضحيات الجسيمة التي تبذل من أجل انتصار الحرية والديمقراطية ، اللتين توفران الكرامة للانسان ، ولكن وسائل الاعلام هذه نفسها تجاهلت حق الشعب العربي الفلسطيني ، ولم تفعل شيئا ملموسا لاعادة توطين اليهود المهجرين ، في البلدان التي هاجروا منها ، بشكل يتفق وشعارات الاعلام البورجوازي التي ثبت كذبها وخداعها لكل ذي عقل ووجدان تلك الشعارات البراقة والمسخرة لخدمة الاغراض الاستعمارية بشكل فظ ، لايسمح باستخدام منطق واحد ومقياس واحد لبحث مشاكل الشعوب بهما عبر التاريخ .

أما بالنسبة الى فكرة التقسيم ، فان الولايات المتحدة ، لم تقدم على رفض مشاريع التقسيم الا بالظاهر ، للعب بعواطف بعض العرب لارتباط مصالحهم الطبقية والسلطوية بالامبريالية. وللتمويه على بعض الجماهير العربية ، التي لاحول لها ولا قوة آنذاك ، بينما كانت في نفس الوقت تطمئن المنظمات الصهيونية بأن معارضتها للتقسيم سوف لاتضر بمخططات هذه المنظمات في حقيقة الامر . كما أنه لم يكن الموقف الانكليزي بأفضل في هذا المجال . غير أنه لما تأكدت الدول الامبريالية بزعامة الولايات المتحدة من امكانية الحصول على اكثرية الاصوات الى جانب قرار التقسيم تحولت الى دعم المطامع الصهيونية ضاربة عرض الحائط بتهديدات الدول العربية باستخدام سلاح النفط وذلك لقناعتها بقدرتها على تضليل أو تكبيل الشعوب العربية من جهة وفرض الرضوخ على معظم الحكام العرب من ناحية أخرى ، لان مثل هؤلاء البعض لايملكون القدرة الجادة على التصرف .

وبعد تأجيل اجتماعات الجمعية العمومية مرتين ، تمكنت الولايات المتحدة من الضغط على وفود بعض الدول للتصويت ضد العرب مثل وفود (هاييتي وليبريا والفلبين) وبذلك تم اقرار التقسيم في هيئة الامم المتحدة ، غير أن هذا القرار قوبل بالرفض من جانب العرب

واليهود على حد سواء رفضه العرب ، لانه انتزع منهم حقا من حقوقهم ورفضه الصهاينة عن طريق الوكالة اليهودية أو المجلس (الملي) الغادلومي لشعورهم بأن الامبرياليتين البريطانية والاميركية ، لن تتخليا في المستقبل عن دعم المشاريع والمخططات الصهيونية لاقامة دولة يهودية صهيونية توسعية في فلسطين وما جاورها من الاراضي العربية ، ويؤكد هذه الحقيقة بعض ماورد في قرار حزب العمال البريطاني القائل (وعلينا ان نشجع العرب على الخروج من البلاد، في الوقت الذي نشجع فيه اليهود على دخولها .. وعلينا في الواقع أن نعيد النظر في احتمال توسيع الحدود الفلسطينية الراهنة عن طريق الاتفاق مع مصر وسورية وشرق الاردن[٥٩]).

وهكذا جاء انسحاب بريطانيا من فلسطين متفقا مع وجهة نظر حزب العمال البريطاني وسياسات بريطانيا وامريكا والصهيونية فقد غادرت الجيوش الانكليزية فلسطين عام (١٩٤٨) في (١٥ آيار) تاركة للصهاينة معداتها وتجهيزاتها بالاضافة الى المواقع التي انسحب منها ، لمنع العرب من اقامة الدولة الفلسطينية .

وفي نفس اليوم الذي أعلن فيه الصهاينة عن قيام دولة اسرائيل سارعت الولايات المتحدة الاميركية للاعتراف بها منذ الساعات الاولى لقيامها وقبل أن يغادر حاييم وايزمن الولايات المتحدة الى فلسطين ليتسلم مهام مسؤولياته كرئيس دولة ، قام قبيل المغادرة بمقابلة الرئيس الامريكي ترومان وفي هذه المقابلة وعده الرئيس الاميركي بتقديم (كل المساعدات السياسية والاقتصادية التي تحتاج اليها اسرائيل في الشهور العصيبة الاولى[٦٠]) لولادتها بين يدي الامبريالية العالمية بزعامة الولايات المتحدة الاميركية ،غير أن هذه المساعدات التي وعد بها الرئيس الامريكي فقد قدمت بالفعل وماتزال تقدم الى اليوم ،لان الولادة كانت غير طبيعية لان المولود كان ومايزال يعاني من الاحتضار واقتراب الموت رغم مهارة المداوي وفعالية العلاج .

* مراجـــع البحـــث *

١- تاريخ الاقطار العربية الحديث ، دار التقدم، موسكو، لوتسكي ص ٢٠

٢- = = = = = = = ص ٤٣ ،

٣- = = = = = = = ص ٧٤ ،

٤- = = = = = = = ص ١٤١ ،

٥- اسرائيل بنت بريطانيا البكر، محمد علي الزعبي ، ص ١٦٥ ،

٦- تاريخ الاقطار العربية الحديث ، دار التقدم، موسكو، لوتسكي ص ١٤٤

٧+٨ = = = = = = ص ١٥٨ ،

٩- = = = = = = = ص ١٥٨ ،

١٠- دراسات يسارية جلال صادق العظم ص ٢٩ ،

١١- دراسات يسارية جلال صادق العظم ص ٣٠ ،

\+ اسرائيل بنت بريطانيا البكر، محمد علي الزعبي ص ١٦٣ ،

١٢- المذهب العسكري الاسرائيلي ، هيثم الكيلاني ص ٢٩٤ ،

١٣- اسرائيل بن بريطانيا البكر،محمد علي الزعبي ص ١٣٨ ،

١٤- مع الكلمة الصافية ، قاسم الشواف ص ٣٨٧ ،

١٥- اسرائيل بنت بريطانيا البكر ، محمد علي الزعبي ص ١٤٢ ،

١٦- تاريخ الحركة الصهيونية ، الدكتور الن تايلور ص ٢٢ ،

١٧- شؤون فلسطينية عدد(١٥) سنة (١٩٧٢) ص ١٤٢ ،

١٨- نشرة ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي للجيش العربــــي السوري ص ٦٢ ،

١٩- مشروع القناة الاسرائيلية بين العقبة والمتوسط ، مكتب دراسات رئاسة الدولة السورية ص ٧ ،

٢٠- قضية فلسطين ، الدكتور احمد طربين ص ١٧١ ،

٢١- شؤون فلسطينية عدد(١٢)سنة (١٩٧٢) ص ٨٢ ،

٢٢- القضية الفلسطينية ، اكرم زعيتر ص ٦٢ ،

٢٣- قضية فلسطين ، الدكتور احمد طربين ص ١٥٨ ،

٢٤- تاريخ الحركة الصهيونية . الدكتور آلن تايلور ص ٢٢ .
٢٥- مع الكلمة الصافية . قاسم الشواف ص ٣٨٦ .
٢٦- القضية الفلسطينية . اكرم زعيتر ص ٧٠ .
٢٧- سياستان ازاء العالم العربي . دار التقدم . موسكو . بونداريفسكي ص ٢٢٩ .
٢٨- = = = = = = ص ٢٣٠ . آيضا دولة اسرائيل . جالينا نيكيتينا ص ٢٨ .
٢٩- سياستان ازاء العالم العربي . دار التقدم . موسكو . بونداريفسكي ص ٢٣٣ .
٣٠- سياستان ازاء العالم العربي . دار التقدم . موسكو . بونداريفسكي ص ٢٣٨ . أيضا قضية فلسطين . الدكتور احمد طربين ص ١٦٩ .
٣١- سياستان ازاء العالم العربي . دار التقدم . موسكو . بونداريفسكي ص ٢٤٣ .
٣٢- الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار . فتحي الرملي ص ١١٠ .
٣٣- القضية الفلسطينية . اكرم زعيتر ص ٩٥ و ٩٧ .
٣٤- الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار . فتحي الرملي ص ١١٥ .
٣٥- القضية الفلسطينية . اكرم زعيتر ص ٦٢ .
٣٦- محاضرات عن الحركة الصهيونية في معهد الاعداد النقابي العمالي بحمص (منذر حمودي) .
٣٧- = = = = = =
٣٨- قضية فلسطين الدكتور احمد طربين ص ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٥٢ .
٣٩- فلسطين مشكلة ماثلة : نادي كتاب الساعة بالهند ترجمة محمد جديد ص ١٢ .
٤٠- شؤون عربية عدد (١٥) عام (١٩٧٢) ص ١٧٣ .
٤١- قضية فلسطين . الدكتور احمد طربين ص ٩١٤ .
٤٢- القضية الفلسطينية . اكرم زعيتر ص ١٩٠ .

٤٣ـ القضية الفلسطينية • اكرم زعيتر ص ٤٢٧ •
٤٤ـ = = = ص ١٩٠ •
٤٥ـ قضية فلسطين الدكتور احمد طربين ص ٤٤٩ •
٤٦ـ المذهب العسكري الاسرائيلي ـ هيثم كيلاني ص ٧٥ •
٤٧ـ مجلة المعرفة السورية عدد (٤٩) عام (١٩٦٦) وعدد (١٤٤) عام ١٩٧٤) ص ٤٠١
٤٨ـ سياستان ازاء العالم العربي • دار التقدم • موسكـــــو • بوند اريفسكي ص ٢٥٥ •
٤٩ـ شؤون فلسطينية عدد ٢٥ ص ٣٩ •
٥٠ـ اسرائيل بنت بريطانيا البكر • محمد علي الزعبي ص ١٣١ •
٥١ـ دولة اسرائيل (جالينا نيكيتينا) ص ٤٠ •
٥٢ـ قضية فلسطين الدكتور احمد طربين ص ٦٤٠ •
٥٣ـ القضية الفلسطينية اكرم زعيتر ص ١٦٠ •
٥٤ـ المذهب العسكري الاسرائيلي • هيثم كيلاني ص ٦٩ •
٥٥ـ مفارق الطرق الى اسرائيل • ترجمة خيري حماد ص ٤٢٣ •
٥٦ـ قضية فلسطين الدكتور احمد طربين ص ٨٥٤ •
٥٧ـ فلسطين جريمة ودفاع • ارنولدتوينبي ص ٥٦ •
٥٨ـ محاضرات عن الحرية الصهيونية في معهد الاعداد النقابـــــي العمالي بحمص (منذر حمودي) •
٥٩ـ مفارق الطرق الى فلسطين • ترجمة خيري حماد ص ٤٢٦ •
٦٠ـ دولة اسرائيل • جالينا نيكيتينا ص ٤٥ •

ـ مصادر آخرى رافـــــدة ـ

١ـ ضد اسرائيل (بيير ديميرون) •
٢ـ الهجرة اليهودية الى فلسطين (الياس سعد) •
٣ـ الصهيونية في المجال الدولي (محمد عبدالمعز نصر) •
٤ـ اسرئايل والشروق الاوسط (علي محمد علي) •
٥ـ التحدي الصهيوني (جاك دومال) •
٦ـ المسألة اليهودية (كارل ماركس) •
٧ـ اسرائيل واقع استعماري (مكسيم رودنسون) •

تاريخ التنقيب عن الآثار

الأستاذ ماجد الموصلي

يعتبر علم الآثار من العلوم الحديثة نسبيا ، إذ لم يمض على ظهور التنقيب الاثري المنهجي الا قرن واحد تقريبا ، ومازال علم الاثار والتنقيب الاثري في طور النمو ، والمجال الذي يتطور فيه هو التنقيب الاثري المنهجي (Archaeological excavation) .

للتنقيب عن الاثار تاريخ طويل يصل الى الزمن الذي سبق تشييد اهرامات الجيزة وقد امتازت بعض اعمال التنقيب خلال اربعة آلاف عام بأنها كانت عشوائية وقد نفذت كيف ما اتفق ، الا أن البعض منها كان وفي حالات نادرة ، منتظما وهادفا ، وقام بتنفيذها أفراد أو جماعات وذلك اعتبارا من القرن الرابع عشر م .

كانت سرقة القبور والسطو على محتوياتها من أثاث جنائزي ثمين من الامثلة المعروفة للتنقيب عبر التاريخ الحضاري للبشرية . فقد أغرى الاثاث الجنائزي الذي كان يشتمل على حلي ومجوهرات وادوات مختلفة كلا من لصوص الاثار والاثريين في آن واحد . واخبار وقصص سرقة القبور المصرية معروفة في التراث الشفوي الشعبي المتناقل كما وأن بعضا من الوثائق المصرية القديمة تنوه الى تلك الاعمال بوضوح . ولم يقتصر نهب القبور على السطو على الاثاث الجنائزي المدفون في القبور المصرية القديمة ، بل شمل ايضا قبور شانغ (Shang) في الصين ، فقد نهبت هي الاخرى منذ أزمنة بعيدة عن التاريخ المعاصر. نهبت قديما أيضا قبور الملكة اوزيبرغ ملكة الفايكينغ وبعض القبور الملكية في اور (بلاد مابين النهرين) .

جرت أعمال التنقيب عن الآثار خاصة في الاوابد والمدن اليونانية والرومانية حيث حاول بعض المهتمين العثور على قطع فنية أثرية

أو نقود قديمة . وكانت لأعمال البحث والتنقيب تلك صفة تحقيق الاهداف الشخصية ومتعة الاكتشاف ، وخلت من أهداف تحقيق المعرفة العلمية والعامة الهادفة .

كان نابونيدس (Sabonidus) آخر ملوك بابل الذي حكم بين عامي (٥٥٥و ٥٣٨) ق.م ، أول أثري في التاريخ ، فقد كان معجبا بالتاريخ الحضاري لبابل ومولعا في البحث وجمع المعلومات عنها ،وقام بأول أعمال التنقيب عن آثار الأبنية البابلية القديمة وجمع ماعثر عليه وحفظه في متحف يعتبر من أبكر المتاحف في التاريخ .

وفي زمن الرومان ذكر المؤرّخ الشهير سترابو(Strabo) أنه عندما أنشأ الامبراطور يوليوس قيصر احدى مستعمراته فوق أوابد مدينة كورينث (Corinth) عثر بعض العمال على قبور مدينة قديمة حيث وجدوا فيها آنية معدنية ، بيعت حينها الى مقتنين رومان .

كان أول عمل قام به الغزاة الاسبان بعد انتصارهم على ممالك الهنود الحمر في المسكيك والبيرو وبانامانهب القبور بحثا عن الذهب والمجوهرات . وكتب فريننديزوأوفيدو أبكر وصف معروف حتى الان لعملية حفر القبور في مدافن حضارات العالم الجديد وخاصة حول تلك التي جرت في دارين (Darien) وأرخ الوصف في عام(١٥٢٢). ووصف دوأوفيد وهو أول تقرير يتضمن معلومات مدونة حول عملية تنقيب عن الاثار .

بدأت في القرن الخامس عشر م ،أي بعد مرور حوالي ألفي عام على تاريخ انشاء متحف نابونيدوس ، أولى مجموعات المقتنيات الاثرية بالظهور في ايطاليا ، وهي المجموعات التي وردت عن طريق التنقيب الاثري . ونشطت بعدها صرعة اقتناء الاثار في روما ، وكان البابا الاسكندر السادس الذي جلس على كرسي البابوية في روما بين عامي (١٤٧١ و ١٤٨٤) قد أمر بالقيام باعمال التنقيب الاثري بغية اغناء مجموعة الفاتيكان من القطع والمقتنيات الاثرية .

نشطت ونمت تقليعة اقتناء الاثار مع بداية القرن السادس عشر

وقد اشتغلت بها شخصيات من روما . عرفت باسم (Dilettani) أي المشغوفين بالفنون الجميلة ، وكانت الغاية من اقتناء الاثار تزيين القصور الضخمة والحدائق والساحات ، ولم يقتصر الشغف بتقليعة اقتناء الآثار على هواة من العاصمة الايطالية ، بل شمل أيضا هواة من مختلف المدن الاوربية . وقد شكلت تلك القطع المقتناة النواة التي نمت فيما بعد وأضحت مجموعات كبيرة حفظتها وعرفتها المتاحف الاوربية الكبرى .

زار توماس هوارد ايطاليا واليونان وتركيا عند بداية القرن السابع عشر وجمع أثناء جولته قطعا أثرية هامة ، واشتملت المجموعة التي حصل عليها على روائع من الاثار الرخامية الكلاسيكية .

ومع حلول السنوات الاولى من القرن التاسع عشر بدأ مقتنوا الاثار يقصدون أوابد المدن الاثرية الموجودة في وديان انهار العالم القديم (النيل والفرات ودجلة) . لم تعرف اوربا عند نهاية القرن الثامن عشر عن غنى بلاد العالم القديم بالاثار الا النذر القليل ومع افتتاح القنصلية البريطانية في بغداد عام (١٨٠٢) بدأت مرحلة الاهتمام بآثار بلاد مابين النهرين موطن الحضارات القديمة . وكان كلاوديوس ريش أحد الرواد الاوربيين الذين أولوا جل اهتمامهم لكشف الغموض الذي كان يكتنف تاريخ الحضارات القديمة وآثارها . كان كلاوديوس ريش طالبا يدرس اللغات القديمة ، وقد زار العراق بهدف الحصول على كتابات ووثائق مدونة بالاقلام القديمة وتحرى واستطلع المواقع الاثرية في بلاد مابين النهرين وتمكن من اقتناء رقم طينية مدون عليها نصوص بالقلم المسماري ومخطوطات مكتوبة بالقلم الشطرنجيلي (السرياني القديم) ونقودا أثرية وأختاما اسطوانية وغيرها . ووصلت مجموعة ريش بعد ذلك الى المتحف البريطاني الذي اقتناها وجعل منها احدى مجموعاته .

كانت باكورة أعمال التنقيب الاثري في بلاد مابين النهرين بعيدة عن الدقة العلمية ، وفقدت خلال تنفيذها معلومات كثيرة

كما وكانت تهدف لسرقة الاثار ، ورافقها تضحيات كثيرة ، وكان حجم الاموال التي مولت بها ضئيلا جدا . توفي خلال تنفيذها س . بيلينو (S.Bellino) وك . ريش (C.Rich) وج سميث (G. Smith) وكانت أسباب وفاة هؤلاء الرواد مرضهم بالاوبئة التي كانت منتشرة في منطقة الحفريات .

عاصر هنري راولينسون (H. Raeolinson) كلاوديوس ريش وهو من أصل هندي امتاز رواولينسون بهمة وطاقة عالية ودأب فريد زار هذا الشاب الخيال والمغامر عدة مواقع أثرية في ايران وكان جل اهتمامه ينصب في دراسة النقوش القديمة . نسخ رواولينسون عددا كبيرا من النقوش المدونة بأقلام قديمة كانت عبارة عن طلاسم وترجم تلك النقوش ونشر مؤلفه حول اللغات القديمة (الكتابات المسمارية في عام ١٨٣٧)، وقد منح هذا المؤلف صاحبه لقب رائد فك رموز القلم المسماري (Father Of Cuneiform) .

كان أول المغامرين الاوربيين الذين وصلوا الى بلاد اليمن الدانماركي كارستن نيبور (Carsten nibahr) . حطت رحال ذلك المغامر في بلاد العرب السعيدة في خريف عام (١٧٦٢)،وبدأت مع وصوله مرحلة البحث العلمي الحديث لبلاد العرب وتاريخها ، وكانت معلومات البعثة التي ترأسها نيبور قبل المباشرة باجراء أبحاثها مقتصرة على ماورد من وصف لبلاد العرب لدى المؤرخين اليونان والرومان (منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام) ، فمنذ بطليموس الذي وصف البلاد المعروفة في زمنه (القرن الثاني م.) لم ترد الى أوربا المركز الفكري الناشئ ، أية معلومات جديدة عن بلاد العرب ،مع استثناء النذر القليل والنادر .

وكان من النتائج الاساسية لاعمال بعثة نيبور التنبيه الى الاهمية الحضارية لبلاد العرب وازالة الغموض الذي كان يكتنف تاريخ الحضارات العربية . زار اليمن بعد نيبور الدكتور سيتزن (Seetzan) وكانت غايته الاساسية زيارة مأرب العظيمة عاصمة سبأ أشهر

الممالك العربية القديمة .

بدأ بجمع الاثار المصرية واقتنائها في القرن الخامس عشر، وكان جل مقتني تلك الاثار من الايطاليين المهتمين بجمع النصوص الدينية للرومان . رافق تلك النشاطات نهب للمواقع الاثرية ، وللمدافن ، وجاء اكتشاف حجر رشيد (Rosettastona) في عام (١٧٩٩) ليتوج الاهتمام باللغة المصرية القديمة . اكتشف حجر رشيد احد ضباط نابليون بونابرت ، وقد شجع ذلك الاكتشاف اندري يوسف بوسارد (A.J.Boussard) على التنقيب في قلعة رشيد .

نقل حجر رشيد بعد صراع بين الجنرالات الانكليز والفرنسيين دام حوالي ثلاثة سنوات ، وعرض في المتحف البريطاني عام (١٨٠٢) . نقش على الحجر البازلتي نص بثلاثة أقلام مختلفة هي اليوناني والدمياطي (Demotic) والهيروغليفي ، ويعود تاريخ النص الى عام (١٩٦ ق . م) زمن حكم بطليموس الخامس . وقد ساعد تدوين نقش رشيد بالقلم اليوناني القديم اضافة الى القلمين الدمياطي والهيروغليفي شامليون (Champollion) على فك رموز طلاسم القلم الهيروغليفي وبالتالي فقد فتح هذا الكشف الطريق أمام البحث في المصريات (أو علم الاثار المصرية واللغة المصرية القديمة) (Egypttlogy) .

لم يكن الاثريون الاوربيون حتى منتصف القرن التاسع عشر محترفين لمهنة التنقيب الاثري ، بل كان العمل الاساسي لجلهم شتى الحرف والمهن . وابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهر آثريون امتهنوا التنقيب الاثري ، كان منهم اوستين هنري لايارد (Austen henry Layard) الذي نقب في موقع نمرود احدى عواصم الممالك الاشورية الشهيرة . اكتشف لايارد في نمرود قصرين ظن أنهما من قصور نينوى عاصمة الاشوريين ، لكن المكتشفات التي تلت مرحلة لايارد أثبتت خطأ النظرية بتوقيع نينوى في موقع نمرود . ومع ذلك فقد أحدث اكتشاف القصرين من قبل لايارد ضجة في الاوساط العلمية الاوربية وخاصة الفرنسية منها مما دفع

بالفرنسيين تحت تأثير الغيرة الى المبادرة للظهور على مسرح التنقيب الاثري ، وخاصة أن حمى البحث عن الكنوز الذهبية كانت ماتزال المرض والشغل الشاغل للاثريين وللمهتمين بالتنقيب عن الاثار . كما وأن تجارة الاثار كانت هي الاخرى في أوج ازدهارها وقد شجع هيام تجار الاثار للحصول على الاثار النفيسة وبالتالي جني الارباح الطائلة ، المنقبين الى مزيد من العمل والكشف الاثري .

كان هرمز رسام من رواد التنقيب الاثري في بلاد مابين النهرين بعد لايارد . نقب رسام في موقع نينوى واكتشف خلال تنقيباته ركنا من قصر آشور بانيبال الشهير الذي يعود تاريخه الى مابين عامي (٦٦٩ و ٦٣٣) ق.م . وقد حالف الحظ رسام باكتشاف مئات من الالواح الطينية المنقوش عليها نصوص بالقلم المسماري ، كما واكتشف رسام مساحات كبيرة من المنحوتات الجدارية التي تعتبر من روائع فنون النحت الاشورية .

لم يكن رسام يعرف طريقة حفظ الالواح الطينية بواسطة شيها بالنار ، لكنه تعلم ذلك لاحقا فقد كتب يقول(استمرت تنقيباتنا قرابة ثمانية عشر شهرا من دون انقطاع ، وعثرنا خلال تلك المدة على مايقرب من سبعين ألف من الالواح الطينية المنقوش عليها نصوص بالقلم المسماري ، لكنه تحطم معظمها الى قطع صغيرة قبل أن نتمكن من شيها بالنار) .

ولقد أثار الاهتمام بدراسة النصوص المسمارية الحافز والرغبة بالحصول عليها وجمعها عن طريق التنقيب الاثري ، وكانت النتيجة أن اندفع العديد من سكان بلاد مابين النهرين الى التنقيب سرا .

نتج عن تلك التنقيبات السرية التي خلت من العلمية والمنهجية العبث بالاوابد الحضارية وتدمير العديد من المواقع الاثرية الهامة وبيعت الالواح الطينية المكتشفة في اسواق بغداد لتجار الاثار الذين كانوا يبيعونها بدورهم الى الاثريين وموظفي المتاحف .

كان من أشهر من اقتنى الالواح الطينية ج. سميث (G. Smith)

الذي اشترى آلفي لوح في عام (١٨٧٦) . واشترى بودجي (Budge) في عام (١٨٩٠) مايقرب من تسعة آلاف وخمسمائة لوح كانت قد اكتشفت جميعها خلال الحفريات السرية التي جرت في موقع دير .

وكانت حادثة اكتشاف مايقرب من خمسة وثلاثين آلف من الالواح الطينية في موقع تيللو (Tello) من الحوادث الفريدة في تاريخ التنقيب الاثري السري . فقد قام المنقبون السريون ولصوص الاثار في عام (١٩٠٠) بالسطو على الموقع الاثري تيللو بعد أن هجر بسبب خيبة أمل المنقب سارزيك (Sarzec) . اكتشف لصوص الاثار في تيللو غرفة آرشيف القصر الملكي صدفة وهي الغرفة التي أودعت فيها الالواح الطينية ، وقد وجدت معظم الالواح في حالة جيدة . استمرت اعمال التنقيب السري في الموقع بعدها لفترة طويلة .

وصف لوفتوس (Loftus) في عام (١٨٥٨) احدى عمليات التنقيب السري التي كانت تجري في موقع الوركاء (اوروك ، جنوب بلاد مابين النهرين) على الشكل التالي :(كان هدفي خلال زيارتي الثانية الى الوركاء جمع التوابيت الخزفية (الفخارية) وارسالها الى المتحف البريطاني . لقد تبين لي أن طريقتي في الحفر ليست مجدية واستخدام الادوات والعدة التي بحوزتي للوصول الى ما أنبغيه عمل شاق . أما المنقبون السريون من أهل المنطقة فيستخدمون طريقة أفضل لاكتشاف التوابيت وهي غرز سيخ معدني طويل في التربة الهشة فاذا ما اصطدم بكتلة قاسية عندها يبادر المنقب الى حفر المكان) (١)

تضررت من التنقيبات السرية مواقع عديدة كان منها أيضا الموقع الاثري في جفاجي (بلاد مابين النهرين) وعدة مواقع آثرية هامة في جنوب غرب ايران ، حيث تجاوز عدد القبور التي فتحها لصوص الاثار الالاف .

---

(١) يوضح لنا كلام لوفتوس أن هدف المنقب الاوربي لم يختلف عن هدف المنقبين السريين عند منتصف القرن التاسع عشر .

عادة نهب القبور قديمة ،وهي معروفة منذ آلاف السنين . واخبار نهب وسرقة القبور مثبتة في الكتابات الجنائزية التي تلعن من يمس القبر بسوء . والغاية من نبش القبر العثور على مادفن مع الميت من مجوهرات وغيرها من اثاث جنائزي ثمين . وقد ولع بعض الاوربيين منذ القرن الخامس عشر باقتناء المومياء المصرية ، فكانت المومياء هدفا من اهداف لصوص الاثار . ويذكر لنا تاريخ التنقيب السري اسم أحد الذين شغفوا بسرقة الاثار المصرية وهو جيوفاني باتيستابيلزوني (G .B .Belzoni) .

عمل بيلزوني في القاهرة عام(١٨٠٠) تحت اشراف القنصل البريطاني ومدعيا أنه مهندس للري . بدأ بيلزوني بسرقة قبور طينية ،ثم انتقل بعدها الى أبي سمبل حيث استطاع الدخول الى الهرم الثاني واكتشف فيه رأس تمثال رعمسيس الثاني الذي يزن ثمانية اطنان . ويعتقد أنه هو الذي خطط لعملية نقل رأس التمثال الى خارج مصر .

كان هوارد كارتر(H . Carter) أيضا من لصوص الاثار المصرية وقد ارتبطت باسمه عملية اكتشاف قبر توت عنخ آمون الشهير في عام(١٩٢٣) .

ومع نهاية القرن التاسع عشر وبعد أن تكشفت النصوص والنقوش القديمة عن معلومات مدونة حول التاريخ الحضاري لمناطق الشرق القديم ، بدأ التنقيب عن الاثار ينحو نحوا منهجيا علميا غايته اكتشاف الكتابات القديمة . وهكذا تغيرت اهداف التنقيب من بحث عن محتويات القبور وسرقتها الى بحث عن الوثائق المدونة لدراستها بغية ازالة الغموض الذي يكتنف تاريخ الحضارات القديمة .

أما بالنسبة الى دراسة تاريخ الانسان في العصور الحجرية أي منذ الربع الاخير من العصر الجيولوجي البلايستوسين أو مايعرف بالعصر الجليدي ، فقد بدأ الاهتمام بها في أوربا مع نهاية القرن الماضي . تمثل الاهتمام بالبحث عن المخلفات الحجرية للانسان

مثل الادوات الصوانية وتلك المهيئة من العظام وغيرها من قطع مميزة في طابعها الفني • وقد ظهر اثريون تركز جل اهتمامهم في الكشف عن حضارات عصر ماقبل التاريخ الاوربي •

لم تكن اللقى الاثرية الحجرية في يوم من الايام من أهداف لصوص الاثار ومنقبي القبور ، ولقد أغرى ركام التنقيب الذي رماه المنقبون السريون المنهجيين الجدد للبحث فيه عن الادوات الحجرية بقصد جمعها وتصنيفها ودراستها • علما أنه من الصعب الربط فيما بينها وبين مصادر الطبقات والمواقع الاصلية التي عثر عليها فيها أولا • كان السويسري اوتوهاوسر (O . Hauser) من أشهر من اقتنى القطع الاثرية المكتشفة في اوربا ، فقد باع للمتحف الاثنولوجي في برلين في عام(١٩٠٨) جمجمة من موقع عصر ماقبل التاريخ في لوموستير(Lemoustier) بقيمة (١٠٠٫٠٠٠) مارك ذهبي •

ومارس هواة اوربيون كثيرون اعمال التنقيب الاثري في مواقع اثرية عبر القارة الاوربية ، لكن تلك التنقيبات سرعان ماتوقفت عندما تكشفت الاهمية التاريخية العلمية لا المادية للقطع الاثرية الحجرية •

كانت التنقيبات الاثرية التي قام بها كل من الانجليزي هنري كريستي (H . Christy) والفرنسي ادوارد لارتيت عند عام(١٨٦٣) منهجية ورائدة في تاريخ التنقيب عن الاثار • نقب الاثنان في الموقع الفرنسي الشهير آثار العصر الحجري القديم والمعروف باسم (لامادلين Lamadeein) وهو الموقع الذي اكتشفت فيه الحضارة المعروفة باسم الحضارة المجدلاتية (Magdalenien).
ونقبا أيضا في الموقع لاموستير(حضارة موستيريان Mousterien) وفي مواقع اخرى لاثار العصور الحجرية • توصل المنقبان كريستي ولارتيت الى نتائج علمية هامة وخاصة في تحديد السويات الحضارية للعصرين الحجريين القديم والاعلى ، كما وكشفا عن الفنون التي عرفها انسان العصور الحجرية القديمة •

بدأ الاهتمام بالكشف عن الاثار الامريكية عند عام (١٨٤٠) ، فقد اشترى الضابط في الجيش الامريكي ج.ل. ستيفنز(J .L.Stephens) الموقع الاثري الكلاسيكي للمايا في بالينك (Palenque) واهتم فريدريك تشاتفيلد (F . Chatefield) بالموقع الاثري الشهير لحضارة المايا والمعروف باسم كوبان(Copan) . لكنه .ولحسن الحظ لم يستطع ستيفنز وتشاتفيلد نقل اثار المايا من موقعيهما الشهيرين بالينك وكوبان .

في الولايات المتحدة الامريكية أدى غزو الغرب الامريكي من قبل الكاوبوي الى الانتباه والاهتمام بأرض الغرب وبما دفن فيها من آثار . كما وأن الحرب المكسيكية ووصول ضباط من الجيش الامريكي الى المواقع الاثرية في بلاد المكسيك كان قد أدى الى اثارة موضوع البحث عن المواقع الاثرية والكشف عنها .

وقبل أن نختم هذا الموجز حول تاريخ التنقيب عن الاثار لابد لنا من أن نذكر أهمية اكتشاف قطع أثرية يعود عصرها الى ماقبل التاريخ في موقع ميسافيردي (Mesaverde) .

ثم الاكتشاف في عام(١٨٠٠) ، وكان المنقبون أفراد عائلة ويتريل (Wetherill) التي استوطنت في اقليم كولورادو من الغرب الامريكي . وفي بلاد الانكا والازتيك والمايا (البيرو والمكسيك ودول امريكا الوسطى) اكتشفت آثار رائعة وهامة ، كانت منها قطع يعود عصرها الى ماقبل الفترة الكولومبية ، وقد نقلت معظم تلك الاثار من موطنها الأصلي الى بلاد المقتنين ومولعي جمع الاثار سواء في امريكا الشمالية أو في أوربا .

*** مصادر البحـــــــــــث :**

1-Frank Hole and Robert F. Heizer
An lutroduction to Prehistoric Archeology ,
Newyork chicago (1973) . Page ،40-53
2- Evagerlach,
Sand ubev den tempeln Arabiens ,Leipzig(1967)
(٣) ـ ماجد الموصلي ، ملاحظات حول أهمية العلوم الانسانية كعلـــم
الاثار والانتروبولوجيا ، مجلة البحـــــــث
التاريخي ، العدد الاول ، حمص (١٩٧٧) ،
ص (٦٧ ـ ٦٩) ٠

الإنطلاقة العربية في الحقل التجاري

* الأستاذ عبد الرحمن أيوب

*** مقدمـــــة :**

اتفقت كلمة المؤرخين على أن مهد الحضارات الانسانية بزغـت وتألقت في وديان الانهار الثلاثة -- النيل والفرات والغانج - وعندما شب الانسان عن طوق الطفولة البشرية ودخل مرحلة النضج الحضاري ،حسن كثيرا من أدوات انتاجه وأوجد المعاملات المالية لتنظيم التجـارة ، فأوجد الشرائع لخدمة علاقاته الاجتماعية ... ان الحضارة ليسـت وقفا على شعب دون آخر . فكافة الامم اشتركت في نسج البسـاط الحضاري .

ان افتراق الانسان بالتخصص المهني لهو أعظم تطور في تاريـخ البشر ،ونشوء أرباب المهن منذ القدم دليل أكيد على أن الانسان غير قادر أن يعيش منفردا عن الاخرين .. ولابد له من التعاون وهذا احساس عميق في الذات البشرية مادام الانسان اجتماعيا بالفطرة .

ان مانشاهده من المخلفات الانسانية في المتاحف دليل على عبقرية الانسان ،واذا رجعنا القهقري الى الوراء ونستشف حجب التاريخ البشري على مداره الطويل ،واجهتنا عدة أسئلة :

فهذه المصوغة الذهبية المصنوعة في وادي النيل ماسبب وجودها في سورية وتلك الانية الفخارية اليونانية كيف وجدت فوق الارض الايطالية ؟..

فيبرز الينا ذلك الكائن البشري الذي غمط حقه المؤرخون ،حيث خصصـوا صفحاتهم المفرطة للملوك والقادة ...

انه التاجـــر .

ان التاريخ حفظ كثيرا من آخبار شخصيات القرون الخوالي ... ولكن مانصيب التجار والجهابذة والصرافين ؟ ،وقوافلهم التجارية في البر والبحر .. ؟ ان قاع البحار والمحيطات لايزال يحتفظ بسر بعض الشحنات من الانتاج الاقتصادي وقد كشف عن بعضها في السنوات الاخيرة كما جرى في بحر ايجه وغيره مثلا ...وحديثا قرب ساحل جزيرة ارواد في سورية ... فطالب الجامعة يدرس سير الفاتحين والحضارات في الطب والهندسة والعلوم ... ولكنه لايذوق طعم الأبحاث التي صاغها التجار فكأن الشعوب كلها ملوك وقادة .. أما نافخ الكير وصانع المحراث والنساج فهم بريئون من طينة الانسان .

الاستاذ عبدالرحمن ايوب

*** التجارة في القديم :**

بعد هذه المقدمة التي فرضت نفسها ،دعونا نلج الى بحثنا ولنلق نظرة ممهدة لهذا البحث حول التجارة في العصور السابقة لميلاد المسيح عليه السلام ولنأخذ نموذجا من الواقع :

ففي بلاد الرافدين حيث الابحاث الحضارية استقرت على ارضية الحقيقة التاريخية بعد قراءة الرقم الفخارية المسمارية .. كيف كانت تجارتهم قوانينها ،نقدها ؟ فبقصد المتاجرة مع مدينة نائية أو احدى البلدان الاجنبية . كان التاجر البابلي يؤسس نوعا من الشراكة المساهمة مع تاجر متجول . فيسلمه اما دراهم أو بضاعة يسعى الى بيعها بأغلى الاسعار ،ولم يكن هذا التاجر المتجول ليضع في الشركة سوى مايملك من خبرة ومهارة وثقة عند الناس . ويمكن اعتبار عهد حمورابي من أزهى العصور التي شهدتها بلاد الرافدين بنهضتها التجارية الرائعة. وقوانينه شاهدة على ذلك ،وكان القرض بالفائدة معروف في تلك العهود (١) .

هذا ولم يكن للبابليين دراية بالعملة ومعناها الصحيح ،فكان الشعير هو المادة الأساسية للتبادل التجاري ،وبعد عثور الانسان على معدني الذهب والفضة الحق البابليون هذه السبائك وذلك قبل بزوغ فجر الالف الثالث قبل الميلاد ... وبمرور الزمن أصبح الشعير والفضة اساس التبادل الاقتصادي ،والجدير بالذكر أن رواتب رجال الدولة واجور العمال الزراعيين كانت تؤدى لهم شعيرا ... أما اصحاب الحرف وعمال الآجر فكانت تدفع رواتبهم بالفضة وكما تحدث مضاربات في الاسواق المالية وتهبط العملة ،فالشعير ايضا كان يتغير سعره حسب الفصول (٢) .

- أما في بلاد اليونان :

فقد سئم الناس العملية المملة حيث كانت المقايضة كالتالي :

الخادمة بثور الحراثة أو لامة من السلاح . ومع تقدم الزمن وتحضر البشر وزنوا كتلا من الذهب والفضة ،بقيم معترف بها وطرحت للاستعمال في المعاملات اليومية ،وهكذا يكون الفرد الانساني قد اختار المعادن قصدا لاصدار اول نقود في التاريخ .

ان اليوناني الذي ظل يستعمل اسياخ الحديد لفترة طويلة من الزمن في اسبرطة الى جانب آثينا ،اعتبر ستة اسياخ من الحديد تعادل حفنة أو دراخمة - هذا وقد عثر الاثريون على حزم من الحديد طول الحزمة حوالي أربعة أقدام . ومربوطة بحزامين من الحديد في هيرايوم وهذا مايؤيد الاستعمال الاشتقاقي القديم لكلمة حفنة من ستة أسياخ ويؤيد أيضا اسطورة النقود الحديدية المستعملة في اسبرطة(٣). ولايستطيع آحدنا أن يدرك كيف سارت المدنيات الكبيرة وازدهرت في العصور الاولى للانسانية قبل اختراع العملة . فكما اسلفنا ان جميع المعاملات التجارية كان قوامها المبادلة ،أو حمل سبائك الذهب والفضة ولابد من ميزان خفيف ،وكثيرا ما اتخذ العبيد أو المواشي وحدات للقيمة . في جزيرة كريت اكتشف الاثريون أن الغرامات قد حسبت بعدد القدور والكراسي المثلثة الشكل ،واستقر الرأي حاليا على اعتبار ملك ليديا كروسوس في آسيا الصغرى ، أو فيدون صاحب آرجوس هما أول من سك عملة في التاريخ ... وهذا الاختراع يرجع الى القرن السابع قبل الميلاد على الارجح(٤).

* طريقة صنع العملة :

وتكون بتجهيز طابع من المعدن ثم يحفر عليه حفرا غائر كما في اصحاب الاختام ،ثم يثبت هذا الطابع في سندان ويؤتى بقطع مصبوبة من الذهب والفضة أو أي معدن آخر وتكون هذه القطع قد وزنت وتكون مستديرة ومقعرة الوجهين . ثم تدق هذه القطع في الطوابع بواسطة مطرقة ومنقش ،وكان يحفر على النقش رسم آخر . وهكذا كانوا يحصلون على العملة قديما(٥).

وهناك أيضا وضع للسكة لايخرج عن هذه الخطوط الرئيسية في مقدمة ابن خلدون /ص ٢٦٠/ وباختراع العملة أوجد الانسان مادة سهلة للمعاملة دلت على تطوره الاقتصادي ٠

*** العرب قبل الاسلام والتجارة :**

اشتهر العرب بالتجارة منذ القدم ٠ فاعظم شعب تجاري خرج من جوف جزيرة العرب هم الفينيقيين / يهود العالم القديم / ٠ وقد قامت محطات تجارية على طرق القوافل في بلاد العرب أصبحت مع تقدم الزمن مدنا عامرة كالبتراء وتدمر ٠ ٠ أما في الجنوب فحدث ولاحرج ٠٠٠ وقد وجدت في جزيرة ديلوس في ارخبيل اليوناني نقوش عليها كتابة يونانية وبالخط المسند لتاجرين عربيين من جنوب اليمن ٠٠ وهذا دليل على مدى اتساع الصلات التجارية لعرب الجزيرة قبل الاسلام (٦)٠

وقد حاول الرومان كسر الاحتكار اليمني للتجارة الدولية في الجزيرة وخاصة التوابل والعطور ولكنهم فشلوا ،هذا وقد أصبحت التجارة تتعرض لمصاعب جمة حيث انقسم العالم قديما الى معسكرين متحاربين ـ روم وفرس ـ فتحولت بعض الطرق التجارية كطريق الحرير القادم من الصين وقل الامن ٠٠٠ وهكذا تمضي السنين والمعسكران يتصارعان على مناطق النفوذ ٠ والضعف يدب في اوصالهم ٠٠٠ والجزيرة العربية تكتل قواها تحت قيادة المعلم الاكبر محمد بن عبد الله /ص/ وبعد انتقاله الى الرفيق الاعلى وبعد ثلاثين سنة انحسر المد الرومي والفارسي عن الوطن العربي وظهر على مسرح التاريخ العرب المسلمين الذين طوروا التجارة الدولية آنذاك ،ووضعوا لها الاسس المثبتة المستمدة من الشرع الاسلامي ٠

*** التجارة في عهد الرسول الكريم /ص/ والعهد الاموي :**

ان التجارة في عهدي الرسول (ص) والدولة الاموية كانت متواضعة

وعلى وتيرة واحدة صيفية وشتوية ،كما جاء في سورة الايلاف حيث عمل العرب المسلمون على توطيد اسس الدولة بالدرجة الاولى وهداية الناس الى الدين الجديد ،ولكن عندما هدأت موجة الفتوح ومصرت الامصار وبنيت المدن الاسلامية ،وامتدت الدولة من جبال هندوكوش شرقا الى سواحل المحيط الاطلسي غربا ومن نهر الفولجا شمالا حتى مجاهل القارة الافريقية جنوبا شاملة الاندلس والساحل الفرنسي ... بدأ التجار العرب يظهرون على المسرح التجاري . ..(وسيطر التجار في هذه الفترة على الطرق البرية والبحرية المؤدية الى روسيا والصين والهند وكوريا)(٧) واصبح للتجار المسلمين وكلاء في المراكز التجارية الكبرى في مختلف الجهات . وما ظهور العملات الاسلامية في أقاصي السويد وروسيا الا دليلا على مانقول ...

* التجارة والتمويل في العهد العباسي الاول :

كان العهد العباسي عهد الازدهار التجاري للدولة الاسلامية ،حيث بنى ابو جعفر المنصور مدينة بعداد في عقدة مواصلات هامة ...
وكانت هي والاسكندرية تتنافسان الزعامة التجارية وتقرران اسعار السلع في ذلك الحين .

وقد كان التجار الغرباء ينامون في فنادق ذات طابقين ،الطابق الارضي مخصص لخزن السلع ويقفل عليه باقفال رومية .. اما الطابق الاعلى فهو للنوم واذا علمنا ان التاجر يحمل معه الاراء والافكار ادركنا سبب انتشار الاسلام في سواحل افريقية الشرقية والشرق الاقصى (اندونيسيا والفلبين) ففي العهد الساماني ظهر بين الترك في صحراء باكستان ـ مستعمرات اسلامية لم يكن السامانيين يد في ظهورها ولكن للحكام المحليين من الاتراك (٨).

واما نصيب دمشق من التجارة الاسلامية في العهد العباسي فقد كانت ملتقى الحجاج قبل ذهابهم الى مكة لأداء فريضة الحج وبعد ايابهم . مما ساعد على غمر الاسواق الدمشقية بالسلع ....

والطرق التي كان يستعملها التجار في البيع والشراء لاتزال بقاياها ماثلة في اسواق الماشية والحبوب في الريف العربي . فقد كان البيع والشراء يتمان بالمقايضة ،وذلك حسب الشرع على أن الفقهاء والمحدثين ،من يرى أن البيع لايكون صحيحا الا اذا كان مصحوبا بقول علني من الطرفين ،ففي اثناء المساومة بين الطرفين يضع احدهما يمينه بيمين الاخر فاذا قال البائع (بعتُ) وقال الشاري (اشتريتُ) ترك كلٌ يدا صاحبه وتم البيع والشرء(٩). وكانت السلع تقيم حسب الاصول ،فالامور منتظمة بدقة وليس هنالك سبيل للشطط في ميدان التجارة . واذا وصلت السلع الى الميناء ونقلت الى الفندق أو الوكالة حيث يجري تثمينها بواسطة سماسرة تعينهم الدولة التي تستولي على ماتحتاج اليه من الخشب والحديد وحتى القطران(١٠).

وكانت الدولة حريصة على تشجيع التجار الأجانب للمتاجرة في العالم الاسلامي خاصة اذا كانت شحناتهم مما يحتاج اليه الجيش والاسطول - أي المواد الاستراتيجية لذلك العصر .

هذا وقد اندثر نوع من التجارة ،هو النوع الصامت كان يجري في غانه ... ويدل هذا النوع من التجارة على الثقة المتبادلة بين الطرفين وخلاصته : يقوم التجار بوضع سلعهم على أحد شواطئ الانهار فيقوم اصحاب التبر من الغابة ويضعون بحوار هذه السلع قيمتها تبرا ،بعد أن يكون الاولون قد انسحبوا ... وتستمر العملية حتى يرضى أهل السلع ... ولله في خلقه شؤون(١١).

*** الاســـــواق :**

وقد قامت الدولة بجعل الاسواق خاصة للتجار اثناء تخطيط المدن وكان لها تنظيم مدهش ،يبعث على الاعجاب ... وكانت كل طائفة من التجار يجلسون في صف واحد ... أما الدوام الوقتي فهو من الصباح الى مابعد الظهر .. ثم يأكلون في احد المطابخ ويستحضرون شيئا الى

دكاكينهم ولايذهبون الى بيوتهم الا في المساء[١٢]. واسواق المدن عامة كانت اسبوعية تقام في ايام معينة من الاسبوع ولاتزال هذه الظاهرة في بعض الاقطار العربية وكان الناس لايستأجرون في المدن المساكن فقط ... بل كانوا يستأجرون الاثاث أيضا ،ويحكى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة الاف قدر من النحاس وكانت تؤجرها كل قدر بدرهم في الشهر[١٣]. وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ازدهار رائع أو فقر مدقع .

* **النقـود :**

ولكن ماهي قصة النقود التي كان يتداولها التجار والشعب في الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف ... ويمكن تقسيم عهودها اصطلاحا الى العهود الزمنية الاتية :

آ- كان العرب في الجاهلية وفي عهد الرسول (ص) يتعاملون بنقود الدول المجاورة - الفرس والروم - التي يجلبها التجار الى داخل شبه الجزيرة العربية .

ب- في عهد الخلفاء الراشدين : يقال بأن خالد بن الوليد ضرب عملة في طبرية في السنة الخامسة عشرة للهجرة .. على رسم الدينار البيزنطي وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية (Xaved) وهذه الاحرف (Bou) ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني ناقل هذا الرسم انها مقتطعة من (ابو سليمان) كنية خالد بن الوليد .

وقطعة : ضربت لعمر بن الخطاب (رض) بسكة كسروية (طابع فارسي) عليها صورة الملك مكتوب بالفارسية (نوش خور) أي كل هنيئا .... ولكن المقريزي يقول : وأول المعاملة في الاسلام ضربها عمر بن الخطاب في سنة ثماني عشر للهجرة على نقش كسروي وزاد فيها (الحمد لله محمد رسول الله) .

وقطعـــة : ضربـها معاوية بن أبي سفيان على مثال دنانير الفرس(١٤)

وبقي الحال على هذا الوضع حتى مجيء الخليفة الاموي عبد الملـــك ابن مروان الذي استطاع أن يدعم اقتصاد الدولة بضرب عملة معتبرة ليحررها اقتصاديا من سيطرية الدولة البيزنطية ،ورغم التهديـــدات من البيزنطيين فقد سار عبد الملك في مشروعه للاسباب التالية :

* اولا : توحيد العالم العربي الاسلامي تحت زعامة واحدة هي زعامـــة الخليفة عبد الملك بعد قضائه على الثورات المناوئة .
* ثانيا : ضرورة الاستقرار الاقتصادي للدولة الناهضة .
* ثالثا : الخلاف العربي ـ البيزنطي عندما ازاح المسلمون عقيدة الدين المسيحي من ورق البردى .
* رابعا : تهديد ملك القسطنطين بسك نقود عليها عبارات شـــتم للدعوة الاسلامية .
* خامسا : فشل المعاهدة بين العرب المسلمين والروم البيزنطيـــين ومدتها عشر سنوات . ومفادها دفع اتاوة اسلامية للبيزنطيـين مقابل عدم عبورهم للحدود العربية عندما كان عبد الملك يقـوم بقمع الثورات في الحجاز والعراق(١٥).

هذا وقد عربت الدواوين مع النقد عام ٧٧هـ وكانت مراكز سك النقود في مصر وسورية ،وكان الوزن الشرعي للدينار هو (٤٫٢٥غ) من الذهب . كلمـة الدينار مشتقة من كلمـة ديناروس اليونانية ،ولذلك عـــم الدينار الذهبي الاقطار الاسلامية مع العملة الاخرى كالدراهم التـي هي مشتقة من الكلمة اليونانية دراخمة أيضا ....
وهذا ابن فضلان يحدثنا عن اصناف النقود التي صادفها في الجـــزء الشرقي من الدولة اثناء سفره الى بلاد بلغار ـ الفولجـا (ورأيـــت الدراهم ببخارا ألوانا شتى منها دراهم يقال لها الفطريفية ـ ضربها

الفطريق بن عطاء - عامل هارون الرشيد وهي نحاس وشبه يأخذونها ووزن مائة منها بدرهم من الفضة (١٦).

وهذا يدل على ثقة الخلفاء بالعمال أو تسلط الولاة على الخلفاء العباسيين في بعض الادوار ... مما جعل حرية اصدار النقود ترجع الى عامل الولاية هذا ; وقد عنى صغار الملوك الناشئين الذين ضربوا العملة لانفسهم تحت رئاسة الخليفة أو مستقلين عنه أن يخرجوا للتعامل أكبر عدد ممكن من أصناف العملة وكان الدينار يساوي اربعة عشرة درهما ،ونظرا لوجود ثلاث خلفاء في العالم الاسلامي بوقت واحد ،العباسي - الفاطمي - الاندلسي .

شاع استعمال الدينار الذهبي في الشطر الغربي من العالم الاسلامي وهو الذي كان يحتكر خزانة الذهب مما جعل سعر الذهب يرتفع في المشرق ارتفاعا هائلا ... وقد حاول الخليفة العباسي تلافى هذه الازمة واصدر أمرا لترك التعامل بالدنانير المصرية والمغربية فعدل الناس عنها الى الدراهم الفضية ،التي خف وزنها واصبح الخمسة والعشرون بل المائة أحيانا بدينار ...

ولاننسى أن العملة كانت ولاتزال هدفا للتزييف ،وقصة سفير الطاغية الاسباني الادفونش الى المعتمد بن عباد أمير الاندلس لقبض الاتاوة وكان يهوديا ،معروفة وعالقة بالاذهان ... فقد اراد الدنانير مشجرة / ذهب صاف . فاودى المعتمد بحياته وكانت هذه الحادثة من أسباب دعوة المعتمد يوسف بن امير المرابطين وحدوث معركة الزلاقة الشهيرة في التاريخ وانهزام الاسبان وتأجيل سقوط القواعد الاندلسية الى حين .

ففي عهد الدولة العباسية أيضا شاع تزييف العملة على مقياس واسع (وقد ثار حرس الديم عام (٣٩٠هـ ١٠٠٠م) وقصدوا دار الوزير ثائرين على فساد العملة الذهبية ،وكان للعملة المزيفة قيمتها .

جهارا .... وان كان زهيدا كما هو الحال اليوم وكانت الدراهم المزيفة تسمى مزبقة = وكان المزيفون لايبردون العملة لانها توزن بل يقومون بعملية ذكية في غاية البراعة وذلك بطرح عملة لها وزن صحيح مستفيدون بما يأخذونه من ذهب العملة الرسمية باستعمال الزئبق أو الانتيموان[١٧].

*** الحوالة والسفتجة والرفعة :**

مما لاجدال فيه أن اجدادنا العرب المسلمين هم اباء رجال البنوك الحديثة ، ان حمل النقود كثيرا مايعرض حاملها لقطاع الطرق أو السرقة وخاصة المبالغ الطائلة كواردات الولايات والصفقات الكبرى ، ولذلك فقد كانت الانواع المذكورة وهي الحوالة والسفتجة ... هي الحل الملائم للامان التجاري ...

الحوالة : جاء في كتاب أبي شجاع مؤرخ القرن الحادي عشر أن الحوالة التي يعطيها التاجر كانت أسهل صرفاً من الحوالة التي تعطيها الدولة . ولما كان التجار الفرس أكثر عددا من غيرهم فقد شاعت كلمة (جك) بصيغتها الفارسية لابصيغتها العربية (صك) ثم انتقلت الى اوربا[١٨]. واذا كان الصك في الاساس سند بدين وكان الرجل اذا اشترى عقارا كتب صكاً بشرائه ويحدثنا ابن حوقل انه رأى باودغشت صكاً بمائتين واربعين ألف دينار كتب بدين على محمد بن ابي سعدون من أهل سلجماسة لرجل من أهلها وقد شهد عليه العدول[١٩]. وهذا يدل على الحرص الشديد . وكان الصك بالعراق شبيه بالشيك الرسمي في هذه الايام .. ومما يدل على سعة استخدام الحوالات المالية في العالم الاسلامي (ان الملاحين الذين نقلو ملكشاه السلجوقي هو وجيشه عبر نهر جيجون تسلموا من وزيره نظام الملك حوالات قبضوا قيمتها من العامل السلجوقي بأنطاكية ليدركوا مدى اتساع املاك هذا السلطان[٢٠].

الرقعـــة : نظر اللازدهار الاقتصادي وتوسع التجارة فقد قامــت البيوتات المالية والمصرفية بايجاد الرقاع • فكل رجل معه مــالا يعطيه للصراف ويأخذ منه رقاعاً ـ دفتر شيكات ـ ثم يشتري مايلزمه ويحول قيمته على الصراف ولايعطون غير رقاع الصراف طالما كانــوا بالمدينة وهذا هو ارقى ماوصل اليه التعامل بين البيوتات الماليــة والافراد في المملكة الاسلامية (٢١).

الســفاتج : كانت المعاملات الضخمة تستدعي وسائل للدفع مأمونــة وخفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص فأوجدت السفتجة للدفع فـــي البلاد الاخرى ... ويقول الدكتور عبد العزيز : ان هذه السفاتج كانت تقبل خارج الحدود الاسلامية ،ويذكر عن أحد العلماء انه سافر الـــى الاندلس ومعه سفتجة وخمسة آلاف درهم نقدا وقد ارسل كافور الاخشيدي صاحب مصر الى نائبه في بغداد سفاتج بثلاثين ألف درهم ليسلمهـــا الى الوزير بن مقلة ـ الخطاط الشهير أيام أن كان مصروفا (٢٢).

* التحويل في العهد العباسي :

قام الصراف والتجار بدور واسع في تسهيل المعاملات المالية عـــن طريق الاقــراض ... وخاصة ماكان يقوم به الجهابذة الذين كانـــوا بالاصل تجارا ثم اصبحوا يملكون بيوتا مالية ،ووسعوا اعمالهـــم فصاروا يشتغلون بالتسليف ،وكثير منهم كانوا كتابا للخراج ويمكن حصر أعمالهم التحويلية بما يلي :

١ـ اقراض الدولـــة :

ويمكن القرض على النحو التالي :

تعطى ضرائب بعض المقاطعات بالضمان الى جهبذ يستفيد مـــن مساعدة الدولة له • فيحصل دينه مع الفائدة فعندما اقترض علي بن عيسى وزير المقتدر بالله من اليهوديين يوسف بن فنحاس وهارون بـــن عمران كان الضمان خراج الاهواز ،واذا حل المال ولم تجب الضرائـــب

استلف علي بن عيسى من التجار على سفاتج ودفعها الى الجهبذين ...

- للمزارعين :

وقد ساهم الصيارفة في عمليات تسليف المزارعين ولكن عن طريق الدولة (لضمان رجوع المال) ولهذا فعندما اراد الحسن بن مقلد صاحب ديوان الخراج معونة الفلاحين ... قبل أوان الحصاد كلف رجلا بالاستدانة من التجار .

- للتجار :

كان تمويل التجار في العهد العباسي الاول ،يتم بأن يودع كل من كانت له نفائس عند الصراف ويأخذ منه وصلا بها وعندما يشتري التاجر يعطي حوالة على الصراف ،وهذا يصرفها ،فقد كان التجار طيلة اقامتهم في البصرة يتعاملون بالحوالات المالية .

للمصادرين :

وهي صورة من الربا قبيحة ذلك لان القرض في هذه الحالة يُقَدَّم وصاحبه تحت الوان شتى من العذاب وفي هذا الموقف الحرج كان الصرافون ينالون عشرة في الواحد أو فائدة قدرها ١٠٠٠٪ وهذا ربا مفضوح .

لرجال الدين :

وقد اوردت المصادر التاريخية أن اليهود امدوا بطريرك الاسكندرية بالمال اللازم لدفع الجزية في أواخر القرن الثاني الهجري ،وكانت جزيته باهظة فاضطر الى رهن أملاك الكنيسة وباع جزءا منها (٢٣).
هذا وكان للجهبذ شأن في الحياة الاجتماعية . ففي القرن الرابع الهجري صك بعض الرؤساء للشاعر جحظة (المتوفي ٣٢٤هـ) صكا فدفعه هذا للجهبذ الذي دافعه حتى ضجر الشاعر فكتب لذلك الرئيس :

اذا كانت صلاتكم رقاعــا تخطط بالانامل والاكــف
ولم تكن الرقاع تجيء نفعا فها خطي خذوه بألف الــف
(٢٤).

ويحدثنا ناصر خسرو الرحالة الفارسي الشهير آنه كان بمدينة اصفهان بسوق الصرافين مائة منهم وكانوا جميعهم يجلسون في سوق واحــدة تسمى سوق الصرافين وكانوا بعد الظهر يجتمعون من الساعة الثالثــة حتى المساء لتصفية الحسابات بينهم .

وكثيرا مادفع الجهابذا حياتهم ثمنا لجشعهم ونتيجة لنمو الصيرفة وازدهار صناعة الاقراض ان قال الكندي (لحفظ المال بنيت الحيطان، وغلقت الابواب ،واتخذت الصناديق وعملت الصيانات والاقفال ونقشــت الرسوم وانخواتيم وتعلمت الناس الكتابة والحساب فلم يتخذوا هـــذه الوقايات دون المال) (٢٥).

أبعد هذا التطور في المجال التجاري نعجب لماذا تحتضن مكتبــات العالم المتمدن ستة ملايين مخطوطة تبحث في الحضارة العربية الاسلامية وهي اعظم كنز وعبرة لقوم يدركون .

* المراجـــــــع *

١ـ بلاد الرافدين ـ ديلابورت ص ١٣٢

٢ـ نفس المصدر ص ٢٥٠ ٠

٣ـ الحياة العامة اليونانية ـ الفرد زيمرن ص ٣٦٣

٤ـ علم الاثار ص ١٣٥ غاردنر

٥ـ نفس المصدر ص ١٣٩

٦ـ مجلة العربي الكويتية العدد ٥٩

٧ـ مجلة العربي الكويتية العدد ١٥٥

٨ـ تاريخ اتراك اسيا الوسطى ص ١٣٠

٩ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لادم ج٢ ص ٣٨٩

١٠ـ تاريخ الاسلام السياسي : د حسن ابراهيم ج٢٠ ص ٤١٢

١١ـ نفس المصدر ص ٤١١

١٢ـ آدم ج ٢٠ ص ٣٨٤

١٣ـ نفس المصدر ص ٣٨٩

١٤ـ تاريخ التمدن الاسلامي زيدان ج ١٠ ص ١٤٣

١٥ـ مجلة الثقافة العربية الليبية ص ٥٧

١٦ـ رحلة بن فضلان ص ٨٢

١٧ـ آدم ج ٢ ص ٣٨٧

١٨ـ بارتولد ص ١٣٠

١٩ـ بارتولد ج٢ ص ٣٨٩

٢٠ـ د حسن ابراهيم حسن ج٤ ص ٤١٩

٢١ـ مجلة العلوم البيروتية ـ العدد ٨ السنة ١٩٦٤

٢٢ـ ج٢ ص ٣٧٨

٢٣ـ مجلة العلوم نفس العدد

٢٤ـ آدم ج ٢ ٠

٢٥ـ الاشارة الى محاسن التجارة ٠ جعفر بن على الدمشقي ٠

* جدول الخطـأ والصـواب *

وقعت في هذا العدد بعض الاخطاء المطبعية بالرغم من الحرص الشديد على عدم وقوعها ، ندونها في الجدول الاتي ، ويمكن ان يكون هناك بعض الاخطاء القليلة الاخرى التي لاتخفى على القارىء العزيز .

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
١١	٤	الهجات	الهجمات
١٢	٤	الكتابين	الكتاميين
٣٥	٤	النصر	التنصر
٤٧	١٥	فانه	فانهم
٦١	١٤	متوفق	متفوق
٦٣	٥	من القدرات	القدرات
٧١	العنوان	سقطت كلمة القديم من آخر العنوان	تضاف كلمة القديم الى آخر العنوان
٧١	١٠	ووجهه سمات	ووجهه بضم سمات
٧٣	١٢	بنشاء	بانشاء
٧٤	٢٥	تساوق	تناسق
٧٧	٢	جدار	الجدار
٨٧	٨	هنيئة	الهيئة
٨٩	٢	وراثه	وراثة

تابع الخطأ والصواب

٨٩	٣	فانتهز	فانتهره
١٠١	الحاشية (١)	يكون	يكون القادة
١٠٤	السطر الاخير	وذلك	ذلك
١٠٧	١٣	(وجود فراغ)	بعد سنة (١٣)هـ الكلام متصل
١٠٨	١٥	وزعم ان مخلا	وزعم ان فحلا
١١١	في المصور	باب الفرادين	باب الفراديس
١١٤	٤	كبرو بيرة	كبر وبيرة
١١٤	١١	لكثرة	الكثرة
١١٦	١٥	سوائف	سواكف
١٣٠	١٨	يرمك	برمك
١٣٣	٧	في الخلف : في الوسط :	في الخلف ، في الوسط
١٣٨	١٢	سقطت العبارة التالية	وبعلوها (العبارة الامام المنتصر) ٠
١٤٢	٤	الايكوه	الايكوم
١٥٠	٤	السرق	الشرق
١٥٥	٢	منذر الحموي	منذر حمودي
١٥٥	١٥	دور	بدور
١٥٦	٩	اتجاه	تجاه
١٦٤	١٥	لظهور	كظهور
١٦٥	٩	حاور	حاول
١٧٣	١١	المحتل	المحتمل

تابع الخطأ والصواب

١٧٦	١٨	المبين	المبيت
١٧٧	١٥	واحـ	واحد
١٧٧	٢٢	بيفن	بفن
١٨٢	١٥	انسحب	انسحبت
١٨٥	١٩	الحرية	الحركة
١٧٠	٢٥	بقوله : ـــ	بقوله : انها ترمي الى
١٧٠	٢٦	اجلاؤنا	واجلاءنا
١٨٩	١١	مقتنسوا	مقتنو
١٩٩	١٥	الوراد	الوراء
٢٠١	٢١	الاجر	الا جرة
٢٠٢	٩	لكامه	لكلمة
٢٠٤	٢٢	باكستان	تركستان
٢٠٤	٢٢	للسامانين	للساميين
٢٠٧	١١	القسطنطين	القسطنطينية
٢١١	٨	تمويل	تحويل